المسلمون في المغرب والأندلس

دراسة في المعالم السياسية والمنجزات الحضارية

من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن التاسع الهجري

(٢٢- ٨٩٧هـ / ٦٤٢- ١٤٩٢م)

دكتور

عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الهاني للطباعة والنشر

٢٠٠٥ - ٢٠٠٦

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

إلى الأخ العزيز الغالي / الأستاذ الدكتور طه عبد المقصود، مع خالص دعواتي وتقديري.
أخوكم
عبد الفتاح
١٢/٧

المسلمون في المغرب والأندلس

دراسة في المعالم السياسية والمنجزات الحضارية

من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن التاسع الهجري

(٢٢- ٨٩٧هـ / ٦٤٢- ١٤٩٢م)

دكتور

عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

دار الهاني للطباعة والنشر

١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م

(تحذير: لا يجوز طباعة، أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب إلا بإذن كتابي من المؤلف)

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

•• تقديم ••

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم وأبارك على سيدنا وإمامنا ومعلمنا محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

ثم أما بعد،

فهذه دراسة موجزة مركزة عن المسلمين في المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وهي دراسة أكاديمية سريعة، وضعت لأهداف تعليمية عاجلة، فكان الاهتمام فيها موجهًا للخطوط السياسية العامة، والمظاهر الحضارية الرئيسة. وقد حاولت جاهداً أن أغطي الفترة الزمنية الممتدة - رغم طولها وتوزعها على إقليمين كبيرين- دون إخلال بالمنهج الذي اختططته لنفسي، والذي ينبني - في الأساس- على معالجة أهم الأحداث والوقائع، ومظاهر الحضارة في كلا الإقليمين معًا؛ كي يسهل الربط والمقارنة، دون إغفال لأحدهما، محاولاً توثيق الاقتباسات والنصوص التاريخية ما أمكن، معرّفًا بين يدي الكتاب- بإيجاز واختصار- بما تيسر لي من مصادر ومراجع التاريخ المغربي والأندلسي؛ كي يستزيد القارئ بالعودة إلى التراث ومطالعته وتصفحه، وسيجد بيانات كاملة للمصادر والمراجع في نهاية الدراسة، وكذلك أكثرت من إيراد الخرائط التوضيحية المتصلة بالمراحل التاريخية المختلفة التي مر بها الإقليمان، والوقائع المهمة التي لها نتائجها وتأثيراتها العميقة في مسيرتهما التاريخية، وكذلك أوردت بعض الصور الحضارية التي تسهل على القارئ معايشة الأحداث، والمقارنة بين ما كان في تراث الأجداد وما عليه الوضع الآن في إسبانيا والبرتغال على وجه الخصوص؛ نظراً لافتقاد المسلمين لهما، وطردهم منهما منذ أكثر من خمسة قرون من الزمان وإلى ما شاء الله، بعد أن حكموهما حوالي ثمانية قرون مملوءة بالعمل والجهاد،والإيجابيات والسلبيات .

وقد قسمت هذا الكتاب وفق المنهج الذي أشرتُ إليه كما يلي:

الباب الأول: (الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس)

وهو يتكون من فصلين اثنين:

الأول: فتح بلاد المغرب . **الثاني:** فتح بلاد الأندلس .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الباب الثاني: (عصر الولاة في المغرب والأندلس)

وتناوله - أيضًا - في فصلين اثنين:

الأول: المغرب في ظل الحكم الأموي والعباسي .

الثاني: عصر الولاة بالأندلس .

الباب الثالث: (عصور الاستقلال في المغرب والأندلس)

وقسمته إلى فصلين:

الفصل الأول: الدول المستقلة في بلاد المغرب .

(الرستمية - الأدارسة - الأغالبة - الفاطميون) .

الثاني: وحدة الأندلس واستقلالها في ظل الأمويين .

الباب الرابع والأخير: (عصور السيادة والهيمنة المغربية على الأندلس حتى سقوطها في يد الإسبان):

وهو يتكون من أربعة فصول:

الأول: عصر ملوك الطوائف بالأندلس .

الثاني: المرابطون المغاربة في المغرب والأندلس .

الثالث: الموحدون المغاربة في المغرب والأندلس .

الرابع: في أعقاب الموحدين حتى سقوط غرناطة .

وأخيرًا، فكلي أمل ورجاء أن يتقبل الله هذا العمل المتواضع خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكتب له الجزاء العظيم في السماء، وأن يوضع له القبول في الأرض، وأن يحدث أثره الطيب الكريم في نفوس القراء الأعزاء، فيتخذوا من سير الآباء والأجداد الأولين عبرة وعظة، ومن جهادهم واجتهادهم نبراسًا يضيء لهم حاضرهم، ويصنع لهم غدًا أفضل وأروع في مستقبلهم .

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم .

المؤلف

***

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

تعريف موجز
ببعض مصادر ومراجع تاريخ المغرب والأندلس

تقديم:

يظن بعض الشادين السطحيين أن التاريخ عبارة عن قصص وحكايات عن أحداث الماضي، لا سبيل إلى التيقن من صحة وقوعها، فلربما كانت من أساطير الأولين. ويرى آخرون أن التاريخ لا يدخل في عداد العلوم، ظانين ظن الواهمين أنه لا توجد للكتابات التاريخية مناهج تحكمها، وقواعد وأصول وضوابط تستند إليها. والحق أن هذه الدعاوَى باطلة، ولا تمت إلى الصواب بأدنى صلة. والعجيب أن هؤلاء يرددون هذه الأباطيل والزيوف في عصرنا الحديث مع أن مؤرخنا المسلم العظيم عبد الرحمن بن خَلْدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) أدرك منذ زمن بعيد مضى كُنْه علم التاريخ، وأهميته وعراقته بنظرة تأملية فاحصة دقيقة عميقة، حيث قال: «وظاهر علم التاريخ لا يزيد عن إخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأُوَل. وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو- لذلك- أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعَدَّ في علومها وخليق»(١).

كلمة عن المصادر والمراجع:

تفتقر مكتبتنا الإسلامية- على حد علمي- إلى موسوعة شاملة متكاملة، تتناول دراسة مصادر التاريخ الإسلامي في المغرب والأندلس دراسة علمية متأنية مفصلة، تحصي مفقوداته، وتُعَدِّد مخطوطاته ومطبوعاته، وتدوّن قوائمه البيليوجرافية، وتستخرج لنا مناهج المؤرخين واتجاهاتهم، وتضع مروياتهم في ميزان النقد التاريخي، بحيث تقدم للباحثين المادة الخام الصالحة لدراسة

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبعة نهضة مصر بالفجالة بتحقيق أ.د. علي عبدالواحد وافي) جـ١ ص ٢٨٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

التاريخ. وكما يقول أحد الباحثين المخضرمين: إن هذا العمل يحتاج إلى جهود لجنة من المؤرخين المختصين بهذا الميدان، تعكف على دراسة هذه الأصول التاريخية، سواء كانت مصادر عربية، أم حوليات إسبانية[1]. ونضيف إلى ما قاله المراجع الأجنبية المفيدة عمومًا، مما يحقق لهذه الدراسة التنوع والشمول، والإحاطة برأي الآخرين ما أمكن.

من المعلوم أن **المصادر** هي المؤلفات القديمة التي اعتمد مؤلفوها على أصول المادة العلمية[2]، ومن دلائل وثاقتها أن يكون المؤلف نفسه شاهداً ومعاصراً للحدث، أو مشاركًا في صنعه، أو ناقلاً عمن عاصره من الثقات. ومصادرنا التاريخية متنوعة المجالات (في التاريخ العام، والتاريخ المحلي، والتراجم والطبقات، والحوليات، إلى جانب كتب الأدب والجغرافية، والرحلات، وغيرها).

أما **المراجع**، فيراد بها المؤلفات الحديثة التي يكتبها باحثون مختصون عن الأحداث الماضية، مثل: الرسائل العلمية، والكتب الجامعية، والدراسات الأكاديمية، والمقالات والأبحاث. وترجع أهميتها إلى قدرة أصحابها على إعادة قراءة كتب التراث وأمهات كتبه، ونقد رواياتها وغربلتها، وشرح وتوضيح ما غمض منها، وإعادة عرض الحقائق بعد استخلاصها واستنتاجها بطريقة عصرية متميزة بعد التمحيص والتحقيق والتحليل، والمقارنة بين الروايات المختلفة.

---

(١) أ.د. أحمد مختار العبادي: من التراث العربي الإسباني- نماذج لأهم المصادر العربية والحوليات الإسبانية التي تأثرت بها. بحث منشور في مجلة (عالم الفكر الكويتية)، المجلد الثامن، العدد الأول(أبريل- يونيه ١٩٧٧م) ص ٣٩.

(٢) يرى البعض أن الأصول تشمل الوثائق، والمذكرات الشخصية، والخطابات، والنقوش، والآثار. (معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس) ص١١.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وهاكم عدداً من مصادر التاريخ المغربي والأندلسي على النحو الآتي:

١- **فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ت٢٥٧هـ):** وهو كتاب له أهمية خاصة رغم صغر حجمه، وتناوله تاريخ فتح مصر بعد مقدمة عن تاريخها القديم قبل الإسلام، وتركيزه على تناول خِطَطها، ونظامها الإداري، والقضائي، ونشاط الصحابة الدعوي بها، إلا أنه أورد روايات عديدة عن فتوح إفريقية والمغرب حتى حملة موسى بن نصير، وتناول أحداث فتح الأندلس، وعصر الولاة في كلا الإقليمين، وعليه يعتمد الباحثون في دراسة هذه الموضوعات. ويجب أن نضع في اعتبارنا أن كثيراً من الأحداث الواردة عن المغرب والأندلس منقولة عن طريق الرواية الشفهية التي تعد من أقدم ما وصل إلينا في هذا الصدد، مع ملاحظة وجود روايات متضاربة غير دقيقة، وتواريخ غير صحيحة تتصل بفتوحات المغرب، تحتاج إلى إعادة نظر.

٢- **تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية (ت٣٦٧هـ):** مؤلف هذا الكتاب هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز، ويتناول أحداث الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى وفاة الأمير عبد الله بن محمد الأموي سنة ٣٠٠هـ. وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف من سلالة امرأة قوطية (إسبانية)، هي الأميرة سارة حفيدة الملك الإسباني غيطشه Witiza القوطي الذي اغتصب لذريق عرشه، وقام أبناؤه بمساعدة المسلمين على فتح الأندلس. وقد ذهبت سارة هذه إلى دمشق للمطالبة بميراث أبيها في شكوى رفعتها إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، فزوّجها مولاه عيسى بن مزاحم الذي عاد معها إلى الأندلس. فالمؤلف- إذًا - من طبقة المولَّدين الناتجة عن هذا الزواج المختلط. ومن الواضح أن الكتاب على النحو الذي وصل إلينا ليس بقلم مؤلفه، بل هو مجموع مجالس أملاها كتبها عنه أحد تلامذته، وقام بجمعها بعد وفاة المؤلف، حيث تتردد في الكتاب عبارة: قال شيخنا أبو بكر، أو قال ابن

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

القوطية، كما أن ابن الفرضي المؤرخ القرطبي (ت٤٠٣هـ) كان من تلامذة ابن القوطية المؤرخ واللغوي الأندلسي المشهور، وعندما ترجم له لم يرد ذكر لـ (تاريخ افتتاح الأندلس) ضمن مؤلفاته[١] .

٣- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها لكاتب مجهول: يتناول هذا الكتاب فتوحات المغرب والأندلس على عهد موسى بن نصير، ويذكر دور يليان حاكم سبتة وعلاقة ابنته بملك القوط لذريق (ردريق Rodrigo)، ويواصل التأريخ لأحداث الأندلس الأولى حتى وفاة الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة ٣٥٠هـ. وهو مصدر أساسي للفترة التي أرّخ لها معتمداً في ذلك على المصادر السماعية والكتابية، متوخيًا الدقة بشكل جعل لرواياته قيمة تاريخية كبيرة. ويختلف الباحثون حول تاريخ تأليف هذا الكتاب، فالبعض يجعله في القرن الرابع الهجري، والبعض الآخر يجعله من مؤلفات القرن الخامس الهجري، ولكل حجته ودليله. فالكتاب ينتهي عند أحداث منتصف القرن الرابع الهجري ومؤلفه مهتم بالعرب ومكانتهم في الأندلس، ويبدو أنه عربي الأصل، فهو ينعي تدهور هذه المكانة، وقد ظهر ذلك جليًا في عهد الناصر، فتلك حجة الرأي الأول. أما أصحاب الرأي الثاني، فيرون أن المؤلف ذكر أن مصير المسلمين في الأندلس إلى البوار (الهلاك)، وهو ما ينطبق على تفرقهم وضعفهم بما يؤذن بضياع ملكهم، وهو ما يصدق على فترة ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري. وثمة رأي آخر يرى من عنوان الكتاب أنه عبارة عن مجموعة أخبار عسكرية ودينية كتبها بعض رجال السياسة والدين، ذوي الميول والمشارب المختلفة ثقافة وفكراً[٢] .

---

(١) راجع ترجمته في: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي (طبعة الخانجي) جـ٢ ص٧٨-٧٩ (رقم ١٣١٨)، وبحث د. أحمد مختار العبادي (من التراث العربي الإسباني) في مجلة عالم الفكر الكويتية، المجلد الثامن، العدد الأول ١٩٧٧م، ص ٤٢ .

(٢) المقال السابق ص ٤٣-٤٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٤- مجموعة مؤلفات أمير مؤرخي الأندلس ابن حيان القرطبي (٣٧٧-٤٦٩هـ): ولصاحب هذا اللقب المتقدم فضل كبير في التأريخ للأندلس التي ولد ومات على أرضها، وحصر نفسه في كتابة تاريخها وتقويم أحداثها. ومن شديد الأسف أن مؤلفاته عدت عليها مآسي الأندلس، فطوت بعضها يد النسيان، والبعض الآخر وجدت أجزاء منه في المخطوطات، وقيض الله من عكف على مقابلتها ونسخها، والتعليق عليها ونشرها.

هذا، وقد كتب ابن حيان تاريخ بلده الأندلس منذ شرع المسلمون في إرسال سرايا الاستطلاع والاستكشاف إلى شبه الجزيرة الإيبيرية حتى سنة ٤٦٣هـ في عصر الطوائف، وهذه المؤلفات هي:

أ- المقتبس من أنباء أهل الأندلس: وكان في عِداد المفقودات، وعنه نقلت المصادر التاريخية المتأخرة، واتضح من خلال المقتبسات أنه تناول تاريخ الأندلس من سنة ٩١هـ إلى سنة ٣٦٦هـ نهاية خلافة الحكم المستنصر.

وقد عثر على نُتف من هذا الكتاب، قام على تحقيقها ونشرها بعض الباحثين؛ فهناك جزء يؤرخ من سنة ٢٣٢هـ في عصر عبد الرحمن الأوسط إلى سنة ٢٦٧هـ في عصر ابنه محمد بن عبد الرحمن. حققه الأستاذ الدكتور محمود علي مكي تحقيقًا دقيقًا، وقدم له بدراسة قيمة ترجم فيها للمؤلف، وتناول إنتاجه العلمي، وبيّن خصائص كتابته التاريخية، ومنهجه في معالجة أحداث التاريخ الأندلسي، وتفرده وتميزه في هذا المجال، وشجاعته وحِدّة نقده في تناول الواقع المرير الذي عاصره في فترة الضعف المعروفة بعصر (الطوائف)، وصبّه جام غضبه على الحكام المتخاذلين الذي تفرقت وانقسمت الأندلس على أيديهم؛ نتيجة تحاربهم فيما بينهم، وأطماعهم الشخصية، وتحالفهم مع الأعداء من نصارى الشمال ضد إخوانهم المسلمين المجاورين، وانحطاطهم إلى دركة سحيقة وهُوّة عميقة من الجبن والحرص والاستسلام

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

لابتزازات ملوك النصارى لدرجة أنهم قبلوا ما يفرضون عليهم من دفع الجزية والإتاوات الباهظة لهم، وتسببوا في ضياع الأندلس، وفقد بلدانه بلداً وراء آخر لصالح الأعداء الحاقدين.

قام الدكتور إسماعيل العربي بتحقيق ونشر جزء آخر من (المقتبس) يتناول عصر الأمير عبد الله بن محمد (من سنة ٢٧٥هـ - ٣٠٠هـ)، وقام المستشرق الإسباني بدرو شالميتا بنشر جزء آخر من الكتاب نفسه، يتناول جانبًا من عصر الناصر (سنة ٣٠٠-٣٣٠هـ). وأخيراً نشر الدكتور عبد الرحمن الحجي قطعة تتناول جانبًا من خلافة الحكم المستنصر تمتد من سنة ٣٦٠-٣٦٤هـ[(١)] .

ب- **أخبار الدولة العامرية**: وفيه يؤرخ لفترة الحجابة في حكم الأندلس من سنة ٣٦٦-٣٩٩هـ (المنصور بن أبي عامر، ومن بعده ابناه: عبدالملك، وعبدالرحمن).

جـ- **المتين**: وفيه يؤرخ ابن حيان لفترة الطوائف من سنة ٣٩٩-٤٦٣هـ. والكتابان الأخيران مفقودان، وإن كان ابن بَسَّام في كتاب (الذخيرة) احتفظ لنا بمعظم بقايا الكتاب الأخير، كما أن ابن عذارى اقتبس قطعًا لا بأس بها من كتاب الدولة العامرية في كتابه (البيان المغرب). هذا، وقد قام الأستاذ الدكتور عبد الله محمد جمال الدين بتجميع نصوص المتين من خلال كتاب (الذخيرة)، وحققها وقارنها، وهي تمثل جزءاً من رسالته للدكتوراه التي حصل عليها من إسبانيا، ونشر ذلك العمل تحت عنوان: (من نصوص كتاب المتين لابن حيان)، وصدر عن المجلس الأعلى للثقافة في مصر سنة ١٩٩٧م.

٥- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بَسَّام الشَّنْتَرِيني (نسبة إلى شنترين

---

(١) نمى إلى علمي تحقيق الدكتور محمود مكي قطعة جديدة من (المقتبس) عن عصر (الحكم بن هشام ١٨٠-٢٠٦هـ) نشرت بالسعودية مؤخراً، ولم أقف عليها بعدُ.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

غرب الأندلس في البرتغال الحالية المتوفي سنة ٥٤٢هـ): وهو موسوعة أدبية تاريخية تضمنت تراث القرنين الرابع والخامس الهجريين مركزًا على نتاج عصري الخلافة والطوائف. وقد قسم الكتاب إلى أربعة أقسام حسب الأقاليم الجغرافية الأندلسية، متناولاً تاريخ الإقليم وحكامه وأمراءه وشعراءه وغير ذلك مما يتعلق به (قرطبة وما جاورها من بلاد وسط الأندلس، وإشبيلية وغربي الأندلس، وبلنسية وشرقي الأندلس، والغرباء الوافدين على الأندلس). طبع الكتاب طبعة كاملة في دار الثقافة ببيروت في ثمانية مجلدات، وصدر بتحقيق الدكتور إحسان عباس سنة ١٩٧٩م.

٦- البيان المُغْرب في أخبار الأندلس والمَغْرِب لابن عذارى المراكشي (توفى بعد سنة ٧١٢هـ): وهو من المصادر الأساسية والمهمة في تاريخ المغرب والأندلس، وأحيانًا يعني بإيراد أخبار متفرقة من التاريخ العام، ويتميز بتصريح صاحبه بالمصادر التاريخية السابقة التي نقل عنها قطعًا كبيرة ضائعة، وقد يختصر أجزاء من مصادر قيمة. ورغم أن الكتاب أُلّف في زمن متأخر إلا أنه يشمل فترة تاريخية طويلة، وبه مادة علمية لا يستغني عنها الدارسون. وقد صدر منه خمسة أجزاء: الأول- يتناول تاريخ المغرب حتى آخر أيام بني زيزي الصِنْهاجيين. والثاني- يتحدث عن تاريخ الأندلس حتى وفاة الحاجب المنصور بن أبي عامر. والثالث- يختص بالتأريخ لأمراء الطوائف. والرابع- يحوي جزءًا من تاريخ المرابطين وبه سقط من فترة حكم يوسف بن تاشفين. والخامس والأخير- به ما وجد عن الموحدين. حقق الأجزاء الثلاثة الأولى منه المستشرقان: كولان، وليفي بروفنسال عن الدار العربية للكتاب، ثم نشرتها دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٨٣م، وحقق الجزء الرابع منه الدكتور إحسان عباس. أما الجزء الخامس والأخير، فحققه محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت، وغيرهما. وقد صدر عن دار الغرب الإسلامي ببيروت، ودار الثقافة بالدار البيضاء بالمغرب سنة ١٩٨٥م.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٧- نفح الطّيب مَن غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب لأحمد بن محمد التِّلمْسَاني المَقَّري[(١)] (ت١٠٤١هـ): صاحبه مؤرخ جزائري متأخر طاف ببلاد المغرب، وعمل خطيباً بجامع القرويين بفاس، وهو منصب علمي وسياسي كبير آنذاك، ثم اتجه إلى المشرق وشارك في الحياة العلمية هناك. والكتاب- في الأساس- عن الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب الذي أعجب به المؤلف، ثم رأى وضع مقدمة مطولة بلغت أكثر من نصف الكتاب عن الأندلس، وصف فيها جغرافية هذه البلاد، وأحداث فتحها، وما جادت به قرائح الأندلسيين من شعر ونثر، ومحاسن قرطبة، وتراجم من وفد على الأندلس من الشرق، ومن انتقل من الأندلس إلى الشرق باستفاضة وإمتاع، مستطرداً في الحديث عن تاريخ الأندلس السياسي والأدبي، ثم يتناول ضياع الأندلس وأحداثه الأسيفة، التي انتهت بخروجه عن عالم الإسلام. والكتاب ذو قيمة علمية وتاريخية كبيرة، وإن عابه التطويل والاستطراد، وكثرة النقول والاقتباسات به مع عدم التنظيم في سرد معلوماته، متنقلاً من موضوع إلى آخر دون مناسبة. ولعل ذلك راجع إلى أنه ألّفه بعيداً عن وطنه ومكتبته التي خلّفها بالمغرب. وقد نشر في دار الفكر ببيروت في ثمانية مجلدات آخرها للفهارس بتحقيق الدكتور إحسان عباس .

٨- مجموعة مهمة متتابعة يكمل بعضها بعضًا من كتب تراجم الأندلسيين:

أ- تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (ت٤٠٣هـ): وهو من المؤرخين والمحدثين الثقات الأثبات، ويحوي كتابه هذا تراجم العلماء الذين ينتسبون إلى الأندلس بما فيهم الوافدون إليها منذ الفتح الإسلامي للأندلس

---

(١) نسبة إلى مدينة مَقَّرَة من أعمال قسنطينة بإقليمي الزاب بالجزائر. (معجم البلدان لياقوت، ط. دار الكتب العلمية) جـ٥ ص٢٨٠ (جعلها قرية من أعمال إفريقية)، وبحث د. العبادي؛ (من التراث العربي الإسباني) ص ٧٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

حتى نهاية القرن الرابع الهجري شاملاً المحدثين والفقهاء واللغويين وغيرهم، مما يعد ثبتًا للحركة العلمية في الأندلس على مدار القرون الأربعة الأولى .

ب- كتاب (الصلة) لابن بَشْكُوال (ت٥٧٨هـ) : وهو من أعظم علماء الأندلس، وكان شيخ الأندلس في عصره حفظًا وصدقًا ورواية، وله اهتمام بالتاريخ إلى جانب الفقه. ويعد كتابه هذا تكملة لكتاب ابن الفرضي، ولا يقل عنه أصالة وصدقًا، وتمتاز تراجمه بأنها أطول وأكثر تفصيلاً.

جـ- صلة الصلة لابن الزبير الغرناطي (ت٧٠٨هـ) : وهو يواصل تراجم بشكوال، ويكمل فوائده. وتوجد منه طبعة قديمة نشرها ليفي بروفنسال في الرباط بالمغرب سنة ١٩٣٧م .

د- التكملة لكتاب الصلة لابن الأبّار القُضاعي البَلنسيّ (ت٦٥٨هـ) : وهو تكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال، وفيه يترجم للملوك ولعلماء الأندلس مرتبين حسب حروف الهجاء، وفي آخر كل حرف يذكر تراجم الغرباء الذين وفدوا على الأندلس من المشرق والمغرب. ومؤلفه مؤرخ من أعظم علماء الأندلس في عصره، وأكثرهم حفظًا وتدقيقًا، وكتابه المذكور من أوسع كتب التراجم الأندلسية التي بين أيدينا. وقد طبعت منه بعض أجزاء في القاهرة (طبع جزءان بعناية عزت العطار الحسيني)، وفي مدريد جزء بتحقيق ألاركون المستشرق الإسباني، وثمة جزء مطبوع في الجزائر يضم خاتمة الكتاب، وتراجم حرف الألف، والباء بتحقيق الجزائري (محمد بن أبي شنب).

هـ- الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة لمحمد بن عبدالملك المراكشي (ت٧٠٣هـ) : وهو أوسع كتب التراجم الأندلسية المغربية، وصدرت منه حوالي ستة مجلدات بتحقيق د. إحسان عباس، ود. محمد بن شريفة. وهذا الكتاب مرتب على حروف المعجم، ويقع - في الأصل- في تسعة مجلدات؛ سبعة لأهل الأندلس، واثنين للغرباء الداخلين إلى الأندلس،

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ثم ينتهي بتراجم النساء الأندلسيات والمغربيات اللائي زرن بلاد الأندلس[١] .

ويمتاز الكتاب بأن معظم تراجمه تتصل برجال عصره (القرن السابع الهجري)، وهو من العصور الغامضة في الأندلس. وعلاوة على ذلك فهو يعد تذييلاً على كتابي ابن الفرضي، وابن بشكوال[٢] . وبالكتاب معلومات عن المجتمع الأندلسي جيدة، وبه كثير من النقول المطولة والتراجم المفصلة، ويعطي صورة متكاملة للجو العلمي بالأندلس في القرن السابع الهجري المعاصر لقيام إمارة غرناطة، والذي ظهرت فيه بقوة دلائل نهاية الأندلس، بينما تراجم العلماء تشير إلى أنهم ماضون في دراساتهم وأبحاثهم منفصلين تقريبًا عن الحياة السياسية في الأندلس، والمأساة الدائرة حولهم[٣] .

٩- مجموعة من المصادر المغربية المتميزة[٤]:

أ- طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب التميمي (ت٣٣٣هـ):

وهو- على وجازته- به معلومات طيبة وتراجم جيدة. يبدأ بالحديث عن فضائل إفريقية، وتحتاج بعض الأحاديث الواردة في هذا الموضوع إلى تمحيص وتدقيق. ثم يترجم لمن دخل إفريقية من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم .

ب- علماء إفريقية للخُشَنيّ (ت٣٦١هـ): وهو كتاب متوسط في التراجم، يغلب عليه التراجم المختصرة، وإن طال بعضها نوعًا ما عند الحديث عن بعض أعلام المذهب المالكي بالقيروان، مثل: إبراهيم بن محمد الضبي، ومأساته على أيدي الفاطميين الشيعة ومؤيديهم من القضاة. وترجع

---

(١) بحث د. العبادي: (من التراث العربي الإسباني) ص ٦٢ .

(٢) البحث السابق: الصفحة نفسها .

(٣) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢١٨ .

(٤) هناك مصادر للتراجم تجمع بين المشارقة والمغاربة والأندلسيين كما هو الحال في (ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك) للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)، فهو يترجم للإمام مالك، وتلامذته من علماء الحجاز، والشام، والعراق، ومصر، والمغرب، والأندلس، وغيرها.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

أهمية هذا الكتاب إلى أنه يعرفنا بأساطين الفقهاء من أهل السنة، الذين واجهوا الشيعة الفاطميين ببلاد المغرب، وصمدوا أمامهم وناظروهم وجادلوهم، مثل: سعيد بن الحداد الذي له ترجمة مطولة بالكتاب، بها نص بعض المناظرات بينه وبين الفاطميين، وكذلك أسماء وتراجم من تشرّق (تشيع) من قضاة الأحناف وغيرهم ممن والوا الفاطميين وأيدوهم بالمغرب.

جـ- كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان (ت٣٦٣هـ): وهو قاضي قضاة الفاطميين، وكبير الدعاة، وصاحب المصنفات المعنية بفقه الشيعة الإسماعيلية، مثل: تأويل الدعائم، وتفاصيل ومراتب ومراحل الدعوة الواردة في كتابه: (رسالة افتتاح الدعوة). وكتابه المذكور (المجالس والمسايرات) أشبه بمذكرات يومية دوّنها عن كثب من واقع صلاته الوطيدة وموقعه القريب ومجالساته ورحلاته العديدة مع خلفاء الفاطميين بالمغرب، ثم مصاحبة المعز عند رحيله إلى مصر. ورغم وجود معلومات كثيرة ينفرد بها هذا الرجل، إلا أن الحذر واجب عند قراءة هذا المصدر، فهو لا يخلو من تحيز واضح سافر للفاطميين.

د- رياض النفوس للمالكي (ت بعد ٤٦٠هـ): وهو يترجم لعلماء القيروان وإفريقية، وزهادها ونُسّاكها، ويورد أخبارهم وفضائلهم مفصلة. ولاشك أنه يعطي صورة متكاملة للحياة الدينية في بلاد المغرب في القرون الأولى حتى عصره، لكن عدداً غير قليل من الروايات الواردة عن هؤلاء الزهاد تحتاج إلى نقد وإعادة نظر؛ نظراً لدخولها في باب الأساطير والخرافات والمبالغات غير المعقولة. حقق د. حسين مؤنس منه الجزء الأول سنة ١٩٥١م، ثم حقق الكتاب كاملاً في ثلاثة مجلدات بفهارسه المفصلة، ونشر في دار الغرب الإسلامي ببيروت بتحقيق بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي ١٩٨١م.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

هـ- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (توفي بعد سنة ٦٢١هـ): ويقع في جزء واحد. والمقصود بالمغرب في عنوان الكتاب (المغرب والأندلس معًا). وضع المؤلف مقدمة للكتاب موجزة في تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي، ثم تناول معظم الكتاب تاريخ دولة الموحدين التي نشأ في كنفها المؤلف، فانحاز لحكامها. وعلى كل حال، فالكتاب له قيمة تاريخية وأدبية مهمة، لاسيما فيما يتصل بالموحدين الذين عاصرهم مع مراعاة ميله العاطفي والوجداني لسلاطين الموحدين.

و- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان للدباغ (ت٦٩٦هـ): وهو كتاب ضخم من أربعة مجلدات؛ الأول منها بتحقيق إبراهيم شبوح، والثاني بتحقيق د. الأحمدي أبي النور، ومحمد ماضور. وهو كتاب أشمل وأوسع من سابقه في تراجم علماء القيروان وعُبّادها. وفي متن الكتاب تعليقات ومناقشات من ابن ناجٍ (ت٨٣٩هـ) على ما ورد من روايات وأخبار في تراجم الدباغ، مما يثري الكتاب، ويطبعه بطابع علمي متميز، وبمنهج متفرد غير مسبوق فيما يغلب على ظني.

من مراجع المغرب والأندلس:

١- **دولة الإسلام في الأندلس:** موسوعة علمية مفصلة للأستاذ المحامي محمد عبد الله عنان، الذي دبج مجلداتها الستة من الفتح الإسلامي للأندلس حتى نهاية الوجود الإسلامي هناك على مدى ربع قرن من الزمان، بذل فيها جهوداً مضنية وأموالاً كبيرة، وزيارات ميدانية لدور العلم والمحفوظات والوثائق والمخطوطات في كل من المغرب وإسبانيا، يجمع فيها المادة العلمية الهائلة لهذه الموسوعة العلمية المتميزة التي تفوق كثيراً مما كتبه المشتغلون بالتاريخ الأندلسي.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال للمؤلف السابق: وهو كتاب من جزء واحد، وهو حصيلة جولات عديدة قام بها المؤلف في المدن والمحافظات والأقاليم الإسبانية الحديثة، يقف على مواقع الأحداث، ويصف لنا ما بقي للمسلمين هنالك من آثار، وما طرأ عليها من تغييرات وتعديلات، متتبعًا تاريخ مدن الأندلس منذ النشأة حتى العصر الحديث، مرفقًا بالكتاب صورًا فوتوغرافية حية لكل ما تقدم.

٣- تاريخ المغرب وحضارته للدكتور حسين مؤنس: ويقع في مجلدين كبيرين في ثلاثة أجزاء، وفيه يعالج المؤلف تاريخ هذه البلاد من قبل الإسلام، ومتتبعًا أحداثها ووقائعها بعد الفتح الإسلامي حتى الاحتلال الفرنسي في معالجة علمية قيمة، ونظرات ثاقبة، ومنهج شامل متكامل يجمع بين السرد التاريخي والرصد الحضاري. ولا يعيب الكتاب إلا خلوه تقريبًا من توثيق نصوصه في الحواشي، وإهماله الخرائط والأشكال التوضيحية للأحداث الكثيرة التي مرت بها بلاد المغرب رغم اهتمامه بذكر قوائم الحكام في الدول المختلفة مع ذكر مواقيت قيام وسقوط هذه الدول وحكامها.

٤- المسلمون في الأندلس للمستشرق الهولندي رينهارت دوزي: ويقع في ثلاثة مجلدات، وهو يعرض لتاريخ المسلمين وحضارتهم في ذلك الإقليم من وجهة نظر غربية أوربية بحتة مكتوبة باللغة الفرنسية، ومترجمة إلى العربية بقلم الدكتور حسن حبشي. وفي الكتاب إنصاف للمسلمين مختلط ببعض مواقف الافتئات والتجني عليهم مع شيء من التعصب لنصارى الإسبان.

٥- تاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول عبد الحميد: ويقع الكتاب في خمسة أجزاء ضخمة، تتناول بالتفصيل تاريخه وحضارته ودوله وحكامه، وتحولاته السياسية والحضارية منذ قبل الإسلام حتى مشارف العصر الحديث. وهو

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

كتاب لهم في تحليلاته ونظرات مؤلفه، وخرائطه المتنوعة، ومراجعه ومصادره المتعددة المتنوعة عربية وأجنبية.

٦- **فتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس:** وهو - في الأصل- أطروحته لنيل درجة الماجستير، وهو عمدة في تاريخ المغرب من قبل الفتح الإسلامي حتى نهاية حملة حسان بن النعمان الغساني، وهو معتمد الباحثين قديمًا وحديثًا؛ نظرًا لدقة تناوله للأحداث، وعمق مناقشاته وتحليلاته، ونظراته النقدية البارعة.

٧- **المسلمون المنصَّرون في الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين:** وهو مرجع كبير مهم، رصد فترة غامضة مجهولة من فترات الوجود الإسلامي بالأندلس بعد سقوطها على أيدي نصارى الشمال. ولا توجد في مصادرنا عناية بهذه الفترة القاسية من حياة المسلمين الذين أكرهوا على ترك دينهم، وموررست ضدهم أبشع الجرائم الوحشية؛ من أجل سلخهم عن عقيدتهم وتراث أمتهم. وقد ساعدت إجادة المؤلف للغة الإسبانية، ورجوعه إلى المراجع والحوليات الإسبانية، التي تتوفر بها مادة غزيرة عن هذه الفترة المهمة في إتمام هذا العمل العلمي الجاد، الذي سد فراغًا حقيقيًا في المكتبة العربية الإسلامية.

***

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الباب الأول
الفتح الإسلامي
لبلاد المغرب والأندلس

يحتوي هذا الباب على فصلين:

الأول: فتح بلاد المغرب .

الثاني: فتح بلاد الأندلس.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفصل الأول

فتح بلاد المغرب

(٢٢-٩٢هـ / ٦٤٢-٧١١م)

توطئة:

قبل الولوج في صلب هذا الفصل، الذي يتناول فتح المسلمين الأوائل لأقاليم المغرب قاطبة، رأيت من الملائم وضع مقدمة مختصرة عن جغرافية بلاد المغرب، وسكانها، وظروفها قبيل الفتح الإسلامي؛ كي تكون ممهدة ومفسرة لوقائع الفتح، التي امتدت حينًا من الدهر، وتعطلت أحيانًا أخرى على مدار سبعين عامًا .

حول مصطلحي (إفريقية، والمغرب):

أطلق الفينيقيون (٨١٤- ١٤٦ق.م)[١] لفظ (أفرى) على أهل البلاد الذين سكنوا حول مدينة (طاقة) التي تعرف في المغرب بـ(المدينة القديمة)، وعلى أولئك الذين أقاموا حول عاصمتهم قَرْطَاجنّة المعروفة بـ (المدينة الحديثة). ثم قام اليونان بإطلاق اللفظ نفسه (أفري) على سكان المغرب الأصليين من حدود مصر إلى المحيط. ومن هنا سميت هذه المنطقة (أفريكا)، أي: بلاد الأفري، وهو اللفظ نفسه الذي أطلقه هيرودوت المؤرخ اليوناني على كل ما يلي مصر غربًا حتى المحيط الأطلسي[٢].

لما تغلب الرومان على هذه البلاد (١٤٦ق.م - ٤٣٠م)[٣] بعد

---

(١) راجع تفاصيل خضوع بلاد المغرب لحكم الفينيقيين ذوي الأصل اللبناني الشامي في كتاب (تاريخ المغرب الكبير، ط١ - عيسى الحلبي ١٩٦٤م) لمحمد علي دبوز جـ١ ص ٩٩ وما بعدها .

(٢) فتح العرب للمغرب (نشر: مكتبة الآداب ١٩٥٩م) للدكتور حسين مؤنس ص ١-٢ .

(٣) راجع تفاصيل العصر الروماني بالمغرب في (تاريخ المغرب الكبير) لمحمد علي دبوز ١ / ٣٦١ وما بعدها .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفينيقيين، أخذوا عنهم هذه التسمية، وأطلقوا اسم ولاية إفريقية على قرطاجنة وما حولها، حتى وصلت إلى الجزء الشرقي في تونس الحالية باتساع النفوذ الروماني في المنطقة. هذا، وقد اتسع معنى لفظ (إفريقية) في العصر البيزنطي (٥٣٤-٦٤٧)[١]، فكانت إفريقية البيزنطية تشمل كل ما دخل في طاعة بيزنطة من برقة إلى طنجة[٢].

من الملاحظ أن اثنين من أقدم المؤرخين المسلمين - هما ابن عبد الحكم[٣]، والبلاذُري[٤] - استخدما لفظ (إفريقية) للدلالة على كل ما يلي مصر غربًا - من بعد طرابلس حتى المحيط الأطلسي، وبالتبع لم يدخلا برقة، وطرابُلُس ضمن إقليم إفريقية، حيث عَدّهما أغلب المؤرخين ولايتين قائمتين بين مصر وإفريقية[٥]، وهو ما يقوي لديّ القول بأنهما كانتا تابعتين لولاية مصر إداريًا منذ الحكم البيزنطي. ولعل في مبادرة عمرو بن العاص ﷺ إلى فتحهما عقب فتح الإسكندرية - كما سنرى - دليلاً آخر على أنهما من مكملات الفتح الإسلامي لمصر، لاسيما أن المصادر التاريخية - على حد معرفتي- لم تورد استئذانه الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قبل افتتاحهما، خلافًا لما كان عليه الأمر - على الراجح- بخصوص فتح مصر، أو فتح إفريقية، كما سنبين لاحقًا بإذن الله.

يذكر الدكتور حسين مؤنس أن مدلول لفظة (إفريقية) أخذ يضيق شيئًا

---

(١) راجع تفاصيل العصر البيزنطي بالمغرب في (تاريخ المغرب الكبير) جـ١ ص ٤٣٧ وما بعدها. ويلاحظ أن الوندال حكموا المغرب في الفترة ما بين ٤٣٠-٥٣٤م (التفاصيل في المرجع السابق جـ١ ص٤٢١ وما بعدها).

(٢) فتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس ص ٢.

(٣) فتوح مصر وأخبارها (تحقيق: تشارلس توري) ص ١١٠، ١٩٧- ١٩٨، وغيرهما كثير.

(٤) فتوح البلدان (ط. مؤسسة المعارف ببيروت بتحقيق: عبد الله وعمر أنيس الطباع) ص ٢٩٠، ٣١٤، ٣١٦.

(٥) فتح العرب للمغرب ص ٢.

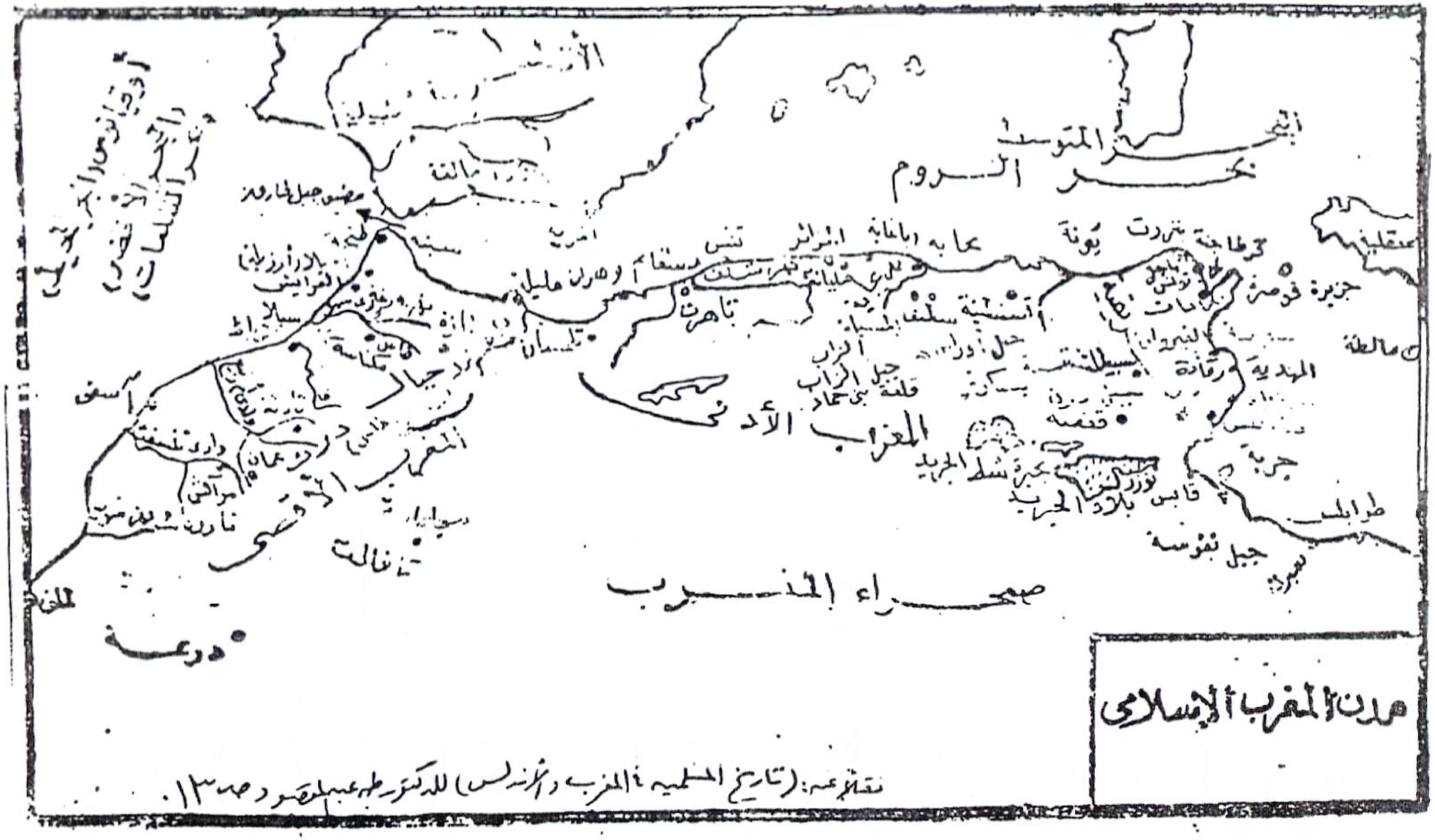

مدن المغرب الإسلامي

نقلا عن: (تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس) للدكتور طه عبد المقصود ص ١٣٠.

شلف، ذلك النهر الصغير الذي يجري من الجنوب إلى الشمال حتى جنوبي مدينة الجزائر، ويسير غربًا بحذاء الساحل، ويصب في البحر الأبيض قرب وهران. وقد كان هذا الجزء الشرقي من الجزائر يعرف قديمًا بإقليم الزاب، وهو جزء من إفريقية .

ب- المغرب الأوسط: ويمتد من مجرى نهر شلف حتى مجرى نهر آخر يجري حاليًا في شرقي المملكة المغربية من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ويسمى نهر مَوْلَوية. وهذا الإقليم يقابل اليوم معظم أراضي الجزائر، وقاعدته مدينة تلمسان ذات المركز الحضاري المتميز. ومن مدنه: القلعة، والمَسيلة، وطُبْنَة .

جـ- المغرب الأقصى: وهو ما يعرف بالمملكة المغربية الآن، ويمتد من وادي نهر مولوية حتى المحيط الأطلسي، وكانت قاعدته مدينة فاس، ثم مراكش، ويشمل عدة مدن منها: فاس، ومِكْنَاسة، وسَلا، ودِرْعة .

تضاريس بلاد المغرب:

بلاد المغرب وحدة جغرافية مترامية الأطراف، وهي كذلك وحدة بشرية؛ لأن سكانها من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي شعب واحد هو شعب البربر. وتمتد هذه البلاد من الشرق إلى الغرب بطول ساحل البحر الأبيض حتى المحيط الأطلسي الذي تطل عليه بساحل طويل يبدأ من طنجة في الشمال، وينتهي عند الرأس الأخضر على الساحل الغربي لأفريقيا. وثمة ظاهرة جغرافية رئيسة في تلك البلاد هي جبال الأطلس، وهي عبارة عن سلاسل متصلة من جنوب المغرب الأقصى حتى تتلاشى شرقي تونس(١).

(١) (تاريخ المغرب وحضارته): المجلد الأول، الجزء الأول ص ٢١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وتمتد سلاسل جبال أطلس من الغرب إلى الشرق موازية للبحر الأبيض، وتنقسم إلى قسمين أساسيين:

١- قسم شمالي (أطلس التل) يحصر بينه وبين البحر الأبيض سهولاً ساحلية متسعة إلى حد ما .

٢- سلسلة جبال أطلس الكبرى وهي موازية للسابقة، وأقرب إلى الصحراء منها إلى الساحل، وتعرف بجال (أطلس الصحراء).

ومن أشهر الجبال: جبل دَرَن بالمغرب الأقصى، وجبل الأوراس في المغرب الأوسط، وجبل نَفوسة في المغرب الأدنى، والصحراء الجنوبية في المغرب من أوسع الصحارى، حيث تصل إلى سبعة ملايين كيلو متر مربع بما يساوي ربع مساحة قارة أفريقيا[١].

وباستثناء المغرب الأقصى وشمالي تونس تعد بلاد المغرب الإسلامي في مجموعها بلاداً فقيرة من حيث المياه والنبات؛ ولذلك لابد من مجهود كبير لتخزين المياه، وتنظيم تصريفها، وحسن استعمالها؛ كي يتصل العمران ويستمر، ويمكن الاستفادة من قليل الماء على أفضل وجه ممكن[٢].

سكان المغرب وأحوالهم:

١- **الروم:** وهم البيزنطيون الذين احتلوا الشريط الساحلي، ولم يتمكنوا من التوغل في الداخل؛ نتيجة مقاومة البربر (أهل البلاد) لهم. وقد حاول الروم صبغ المنطقة التي أقاموا بها بالحضارة الرومانية. وكانت مواجهات المسلمين مع هؤلاء، بالإضافة إلى من انضم إليهم من البربر.

(١) التطور السياسي للمغرب من الفتح الإسلامي إلى آخر القرن العاشر الهجري، للدكتور طاهر راغب (نشر: دار النصر للتوزيع والنشر ٢٠٠٤م) ص ٣-٤ .

(٢) تاريخ المغرب وحضارته للدكتور حسين مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٣ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢- الأفارقة: خليط من بقايا الأمم التي احتلت بلاد المغرب كالرومان والوندال، ومزارعي البيزنطيين وصناعهم، وبعض البربر الذين استقروا ودخلوا في طاعة البيزنطيين. وهؤلاء سكنوا المناطق الساحلية العامرة المحيطة بالمدن البيزنطية، والأجزاء المزروعة الأخرى الداخلة في الرباطات (الحصون) البيزنطية.

٣- البربر: هم سكان البلاد الأصليون، ويمثلون الغالبية العظمى بالمغرب، وينقسمون إلى قسمين متفاوتين اجتماعيًا، لاجنسيًا؛ البربر الحضر: ويسكنون النواحي الخصبة الشمالية والسفوح الجبلية المزورعة. والبربر البدو: الذين يعيشون في الصحارى والواحات التي تلي ذلك جنوبًا وشرقًا. وهؤلاء الأخيرون يتسمون بالتنقل والترحال المستمر، حيث يعيشون على الرعي، ويميلون إلى الإغارة على ما جاورهم من نواحي العمران، ومزارع المستقرين وقراهم. وقد استفاد البيزنطيون من العداء بين الجانبين، فاستعانوا بفريق على فريق؛ كي يحولوا بينهم وبين الاتحاد والتآلف، والوقوف صفًا واحدًا في مواجهة المحتل الغاصب لبلادهم(١).

وبخصوص لفظة (البربر)، فقد تعددت تفسيرات ذلك؛ فهناك من ربط بين ذلك اللفظ وبين الأنساب القديمة(٢) التي يصعب إثبات صحتها ولا نطمئن إليها. والبعض أرجع تلك التسمية إلى لغتهم الغريبة على أسماع العرب المسلمين ذات الأصوات المختلطة غير المفهومة(٣). وثالث التفسيرات - ولعله أرجحها- مرتبط بالسلوك العملي للبربر تجاه البيزنطيين، حيث قاوموهم

(١) فتح العرب للمغرب للدكتور مؤنس ص ٤-٧، ودراسات في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسن علي حسن (بالاشتراك) ص ٧-٨.

(٢) الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى للناصري (دار الكتاب- الدار البيضاء بالمغرب ١٩٥٤م) جـ١ ص ٥٤.

(٣) تاريخ ابن خلدون (العِبَر) - ط٢ - دار الفكر - بيروت ١٩٨٨م، جـ٦ ص ١١٦-١١٧.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

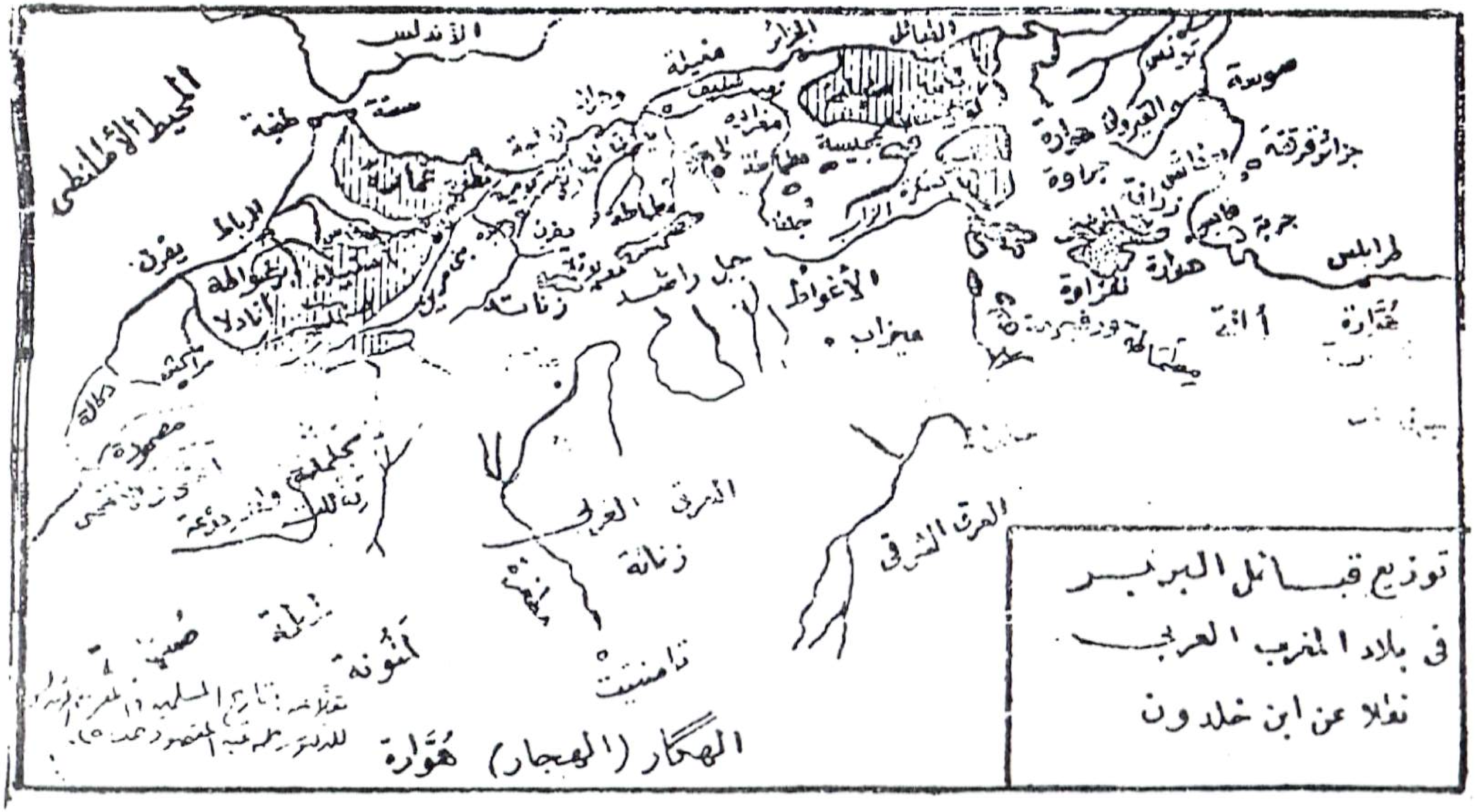
توزيع قبائل البربر
في بلاد المغرب العربي
نقلا عن ابن خلدون
الأندلس
المحيط الأطلنطي
طنجة
سبتة
الرباط
يفرن
غمارة
تونس
سوسة
القيروان
هوارة
جراوة
جزيرة جربة
قابس
طرابلس
نفزاوة
الجزائر
مليلة
الأغواط
ميزاب
العرق الغربي
العرق الشرقي
زناتة
تامنست
لمتونة
الهكار (الهجار) هوارة

أهل العلم[1]. ومن مفاتيح شخصية البربري: تمسكه بحريته، ودفاعه عنها باستماتة، والاقتناع بالأمر قبل الانصياع إليه، والانقياد له، وعدم الميل إلى الحكم المركزي، والتأثر بالعامل القبلي[2]. ولعل التشابه في سمات العربي والبربري، والصفات المشتركة بينهما سوف تفرض على المسلمين الفاتحين أساليب معينة من التعامل مع شعب البربر؛ كي يسلس قياده، ويستفاد من طاقاته وإمكاناته الإبداعية الكامنة. ومن هنا كانت مقاومة هذا الشعب العنيفة للبيزنطيين، ورفضه الانصهار والاندماج والذوبان في حضارتهم، وثوراته المستمرة على الظلم الاجتماعي والاقتصادي الذي تعرض له قبل الإسلام[3].

وإذا كان بعض البربر اعتنق النصرانية، فإن الوثنية كانت غالبة على جموعهم الغفيرة[4]، مما يلقي على كواهل المسلمين الفاتحين وقياداتهم أعباء ثقيلة من حسن التعامل مع الطبيعة الخاصة لهذا الشعب؛ لجذبه إلى الإسلام وتعاليمه، ودمجه في الحضارة الإسلامية، وتجنب أسباب الفشل البيزنطي في حكم هذه البلاد، وتكوين أجيال بربرية مسلمة ترفع رايات الجهاد.

مراحل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وصعوباته:

استغرق فتح الجيوش الإسلامية لبلاد المغرب فترة طويلة من الزمن لا

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦ / ١٣٥ . يعلق د. حسين مؤنس قائلاً: أثنى ابن خلدون ثناء مستفيضًا على البربر، فجعلهم أهل كل فضيلة، وقد أسرف بعض الشيء عامدًا؛ لأن بعض قبائل المغرب الأوسط كانت ملاذه عند الشدائد قبل التوجه إلى مصر والاستقرار بها. وعلى كل، فلم يبعد الرجل عن الحقيقة كثيرًا، فهم أهل إخلاص، وصدق، وإيمان. ويكفي أنهم عانوا ظلم الحكام وقسوتهم، وظلوا محتفظين بفضائلهم الرئيسية التي نماها الإسلام، وأذكتها فضائل حضارته، فبالإسلام صنعوا مجدهم وتاريخ بلادهم. (تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول، الجزء الأول ص ٦١-٦٢).

(٢) التطور السياسي للمغرب للدكتور طاهر راغب ص ٨-٩ .

(٣) راجع التفاصيل في: فتح العرب للمغرب ص ٢٣ وبعدها .

(٤) تاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٦١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

نظير لها في أي من الأقاليم والدول الأخرى التي أخضعها المسلمون لسلطانهم بما فيها الإمبراطوريتان الكبيرتان الفارسية والرومية. ولاشك أن تضاريس بلاد المغرب (جبالها الشاهقة الوعرة، وصحاريها العسيرة الممتدة) عرقلت جهود الجيوش الإسلامية الفاتحة، وجعلت مهمتها صعبة للغاية، لاسيما أن مساحة بلاد المغرب شاسعة الأرجاء ممتدة الأطراف. وكذلك لقي المسلمون مقاومة شديدة من البيزنطيين الذين لا يريدون أن يفقدوا آخر ممتلكاتهم في الشمال الأفريقي، إلى جانب تحالف بعض البربر معهم، لاسيما وقد وقع بعض قادة الفتوح - وسيأتي ذلك- في خطأ عدم مراعاة طبيعة شخصية البربر، والإساءة إلى بعض قادتهم؛ مما سيلحق بالمسلمين بعض الهزائم، ويعرضهم للانكسارات، بل فقدان بعض قادتهم المبرزين. ثم لا ننسى الظروف غير المواتية، والخلافات والانقسامات الداخلية وعدم الاستقرار الذي عانت منه دار الخلافة على مدار فترات طويلة؛ مما كان يعطل حركة الفتوح، ويجمدها فترات من الزمن ليست بالقصيرة.

رغم كل ما تقدم من معوقات وعراقيل، فإن عزيمة الجهاد في سبيل الله، والرغبة المخلصة في نشر تعاليم الإسلام، وإبلاغ كلمة الله إلى العالمين أمدت المسلمين قادة وجندًا بروح الصبر والمصابرة والمرابطة لإعلاء كلمة الحق خفاقة في كل مكان، فهانت التضحيات الجسام، وتم تدارك الأخطاء، واجتياز العقبات واحدة تلو الأخرى. صحيح أنه سالت دماء كثيرة غزيرة على أرض المغرب، لكن كل شيء يهون في سبيل تحقيق الهدف الأسمى (أن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى). ويمكن استعراض المراحل والأشواط البعيدة التي قطع مداها المسلمون بجسارة وشجاعة وإيمان على النحو الآتي:

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

أولاً: مرحلة الاستطلاع والاستكشاف:

١- تبدأ هذه المرحلة بعد فتح المسلمين للإسكندرية عاصمة مصر البيزنطية سنة ٢١هـ/ ٦٤١م على يد القائد الفاتح الصحابي الجليل عمرو بن العاص ﷺ . ولا ريب أن دوافع تقدم الجيش الإسلامي لفتح بلاد المغرب هي ذاتها دوافع الفتوح الإسلامية لمختلف الأمصار التي فتحها المسلمون. لقد هدف المسلمون إلى تأمين الحدود الغربية لمصر الإسلامية، فالبيزنطيون موجودون في بلاد المغرب، ولابد أنهم سيعاودون محاولاتهم لإعادة السيطرة على مصر خاصة الإسكندرية؛ ولذلك كان لابد من توجيه ضربة استباقية لإجهاض أية محاولة من هذا القبيل قبل مجرد التفكير فيها، وإجبار البيزنطيين على التقوقع داخل حدود المغرب منشغلين بالدفاع بدلاً من التفكير في أية مبادرة هجومية ضد المسلمين. كما أراد عمرو استغلال حماس الجند المسلم بقوة الدفع السابقة لمواصلة فتح المزيد من الأراضي، وزيادة رقعة الدولة الإسلامية، ونشر مبادئ الإسلام بعد توصيل عقائده وشرائعه وأخلاقياته ومعاملاته إلى أهل البلاد من المغاربة، بالإضافة إلى انتهاز فرصة سوء أوضاع البربر الداخلية اجتماعيًا واقتصاديًا ودينيًا (حيث ارتد الكثيرون عن النصرانية، ومن استمسك بها دخل في خلاف عقدي مع حكام بيزنطة) وكذلك حال الضعف العام والانقسام الديني الذي تعاني منه الإمبراطورية البيزنطية عمومًا؛ مما حدا بالحاكم البيزنطي للمغرب إلى الخروج على الإمبراطور، والاستقلال بحكم المغرب لحسابه الخاص[١].

٢- قدم عمرو بن العاص إلى برقة سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م[٢]، فلم يجد

(١) فتح العرب للمغرب ص ٤٥ - ٤٧ .

(٢) الكامل في التاريخ (ط. الكتب العلمية بتحقيق: عبد الله القاضي) لابن الأثير جـ٢ ص٤٢٨ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

مقاومة - فيما أرجح[1]- وصالح أهلها على دفع جزية سنوية تقدر بثلاثة عشر ألف دينار سنويًا على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم. وفي رواية عن الليث بن سعد فقيه مصر ومؤرخها (ت ١٧٥هـ): أن عمرو بن العاص كتب على بربر لُواتة في شرطه عليهم: إن عليهم أن تبيعوا أبناءكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية[2]. ويمكن الخروج بعدة ملاحظات على ما سبق نعرضها كما يلي:

أ- أن قبيلة لواتة البربرية العريقة كانت تقيم ببرقة، ولم تقاوم عمرًا كما قاومت الرومان والوندال والبيزنطيين من قبل، فقد رحبت بالمسلمين، وركنوا إلى الصلح[3]. ولعل أنباء عدالة المسلمين واختلافهم عن المحتلين السابقين أملت عليهم هذا الموقف.

ب- أنهم لم يسلموا وقبلوا دفع الجزية السنوية بمعدل دينار على كل بالغ[4]، ولا شك أن ذلك الرقم لم يكن فوق طاقتهم؛ لأنهم وافقوا على دفعه، بل واظبوا على ذلك دون مطالبة. ومعنى ذلك أنه كان أقل مما كان يفرضه البيزنطيون، ويستثنى من الدفع - كما هو معلوم- الصغار، والنساء، والشيوخ. فإذا تم استبعاد ربع سكان برقة مثلاً، فيكون عدد السكان الكلي حوالي خمسين ألفًا، فيكون إجمالي المبلغ المقدر معقولاً للغاية، لاسيما وقد راعى عمرو الضعف الاقتصادي وقلة الموارد في برقة بالمقارنة بوادي النيل في

(١) ثمة رواية مرجوحة تذكر أن عمرًا حاصرهم (أهل برقة) وقاتلهم على الجزية (فتوح البلدان للبلاذري ص ٣١٤) . والراجح ما ذكرته عدة روايات عن مصالحة عمرو إياهم، وحسن وفائهم بما عليهم من المال، حيث كانوا يرسلون به قبل أن يطالبهم به أحد، فكانوا أخصب قوم بالمغرب؛ ولذلك تمنى عبد الله بن عمرو أن لو أقام ببرقة؛ لشيوع السلم والأمن بها. (المصدر السابق ص٣١٤-٣١٥).

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ١٧٠ .

(٣) تاريخ المغرب العربي (طبعة دار المعارف) للدكتور سعد زغلول عبدالحميد جـ١ ص ٨١ .

(٤) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (تحقيق: بروفنسال، وكولان) جـ١ ص ٨.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

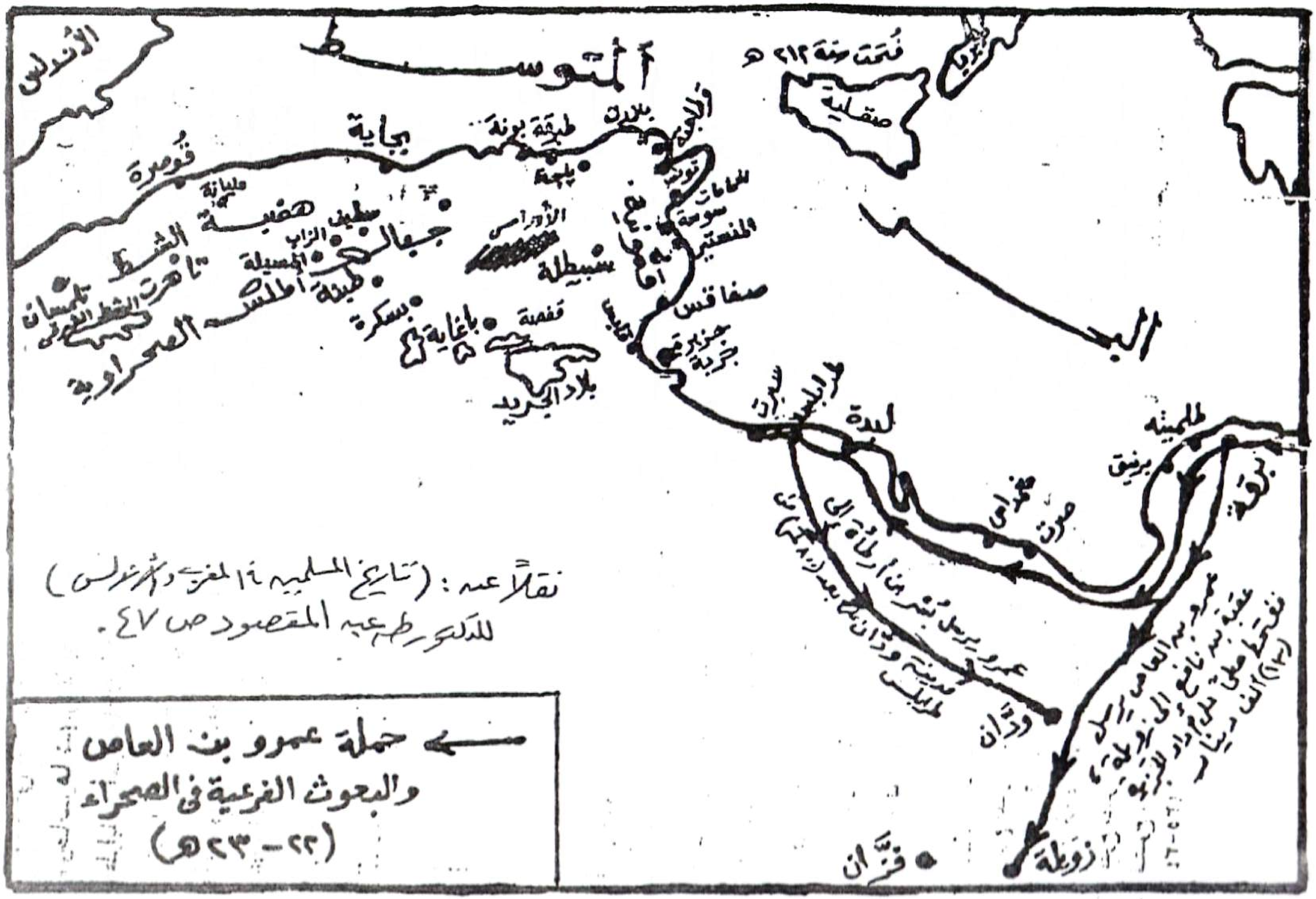

الأندلس
البحر المتوسط
قومرة
بجاية
طبقة بونة
بلزرت
باجة
تونس
سوسة
المنستير
صفاقس
قابس
جزيرة جربة
طرابلس
صبرة
لبدة
سرت
برقة
برنيق
طلميثة
صقلية
فتحت سنة ٢١٢ هـ
مليانة
هضبة الشط
تاهرت
تلمسان
أطلس الصحراوية
سطيف
الزاب
المسيلة
طبنة
بسكرة
باغاية
الأوراس
شبيطلة
قفصة
بلاد الجريد
ودان
زويلة
فزان
نقلاً عن: (تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس) للدكتور طه عبد المقصود ص ٤٧.
حملة عمرو بن العاص والبعوث الفرعية في الصحراء (٢٢-٢٣هـ)

مصـر، فجـعل جزية الفـرد القادر منهم على النصف مما يدفعه القبطي في مصر[١].

جـ- بخصوص بيع الأبناء والـبنات للوفاء بما عليهم من الجزية، فأعـتقد أن ذلك يخضع لرغبتهم هم وما عـرضوه على عمرو. وفي تقديري أنهم لن يلجئوا لذلك إلا إذا لم يوفـقوا إلـى دفع المال نقدًا لظرف مـا من الظروف. وربما احتاط عـمرو لنفسه بوضع هذا الشـرط، ووافقوا عليه، والعقـد شريعة المتعاقدين. ثم إن بيع أولادهم كان أمرًا شائعًا لديهم. ويرى أحد الباحثين أن هؤلاء الصغار كانوا يربون في أحضان المسـلمين، ويحقق ذلك أهدافًا مهمة: دينية عقـدية، حيث ينتشر الإسـلام عقيدة وشريعـة بينهم منذ حداثة سنهم، وكذلك يحقـق هدفًا اجتماعـيًا بتعريبـهم (نشر اللغة العربيـة بينهم، والتزوج منهم، والامتـزاج بهم، وتنشئـتهم على عادات وتقـاليد العـروبة الأصيلة)، وأخيـرًا يتحـقق الهدف السيـاسي الناتج عمـا سبق من توثيق أواصـر القربى والمحبـة بين العرب المسـلمين وهؤلاء البربر، وهو - في النهـاية - يصب في صالح الإسـلام والمسلمين[٢]. ومن هؤلاء وغـيرهم ممن أسلمـوا دون بيع؛ نتيجة الحملات البرية التي أرسلهـا عمرو بن العاص إلى صحراء المغرب لفتح وَدّان، وفزّان، وزَويلة[٣]، تكون جيل مسـلم جديد من البربر، الذين سيكون لهم دور في حمل راية الجهاد ونشر الإسلام.

---

(١) تاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ص ٨١-٨٢ .

(٢) المرجع السـابق ص ٨٢ . تجدر الإشارة إلى أن بيع هـؤلاء لأبنائهم وبناتهم استـمر حتـى نهاية القرن الاول الهجري، حين أمـر عمر بن عبدالعزيز بأن من كان عنده بنت لواتيـة، فليخطبها إلى أبيها، أو يردها إلى أهلهـا. (فتوح البلدان للبلاذري ص ٣١٦). فلعل الخليـفة علم أن الإسلام انتشر بين هؤلاء، فرفض الاستمرار في فرض الجزية عليهم.

(٣) الراجح أن هذه الحملات كانت مـصاحبة وموازية لحملة عمرو على برقـة، وكانت بقيادة الشاب عقبة بن نافع (فـتوح مصر وأخبارها ص ١٧١). وهذا، وقد نـسب الـدكتـور حسين مؤنس هذه الحملة إلى نافع بن عبد القيـس الفهري والد عقبة، وذكر أن عقبة كان معه في سن الثالثة عشرة=

٣- **فتح طرابُلُس**: في سنة ٢٣هـ / ٦٤٣م تمكن عمرو بن العاص من إسقاط مدينة طرابلس بعد حصار دام شهراً استعصت عليه خلاله، إلى أن تمكن بعض الجند من اكتشاف ثغرة بجوار سور المدينة الملاصق للبحر، فاندفع الجند داخل المدينة، وفر كثير من أهلها بما خفّ في المراكب. ودعم عمرو فتح طرابلس بفتح سَبْرَت الحصينة التي كانت تتوقع مجيء جند عمرو، لكن أهلها استهانوا في الاستعداد عندما بلغهم صعوبة فتح طرابلس، ففاجأهم عمرو في غفلتهم، وأحاط بهم، واستولى على مدينتهم(١).

= أو الرابعة عشرة، واستبعد أن يكون عقبة هو القائد آنذاك؛ لصغر سنه (تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٨٠). والحق أن بعض كتب تراجم الصحابة ذكرت أن عقبة ولد على عهد رسول الله ﷺ، لكنه لا تصح له صحبة (ربما لأنه لم ير الرسول ﷺ لصغر سنه عند وفاته). وكان عمرو بن العاص خاله (لا ابن خالته كما ذكر ابن عبد البر). وشهد فتح مصر، واختط بها، وشارك في فتح إفريقية. (الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر بتحقيق البجاوي) جـ٣ ص ١٠٧٥-١٠٧٦، وأسد الغابة لابن الأثير، طبعة دار الشعب) جـ٤ ص٥٩-٦٠، والإصابة لابن حجر بتحقيق: البجاوي جـ٥ ص٦٤-٦٥). أما والده نافع، فذكره ابن حجر أثناء ترجمة ابنه عقبة، وذكر أنه آذى زينب بنت الرسول ﷺ أثناء هجرتها إلى المدينة، وبذلك يكون مشاركاً هبّار بن الأسود في ذلك الجرم، وكانت وفاته قبيل الفتح (المصدر السابق ٥ / ٦٤)، لكنه عاد وترجم لنافع في جـ٦ ص٤٠٩، وذكر أنه أخو العاص بن وائل لأمه (وهو يناقض كون عمرو خالاً لعقبة)، وشارك عمراً في فتوح مصر، وبعثه عمرو إلى برقة، وقد بقي إلى خلافة عثمان. والحق أن ابن حجر لم يحالفه التوفيق في ذكر هذه الترجمة. واستشهاده بابن عبد الحكم في (فتوح مصر)؛ للاستدلال على شهود نافع فتح مصر غير دقيق؛ لأن ابن عبد الحكم نفسه متردد ما بين عقبة وأبيه في شهود فتح مصر، والاختطاط بها (المصدر السابق ص ٩٣،٩٩)، ولم ينسب إلى نافع قيادة سرية موجهة إلى إفريقية بل إلى النوبة (السابق ص ١٦٩-١٧٠)، وهو ما لم يصح، ومما انفرد به ابن عبد الحكم. وبناء على كل ما تقدم يترجح وفاة نافع قبيل الفتح، وشهود عقبة الذي ولد زمن الرسول فتح مصر وإفريقية. هذا، وقد انفرد ابن عذارى - فيما ينقل عن ابن أبي الفياض- بتحديد سن عقبة عند وفاة الرسول بسنة واحدة (البيان المغرب ١ / ١٩)، وأعتقد أنها رواية وحيدة لا يوجد ما يؤيدها، ولا نعرف مصدرها الحقيقي، ولو كانت صحيحة لأوردتها كتب تراجم الصحابة، ولعل عقبة ولد قبل ذلك بسنوات تؤهله لقيادة سرية زمن عمرو بن العاص، ولا ننسى أن والده كان مهدر الدم، فحرم ذلك عقبة من لقاء النبي ﷺ.

(١) راجع فتح طرابلس، وسبرت في (فتوح مصر) ص ١٧١-١٧٢، وتاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول ١ / ٨٧ - ٩٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٤- حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح:

حاول عمـرو بن العاص ﷺ إقناع عمر بن الخطاب ﷺ بالتـقدم لفتح إفريقـية، لكن عـمر رفض ذلك قائلاً: «لا، إنهـا ليست بإفـريقيـة، ولكنها المفرقـة، غادرة مـغدور بها، لا يغـزوها أحد مـا بقيتُ»[١]. ولا يعني ذلك رفض عمـر النهائي لفتح بلاد المغرب، لكـنه رأى بثاقب فكره، وبما لديه من معلومـات عن صعوبة تضـاريس هذه البلاد، وجسـارة أهلها، وكثـرة نكثهم لعهـودهم مع البيزنطيين، أدرك ضـرورة التريث والتمـهل والاستعـداد وعدم التهور؛ حفاظًا على أرواح الجند الإسلامي في تلك البلاد الغريبة.

نجح عبد الله بن سعد والي مصر مـن قبل عثمان ﷺ في الحصول على موافـقته لفتح إفـريقية، وامتـد ذلك من سنة ٢٧هـ/ ٦٤٨م إلى سنة ٢٨هـ/ ٦٤٩م. وقد شارك في هذا الجيـش العبادلة: عبد الله بن عبـاس، وعبد الله ابن عمر، وعبد الله ابن عمرو، وعـبد الله بن الزبير، وكذلك بعض الشباب المجاهد الواعـد من أمثـال: بُسْر بن أبي أرطاة العامـري. سار ابن سـعد في جيش قـوامه عشرون ألف جـندي معظمهم من الفـرسان في مواجهـة جيش القائد البيزنطي جريجوريوس الثائر على الإمبراطورية، الذي بلغ ما يزيد على مائـة ألف. وكان القـائد البيـزنطي قد سـحب قواته إلى الداخل في مـدينة (سُبيطلة) قرب مـوقع القيروان، وبها أهله، وحاميتـه، وأسلحته، وذخائره. أقبل الجـيش الإسلامي وعسكر في جـزيرة قَمُّونيـة في سهل تونس، ودارت مناوشات عـديدة، وتأخر اللقاء الحـاسم لشهـور؛ نتيجـة صلابة الطرفين في القتال، إلى أن اهتـدى قادة الجيش الإسلامي إلى ملاقاة البـيزنطيين بجزء من الجيش، حتى إذا أنهكت قـوى الأعداء، باغتوهم بقوات إضـافية أحلت بهم

---

(١) فتوح مصر ص ١٧٣ .

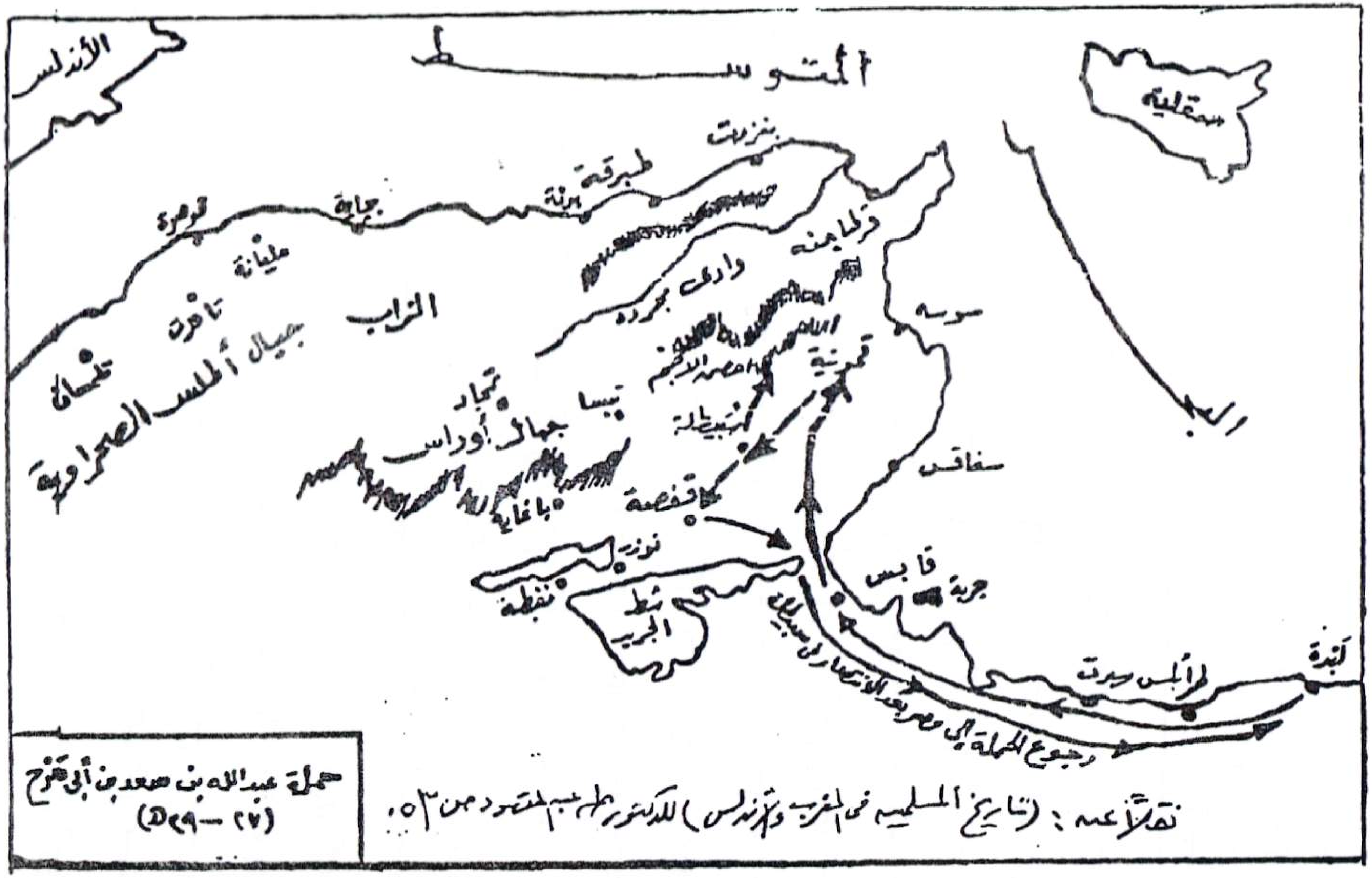

حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح (٢٧ - ٢٩هـ)

نقلاً عن: (تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس) للدكتور طه عبد المقصود ص ٥٣.

الهزيمة، وقتل قائدهم وكبار جنده، وفرت فلول جيوشهم، وغنم المسلمون غنائم كبيرة، حيث بلغ نصيب الفارس ثلاثة آلاف دينار، والراجل ألفًا[1]، ومهما قيل عن المبالغة في هذه الأرقام، فمن الواضح أن النصر كان حاسمًا، لكن ابن سعد لم يطوره بالاستيلاء على قرطاجنة العاصمة، بل اكتفى بإخضاع بعض النواحي، والعودة بالغنائم إلى مصر. ولعل ما بلغه عن استعدادات الأسطول البيزنطي للهجوم على المسلمين، وخوفه من طول خطوط الإمدادات مما قد يؤدي إلى قطعها، وإحداث كارثة في صفوف جيشه، إلى جانب قلقه على الأوضاع في ولاية مصر، ورغبته في العودة السريعة بعد الانتصار، وقد غاب شهورًا عن ولايته، وعدم وجود قاعدة مستقرة للمسلمين هناك، لعل كل ذلك حرمه من مواصلة الفتوح والاستقرار بإفريقية[2].

٥- حملة معاوية بن حُديج السَّكوني التُّجيبي: توقفت الفتوحات الإسلامية؛ نتيجة أحداث الفتنة الداخلية في النصف الثاني من خلافة عثمان بن عفان ﷺ، وطيلة خلافة علي بن أبي طالب ﷺ إلى أن استتب الأمر لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ أول خلفاء بني أمية، فبدأ يفكر في مواصلة فتوحات إفريقية. وفي البداية أشير إلى ما ذكره ابن عبد الحكم، ونقله عنه- فيما يبدو- آخرون عن غزوات ثلاث قام بها معاوية بن حديج التجيبي لإفريقية في سنوات: ٣٤، ٤٠، ٥٠هـ[3]. والحق أن سنة ٣٤هـ مستبعدة؛ لأن الرجل كان في مصر، وفتنة عثمان كانت على أشدها، وابن حديج من أشد المنافحين عن عثمان حتى عرف بأنه أحد العثمانية. وسنة ٤٠هـ مستبعدة أيضًا؛ لأنها سنة استشهاد

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣١٧-٣١٩، والبيان المغرب ١ / ٩-١٣، وفتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس ص ٨٥ وبعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٩٨ - ١٠١ ، والتطور السياسي للمغرب للدكتور طاهر راغب ص ٢٧ .

(٣) فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٤ ، وتاريخ المصريين لابن يونس ص ٤٧٨ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الإمام علي ﷺ، ولم يكن الأمر قد استتب لمعاوية بن أبي سفيان حتى يستأنف فتوح المغرب. ولا تصح سنة ٥٠هـ كذلك؛ لأنها السنة التي سيلي فيها عقبة بن نافع إفريقية، كما سنرى بعد ذلك.

اختار معاوية بن أبي سفيان معاويةَ بن حُديج[(١)] لمواصلة الجهاد في الميدان الإفريقي سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م[(٢)]، وهو تاريخ مقبول للغاية؛ إذ استقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان، وعقد العزم على استئناف ما توقف من الفتوح. تحرك ابن حديج بجيش قوامه عشرة آلاف جندي بعد أن وصلت إلى الخلافة أنباء عن مسير أسطول بيزنطي يحمل جيشًا إلى إفريقية، وأرسى سفنه بين سَفاقُس وسوسة، فعجل ابن حديج بمهاجمته، ففر الأسطول دون قتال، واستولى المسلمون على سوسة، ومن بعدها أسقطوا حصنًا مهمًا هو حصن جَلولاء الذي يعد أحصن مواقع خط الدفاع الثاني عن إفريقية البيزنطية[(٣)]. وفطن ابن حديج إلى خطورة جزيرة صقلية بالبحر الأبيض على الوجود الإسلامي بإفريقية، فكان أول من أرسل إليها أحد قادته للهجوم عليها، فعاد قائده عبد الله بن قيس محملاً بالغنائم سنة ٤٦هـ / ٦٦٦م[(٤)]. وكذلك من الأعمال الجيدة التي قام بها ابن حديج أنه لما طال مقامه في منطقة القرن (بجوار جبل عسكرَ إلى جانبه قبل سقوط حصن جلولاء)؛ بنى آبارًا للسقيا

(١) أحد الصحابة الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر، وكان الوافد بفتح الإسكندرية إلى عمر بن الخطاب بالمدينة. فقد إحدى عينيه في يوم دُمْقُلة من بلاد النوبة، وهو يجاهد في سبيل الله مع عبدالله بن سعد سنة ٣١هـ. توفى ابن حديج سنة ٥٢هـ . (تاريخ المصريين ص ٤٧٧-٤٧٨، والإصابة لابن حجر ٦ / ١٤٧).

(٢) نهاية الأرب للنويري (طبعة الهيئة العامة للكتاب) جـ٢٤ ص ١٨، والبيان المغرب ١ / ١٧ .

(٣) المصدر اسابق ١ / ١٦ - ١٨، وفتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس ص ١٢١، وتاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول، الجزء الأول ص ٨٥ .

(٤) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٢٩، والبيان المغرب ١ / ١٦-١٧ (أغزى جيشًا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا، وأقاموا شهرًا).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عرفت بآبار حـديج، وفكر لأول مرة في إقامة قـاعدة مستقـرة للمسلمين في إفريقية، حيث عمل على إقامـة معسكر للجند بهذا المكان قرب القيروان[1]، إلا أنه لم يتحول إلى مـدينة يقيم بها الجند[2]، ولعل هذا التفكير المتطور هو الذي ألهم عقبة بن نافع ببناء القيروان فيما بعد.

ثانياً: مرحلة الاستقرار:

تبـدأ هذه المرحلة بولاية عقـبة بن نافع شـئون إفـريقيـة من سنة (٥٠-٥٥هـ)، وكان يهـدف إلى أمرين مهـمين جديدين تفرد بهـما عقبـة، وهما: إرساء دعائم الاستقرار في إفريقـية عن طريق تأسيس مدينة بها، تكون قاعدة ارتكاز للجيوش الإسلامية الفاتحة، وموقعًا تنطلق منه إلى أي مكان تسعى إلى فتـحه في بلاد المغـرب، ثم تفيء إليه بعد كل مـرحلة من مراحل الفـتوح، حـيث تستـجم القوات، وتـسـتـريح، وتتزود بما يلـزمهـا من الجند والعتـاد والإمدادات الغذائية وغيرها. وفي الوقت ذاته تتـهيأ السبل لمخالطة أهل البلاد المفتـوحة، وشرح تعاليم الإسـلام الحقيـقية عن طريق العلمـاء المكلفين بنشر الإسلام في ربوع المـغرب وبين سكانه من البـربر. والهدف الثـاني الذي كان يسعى إليه عقـبة هو مواصلة حركة الجهاد في سبـيل الله حتى شاطئ المحيط الأطلسي، فيتم بذلك فتح بلاد المغرب كلها، وضمها إلى الدولة الإسلامية.

بناء القيروان:

اهتم عقبـة بن نافع ﵁ باختيار المكان الذي أقام به مـدينته الجديدة التي سمـاها (القيروان)، فلم يرتض الموقع الذي نزل به ابن حـديج في (القرن)؛

---

(١) رياض النفـوس للمـالكي (تحقـيق: د. حـسين مؤنس) جـ١ ص ١٩، ومـعـالم الإيمان للدباغ (تحقيق: إبراهيم شبوح) جـ١ ص ٤٥.

(٢) فتح العرب للمغرب ص ١٢٤.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

لأنه كان قريبًا من البحر، أو في موضع غير مسكون ولا معمور(١)، فلعل ابن حديج كان يهدف من ذلك الموقع إلى الرباط في سبيل الله، بينما غرض عقبة الاستقرار بعيداً عن الهجمات البيزنطية البحرية من جهة(٢)، والقرب من المراعي الكثيرة من جهة أخرى(٣). وعلى كل، كان موقع القيروان في جزيرة قَمّونية بالقرب من (سُبيطلة) على بعد مسيرة يوم من الساحل في قلب إفريقية البيزنطية؛ كي لا يفاجأ بهجوم الأسطول البيزنطي، وعلى مسيرة يوم من جبال الأوراس؛ حذراً من هجمات البربر المباغتة.

كان موقع القيروان كثير الشجر، تأوي إليه الوحوش والسباع والهوامّ. وتذكر الروايات أن عقبة نادى عليها ثلاثًا بالرحيل؛ لأنّ جند الإسلام نازلون(٤). وسواء صحت الرواية - كنوع من تحقق الكرامة لصحابي مجاب الدعوة كعقبة- أم لم تصح، وفسرت تفسيراً بعيداً عن الكرامات والمبالغات كأن تكون الوحوش انزعجت لما رأت المسلمين يشعلون النيران في الغابات؛ لاقتلاعها وتمهيد المكان للبناء، ففرت منزعجة، المهم أن عقبة بنى المسجد الجامع - مركز الدعوة الإسلامية بإفريقية- وسط المدينة، وأنشأ في مقابله دار الإمارة، ومد بينهما طريقًا فسيحًا رئيسيًا عُرف بـ (السِّماط أو المحجة)، وفي الفضاء الواسع الممتد أقيمت ثكنات الجند، وأقامت القبائل في خِططها الخاصة بها. هذا، وقد دعا عقبة الله أن يكتب لمدينته البقاء، وأن تهوي إليها أفئدة الصالحين والمجاهدين والدعاة المخلصين، وأن يجعلها سلمًا لأحبابه حربًا على أعدائه(٥). هذا، وقد ركز عقبة جهوده مدة خمس سنوات في بناء القيروان

---

(١) رياض النفوس للمالكي (تحقيق: د. حسنين مؤنس) ١ / ١٩ .

(٢) البيان المغرب ١ / ١٩ .

(٣) فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٦ .

(٤) المصدر السابق : الصفحة نفسها .

(٥) راجع تفاصيل بناء القيروان في (فتح العرب للمغرب ص ١٤٠ وبعدها، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥-٣٦) .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وتعميرها، وساعده على إتمام ذلك أن البيزنطيين كانوا يعانون مشكلات داخلية إلى جانب انشغالهم التام بهجمات الأمويين على القسطنطينية لفتحها بدءًا من سنة ٤٩هـ، فوجهوا كل اهتمامهم للدفاع عن عاصمة إمبراطوريتهم[١]. ولم يكد عقبة ينتهي من تشييد القيروان، حتى بدأ يستعد للقيام بمهمته الثانية التي ذكرتها من قبل، إلا أنه فوجئ بقرار عزله عن ولاية إفريقية، وتولية (أبي المهاجر دينار) مولى (مَسْلَمة بن مُخَلَّد الأنصاري الصحابي والي مصر والمغرب ٤٧-٦٢هـ) بدلاً منه، فأساء عزل عقبة، وقيده بالحديد، ثم أطلقه بعد تدخل الخليفة معاوية. عاد عقبة إلى دمشق معاتبًا معاوية قائلاً له: «فتحتُ البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة، ودانت لي، ثم أرسلتَ عبدَ الأنصار، فأساء عزلي»[٢]! طيَّب معاوية خاطر عقبة، واعتذر إليه بأنها رغبة مسلمة ذي المكانة المتميزة لدى الأمويين؛ لدفاعه عن عثمان ﷺ، وقال له: قد رددتُك على عملك[٣]. وهكذا، اتضح أن عزل عقبة كان باتفاق بين معاوية ومسلمة بن مخلد، ولعل عدم انسيابية عمليات الفتوح بما تجلبه من غنائم، يحتاج إليها الجند وخزينة الخلافة مما اعتادته على يد القادة الفاتحين السابقين، أدى إلى إعطاء مؤشر قوي لدى البعض بأن عقبة اكتفى بالتشييد والعمران على حساب إضافة رقعة جديدة إلى أرض الإسلام. ولعل المرحلة التالية في التعامل مع البربر كانت تقتضي شخصية جديدة متميزة تختلف في طابعها عن شخصية عقبة العسكرية الحادة.

أبو المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢هـ):

اتخذ أبو المهاجر من سياسة المسالمة أسلوبًا جديدًا في التعامل مع البربر،

(١) فتح العرب للمغرب ص ١٤٥ . (٢) فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٧ .

(٣) فتوح مصر وأخبارها ص١٩٨ . ولا ريب أن آخر الرواية مرجوح، فقد أُعيد عقبة إلى ولاية إفريقية - كما سنرى - في عهد يزيد بن معاوية .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الأندلس
المتوسط
البحر
فتحت سنة ٢١٢ هـ
صقلية
قلورية
بجاية
طبرقة
باجة
تونس
القيروان
الأوراس
المنستير
سوسة
جزيرة جربة
طرابلس
سرت
لبدة
تلمسان
تاهرت
طبنة
أطلس الصحراوية
بسكرة
قفصة
بلاد الجريد
زويلة
ودان
فزان
حملة عقبة بن نافع الأولى (٥٠ هـ)
نقلاً عن: (تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس) للدكتور طه عبد المقصود ص ٦٥.
حملة عقبة بن نافع الأولى وتأسيس القيروان (٥٠-٥٥ هـ)
حملة أبي المهاجر دينار (٥٥-٦٢ هـ) ووصوله إلى تلمسان في المغرب الأوسط

ونجح في نشر الإسلام بين جموعهم عن طريق الإقناع الهادئ بعيداً عن أسلوب استخدام القوة والقهر، واتخذ من مدينة دكرور البربرية مكاناً لاستقرار جنده، وأمر الناس بالرحيل عن قيروان عقبة، فخربت بخلوها من الناس(١). المهم أن أبا المهاجر نجح في كسر التحالف بين بربر البرانس والروم، الذين أحسوا بالخطر الداهم منذ تأسيس عقبة بن نافع لمدينة القيروان. لقد نجح كَسيلة زعيم قبيلة أَوْرَبَة في تأليب القبائل على المسلمين، فقام أبو المهاجر بفتح الحصون التي مر بها حتى انتهى نحو تِلِمْسان بالمغرب الأوسط(٢)، ثم صالح كسيلة وهادنه حتى أسلم ومعه كثير من قومه، فساند أبا المهاجر حتى سيطر على بقايا تلمسان(٣). وبعد ذلك توجه أبو المهاجر نحو قرطاجنة معقل الروم في إفريقية، فصالحه أهلها على أن يدَعُوا له جزيرة شَريك (باشو الآن) جنوبي قرطاجنة سنة ٥٩هـ. بعدها أقام أبو المهاجر في عسكره حتى تم عزله(٤).

ولاية عقبة بن نافع الثانية:

استجاب يزيد بن معاوية لعقبة بن نافع، وأزال أسباب شكواه، وردّه على إفريقية ثانية(٥)، فشفى عقبة غليله من أبي المهاجر، فشد وثاقه بالحديد(٦)، وخرّب معسكره الذي أقامه، وأعاد تعمير القيروان ثانية بانتقال

(١) رياض النفوس ١ / ٢٠ (تحقيق: د. حسين مؤنس)، وتاريخ المغرب (العصر الإسلامي) للدكتور السيد سالم ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) رياض النفوس للمالكي (تحقيق: د. حسين مؤنس) ١ / ٢١، والبيان المغرب ١ / ٢٨ .

(٣) الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى للسلاوي ١ / ٣٧ .

(٤) تاريخ خليفة بن خياط (ط. مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٧م) ص ٢٢٦ ، وفتح العرب للمغرب ص ١٦٧ - ١٧٦، وتاريخ المغرب (العصر الإسلامي) للدكتور السيد عبدالعزيز سالم ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٥) البيان المغرب لابن عذاري ١ / ٢٣ .

(٦) فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٨ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الجند والناس إليها[1]. هذا، وقد أسر عقبة كسيلة مع أبي المهاجر، وما كان له أن يأخذه بجريرة غيره، لاسيما أن الرجل أسلم وحسن إسلامه. ولم يكتف عقبة بذلك، بل قام بالإساءة إليه أيما إساءة، حين كلفه بأعمال لا يقوم بها إلا عبيده كذبح الأغنام وسلخ جلودها، فكان كسيلة يمسح لحيته بيده، ويتوعد عقبة في نفسه[2]، إلى أن أجرى اتصالاته بالبيزنطيين وبقبيلته، ونجح في الفرار من الأسر، حيث قام بالتربص بعقبة والإيقاع به وقتله، كما سنبين بعد قليل .

ترك عقبة بالقيروان حامية من ستة آلاف مقاتل بقيادة زهير بن قيس البلوي، ووصى أولاده قبل خروجه للجهاد في سبيل الله[3]، واتجه نحو (باغايه) أسفل جبل الأوراس، وألحق بالروم هزيمة كبيرة هناك، ونجح في دخول بلاد الزاب (الجزائر الآن)، فكسر تحالفًا روميًا نصرانيًا بها، حيث اضطرهم إلى الفرار، وكذلك نجح في الإجهاز على تحالف رومي بربري آخر في (تاهرت)، ثم توجه إلى المغرب الأقصى، حيث وصل إلى (طنجة)، وانحدر إلى الجنوب في (صنهاجة)، والسوس الأدنى، ثم وَليلَى(قرب مدينة فاس)، متجهًا نحو الجنوب (السوس الأقصى) جنوب أغادير الحالية (الواقعة على مصب وادي السوس الذي يصب في المحيط الأطلنطي)[4].

استشهاد عقبة:

لا ريب أن عقبة ﷺ وقع في بعض الأخطاء التي أدت - في النهاية-

---

(١) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار (نشر: المكتبة العتيقة - تونس ١٩٦٧م) ص ٣٠ . يرى المالكي أن عقبة جدّد بناء القيروان، وشيّدها، فعمرت وعظم شأنها . (رياض النفوس - تحقيق: د. حسين مؤنس) جـ١ ص٢٢ .

(٢) البيان المغرب ١ / ٢٩ .

(٣) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني.(طبعة تونس) ص ٤٠ وبعدها .

(٤) المصدر السابق ص ٤٠-٤٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

إلى استشهاده، حيث اندفع في غزواته دون تريث ولا تمهل ولا تبصر، ولم يكن يتوقف أمام القلاع والحصون والمدن التي تستعصي على الفتح، بل يكتفي بالتقدم السريع في الصحراء مكتفيًا بما أخضع من مدن رئيسة، ولم يتوقف في المغرب الأوسط من أجل إقامة معسكر ثابت تتمركز فيه بعض قواته، وتصل إليه منه الإمدادات، وتمنع التفاف البربر المعادين وحلفائهم من الروم حول جيشه، وتحميه من قطع خط الإمدادات وعمل الكمائن المفاجئة التي أودى أحدها بحياته بعد ذلك، كما أن سياسته الحادة العنيفة مع زعيم قبيلة أوربة جلبت عليه عداء القبيلة كلها، فتحالف البرانس مع بيزنطة ضده، وكنا ننتظر أن يضمد جراح البربر، ويستخدم معهم سياسة اللين والهدوء والتسامح لكنه لم يفعل، إضافة إلى طول القتال وحلول التعب والإرهاق والملل بالجند، وقد تركوا أهليهم وذويهم في القيروان[1]. ولذلك فقد عاد معظم جيش عقبة وهو في طريقه إلى القيروان، عندما بلغوا (طُبْنة) على مسيرة ثمانية أيام منها، وسار هو في قليل من جنده ومعه أبو المهاجر، ثم عرج على (تهودة) في نواحي نهر الزاب بالاستيلاء عليها، وترك حامية إسلامية بها، ففوجئ بقوات كسيلة والروم التي انقضت عليه ومن معه، حتى نال هو وأبو المهاجر ومعظم جنده الشهادة في سبيل الله، أواخر سنة ٦٣هـ، أو أول سنة ٦٤هـ وترتب على ذلك تعرض القيروان لخطر حقيقي، حيث تقدم كسيلة بقواته، ودخلها وإن لم يَرْتَدّ، ومنح المسلمين بها الأمان. واضطر زهير نائب عقبة بها إلى الانسحاب نحو برقة بعد أن كان يريد الدفاع المستميت عنها، لكن التابعي حَنَش بن عبدالله الصنعاني نصحه بعدم

(١) فتح العرب للمغرب ص ٢٠٢- ٢٠٤، وتاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول ١ / ١٦٦- ١٦٩.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

المواجهة؛ حتى لا تزداد خسائر المسلمين، فالقوى غير متكافئة في تلك المعركة الخاسرة، والمعنويات هابطة بعد فقدان والي وقائد إفريقية[1] .

زهير بن قيس البلوي (٦٩-٧١هـ):

اضطر زهير للانتظار طيلة هذه السنوات؛ نتيجة عدم الاستقرار في دار الخلافة الأموية بالشرق بعد وفاة يزيد بن معاوية (٦٤هـ)، وحدوث الاضطراب والفراغ السياسي بتنازل معاوية ابنه عن الخلافة، ثم الصراع الداخلي وتولى مروان بن الحكم ووفاته سريعًا (٦٥هـ)، فتطلب الأمر بعض الوقت كي تستقر الأمور نوعًا ما للخليفة الجديد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ). أمد عبد الملك زهيراً بجيش فيه أشراف أهل الشام. وكان زهير من التابعين الصالحين، الذي شاركوا في فتح مصر قديمًا، وله تجارب سابقة ومشاركة لعقبة في حملتيه من قبل، فهو أجدر بالقيادة من سواه، وأفضل من يثأر لعقبة وللمسلمين، ويستعيد لهم إفريقية من جديد[2].

وصل زهير إلى القيروان في عيد الأضحى سنة ٦٩هـ[3]، وشرع في المسير للقاء كسيلة وقواته في ذي القعدة من السنة نفسها فيما أرجح. وكان كسيلة عسكر بجيشه خارج القيروان في منطقة (ممس) وتحصن بها وبجبلها، وهي تقع على ماء، وإقامة كسيلة بالقيروان غير مأمونة العواقب، فقد يغدر به العرب المسلمون الموجودون بها. وعند انتصار كسيلة ينقض على طرابلس ويقطع دابر المسلمين، وإلا فر بجيشه في الجبل. التقى زهير بجيش البربر،

(١) راجع: الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣ / ٤٥١-٤٥٣، ونهاية الأرب للنويري ج٢٤ ص٣٠ - ٣١، والبيان المغرب ١ / ٣٠-٣١ .

(٢) نهاية الأرب للنويري جـ ٢٤ ص٣٢ .

(٣) رياض النفوس للمالكي (تحقيق: د. حسين مؤنس) جـ١ ص٢٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

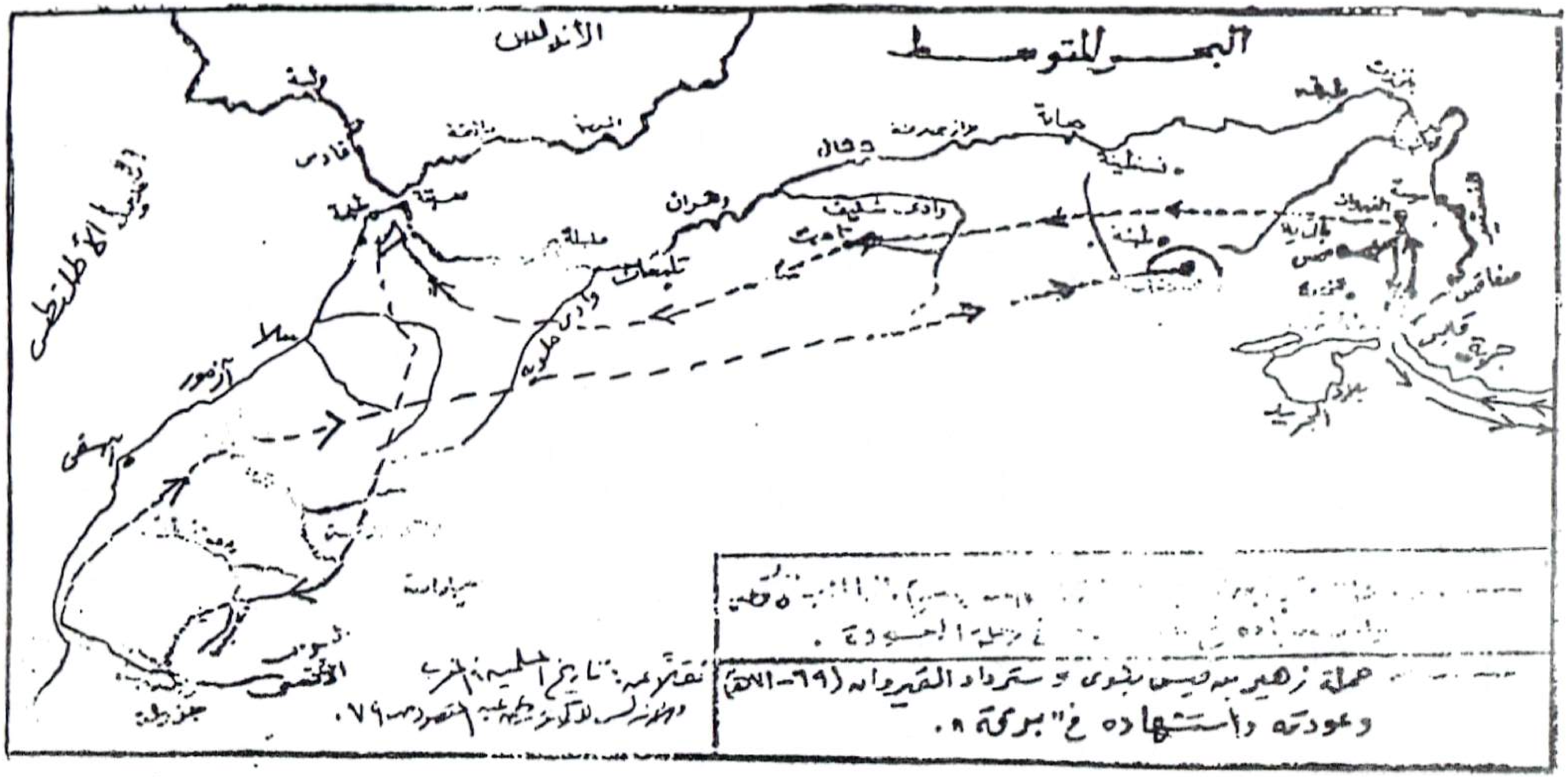

حملة زهير بن قيس البلوي و استرداد القيروان (٦٩-٧١هـ) وعودته واستشهاده في "برقة".

وتمكن من تحقيقه النصر، وقتل كسيلة في ميدان المعركة[1]، لكن فرحة المسلمين لم تكتمل بالنصر؛ لأن البيزنطيين انتهزوا فرصة خروج زهير من برقة، وهجموا على المدينة بأسطولهم من جزيرة صقلية، فغنموا وسبوا النساء والأطفال، ورآهم زهير وجنده عند العودة من المعركة، فانحازوا إلى الساحل لإدراك السبي في قوة ضئيلة لم تستطع اللحاق بالسفن، فظلوا يقاتلون حتى لقوا الشهادة، وخسر المسلمون قائداً جديداً ومعركة جديدة[2] .

ثالثاً: مرحلة إتمام الفتح وتخطي العقبات السابقة (٧٣-٩٢هـ):

وهي المرحلة التي تم فيها فتح بلاد المغرب، ذلك الفتح الذي طال أمده ما يقرب من سبعين عامًا؛ نتيجة وعورة تضاريس تلك البلاد، وامتدادها، وعظم الصحراء بها، وطبيعة سكانها (البربر) ذوي الشخصية المتميزة والسمات الخاصة، التي تحتاج إلى سياسة معينة؛ كي يسلس قيادها، ويُتمكن من إقناعها بالانضواء تحت لواء الدين الجديد، والفاتحين الجدد. وقد أساء بعض القادة فهم نفسية هؤلاء المغاربة، وأساءوا معاملة بعض قادتهم، واصطدم بهم؛ مما أدى إلى عنادهم وتماديهم في مقاومة المسلمين، والتحالف مع البيزنطيين ضدهم. كذلك تأخر إتمام الفتح لبلاد المغرب؛ نتيجة عدم وجود سياسة واضحة ولا إستراتيجية محددة في مرحلته الأولى (الاستطلاع والاستكشاف)، فلم يحاول المسلمون إنشاء قاعدة مستقرة خاصة بهم داخل تلك البلاد ينطلقون منها، ويعودون إليها، فبدت الغزوات الأولى أشبه بمعارك سريعة وهجمات خاطفة تسعى للحصول على المغانم الوفيرة، وتعود أدراجها ثانية. ولم تأخذ المعارك شكلاً جديداً إلا بعد ولاية عقبة بن نافع

---

(١) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ٤٧ - ٥٣، وفتح العرب للمغرب ص ٢٢٣-٢٢٥ .
(٢) البيان المغرب ١ / ٣٣، وفتح العرب للمغرب ص ٢٢٥ - ٢٣٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

إفريقية وتأسيسه مدينة القيروان[١]. وكذلك صعّب مهمة الفاتحين المسلمين، وأجّل حسم معاركهم عدم تتابع إرسال الجيوش الإسلامية خاصة بعد الانكسارات والهزائم التي كانت تتعرض لها، ولعل في سوء الأوضاع الداخلية في دولة الخلافة دخلاً كبيراً في التوقفات الكثيرة التي أصابت نشاط الفتوح في بلاد المغرب؛ نتيجة الظروف العسيرة غير المواتية، التي قاست ويلاتها الدولة الأموية من الثورات وحركات التمرد الداخلية، التي استنفدت طاقاتها، وشتتت جهودها، وشغلتها فترات ليست بالقصيرة عن فتوحاتها الخارجية[٢].

١- حسان بن النعمان الغساني (٧٣-٨٥هـ):

بعد أن فرغ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان من أزمة ابن الزبير، واستقرت شئون الخلافة الأموية الداخلية، التفت إلى بلاد المغرب من جديد؛ لاستعادة ما فقده المسلمون بها، ومواصلة الفتوحات مرة أخرى، واستعادة هيبة الإسلام والمسلمين بعد الإخفاقات المتوالية التي تعرضت لها جيوشهم، وفقد بعض قادتهم. اختار عبد الملك قائداً من مغاوير قادة الشام الأكفاء المخلصين لبني أمية، إنه (حسان بن النعمان الغساني) أحد أحفاد الغساسنة حماة إمبراطورية الروم في بلاد الشام قبل الإسلام، وكان يلقب بـ (الشيخ الأمين)[٣].

---

(١) وقد رأينا عزل عقبة عن منصبه وهو في أوج نشاطه؛ نتيجة تدخل والي مصر والمغرب (مسلمة ابن مخلد) في هذا الأمر، وإيعازه إلى معاوية بعزله، ومهادنة خلفاء بني أمية لولاة مصر ذوي النفوذ الكبير المسيطر على شئون المغرب، وسنرى موقف عبد العزيز بن مروان والي مصر (٦٥-٨٦هـ) من حسان بن النعمان بعد جهوده الكبيرة المخلصة في فتوح المغرب، وخدمة بني أمية، حيث انتهى الأمر بعزله وهو في قمة انتصاراته وإصلاحاته الداخلية.

(٢) راجع تفاصيل عقبات الفتح في (تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس) للدكتور طه عبد المقصود ص ٤٠-٤٤.

(٣) البيان المغرب ١ / ٣٩.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

تقدم حسان بجيش قوامه أربعون ألف جندي متوجهًا من دمشق سنة ٧٣هـ إلى مصر، حيث أقام بها يستكمل استعداداته، وقد أمر الخليفة عبدالملك بن مروان أن تؤخذ نفقات الجيش من خراج مصر[١]. ثم توجه حسان سنة ٧٤هـ إلى إفريقية، ودخل القيروان، وأصلح من شئونها، ووضع خطة العمل المبنية على ضرورة الفصل بين الروم والبربر، ومحاربة كل فريق على حدة، وبدأ بمواجهة الروم؛ للقضاء على وجودهم بإفريقية بإسقاط عاصمتهم (قرطاجنة)، حيث وقع قتال عنيف أدى إلى انتصار المسلمين، وفرار الناجين من البيزنطيين والأفارقة في مراكب أسطولهم نحو صقلية وجزر البحر الأبيض، ووقوع كثير من جندهم في الأسر، وقام حسان بتخريب ميناء قرطاجنة؛ حتى لا يعود الروم عن طريقه مرة أخرى، وبلغ حسان عودة الروم إلى قرطاجنة ثانية، فحاصرها حصاراً شديداً، وقتل من بها قتلاً ذريعًا، وأمر بتخريبها حتى صارت كأمس الغابر. وطارد حسان فلولاً من الروم هربت إلى صَطْفورة وبِنْزِرت غربي إفريقية، وبُونة (عِنّابة شرقي الجزائر الآن)، وباجة (غربي بونة)، وإن لم يتماد في مطاردتهم إلى آخر مدى؛ حفاظًا على قوى جنده، الذين أنهكتهم الحرب، وفَشَتْ فيهم الجراحات[٢].

(١) ذكر ابن عذارى أن عبد الملك كتب إلى حسان وهو بمصر: «إني قد أطلقتُ يدك في أموال مصر، فأعط من معك، ومن ورد عليك، وأعط الناس، واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه». (البيان المغرب ١ / ٣٤). ويلاحظ أن ابن عذاري أرخ قدوم حسان إلى إفريقية سنة ٧٨هـ وليس هذا دقيقًا. وظاهر كتاب عبد الملك إلى حسان يفيد حرية تصرف الأخير في خزينة مصر، وأعتقد أن هذا ليس دقيقًا؛ لأن والي مصر أيامها كان عبدالعزيز بن مروان أخا الخليفة، وولي عهده. والأرجح أن عبد العزيز هو الذي ينفق على الجيش، ويمده بالأموال والعتاد اللازم للقيام بالفتح.

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٤-٣٥، وتاريخ المغرب وحضارته للدكتور حسين مؤنس، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٩٩.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

حسان في مواجهة الكاهنة:

علم حسان بظهور زعيمة للبربر من قبيلة جِراوة الزناتية، حيث تجمع حولها بربر الأوراس (جبال أطلس الشرقية)، فهدف حسان إلى القضاء عليها؛ حتى تدين له بلاد المغرب الأوسط بالطاعة. رحلت الكاهنة بقوات لا حصر لها، والتقيا بوادي مَسْكيانة، ورغم وجود جيش حسان أعلى الوادي مما يعطيه ميزة حربية، إلا أن جيشه هزم هزيمة شنيعة حوالي سنة ٧٥هـ، وتبعتهم الكاهنة حتى أخرجته من عمل قابس، وضاعت بذلك إفريقية، حيث لم يستطع حسان المرور على القيروان لاصطحاب المسلمين بها، أو على الأقل تنبيههم لأخذ الحيطة والحذر[١]. وعلى كل، فقد سار حسان بعد الفرار سيرًا هادئًا؛ أملاً في أن يلحق به من نجا من أصحابه[٢]. أقام حسان في برقة لبعض الوقت في حصون أقامها هناك عرفت بـ (قصور حسان)، وكان ينتظر المدد من الخليفة بعد أن كتب إليه معللاً له نتيجة المعركة الدامية أمام الكاهنة، حيث ذكر له أن أمم المغرب ليس لها نهاية، فكلما بادت أمة، خلَفَتْها أمم أخرى، فهي في الكثرة كالإبل السائمة[٣]. أقام حسان ينتظر مزيداً من القوات مدة خمس سنوات، وهو يحلم بيوم الخلاص النهائي من الكاهنة وجيوشها، وتوجيه ضربة قاضية للبربر في المغرب الأوسط.

حملة حسان الثانية ضد البربر (سنة ٨٠ أو ٨١هـ):

ملكت الكاهنة إفريقيا كلها، وأساءت السيرة في أهلها، وسامتهم سوء العذاب. وعجلت الكاهنة بنهايتها عندما ظنت أن المسلمين أتوا إلى بلاد المغرب من أجل سلب خيراتها، ونهب ثرواتها، فقامت بتخريب إفريقية

---

(١) البيان المغرب ١ / ٣٥-٣٦، وفتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس ص ٢٤٩ .

(٢) معالم الإيمان للدباغ ١ / ٦٢ .

(٣) الكامل لابن الأثير ٤ / ١٣٦ ، والبيان المغرب ١ / ٣٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

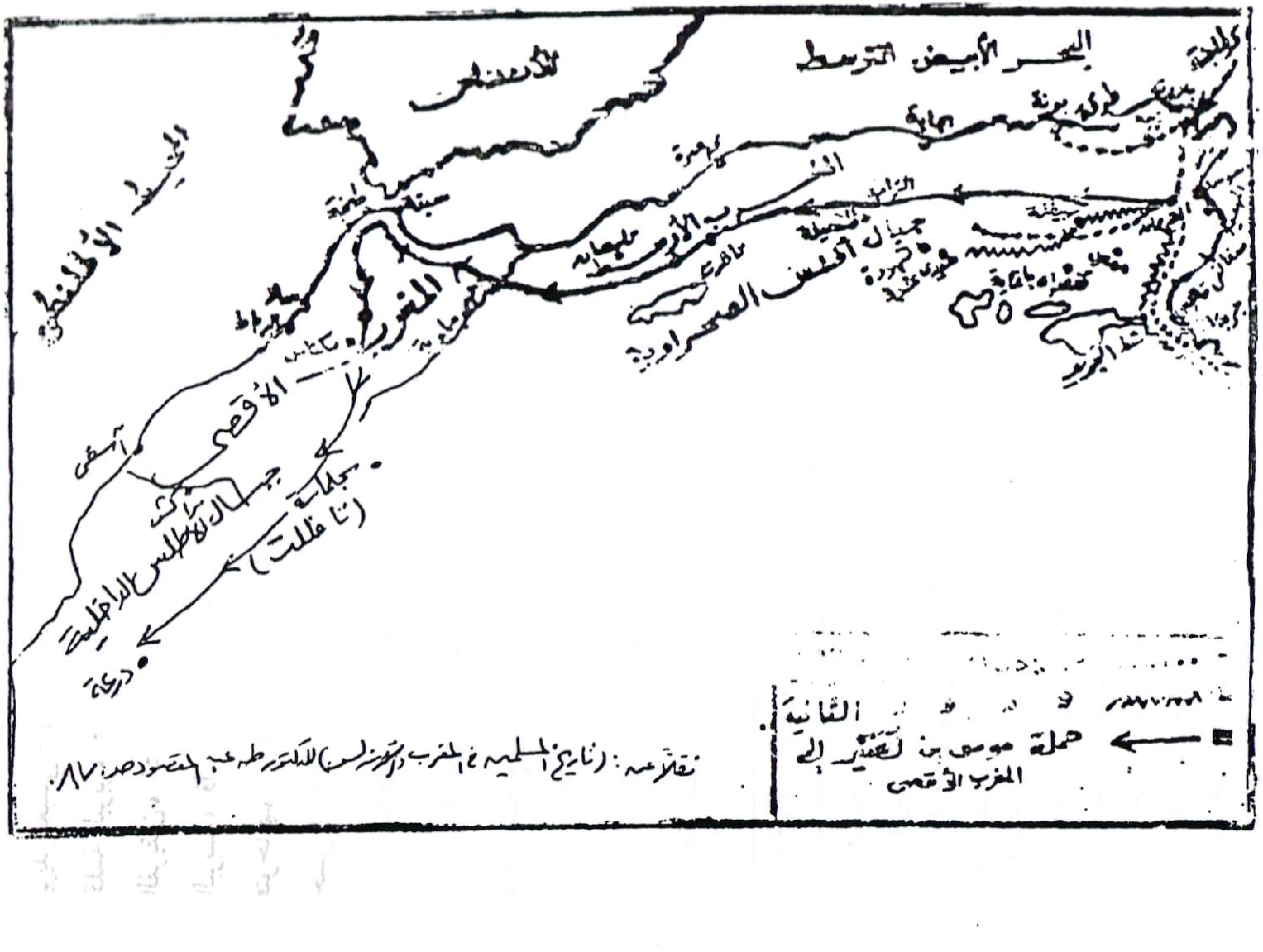

نقلاً عن: (تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس) للدكتور طه عبد المقصود ص ٨٧.

وتدمير أشجار الزيتون والكروم، لدرجة أن البربر استغاثوا بحسان من أفعالها، وبذلوا له الأموال والطاعة. وكانت المعلومات التي أرسلها خالد بن يزيد العبسي- وكان وقع في أسر الكاهنة- إلى حسان بن النعمان تفيد تفرق كلمة البربر، فتقدم المسلمون بجيوشهم نحوها، ووقعت معارك ضارية بين الفريقين، انتهت بانتصار المسلمين، وانهزام الكاهنة وقتلها. بعد ذلك استأمن البربر، فأمنهم، واشترط على اثني عشر ألفًا منهم مشاركة المسلمين في فتوحاتهم. ولاشك أن الإسلام فشا بين البربر[1]، وبدهي ألا يطمئن إلا لمن حسن إسلامه وجهاده .

إصلاحات حسان الحضارية[2]:

أ- الاهتمام بمدينة القيروان، وتوسيع عمرانها، ومسجدها، وتحويلها إلى مركز إشعاع ينشر الإسلام بين جموع البربر المتعطشة لمبادئ وشعائر وشرائع الإسلام الحنيف .

ب- إقامة ميناء ومدينة تونس سنة ٨٤هـ بديلاً عن قرطاجنة، وإنشاء دار لصناعة السفن بها[3]، تمهيدًا لتحويله إلى ثغر إسلامي كبير يحتضن أسطولاً

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤ / ١٣٦ .

(٢) راجع التفاصيل في: فتح العرب للمغرب للدكتور حسين مؤنس ص ٢٧٣-٢٨٠، وتاريخ المغرب وحضارته للدكتور حسين مؤنس، المجلد الأول، الجزء الأول ص ١٠٥ - ١١١، وتاريخ المسلمين في المغرب والأندلس للدكتور طه عبد المقصود ص ٨٩ - ٩٢ .

(٣) شاركت مصر في بناء أسطول إفريقية في تونس، إذ أمر عبد الملك بن مروان أخاه والي مصر عبدالعزيز بن مروان بتوجيه ألف أسرة قبطية من مهرة الصناع إلى إفريقية لعمل الأسطول، وأوصاه بالاستكثار من المراكب، ومجاهدة الروم برًا وبحرًا، وشغلهم عن بلاد الإسلام بالإغارة على سواحلهم . (تاريخ إفريقية والمغرب) للرقيق القيرواني ص ٦٥- ٦٦ . هذا، وقد عدّد د. حسين مؤنس ميزات تونس بأنها كانت تقع جنوب قرطاجنة، وتطل على سبخة فسيحة لا يفصلها عن البحر غير برزخ صغير استرعى انتباه حسان؛ لأن وقوعه إلى الداخل على شاطئ السبخة قليلاً يحبب العرب في سكنى المكان؛ لأنه ليس بحريًا صرفًا، فهو في مأمن من الغارات المفاجئة، حيث يتمكن المرابطون على مدخل السبخة من تنبيه أهل الميناء قبل حلول الخطر بهم. (فتح العرب للمغرب) ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يليق بدولة الإسلام ويزاحم الأسطول البيزنطي في البحر الأبيض، ويساهم بدور فعال في المستقبل في فتح جزره المختلفة .

جـ- إشراك البربر في حكم بلادهم، وإلحاقهم بالجيش الإسلامي، ومنحهم الغنائم والرواتب بعد انتشار الإسلام بينهم، واعتبار بلادهم فتحت صلحًا لا عنوة، والإبقاء على أراضيهم بأيديهم يؤدون خراجها، بينما امتلك الغانمون أراضي الروم. وبذلك تحقق العدل وطبقت المساواة في بلاد المغرب.

نهاية حسان بن النعمان:

عانت بلاد المغرب وقادة الفتح به تدخل ولاة مصر في شئونهم، وقد لمسنا -من قبل- تعنت مسلمة بن مخلد والي مصر والمغرب في عزل عقبة بن نافع وتولية مولاه أبي المهاجر بدلاً منه. وقد نشب خلاف حول الغنائم بين عبدالعزيز بن مروان والي مصر وحسان بن النعمان، على اعتبار أن نفقات حملتي حسان - غالبًا- كانت من خزينة ولاية مصر، فأمر عبد العزيز بعزله، لاسيما وقد ثبت أنه خبأ الجواهر الثمينة منه، ولم يعطه منها شيئًا، وآثر بها الخليفة[1] . وعلى كل، فقد عرض عليه الخليفة أن يرده على عمله ثانية، لكنه اعتذر وأقسم ألا يلي لبني أمية أبدًا. وبعدها بقليل توفى إلى رحمة الله بعد أداء واجبه في بناء دولة الإسلام[2].

٢- موسى بن نصير (٨٥-٩٢هـ)[3]:

ولي موسى بن نصير شئون المغرب بعد عزل حسان بن النعمان أواخر

---

(١) البيان المغرب ١ / ٣٨-٣٩ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٩، وتاريخ المغرب وحضارته للدكتور حسين مؤنس، المجلد الأول، الجزء الأول ص ١١٣ .

(٣) ولد أبو عبد الرحمن موسى بن نصير اللخمي بالولاء سنة ١٩هـ (في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ)، فهو من التابعين. روى عن تميم الداري ﷺ، وكان عاقلاً كريمًا شجاعًا، ورعًا تقيًا لله تعالى، =

٨٥هـ، أو بداية سنة ٨٦هـ بتزكية من والي مصر الأثير لديه عبدالعزيز بن مروان. دخل موسى بن نصير إفريقية، فاهتم بتصفية جيوب المقاومة، وفتح الحصون والقلاع التي لم يكن المسلمون قد استولوا عليها بعد، مثل: قلعة زَغْوان (على مسيرة يوم من القيروان)[١]. وبذلك فطن موسى إلى أماكن الخطر القريبة، فقام بنزع خطورتها، وتأمين ظهر جيشه وخطوطه الخلفية، وسلامة إمداداته قبل أن ينتقل إلى العدو الأقصى. هذا، وقد أكمل موسى فتح البلاد بالتوجه إلى المغرب الأقصى، حيث وصل إلى سلا (الرباط الحالية)، ودرْعة، وسِجِلْماسَة، ومواطن السوس الأدنى والأقصى حيث أماكن قبيلتي صِنْهاجة ومصمودة، وظل موسى يتقدم حتى وصل إلى طنجة أقصى الشمال الغربي[٢]، وتوقف عند (مدينة سَبْتَة) مفتاح بلاد الأندلس، وهي جزء من طنجة، وكان يحكمها من قبل الإسبان حاكم يعرف بـ (يليان)، ولم يعبأ موسى بفتحها لشدة تحصيناتها، وقربها من البحر، وصعوبة إتمام محاصرتها؛ لمجيء الإمدادات إليها من البحر، ولوجود علاقة جيدة بين طارق بن زياد وبين حاكمها، الذي سيلعب دوراً طيبًا فعّالاً في تقديم يد العون والمساعدة للجيوش الإسلامية التي تعبر مضيق جبل طارق نحو الأندلس بقيادة طارق بن زياد البربري والي طنجة الذي ناب عن موسى في حكمها، ورابط هنالك في اثني عشر ألفًا من البربر، وألف وسبعمائة من العرب كما جاء في بعض الروايات[٣]؛ مما يدل على نجاح موسى في نشر الإسلام وتثبيته في نفوس

=لم يُهزم له جيش قط. كان والده نُصير على حرس معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وله عنده منزلة مكينة، حتى إن معاوية لم يستطع إجباره على الخروج لقتال علي بن أبي طالب ﷺ. توفي موسى في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك عند الرجوع من الحج بوادي القرى، أو مَرّ الظَّهْرَان سنة ٩٧هـ. (وفيات الأعيان لابن خلكان ٥ / ٣١٨-٣١٩، ٣٢٩).

(١) البيان المغرب ١ / ٤٠، وفتح العرب للمغرب (جعل فتحها سنة ٨٦هـ) ص ٣٢٩.

(٢) البيان المغرب ١ / ٤٢، وتاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول ١ / ٢١١-٢١٣.

(٣) فتوح مصر وأخبارها ص ٢٠٤، والبيان المغرب ١ / ٤٢ (جعل عدد العرب سبعة عشر ألفًا).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

البربر[1]، بحيث صاروا أغلبية الجيوش الفاتحة، وعلى أكتافهم وبسيوفهم سيتم فتح الأندلس تحت قيادة قائد بربري الأصل (طارق بن زياد)، فمعرفتهم بالأندلس وطيدة؛ لذا كانوا أجدر من غيرهم خوضًا لغمار معاركه.

لقد حقق موسى انتصارات هائلة مدوية على البربر في المغرب الأقصى، وأفاضت المصادر في ذكر روايات غنائمه وأسلابه وجواريه، وفيها بالطبع مبالغات غير معقولة[2]. واهتم - كذلك - بإرسال القائد عيّاش بن أخيل في الأسطول، فسار في البحر إلى صقلية، حيث أصاب مدينة سرقوسة، وعاد من حملته محملاً بالغنائم سالمًا[3]. وأخيرًا، فإن بعض الدارسين يرون أن موسى بن نصير أسرف في الغزو والغنائم؛ ليرضي الخليفة ورجاله، أولئك الذين تطلعوا إلى أعداد السبي الكبيرة، والمغانم الوفيرة. لقد آذى البربر إيذاءً شديدًا، وكان اهتمامه مركزًا على المغانم، ولم يحفل بما سبّبه ذلك من حقد متأصل على العرب وكراهية شديدة لهم في نفوس البربر، تعذر معها انتزاعها من قلوبهم فيما بعد، ولم يفطن إليها موسى بن نصير[4]. ويضاف إلى ذلك أنه جلب على نفسه حقد الحاقدين في البلاط الأموي، لاسيما أن موسى رزق بأولاد نجباء عديدين (مروان، وعبدالله، وعبدالعزيز، وعبد الأعلى)،

---

(١) يذكر ابن خلدون في تاريخه ٦ / ١٣٥ : أن البربر كانوا كثيري الارتداد عن الإسلام، ولم يثبت في قلوبهم إلا في عهد موسى بن نصير. ويؤكد دور موسى في ذلك الأمر ابن عذارى، فيذكر اهتمامه بعد فتح المغرب الأقصى بتكليف العرب بتعليم البربر القرآن، وتفقيههم في الدين قبل أن يعود إلى إفريقية . (البيان المغرب ١ / ٤٢). ولا شك أنه نشر قبل ذلك في المغرب الأوسط .

(٢) السابق ١ / ٤٠، وتاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس، المجلد الأول، الجزء الأول، ص١١٨ .

(٣) البيان المغرب ١ / ٤٢ .

(٤) تاريخ المغرب (العصر الإسلامي) للدكتور السيد سالم ص ١٧١-١٧٢، وتاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ١٢٢ . ولعل شدة موسى بن نصير راجعة إلى كثرة غدر البربر بالقادة الفاتحين من قبله، فعاملهم بالشدة والقسوة؛ لينجو من مؤامراتهم .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

كانوا قادة مرموقين مبرّزين في المغرب والأندلس، شاركوه في حركة الفتوح، وحققوا الانتصارات والغنائم الكثيرة، واستنابهم أبوهم على الأقاليم المفتوحة، فكانوا عرضة للوشايات الكثيرة، التي أودت بحياة بعضهم في نهاية مأساوية مفجعة لا تتلاءم مع جهادهم الطويل المبارك[١].

***

(١) وسوف نشير - فيما بعد - إلى مقتل كل من: عبد الله بن موسى بن نصير، وما تعرض له من اضطهاد قبل ذلك. وكذا مقتلُ عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأندلس.

الفصل الثاني

فتح بلاد الأندلس

(٩٢-٩٥هـ / ٧١١-٧١٤م)

هذه مقدمات ضرورية[١] موجزة، نلم بها سريعًا قبل تناول (أحداث فتح الأندلس)، وهي كما يلي:

أولاً: حول جغرافية (الأندلس):

١- **من حيث الموقع:** بلاد الأندلس عبارة عن شبه جزيرة، تقع في الجنوب الغربي من أوربا، وتحيط بها المياه من ثلاث جهات ما عدا الجهة الشمالية الشرقية، التي توجد بها جبال (البُرْت، أو البُـرْتات) الفاصلة بين الأندلس والأرض الكبيرة (فرنسا).

وتطل الأندلس على البحر الأبيض من الشرق والجنوب الشرقي، وعلى المحيط الأطلسي من الغرب والشمال الغربي، ثم تطل على مزيج من هذا البحر وذاك المحيط في الجنوب، حيث (مضيق جبل طارق)، الذي يعد ملتقى الاثنين، والفاصل الضيق بين شمالي أفريقيا وجنوبي الأندلس.

٢- **من حيث السطح:** يتكون سطح شبه الجزيرة من هضبة كبرى، تشغل جزءًا هائلاً من المساحة، وتكاد تطوقها سلسلة جبال. ففي الجنوب جبال سيرا مورينا. (أي: الجبال السمراء)، وتفصل تلك الجبال بين الهضبة وسهل جنوبي كبير، يمتد حتى أقصى الجنوب. وترتفع من السهل الجنوبي جبال (الثلج).

---

(١) راجع المزيد عن جغرافية الأندلس، ومصطلحها، وأحوالها قبل الإسلام في: (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) للمراكشي ص ٥-٨، و(نفح الطيب) للمقري ١ / ١٢٧ وبعدها، (والأدب الأندلسي) للدكتور أحمد هيكل ص ١٣-٢٤، و(التاريخ الأندلسي)، للدكتور عبد الرحمن الحجي ص ١٩-٣٢، ٣٥ وما بعدها، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس) للدكتور حسين مؤنس ص ٢٢٩- ٢٣١، ٢٣٣ - ٢٣٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

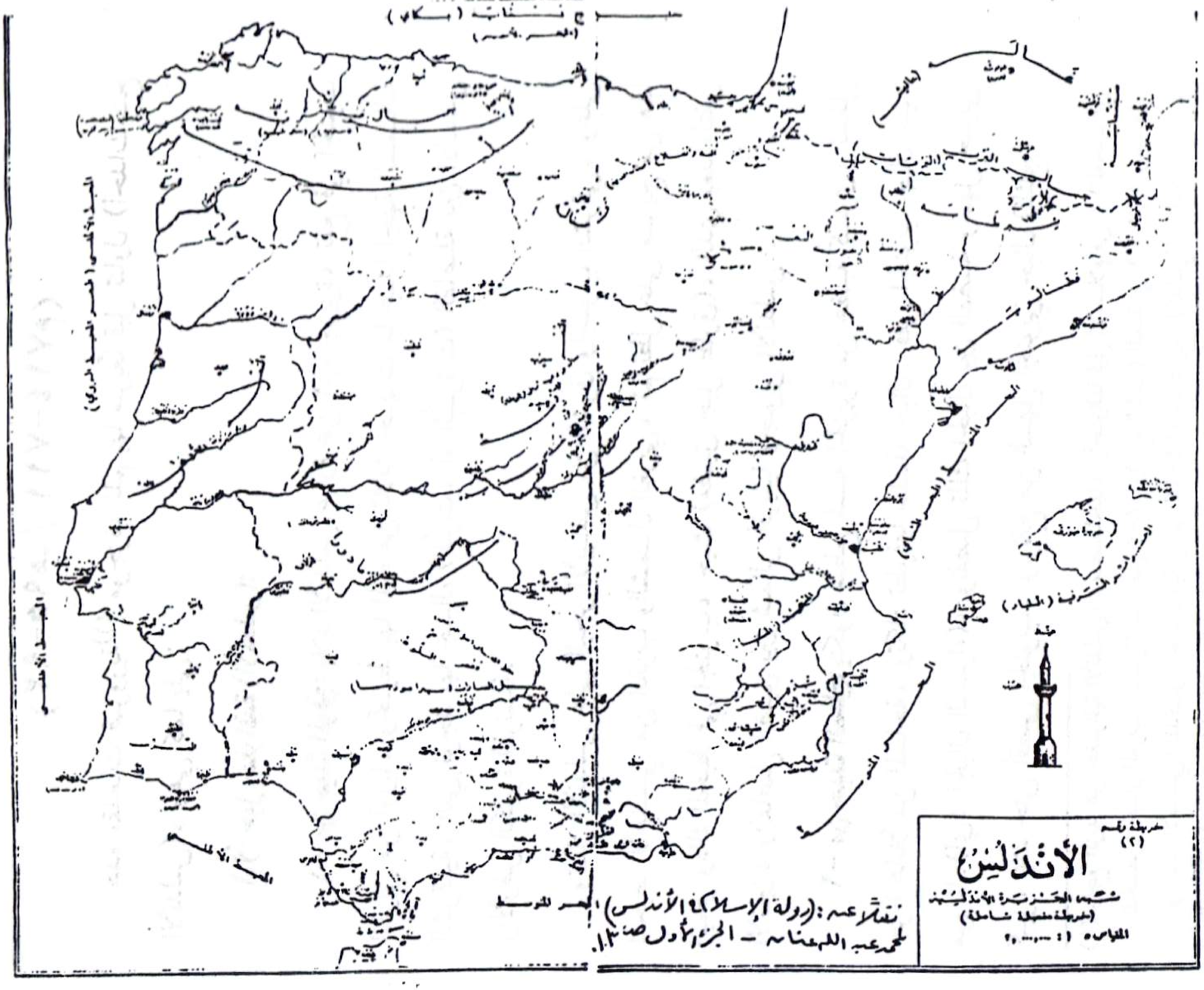

نقلاً عن: (دولة الإسلام في الأندلس)
لمحمد عبد الله عنان – الجزء الأول ص١٣.

وفي شرق الهضبـة سلسلة جبال أخرى (الجبال الإيبـيرية)، وهي تفصل بين الهضبة والسهل الشرقي الممتد حتى البحر الأبيض .

وهكذا الحال في شمال الهضبة، حيث توجد سهول ساحلية ضيقة، وفي الغرب تنحدر الهضبة حتى تصل إلى سهل واسع كبير (السهل الغربي).

٣- أنهار الأندلس: رأينا - فيـما سبق- كـثرة السـلاسل الجبلية في شـبه الجزيرة، وكيف أنها يتبع بعضها بعـضًا، وتتلو كلاً منها أودية وسهول، تنشأ على ضفاف البحار والمحيطات .

توجد في الأندلس العديد من الأنهار، التي تنبع من وسط شبه الجزيرة، ويصب معظمها في المحيط الأطلنطي. وأهم الأنهار من الجنوب إلى الشمال: نهـر الوادي الكبـيـر، ويروي أكـثر أراضي السـهل الجنـوبي، ويمر بمدينتي: قرطبة، وإشبـيلية، ثم يصب غربًا في المحيط الأطلسي. وبعده شـمالاً: نهر وادي يانه، ويليه شمالاً نهر التاجُـه الذي يمر وسط الهضبة، وعليه تقع مدينة طليطلة .

وهناك أنهار تصب شرقًا في البحـر الأبيض، حيث تروي مناطق الشمال والشـمال الشـرقي تقريـبًا (مـثل: نهر إبْرُه) الذي يروي إقـليمًـا عظيمًـا من الأندلس، وأهم مـدنه سرقـسطة. ويوجد نهـر الوادي الأبيض، الذي يروي جزءًا كبيرًا من شرقي الأندلس مارًا بمدينة (بلنسية).

وعلى هذه الأنهـار وغيـرها، إضافـة إلى الآبار والعيـون والأمطار (في منطقة الهضبة الوسطى بالذات) تـقوم الزراعة في الأندلس، وتتنوع المحاصيل بتنوع المناخ، الذي يقرب في المناطق الشماليـة من مناخ أوربا، بينما يشبه في الجزء الجنوبي شمالي أفريقيا .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٤- **ثغور الأندلس:** من المعلوم أن شبه الجزيرة إقليم واسع، تبلغ مساحته ستمائة ألف كيلو متر مربع (٦٠٠,٠٠٠كم٢)، وسنرى أن المسلمين لم يفتحوا كل هذه المساحة، وإنما أغفلوا الزاوية الشمالية الغربية منها، فكانت نواة لإقامة ممالك نصرانية بعد ذلك، لعبت دوراً خطيراً في استرداد نصارى الشمال لبلاد الأندلس، وطرد المسلمين منها، ومن هنا فقد وجد ما يُعرف بـ (الثغور)، أي: المناطق المتاخمة على الحدود مع الممالك الإسبانية النصرانية[١].

وهذه الثغور الأندلسية هي:

(أ) الثغر الأعلى (الأقصى): عاصمته سرقسطة، ويواجه مملكة نبارة (نافار) النصرانية.

(ب) الثغر الأوسط: عاصمته مدينة سالم، ثم طليطلة، ويواجه مملكتي: (قشتالة، وليون).

(جـ) الثغر الأدنى: ويقع بين نهري: (دُوَيْرُه، وتاجُهْ)، وكانت عاصمته طليطلة، ثم صارت (قورية).

ثانياً: حول مصطلح الأندلس[٢]:

لعل أرجح الآراء يتمثل في أن هذا الاسم (أندلس) مأخوذ من (وَنْدَلُس) Vandalos وهو اسم أطلق على بعض القبائل الأوربية الشمالية، التي أغارت

---

(١) تكونت حوالي القرن الرابع الهجري ثلاث دويلات نصرانية هي:

(أ) ليون: في الشمال والشمال الغربي، وتضم جليقية، وأشتوريس. وعاصمتها (ليون).

(ب) قشتالة: تقع بين (ليون، ونافار)، وعاصمتها (بُرْغُش).

(جـ) نافار: تقع في الشمال والشمال الشرقي، حيث تسكن قبائل البَشْكُنْس، وعاصمتها (بنبلونة).

(٢) راجع مزيداً من التفاصيل في: (التاريخ الأندلسي) للدكتور الحجي ص ٣٧- ٣٨، و(الأدب الأندلسي) للدكتور هيكل ص ١٣ - ١٦، و(دراسات أندلسية) للدكتور الطاهر مكي ص ٩-٢٨، و(معالم) للدكتور مؤنس ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

- أوائل القرن الخامس الميلادي- على ممتلكات الرومان، وعُرفت بقبائل (الونْدال)، وسكنت جنوبي شبه الجزيرة، وسموه باسم (فندليسيا) نسبة إليهم. فلعل الفاتحين المسلمين أحدثوا تغييراً صوتيًا عن طريق همز الصوت الأول، فتحول من (وندلس) إلى (أندلس).

ثالثاً: شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامي[1] :

خضعت شبه الجزيرة قبل الفتح الإسلامي لحكم القوط الغربيين (وهم من شعوب الجرمان)، الذي اقتحموا بلاد الإمبراطورية الرومانية، وتقاسموها بينهم منذ أواخر (القرن الرابع الميلادي).

دخل القوط الغربيون بلاد الإمبراطورية الرومانية (أوائل القرن الخامس الميلادي)، ورافقوا أبناء عمومتهم (القوط الشرقيين)، واستقروا في غالة (فرنسا).

وهنا تقدم الشرقيون، واستقروا في إيطاليا، وأزالوا الإمبراطورية الرومانية في الغرب بدخولهم روما سنة ٤٧٦م. أما الغربيون، فمدوا نفوذهم إلى شبه الجزيرة وطردوا الوندال منها أوائل القرن السادس الميلادي، واستقلوا بها كلها منذ ذلك الحين واتخذوا طليطلة عاصمة لهم.

اعتنق القوط المسيحية على المذهب الأريوسي القائل بطبيعة واحدة للمسيح، مخالفين بذلك رعايهم الكاثوليك القائلين بالطبيعتين، ولذلك كان العداء بينهم شديداً، ورغم تحول أحد الملوك (ريكاردو) إلى مذهب الشعب، إلا أن الطابع العام المسيطر هو الإستبداد والبطش والفوضى، وسوء أحوال

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في : (فجر الأندلس) للدكتور حسين مؤنس ص ٢-٢٢ . و(الأدب الأندلسي) للدكتور هيكل ص ٢١-٢٤ ، و(المسلمون في الأندلس) لدوزي (ترجمة: د. حسن حبشي) ١ / ٢٧- ٣٩، ٤٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الناس المعيشية، وتعالى الطبقة الحاكمة عليهم من النبلاء، وابتزاز أموال الطبقة الوسطى عن طريق الكنيسة والضرائب الباهظة. أما عوان الناس، فكانوا عبيدًا لملاك الأرض. في ظل هذه الأجواء الفاسدة - خاصة في عهد (رودريك) - كان فتح الأندلس.

أولاً: الأسباب التي دفعت المسلمين إلى فتح الأندلس:

بعد أن أتم القائد المسلم موسى بن نصير (١٩-٩٧هـ) فتح بلاد المغرب ووطد أركان الحكم الإسلامي بها حتى وصل إلى (طنجة)، وجد أن فتح (سبتة) قد استعصى عليه، فأقام أحد قادته من البربر واليًا على (طنجة)، وهو (طارق بن زياد)، وجعله على رأس سبعة آلاف جندي. ثم أخذ موسى يعيد حساباته، ويدرس الأوضاع في (سبتة)، وفيما وراءها (بلاد الأندلس)، حتى عقد العزم على المضي قدمًا لفتح الأندلس، مدفوعًا بالعوامل الآتية:

١- إتمام أداء رسالة المسلمين في تلك المنطقة، التي تعد امتدادًا جغرافيًا لبلاد المغرب(١). ولا نقول: إن المسلمين قدموا لنشر الإسلام؛ كي لا يظن أنه إكراه على الدين باستخدام القوة، بل هو تعريف لذلك الجزء من العالم بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا، وإن اتخذت طابع استخدام القوة، فهي قوة موجهة- أساسًا- إلى الحكام القوط الغربيين وجندهم ممن استبدوا بالأمر، وأساءوا إلى الشعب، فكان لابد من تحطيم هذا الحاجز، الذي يحول بين المسلمين وبين الشعب المغلوب على أمره.

---

(١) اتضح من التصور الجغرافي لشبه الجزيرة - فيما مضى - مدى التقارب الشديد بين بلاد المغرب وشبه الجزيرة. ويساعد على ذلك امتداد جبال (البرت) الفاصلة بين الأندلس وفرنسا من ساحل البحر الأبيض إلى المحيط الأطلنطي، بما يجعلها سدًا حائلاً بين البلدين، اللهم إلا من بعض الممرات الجبلية، ويؤدي في الوقت نفسه إلى التقارب النباتي والحيواني بين طنجة وسبتة بالمغرب، والجزيرة الخضراء، ومنطقة جبل طارق في الأندلس. (موسى بن نصير)، للدكتور العدوي ص ٦٣ - ٦٤.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢- تأمين فتوحات المسلمين ببلاد المغرب: وتلك سياسة عسكرية صالحة، دأب المسلمون على اتباعها في فتوحاتهم، إنهم يفتحون البلد، ثم يستقرون فيه ويتمركزون، ثم يتخذونه قاعدة للانطلاق إلى الذي يليه، من أجل تأمينه. هكذا فعلوا في فتوح (مصر والمغرب)، وكذا يؤمنون المغرب الأقصى من هجمات (القوط في شبه الجزيرة).

٣- استغلال الحماس، والروح الجهادية الغامرة، التي تملأ نفوس وقلوب الجند، خاصة أولئك المرابطين مع طارق في (طنجة)، وتوظيف ذلك في فتح بلاد جديدة، يعرفها جيش طارق - ومعظمه من البربر - جيداً؛ مما يَسَّر جمع المعلومات، ورسم الخطط الكفيلة بتحقيق النصر.

٤- سوء الأحوال الداخلية في شبه الجزيرة: هذا العنصر السلبي المعبر عن ضعف وتفرق صفوف القوط يكمل العنصر الإيجابي السابق المتمثل في قوة وحماس وتوحد صفوف المسلمين. فالسخط العام استشرى بين صفوف الشعب هناك، والجيش وقياداته منقسمة؛ نتيجة اعتلاء رودريك (لذريق) عرش الحكم هناك، مغتصبًا السلطة من الملك وتيزا (غيطشه)؛ مما أسخط أبناء وموالي الملك السابق، إلى جانب خلاف حاد ناشب بين يوليان (حاكم سبتة من قبل القوط، وبين لذريق هذا[1] . وقد دفع بغض هؤلاء للذريق إلى الاتصال بالمسلمين في (طنجة)، ومد يد العون إليهم ؛ ليعبروا إلى بلاد الأندلس، فيخلصوهم من الطاغية، ويستعيد أصحاب العرش عرشهم، مقابل منح المسلمين بعض الغنائم والأموال والكنوز.

---

(١) تذكر الروايات أن احتدام العداء والبغض من جانب (يليان) نحو (لذريق)، إنما يرجع إلى اعتداء الأخير على ابنة الأول، إبّان وجودها في قصره على ما جرت عليه عادة كبار رجال الدولة من إرسال بناتهم؛ لتتم تنشئتهن في البلاط القوطي. (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم ص ٢٠٥، و(البيان المغرب) لابن عذارى جـ٢ ص٧، و(تاريخ ابن خلدون) جـ٤ ص ١٥٠ .

ثانياً: المراحل التي مر بها المسلمون في فتح الأندلس[1] :

١- المرحلة التمهيدية الاستطلاعية:

تم الاتصال بين (موسى بن نصير)، و(يليان) عن طريق (طارق بن زياد) للاتفاق على ترتيبات فتح الأندلس. وكان من الحكمة أن يترك موسى لقائده إجراء هذه الاتصالات؛ لإخفاء أهداف المسلمين عن (يليان)، كما نجح طارق في إيهامه أن العرب سيساعدونه في القضاء على لذريق في مقابل أموال وكنوز يغتنمونها، ثم يعودون إلى المغرب، ويُعتقد أن يليان توجه إلى (القيروان)، وشرح لموسى ظروف بلاد الأندلس، وثراءها، وهوّن عليه رجالها[2] .

راسل موسى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ)، وشرح له الموقف، وعرض عليه خططه، وبذلك جعل الخلافة متضامنة معه ومسئولة، وعلى علم بكافة التطورات؛ كي تمده بالمساعدات عند الحاجة[3] . فالأمر أمر فتح واستقرار، ونشر للإسلام، لا مجرد مغانم وأسلاب. وقد ظهر حرص الخلافة على أرواح جند المسلمين، فأمر الوليد موسى أن يختبر تلك البلاد بالسرايا أولاً[4] ؛ ليتحقق صدقَ معلوماته عنها؛ لأن القوط أقوياء، وذوو خبرة بالمعارك، ولهم حيل ومكائد، ولهم تجربة في إسقاط الإمبراطورية الرومانية في غرب أوربا .

---

(١) يمكن مراجعة تفاصيل فتح الأندلس في : (البيان المغرب) ٢ / ٤-١٩، ودولة الإسلام في الأندلس ، لمحمد عبد الله عنان (العصر الأول، القسم الأول) ص ٣٨ - ٦١، و(فجر الأندلس) ص ٥٢-١١٠، وموسى بن نصير للدكتور العدوي ص ٧٥ - ١٢٥، و(في تاريخ المغرب والأندلس) للدكتور أحمد مختار العبادي ص ٥٨ - ٧٨، والتاريخ الأندلسي للحجي ص ٤٥-١٢٨ ، والمسلمون في المغرب والأندلس للدكتور محمد محمد زيتون ص ١٥٧ - ١٨٠ .

(٢) نفح الطيب للمقري ١ / ٢٥٤، و(موسى بن نصير) للعدوي ص ٧٠، ٧٣ - ٧٤ .

(٣) نفح الطيب ١ / ٢٦٥ .

(٤) أخبار مجموعة، لمؤلف مجهول ص ١٦، والبيان المغرب ٢ / ٥ . قال الوليد لموسى: (ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال). قال موسى : ليس ببحر، إنما هو خليج، يصف صفة ما خلفه للناظر. قال الخليفة: وإن كان، فاختبره بالسرايا .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

استجاب موسى لتوجيهات الخليفة، وأعد حملة عسكرية صغيرة، قوامها (أربعمائة جندي)، عليهم قائد يدعى (طريف بن مالك)، وذلك في سنة إحدى وتسعين (٩١هـ / ٧١٠م). وعبرت هذه القوات على سفن يليان، ونزلت جزيرة عُرفت باسم ذلك القائد فيما بعد، وشن طريف عدة حملات استطلاعية على سواحل جنوبي شبه الجزيرة إلى ما وراء الجزيرة الخضراء، وعاد سالمًا محملاً بالأموال والغنائم[1] . ولا شك أنه قدم لموسى تقريراً وافيًا مطمئنًا عن تلك المنطقة، وطبيعة تحصيناتها، وأحوال أهلها.

٢- دور طارق بن زياد في فتح الأندلس:

كان موسى بن نصير يشرك قائده طارقًا في التخطيط والإعداد في سرية تامة، لا يعرف أهدافها الحقيقية يليان، ولا تتسرب أنباؤها إلى لذريق. ثم قام باختيار قائده الكفء البربري الذي يعرف المكان معرفة وثيقة، المحنك سياسيًا وحربيًا (طارق بن زياد)، وأمده بعدد من القادة المستشارين (عبد الملك بن أبي عامر، وعلقمة اللخمي، ومغيث الرومي، وغيرهم). واكتفى موسى بما مع طارق من جند فإذا نجحت الحملة أمدها بمزيد من الجند والسلاح. وقد رأى موسى أن يتولى يليان نقل الجند على سفنه، وتولى حراستها، والقيام بمهمة الدليل لها. وقد كان الأسطول الإسلامي قد أُعدّ على عهد موسى، وله قاعدة مهمة في تونس، وله نشاطه المعروف في البحر الأبيض، فآثر موسى ألا يثير الشك بتحريك الأسطول، فقد حرص أن تحركات الجند عن عيون وجواسيس القوط؛ لتتم المفاجأة، فذلك مطلوب في المراحل الأولى للفتح، ولاسيما عند نقل الجنود بحراً، مما يحتاج إلى دقة متناهية، واحتياط كبير[1] .

---

(١) البيان المغرب : جـ٢ ص٥ .

(٢) موسى بن نصير، للدكتور العدوي ص ٧٨ - ٨١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عبرت قوات طارق في شهر رجب سنة اثنتين وتسعين (٩٢هـ / أبريل- مايو ٧١١م) على أربع سفن، في جماعات اجتازت بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، واختفت كل جماعة في جهة خاصة بها على الشاطئ، واتخذت الحملة مركزًا لها عند الجبل، الذي حمل اسم طارق.

كان طارق حريصًا على دعم نقاط ارتكازه قبل التوغل في البلاد؛ كي يتجنب الهجمات المفاجئة، ويضمن انسيابية خطوط إمداداته. وقد نجح في إرسال حملة بقيادة (عبد الملك بن أبي عامر)، استولت على الجزيرة الخضراء أمام جبل طارق، فسيطر المسلمون بذلك على (بحر الزقاق)، وصاروا على صلة وثيقة بـ (سبتة) قاعدة الاتصال بالمغرب. وقد وقع هذا دون مقاومة؛ لأن التوقيت كان دقيقًا؛ إذ كان لذريق قد سار بمعظم جيشه إلى أقصى الشمال؛ لمواجهة القلاقل والثورات هناك.

معركة الخندق:

قرر لذريق العودة سريعًا، لما بلغه ما تم على أيدي المسلمين، وقام بتجميع الصفوف على عجل، وأراد دخول قرطبة قبل استيلاء المسلمين عليها؛ لأنها مفتاح السيطرة على سهول الأندلس الجنوبية والشرقية، وبها يتم الاستقرار في البلاد. وبالفعل كان هدف طارق الاستيلاء عليها، فزحف شمالاً، واقترب من بحيرة الخندق، التي يخترقها نهر (البرباط)، لكنه فوجئ بقوات هائلة للقوط، سبقته إلى (قرطبة)، واتخذ لذريق معسكره عند (شَذونة) في سهل (البرباط). وبمجرد أن أرسل طارق يطلب المدد إلى موسى، حتى أمده بخمسة آلاف جندي، معظمهم من الخيالة، أرسلهم دفعة واحدة على سفن الأسطول الإسلامي؛ لإنقاذ الموقف.

قامت المعركة بين الجانبين يوم الأحد (٢٨ رمضان ٩٢هـ / ١٩ يوليو

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

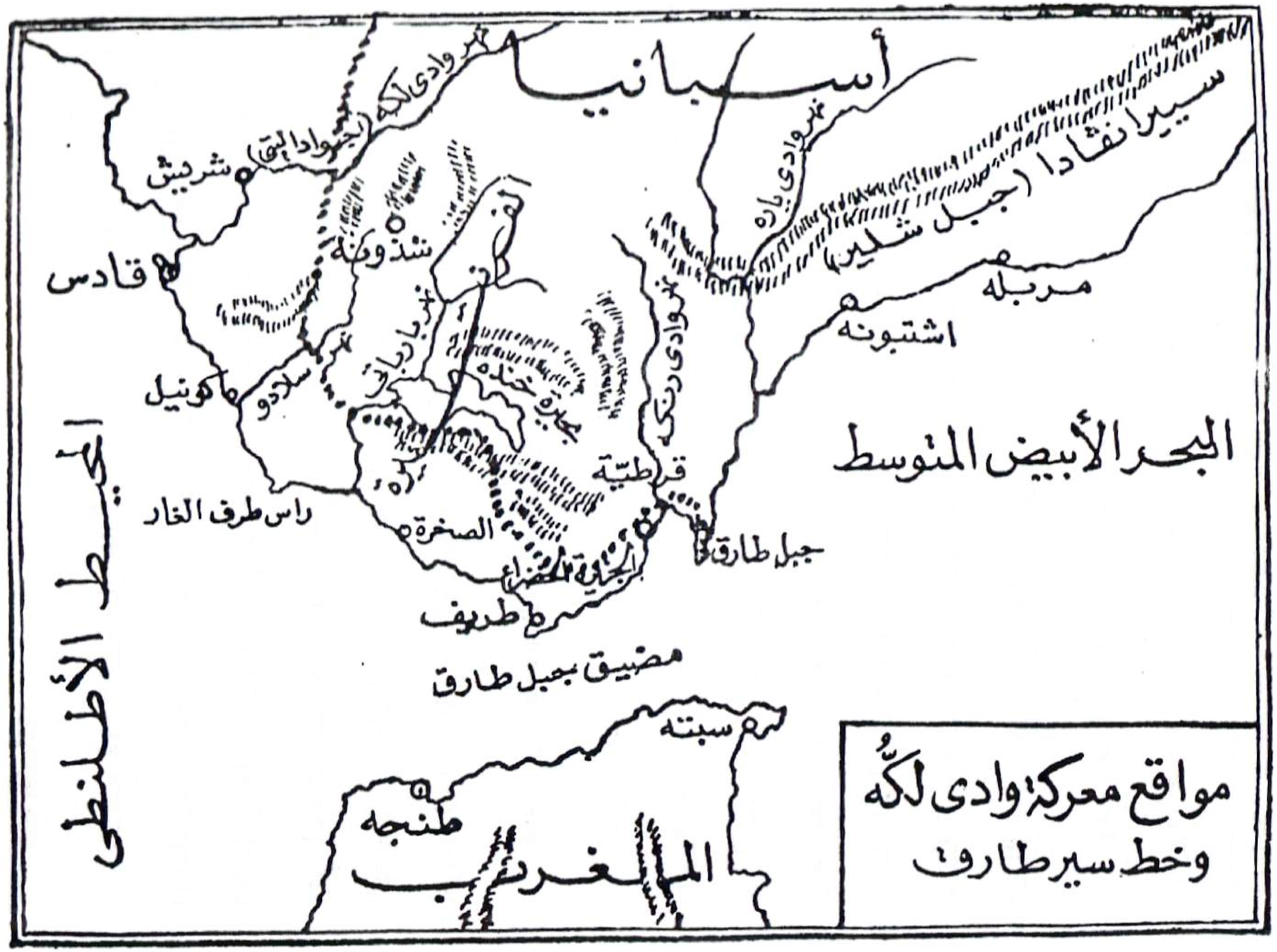

مواقع معركة وادي لكُّه
وخط سير طارق

٧١١م)، وظلت المناوشات ثلاثة أيام، حتى حل الضعف والانقسام بين صفوف جند القوط، وهربت الخيالة، وثار معظم الجيش وهم من العبيد. فلما رأى لذريق هزيمة جيشه، اضطر إلى الفرار من المعركة .

فتح طليطلة:

شجع هذا الانتصار طارقًا على إحراز المزيد من الانطلاق في أرض الأندلس، وتطلع لأخذ قرطبة من أيدي القوط، لكنه لقي مقاومة عنيفة في الطريق إليها، فاستولى على العاصمة (طليطلة)؛ لمنع تجمع فلول القوط بها. وفي الوقت نفسه أرسل قوات، استطاعت فتح قرطبة، ثم طارد فلول الهاربين من (طليطلة)، حتى بلغ مدينة (المائدة) ذات الكنوز الثمينة، ثم عاد أدراجه ثانية، وأقام في (طليطلة)، وقد دخل فصل الشتاء[١] .

موسى بن نصير وانطلاقه إلى الأندلس:

تدارس موسى حقيقة الموقف بيقظة وحذر، بعد أن انطلقت العجلة الحربية بسرعة، وتعرضت فتوحات المسلمين لخطر محقق؛ نتيجة توغل طارق في البلاد، مما أدى إلى تباعد خطوط الإمداد والتموين للجيش المسلم، وتعرضها للقطع على أيدي القوط؛ إذ إن هناك معاقل قوية كثيرة ممتدة، لم يسيطر المسلمون عليها. ولذلك رأى موسى أنه لابد من تحرك سريع، فأعد جيشًا قوامه ثمانية عشر ألفًا من خيرة جند العرب والبربر، وقسمه حسب القبائل؛ ليسهل العبور دون فوضي.

وفي رمضان سنة ثلاث وتسعين (٩٣هـ / يونيه ٧١٢م) وصل موسى إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس، فاطمأن إلى حسن ترتيب الجند، ثم أرسل إلى

---

(١) راجع : فتوحات طارق في الأندلس في: (تاريخ افتتاح الأندلس) لابن القوطية ص ٣٣-٣٥، و(الكامل) لابن الأثير ٤ / ٢٦٤ - ٢٦٩، والبيان المغرب ٢ / ٧ وما بعدها.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

طارق يأمره بالتوقف في (طليطلة). وقد ظن البعض أن موسى عبر إلى الأندلس طمعًا في الغنائم، وحسدًا لطارق، ومنافسة له، إذ أراد أن يفتح فتوحًا أعظم من فتوحه. والحق أن هذه الروايات غير دقيقة؛ لأن موسى وطارقًا كان كلاهما يعمل بالتنسيق مع الآخر، فموسى هو القائد العام الذي يخطط ويتابع ويوجه، بينما كان طارق يقوم بالتنفيذ. ثم إن توزيع الغنائم كان منوطًا بموسى، وما عبر موسى إلى الأندلس إلا حانقًا على طارق؛ لمخالفته تعليماته، وتعريضه الجند لخطر محقق، عندما انطلق وراء فلول القوط دون أن يصفي جيوب المقاومة، ويستولي على الحصون[1] .

قدم موسى إلى الأندلس لضرورة حربية ملحة إذن، محاولاً تدارك خطأ قائده طارق. وقد خطط موسى للاستيلاء على المدن والمراكز الحربية التي تركها طارق وباتت تهدد خطوط مواصلات المسلمين، ورغب أن يتم ذلك قبل التقائه بـ (طارق) في طليطلة. وبالفعل طهر موسى الجيوب المتبقية بين الجزيرة الخضراء التي نزل بها، وقرطبة التي تعد مفتاح السيطرة على الجنوب، ثم سيطر على المناطق الموصلة إلى قرطبة، مثل : شذونة، وقرمونة، وغيرهما. ثم توجه غربًا، وفتح إشبيلية أكبر مدن القوط بعد العاصمة (طليطلة)، وكانت ذات خطر مباشر على قوات طارق؛ إذ إنها مركز التقاء الطرق المهمة في جنوب الأندلس. وقد فتح اليهود أبوابها للمسلمين بعد حصار دام شهوراً، ومعهم بعض سكانها؛ لحنقهم وسخطهم على حكم القوط. هذا وقد انسحبت حاميتها إلى (باجة). ثم سارع موسى للاستيلاء على (ماردة) معقل القوط الخطير. وقد كانت مدينة حصينة ذات أسوار منيعة، وعليها أبراج، وبها حصون قوية، والمسالك إليها وعرة غير ممهدة.

---

(١) موسى بن نصير، للدكتور العدوي ص ٩٣ - ٩٤ .

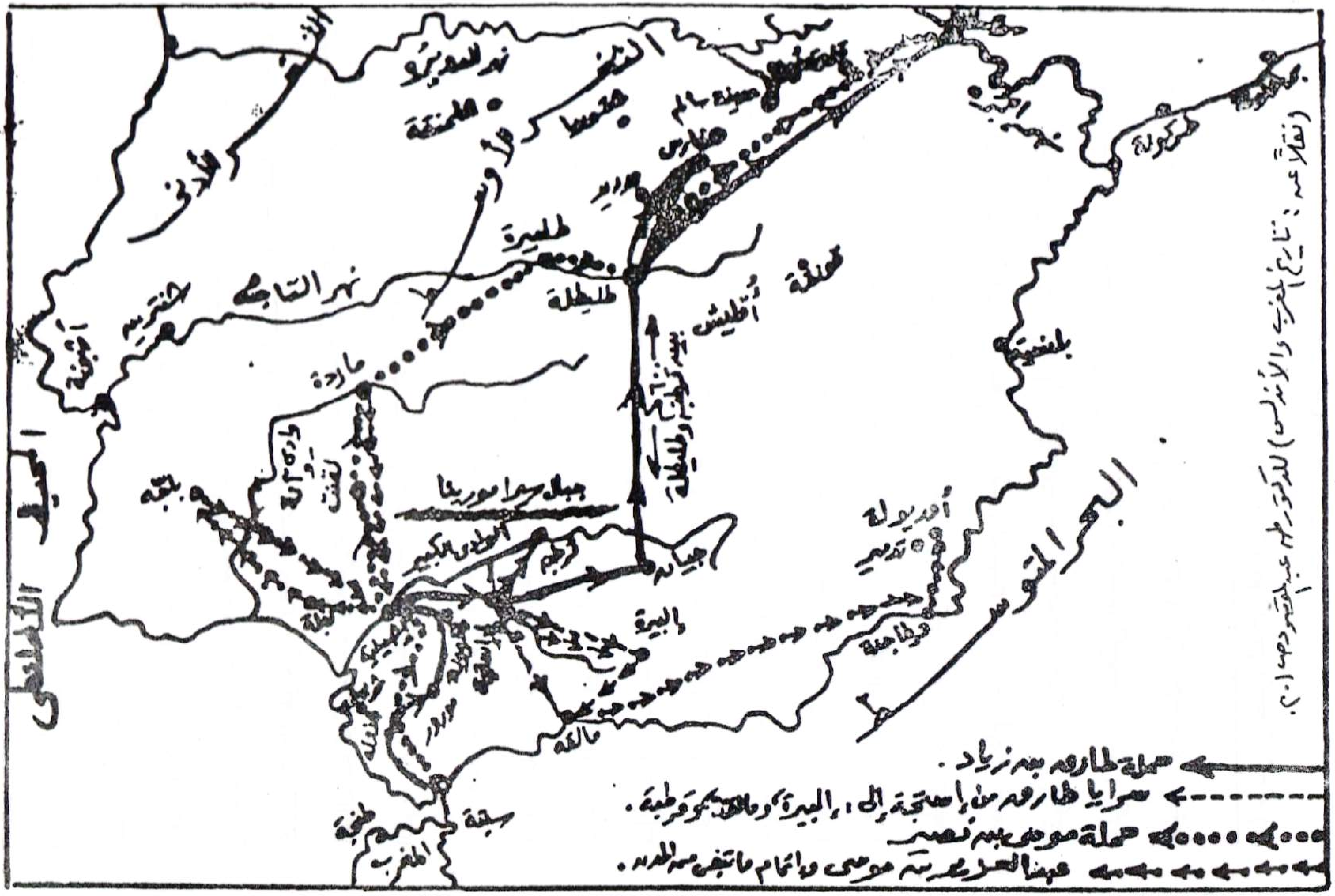
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
نهر التاجه
نهر الدويرة
نهر الوادي الكبير
طليطلة
ماردة
إشبيلية
قرطبة
إستجة
البيرة
مالقة
سبتة
طنجة
المغرب
قرطاجنة
بلنسية
قرطبة
جبال سيرا موريتا
حملة طارق بن زياد.
سرايا طارق من إستجة إلى البيرة ومالقة وقرطبة.
حملة موسى بن نصير.
عبد العزيز بن موسى وإتمام ما تبقى من المدن.
(نقلا عن: تاريخ المغرب والأندلس) للدكتور طه عبد المقصود ص١٠٢.

وقد حاصرها موسى طويلاً، وأعد كمائن عديدة في جهات صخرية مواجهة لها، واستشهد من جنده كثيرون، حتى استسلم أهلها في شوال سنة أربع وتسعين (٩٤هـ / يونيه ٧١٣م).

لاحظ موسى بخبرته وحنكته الحربية أنه يحتاج لتعديل خططه الحربية؛ لأن القوط كانوا ينتهزون فرصة انتقاله من مدينة إلى أخرى بمعظم جيشه، فيعاودون احتلال ما تم فتحه (كما حدث في إشبيلية، عندما غادرها لفتح ماردة، وفوجئت حامية المسلمين بالقوط، فقتل كثيرون، وانسحب الآخرون). ومن هنا فإن موسى - أثناء حصار ماردة - أرسل ابنه عبد العزيز، فطرد القوط من إشبيلية، وغيرها. ثم واجه موسى مدينة (باجة) التي كانت مركز انطلاق مقاومة القوط إلى (إشبيلية وغيرها)، وقد أضحى موسى يعتمد على خيرة قادته الأبطال في تأمين فتوحاته والحفاظ عليها بعد أن كان يعتمد على مؤيديه من أهل البلاد، ومن المنضمين إليه أثناء زحفه .

درس موسى أساليب مقاومة القوط، ورأى أنهم يجيدون اختيار مراكز المقاومة، حيث يتجمعون في النواحي الجبلية الوعرة غربي البلاد، ثم يهاجمون المسلمين شرقيها، كلما كانت الفرصة. وكان موسى لا يريد استدعاء طارق وقواته لمعاونته؛ لكيلا يعاود القوط احتلال طليطلة، لكنه فوجئ باستعدادات لذريق للهجوم على المسلمين متخذاً مقره في شعاب الهضاب، التي تلي (وادي آنه) إلى الشمال، وقام بإخفاء قواته في تلك الجهات الوعرة. فاضطر موسى لاستدعاء طارق وقواته؛ ليلتقيا في منتصف الطريق بين طليطلة وماردة؛ لإنقاذ المسلمين من الهجوم المفاجئ. وسار متخذاً كافة الاحتياطات الأمنية، وعند ناحية تسمى (السواقي) شن القوط هجومهم، فصده المسلمون، وقتلوا لذريق، ثم انطلقوا نحو (طليطلة)؛ ليفوتوا على

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

القوط هجومهم المزدوج المنطلق من (طليطلة)، التي سيطروا عليها بعد خروج طارق منها، ونجح القائدان (موسى، وطارق) في استعادتها ثانية[١] .

وفي طليطلة عاتب موسى طارقًا على تعريضه المسلمين للخطر، فعنفه ووضع السوط على رأسه؛ رمزًا لعقابه[٢] . وليس صحيحًا أنه حبسه، وشد وثاقه، وهَمّ بقتله[٣] ؛ لأن موسى الحازم لا يتهاون في محاسبة أحد يضر بمصالح الجند، ويقدر الخيرات العاملة معه في آن.

تنظيمات موس الإدارية والمالية:

لم يكن موسى بن نصير قائدًا حربيًا قديرًا فحسب، وإنما كان إداريًا ناجحًا أيضًا، فقد عهدناه لا ينطلق فاتحًا أرجاء المغرب، حتى نظم إفريقية وأمّن نواحيها. وكذلك فعل في الأندلس بعد استعادة (طليطلة)، وذلك عندما قام ببعض التنظيمات الإدارية، حيث أرضى أبناء (غيطشه)، وردّ عليهم ما انتزع من ضياعهم، وسكّن مخاوف وشكوك نفوسهم، خاصة بعد أن وقفوا على حقيقة أهداف المسلمين من الفتح. وقد عين بعضهم في وظائف عليا، ونصب أخا (غيطشه) أسقفًا على (طليطلة)، وهو منصب مرموق في المجتمع الأندلسي آنذاك. ولعله كافأ يليان بإبقائه في ولاية (سبتة)، وأقطعه ما حولها.

وفي الجانب المالي اهتم موسى بضرب عملة ذهبية، تُصرف منها رواتب الجند، وأمر بضرب عملة أخرى برونزية؛ لتيسير التعامل اليومي[٤] .

---

(١) راجع جهود موسى في فتح الأندلس في: تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥، والكامل ٤ / ٢٦٩-٢٧٠، والبيان ٢ / ١٢ وبعدها .

(٢) موسى بن نصير، للعدوي ص ٩٩ .

(٣) فتوح مصر ص ٢١٠ .

(٤) موسى بن نصير، للدكتور العدوي ص ١٠١، و(معالم) للدكتور حسين مؤنس ص ٢٣٨ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

موسى يواصل فتوح الأندلس:

تدارس موسى أوضاع المقاومة القائمة على المراوغة، المصرة على عدم إلقاء السلاح؛ مما أتعب الجيش المسلم. وبناء عليه، فإن موسى كان عليه أن يقوم بمسح حربي شامل لكافة أجزاء شبه الجزيرة؛ لتطهيرها من القوط.

تقدم موسى وطارق معًا نحو الشمال لتأمين قواتهما في طليطلة، وزحفا نحو الشمال الشرقي، وقصدا (سرقسطة)، ففر أهلها وأسقفها ورهبانها، فأمنهم موسى، وشيد هناك مسجدًا، أشرف على بنائه التابعي (حَنَش بن عبد الله الصنعاني). وظل موسى يقود قواته حتى مشارف جبال البرت، وشاهد المسلمون سكان تلك الجبال (البشكنس)، وسمعوا لغتهم الغريبة في تراكيبها وأصواتها[1] .

في الوقت الذي كان فيه موسى يؤمن ممتلكات المسلمين شمالي سرقسطة، إذا بمغيث الرومي (مبعوث الخليفة) يأمره بالعودة مع طارق بن زياد فورًا إلى دمشق.

ولاشك أن هذا الوقت الذي تم فيه الاستدعاء لم يكن مناسبًا؛ إذ لابد من مطاردة القوط، والسيطرة على المعاقل الجبلية الشمالية. أحس موسى أن أمرًا ما دُبر له بدمشق، لكنه كان جنديًا يتفانى في الجهاد إلى آخر المدى. من أجل ذلك ألح على مغيث في طلب تأجيل الرحيل، ومنحه قصرًا في قرطبة يستريح فيه، ريثما ينتهي من أداء مهمته الشاقة. وعلى الفور توغل موسى وطارق جهة الشمال، فموسى يسير بشطر الجيش جهة الشمال الشرقي؛ بينما توجه طارق بالشطر الآخر تجاه الشمال الغربي. وقد نجح كلاهما في بسط نفوذه في تلك المناطق، لكن بعض فلول القوط فروا إلى المناطق الجبلية

(١) البيان المغرب ٢ / ١٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

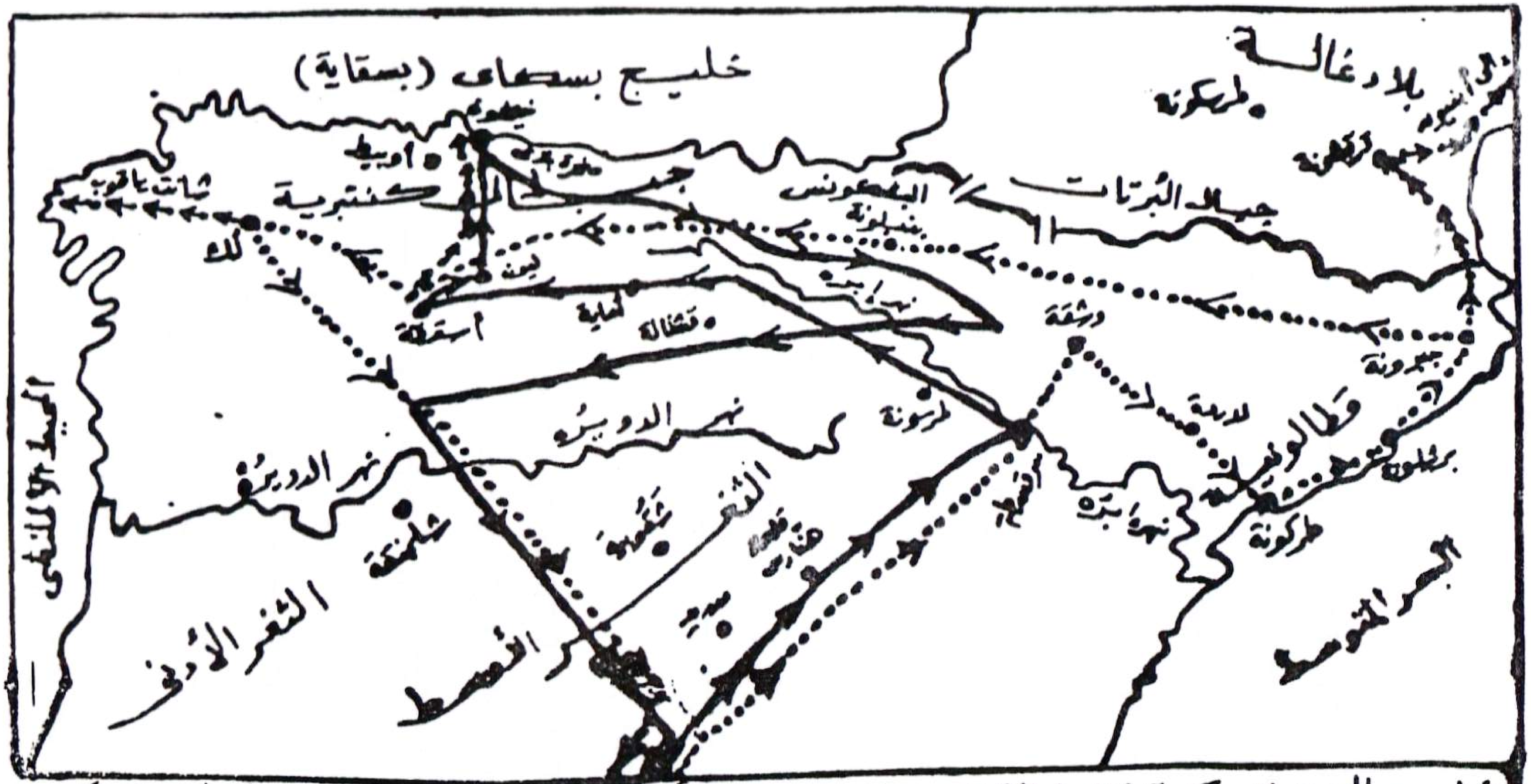

خط سير الحملات العسكرية في المناطق الشمالية من اسبانيا :

خط سير طارق بن زياد .

خط سير موسى بن نصير .

سرايا موسى بن نصير .

نقلاً عن : (تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس) للدكتور - طه عبد المقصود ص ٢٠٣ .

الشمالية، واعتصموا بمكان يسمى (الصخرة)، فطاردهم موسى حتى (خيخون)، وجعل منها حصنًا يحمي ما تم على يديه من فتوح، وهو أقصى ما وصل إليه المسلمون في منطقة (أشتوريس)(١) .

موسى واستدعاء الخلافة له ثانية:

كانت لدى موسى آمال كبار في مواصلة الفتوح فيما وراء جبال البرت؛ لأجل الوصول إلى بلاد الغال (فرنسا). ولعل ما دفعه إلى هذا أن إقليم سبتمانيا (جنوبي فرنسا) كان جزءًا من دولة القوط، وبه تجتمع فلول القوط. وكان الفرنجة يحكمون فرنسا بقيادة الملك شارل، الذي آثر دعم نفوذه في بلاده، وعدم الاصطدام بقوات المسلمين في تلك المرحلة. ولم تكن أحلام موسى لتنتهي عند هذا الحد، وإنما كان يتطلع للإتيان إلى دمشق عن طريق الأندلس، وذلك عن طريق جيش ضخم، يخترق جبال البرت، ويؤازره أسطول بحري كبير، يسير بإزاء الساحل الجنوبي لأوربا، فيسيطر على دولة الفرنجة، ثم لومبارديا (شمالي إيطاليا)، ثم روما، ثم سهول نهر الدانوب حتى القسطنطينية، ومنها يعبر آسيا الصغرى حتى يدخل دمشق(٢) .

هذه الخطة الطموح كان من العسير جدًا تنفيذها، ولعلها بلغت أسماع الخليفة بدمشق، فكانت من جملة أسباب، دفعته إلى التعجيل باستدعاء موسى ومن معه من كبار القادة. لقد رأى البعض أن الخلافة أقدمت على ما أقدمت عليه؛ خشية استقلال موسى بتلك البلاد البعيدة، وأن هذه الهواجس والشكوك تزايدت عندما تلكأ موسى في تنفيذ أمر الخلافة بالعودة إلى دمشق. والحق أن كلا الطرفين معذور في تصرفه، فالمسافة شاسعة بين الخلافة

---

(١) الكامل ٤ / ٢٧٠، والنفح ١ / ٢٧٣ - ٢٧٦ .

(٢) نفح الطيب ١ / ٢٧٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

والأندلس، والخليفة متخوف على جيوشه وجنده، بعدما توغل المسلمون كل هذا التوغل في تلك المناطق النائية ذات الظروف الطبيعية الصعبة، إضافة إلى وجود من يدس لديه الأكاذيب والشائعات حول موسى وفتوحاته. وأما موسى، فإنه رأى أن الاستدعاء أتى في وقت غير مناسب، وأنه لم يُعط الفرصة الكافية لدحر فلول القوط الهاربة. وقد صدقت رؤية موسى الثاقبة؛ إذ إن هؤلاء الموجودين عند صخرة (بلاي)، وكانوا يبلغون ثلاثين رجلاً، كانوا هم أساس نمو مقاومة النصارى للمسلمين فيما بعد. المهم أن الخلافة كانت تريد ضبط الأمور، وتخشى انفلات الزمام من المسلمين، وترى أن الأهدأ والأسلم أن يتريث المسلمون، ويدعموا ما فتحوه قبل الانطلاق إلى ما وراءه، خاصة أن الفتوح لم تكن مقصورة على الأندلس، وإنما وجدت - أيضًا - في المشرق[1] .

وعلى كل، استجاب موسى وأبحر من إشبيلية في ذي الحجة سنة ٩٥هـ بعد جهاد في فتح الأندلس قارب أربع سنوات متصلات في الإعداد والتخطيط والتنفيذ، وعهد بولاية الأندلس إلى ابنه عبد العزيز، وسار في موكب النصر ومعه طارق وغيره من القادة، محملين بالتحف والذخائر والغنائم، مارًا بالمغرب ومصر وفلسطين، حتى حط رحاله - في نهاية الأمر- في دمشق.

***

(١) موسى بن نصير، للدكتور العدوي ص ١١٨ - ١٢٥ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الباب الثاني

عصر الولاة في المغرب والأندلس

ينقسم هذا الباب إلى الفصلين الآتيين:

الأول: المغرب في ظل الحكم الأموي والعباسي .

الثاني: عصر الولاة بالأندلس.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفصل الأول

المغرب في ظل الحكم الأموي والعباسي(*)

تقديم: (قائمة بولاة المغرب):

عبد الله بن موسى بن نصير (٩٥-٩٧هـ / ٧١٤-٧١٦م) .

محمد بن يزيد القرشي (٩٧-١٠٠هـ / ٧١٦ -٧١٨م) .

إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (١٠٠-١٠١هـ / ٧١٨-٧١٩م).

يزيد بن أبي مسلم (١٠١-١٠٣هـ / ٧١٩-٧٢١م) .

بشر بن صفوان الكلبي (١٠٣-١٠٩هـ/ ٧٢٢-٧٢٧م) .

عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١١٠-١١٤هـ/ ٧٢٨-٧٣٢م) .

عقبة بن قدامة التجيبي (١١٤-١١٦هـ/ ٧٣٢-٧٣٤م).

عبيد الله بن الحبحاب (١١٦-١٢٣هـ/ ٧٣٤-٧٤١م) .

كلثوم بن عياض القشيري (١٢٣-١٢٤هـ/ ٧٤١-٧٤٢م).

حنظلة بن صفوان الكلبي (١٢٤-١٢٧هـ/ ٧٤٢-٧٤٥م) .

بعض ولاة المغرب في فترة عدم الاستقرار:

عبد الرحمن بن حبيب (١٢٧- ١٣٧هـ/ ٧٤٥-٧٥٤م).

إلياس بن حبيب (١٣٧-١٣٨هـ/ ٧٥٤-٧٥٥م) .

حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب (١٣٨-١٤٠هـ / ٧٥٥-٧٥٧م) .

بعض ولاة فترة المهالبة:

عمر بن حفص بن قبيصة بن المهلب (١٥١-١٥٤هـ/ ٧٦٨-٧٧١م) .

يزيد بن حاتم (١٥٤-١٧٠هـ/ ٧٧١-٧٨٧م) .

(*) راجع (تاريخ المغرب وحضارته) للدكتور حسين مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ١٣١-١٣٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

روح بن حاتم (١٧١-١٧٤هـ/ ٧٨٧-٧٩١م) .

الفضل بن روح بن حاتم (١٧٧-١٧٩هـ/ ٧٩٣-٧٩٥م) .

نهاية عصر الولاة في إفريقية (أهم ولاة المغرب):

هرثمة بن أعين (١٧٩-١٨٠هـ/ ٧٩٥-٧٩٦م).

محمد بن مقاتل العكي (١٨٠-١٨٣هـ/ ٧٩٦-٧٩٩م) .

محرم ١٨٠- جمادى الآخرة ١٨٤هـ/ فبراير - يونيه ٨٠٠م .

تعريف عصر الولاة في بلاد المغرب:

يبدأ عصر الولاة في المغرب - كغيره من الأقاليم المفتوحة الأخرى- منذ إتمام الفتح الإسلامي ووقوعه تحت تبعية دولة الخلافة، وإرسالها ولاة يحكمونه من قِبَلها، وينفذون سياساتها في تسيير شئونه دلالة على التبعية المطلقة لها. أما بالنسبة لنهاية ذلك العصر، فهي متعددة متباينة بتباين الدول المستقلة التي نشأت على أرضه؛ نظرًا لتعدد أقاليمه. فمثلاً: ينتهي عصر الولاة في سجلماسة بالمغرب الأقصى بقيام دولة بني مِدْرار سنة ١٤٠هـ، وفي وَلِيلَى (قرب طنجة) ثم فاس بالمغرب الأقصى أيضًا قامت دولة الأدراسة سنة ١٧٢هـ، وفي المغرب الأوسط قامت الدولة الرستمية سنة ١٦٤هـ، بينما قامت دولة الأغالبة في إفريقية (المغرب الأدنى) سنة ١٨٤هـ(١) .

أهمية عصر الولاة:

نجح المسلمون بعد حوالي سبعين عامًا من الجهاد والتضحيات في إخضاع بلاد المغرب لسيطرتهم وسلطانهم، وتخلل ذلك محاولات جيدة للامتزاج بسكان المغرب الأصليين (البربر)، وإحداث تغييرات حضارية في ذلك

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٥٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الإقليم. وبعد استقرار المسلمين في هذه البلاد، وتوليهم مسئولية حكمها وإدارة شئونها دخل المسلمون في اختبار حقيقي لقدرتهم على إدارة شئون هذه البلاد الجديدة وفق تعاليم الإسلام، وقواعده النظرية التي نشروها بين البربر، وبمعنى آخر: مدى نجاح حكام المسلمين في تحويل مبادئ الشرع وقوانينه النظرية إلى نظم عملية مطبقة في أرض الواقع، بحيث تحقق الخير والعدل والمساواة للقاطنين في تلك البلاد. لقد تشكلت في هذا العصر شخصية وسمات بلاد المغرب، وظهرت إيجابيات وسلبيات الحكم الإسلامي من خلال موقف الخلافة من الولاة، وعلاقة الولاة بالسكان العرب والبربر على حد سواء، ثم ما ترتب على ذلك كله من نتائج مهمة ذات تأثيرات بعيدة المدى في ذلك العصر، وما تلاه من عصور[١].

المؤثرات الرئيسية في عصر الولاة:

تأثر عصر الولاة بظروف دولة الخلافة وسياساتها وإستراتيجياتها التي تطبقها في الأقاليم التابعة لها، وكذلك مدى كفاءة الخلفاء وطبيعة شخصياتهم وتوجهاتهم، ومدى فهم الولاة للمهام الموكولة إليهم وطريقتهم في التعامل مع التيارات والاتجاهات المختلفة التي تموج بها عناصر السكان في ذلك المجتمع. لقد تطور المجتمع المغربي تطوراً سريعًا متلاحقًا، ولم يعد بعد نهاية عهد موسى بن نصير هو ذلك المجتمع الذي كان مع بداية فتوحات عمرو بن العاص، فهناك التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، والدينية العميقة، وهناك مبادئ وقيم حملها الفاتحون لأهل تلك البلاد ولم يلتزم بها البعض، فأدى إلى شعور البربر بالظلم؛ نتيجة التفرقة بين العرب وبينهم في الحقوق والواجبات، وبدأ البربر يشعرون بانحراف هذه الفئة عن تعاليم الإسلام الحقة؛ لرغبتهم في التميز، أو عن سوء فهم، وقلة علم. ولم

(١) أخبار الأئمة الرستميين (دراسة وعرض) للدكتور حسن علي حسن (نشر: مكتبة الشباب ١٩٨٤م) ص ٦٦.

تكن المشكلة مشكلة فئة محدودة غير مسئولة، بل كانت أزمة خلفاء وولاة طبقوا - مثلاً- سياسات مالية ظالمة في الشرق، وأرادوا تطبيقها بحذافيرها في الغرب الإسلامي، مثل: فرض الجزية على من أسلم، وانتزاع الهدايا والسبايا دون وجه حق. وإذا كان من الممكن عمومًا - بوجه من الوجوه- قبول بعض شدة الحجاج بن يوسف الثقفي في معاملة أهل العراق؛ فإن شخصية البربر الثائرة الحانقة التي لا تتحمل الظلم طويلاً لا تصلح معها تلك السياسات الغاشمة. وإذا كان المصريون مسالمين مهادنين لا يثورون سريعًا، ويصبرون طويلاً على المظالم؛ فإن البربر عَدُّوا أنفسهم رفقاء سلاح للفاتحين؛ لأنهم شاركوا بدرجة كبيرة في فتح بلادهم، ثم أسهموا بعد ذلك بدور كبير في فتح بلاد الأندلس، فهم يتطلعون للمساواة التي افتقدوها[1]. كما أنهم وجدوا الصراعات على أشدها بين الفاتحين أنفسهم (قيسية ، ويمنية)، وكذلك الخلافات والانقسامات بين العرب البلديين والشاميين[2] ، فأحسوا بخيبة أمل إزاء تصادم المثال والواقع؛ مما جعلهم أكثر قبولاً لتيارات الخوارج الوافدة إلى بلادهم من الشرق.

من المعلوم أن الدولة الأموية عانت كثيراً من ثورات الخارجين عليها في المشرق، ويأتي على رأس هؤلاء المتمردين الخوارج الذين تلقوا ضربات قاصمة على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، والمهلَّب بن أبي صُفْرة؛ مما دفعهم

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٧ - ٦٠ .

(٢) **العرب البلديون**: هم الذين شاركوا في موجات الفتح الأولى واستقروا ببلاد المغرب، فعاشوا كسكان محليين وجماعات متماسكة في المدن وما حولها، وتؤيدهم جماعات من البربر الزناتية غالبًا ممن أسلموا واستعربوا، فصاروا قوة سياسية محلية يحسب لها كل حساب، وكانت مراكزهم في القيروان، وتونس، والمسيلة، وطبنة (بإقليم الزاب). أما **الشاميون**، فهم الجماعات التالية الوافدة مع الولاة المتعاقبين على حكم بلاد المغرب، ويعدون أنفسهم رجال الحكم والإدارة، وكانوا منتشرين في العاصمة القيروان، ومعسكرات الجند في نواحي إفريقية خاصة القيروان وتونس. (المرجع السابق ص ٦٦).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

إلى الهرب لأطراف الدولة كعُمان، واليمن، والمغرب لعلهم يجدون بها أرضًا خصبة، ومرعى طيبًا لنشر أفكارهم، وبثها بين جموع الناس في تلك البلدان وإقامة دولتهم. ولا نزاع في أن أفكار الخوارج كالدعوة إلى العدل والمساواة، وأنه لا حكم إلا لله، وأن كل مسلم له الحق في أن يكون خليفة للمسلمين، فلا يشترط أن يكون قرشيًا، ومحاربة وراثة الحكم، والتشدد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثورة المسلحة ضد الحاكم الظالم، والتمادي في مقاومته، وعَدّ ذلك جهادًا، والموت في ميدانه شهادة في سبيل الله، كل هذه الأفكار صادفت هوى لدى البربر، وانسجمت مع طبيعة تفكيرهم وشخصيتهم وحركت ما كمن داخلهم من أشواق ولواعج، ونكأت جراحًا دامية في نفوسهم لا تكاد تندمل من جَرَّاء ما يشعرون به من ظلم الحكم الأموي وولاته. ومن هنا دخلت تيارات المذهب الخارجي بمختلف درجاتها المتشددة المغالية (الأزارقة) الذين يعلنون العداء والحرب على من خالفهم. وهناك الصُّفْرِيَة التي وجدت لها أتباعًا أكثر، وعداؤهم مع الحكام، أما من أيدهم من الناس، فهم متساهلون، وحسابهم على الله (فالحكام عند هؤلاء كفار إيمان، والناس كفار نعمة). أما القبول الأكثر، فكان للخوارج الإباضية المنسوبين إلى عبد الله بن إباض الذي لا يدعو للقيام والثورة على الحكام، بل يدعو إلى إقامة نظام سياسي للخوارج بعيد عن سلطان الدولة المركزية، ويتعامل هذا النظام مع المخالفين له دون الانعزال أو المقاطعة لهم، وحسابهم على الله (تعالى). ولا يزال لهذا المذهب وجود حتى الآن، وهو قريب من أهل السنة، وأقام له دولة في المغرب الأوسط - نتناولها فيما بعد- هي الدولة الرستمية[١] .

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٢-٦٣ . ويمكن الرجوع لمعرفة مذهب الخوارج وغيره من المذاهب في (الفَرْق بين الفِرَق) للبغدادي، و(المِلَل والنِّحَل) للشهرستاني .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

أهم أحداث عصر الولاة بالمغرب:

لا نستطيع استعراض ولاة المغرب واحداً واحداً لبيان أحداث فترة ولايته، وإنما نكتفي بعرض السمات العامة لأحداث تلك الفترة بإيجابياتها وسلبياتها من خلال تقسيم ولاتها إلى قسمين: ولاة معتدلين، وولاة متشددين، وبيان ما لكل فريق وما عليه من خلال الأحداث الجارية[1].

١- **القسم الأول (الاتجاه المعتدل في السياسة والحكم):** ومن ممثلي هذا الاتجاه (الوالي محمد بن يزيد القرشي ٩٧-١٠٠هـ)، الذي ولاه سليمان بن عبدالملك بمشورة رجاء بن حَيْوة. وقد وصاه سليمان أن يتقي الله وحده لا شريك له، وأن يقوم فيما ولاه من إفريقية والمغرب كله بالحق والعدل. فانصرف الوالي وهو يقول: ما لي عذر عند الله إن لم أعدل[2]. يدل هذا النص على توجه طيب من الخليفة الأموي المذكور من تحرى اختيار الوالي، وتكليفه بتحقيق العدل والمساواة بين الرعية، إلا أنه يؤخذ عليه ما أصدره من أوامر لواليه بعد ذلك بتعقب كل من له صلة بآل موسى بن نصير، فإذا بالقرشي يسجن عبد الله بن موسى بن نصير والي المغرب قبله (٩٥-٩٧هـ) ويعذبه؛ من أجل استئصال أمواله، ثم قتله بعد ذلك على يد خالد بن أبي حبيب القرشي[3].

ولي عمر بن عبد العزيز ﵀ خلافة بني أمية، فأزال الظلم وأقام العدل، ودقق في اختيار الولاة. ولعل الوالي المعاصر له خير دليل على ما نقول، فقد ولي إسماعيل بن عُبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي (١٠٠-١٠١هـ) شئون الحرب والخراج والصدقات، وكان حسن السيرة فلم يبق في ولايته- يومئذ- من البربر أحد إلا أسلم[4]. كان خير أمير، وخير والٍ، وهو الذي علّم أهل إفريقية

---

(١) أخبار الأئمة الرستميين (دراسة وعرض) للدكتور حسن علي ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) البيان المغرب ١ / ٤٧. (٣) المصدر السابق: الجزء والصفحة نفسهما.

(٤) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٢١٣.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الحلال والحرام، حيث كان مبعوث عمر بن عبد العزيز ضمن عشرة من أهل العلم والفضل من التابعين الموفَدين إلى المغرب. ومن أبرز ما بيّنوه لأهل إفريقية تحريم الخمر، وكانت من قبلُ عندهم حلالاً[1]. وقد ضرب به المثل في الزهد، حيث كان يفترش درعه فينام عليها إذا أقبل من الغزو في الصائفة، وكان ينام هو وأم ولده وفرسه في بيت واحد، وأوصى أن يُتصدَّق بكل تركته من بعده[2]. وكانت وفاته بالقيروان سنة ١٢٢هـ[3].

ولي عُبيدة بن عبد الرحمن السُّلَمي (١١٠-١١٤هـ) شئون المغرب بدلاً من (بشر بن صفوان الكلبي)، فأظهر تعصبه الشديد للقيسية على حساب اليمنية، فعاقب عمال الوالي السابق وأصحابه، وطالبهم بالأموال، وحبس بعضهم، ومنهم أبو الخَطّار حسام بن ضرار الكلبي، وكان شريفًا في قومه مع فصاحة وبراعة، وكان أحد عمال الوالي السابق، فعزله عُبيدة، ونكّل به، فكتب أبياتًا من الشعر يشكو حاله للخليفة هشام بن عبد الملك منها:

أبادتْ بنو مروان قيسًا دماءنا ... وفي الله - إن لم يعدلوا- حكَمٌ عَدْلُ
كأنهم لم يشهدوا مرج راهط ... ولم يعلموا من كان تمّ له الفضلُ
تغافلتم عنا كأن لم نكن لكم ... صديقًا وأنتم ما رعيتم لنا فِعْلُ

---

(١) البيان المغرب ١ / ٤٨ . راجع أسماء التابعين العشرة المشار إليهم- ومنهم : الوالي إسماعيل ابن عُبيد الله نفسه - وتراجمهم في (طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب، ط٢ - ١٩٨٥م) ص ٨٤-٨٧، ومعالم الإيمان للدباغ (تصحيح وتعليق: إبراهيم شبوح) جـ١ ص١٨٠-٢٠٦: ويلاحظ أن أحد هؤلاء التابعين هو (إسماعيل بن عُبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله)؛ لأنه جعل ثلث ربحه من التجارة، ينفقه في وجوه الخير، وهو الذي بنى جامع الزيتونة بتونس سنة ٩١هـ، وتوفى غرقًا أثناء ركوبه البحر متطوعًا لغزو صقلية سنة ١٠٧هـ (المصدر السابق ١ / ١٩١-١٩٢).

(٢) السابق ١ / ٢٠٣-٢٠٤ . وتذكر الرواية أن ذلك الأمر رفع إلى هشام بن عبد الملك، فأجاز تصدقه بالثلث فقط، وهو الصحيح شرعًا. ولا أظن الرجل جاهلاً بالحكم، لكنه مزيد ورع وتقوى منه (رحمه الله تعالى).

(٣) السابق ١ / ٢٠٥ . ويغلب على الظن صحة هذا التاريخ؛ لموافقته عصر هشام بن عبدالملك (ت١٢٥هـ). وهذا التاريخ أصح من سنة ١٣٢هـ التي ذكرها المالكي في (رياض النفوس، تحقيق: د. حسين مؤنس). ١ / ٧٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

فأمر هشام بعزل الوالي عبيدة بن عبد الرحمن الذي عاد إلى الشام بهدايا وتحف عظيمة[1] .

وهكذا، رأينا نماذج من الولاة المغاربة المعتدلين فيما يخص علاقتهم بأهل البلاد المفتوحة (البربر)، فلم نسمع عن إساءتهم لأي من قبائل البربر على كثرتها. ولم نرصد ثورة أو حركة معارضة أو احتجاجًا ضدهم، وإن وقعوا في أخطاء جسيمة حيال المسلمين أنفسهم، تمثلت في الإساءة لآل موسى بن نصير، والتعصب القبلي للقيسية، والإساءة إلى اليمنية .

٢- القسم الثاني (ولاة متشددون تجاه البربر):

من هؤلاء الولاة الذين أفضت سياستهم إلى الفتنة:

أ- الوالي يزيد بن أبي مسلم (١٠١-١٠٣هـ):

توفي عمر بن عبدالعزيز ﷺ، فولي بعده الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ)، فتغيرت السياسة العامة للدولة الأموية، إذ عمد يزيد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه، فردّه، فلم يُخفِ شناعة عاجلة، ولا إثمًا آجلاً. فعل ذلك باليمن - مثلاً- حيث ألغى عمر بن عبدالعزيز مضاعفة الخراج على أهل اليمن، الذي تقرر في عهد الوالي محمد ابن يوسف أخي الحجاج بن يوسف، فكتب عمر يأمر عامله بالاقتصار على العشر ونصف العُشر، وألغى ما صنعه الوالي السابق، وقال: لأنْ يأتيني من اليمن حفنة ذرة أحب إليّ من تقرير هذه الوضيعة». فلما ولي الخلافة يزيد، أقر الزيادة مرة أخرى، وقال لعامله: «خذها منهم، ولو صاروا حَرَضًا»[2] .

---

(١) البيان المغرب ١ / ٥٠- ٥١ .

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ / ٣٣٢ (أحداث سنة ١٠١هـ).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

والشيء نفسه قام به في بلاد المغرب، وذلك نلمسه من عزل الوالي الصالح التابعي إسماعيل بن عُبيد الله، وتولية آخر على شاكلة الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو كاتبه وصاحب شرطته، واستخلفه الحجاج على خراج العراق، إنه (يزيد بن أبي مسلم بن دينار الثقفي مولى الحجاج)، الذي عزله عمر بن عبدالعزيز وسجنه من قبل(١). لقد اتبع هذا الوالي سياسة غاشمة في بلاد المغرب ضد الأهلين عجَّلَتْ بقتله، ودفعت البربر إلى الثورة ضد الحكم الأموي. ومن ملامح سياسته الغاشمة ما يلي:

- فرض الجزية على من أسلم من البربر؛ رغبة في زيادة حصيلة الدولة من الأموال، وإرضاء لأسياده في حاضرة الأمويين دمشق، وهو بذلك يسير فيهم بسيرة الحجاج عندما فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة بالعراق، فاجتمع البربر على قتله فقتلوه، وولوا على أنفسهم - فيما يذكر الطبري- محمد بن يزيد الوالي الأسبق، وكتبوا إلى الخليفة: «إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يَرْضَى اللهُ والمسلمون. فقتلناه، وأعَدْنا عاملك». فكتب إليهم الخليفة أنه لم يرض ما صنع يزيد، وأقَرَّ من اختاروه(٢). ولا ريب أن صنيع يزيد كان بأمر ومباركة وموافقة من الخليفة، وأنه راح ضحية تصرف غاشم، تبرأ منه الخليفة ظاهريًا؛ تجنبًا لغضب البربر.

- فرق في المعاملة وتولية الوظائف الرسمية بين البتر والبرانس من البربر، وانحاز إلى البتر(٣)؛ مما ولّد العداوة والكراهية ضده، وأدى إلى

---

(١) راجع ترجمة وافية له في: (وفيات الأعيان) لابن خلكان ٦ / ٣٠٩- ٣١٢ (رقم ٨١٧).

(٢) تاريخ الطبري (ط. دار المعارف بالقاهرة) جـ٦ ص ٦١٧ (أحداث سنة ١٠٢هـ).

(٣) فتوح مصر وأخبارها ص ٢١٤.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الانقسام بين عنصري البربر، وازدادت الأمور سوءًا بتصرف غشوم أعلنه لحراسه من البربر، حيث خطبهم قائلاً: «إني رأيت أن أرسم اسم حَرَسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها، فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره حرسيّ؛ ليُعْرَفوا بذلك من بين سائر الناس. فإذا وقفوا على أحد، أسرع لما أمرتُ به». وكان هذا الصنيع الذي هَمَّ به يزيد يساعد على تنفيذ أوامر الحرس، ويسهل أداء مهمتهم فيعرفهم الناس، ويستجيبون لهم، لكنه لم يراعِ شخصية البربر، الذين رأوا فيه انتقاصًا من شأنهم، واستهزاء بمكانتهم. وقالوا: «جعلنا بمنزلة النصارى». ثم تآمروا على قتله في الصلاة، وولوا محمد بن أوس الأنصاري بعد عودته من غزو صقلية، لكن يزيد بن عبدالملك استعمل عليهم بشر بن صفوان(١) .

- إساءته إلى آل موسى بن نصير، وبعض الشخصيات المرموقة بالمغرب، حيث تعقب أموال عبد الله بن موسى بن نصير، وأمره بدفع رواتب الجند لمدة خمس سنوات قادمة(٢) ، وضم مواليه إلى جيشه فجرده من أمواله وأتباعه. كما قام بسجن وتعذيب محمد بن يزيد القرشي الوالي الأسبق وأمر بتعذيبه(٣) .

ب- عبيد الله بن الحبْحاب (١١٦-١٢٣هـ):

مولى بني سلول، رئيس نبيل، وأمير جليل، يتميز بالفصاحة والخطابة، حافظ لأيام العرب، وأشعارها، ووقائعها. ولاه هشام بن عبد الملك شئون المغرب بعد أن كان صاحب الخراج بمصر. بنى المسجد الجامع، وطوّر دار الصناعة بتونس. ونظرًا لسعة الرقعة الجغرافية لبلاد المغرب، استعمل على

---

(١) البيان المغرب ١ / ٤٨-٤٩ .

(٢) فتوح مصر ص ٢١٤ .

(٣) المصدر السابق: الصفحة نفسها .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

طنجة وما جاورها من المغرب الأقصى ابنه إسماعيل، ثم عمر بن عبدالله المرادي[١] .

لقد كان ابن الحبحاب قيسيًا بالولاء، لكنه صدر في كل تصرفاته عن عقلية عربية صرفة، تهمل أهل البلاد من البربر، وتؤذي أحاسيسهم، ورغم أنه إداري كفء لكن تعصبه أشعل نيران البربر، وأدى إلى ثورات عارمة وفتنة عامة في بلاد المغرب تجاوزت طاقاته[٢] ، ودخل البربر في صراع مسلح مع الولاة ونوابهم فترة طويلة سينتج عنه انفصال المغرب الأقصى عن سلطة الأمويين بدمشق، ويمهد ذلك الطريق لقيام الدولة الإدريسية والرستمية الإباضية في المغرب الأوسط، والدولة الخارجية الصُّفْرية في سجلماسة[٣] .

واصل ابن الحبحاب سياسة العسف والظلم التي انتهجها يزيد بن أبي مسلم، لاسيما أن تاريخه في الشدة على أهل مصر في جمع الخراج معروف. ويغلب على ظني أن تعليماته كانت السبب في إساءة عامله على طنجة - المرادي- السيرة، وتعدّيه في الصدقات والعشر، ومعاملته البربر كأنهم على غير الإسلام بدعوى أنهم فَيء المسلمين، فتُقسم أموالهم بواقع أربعة أخماس للمقاتلين المسلمين الفاتحين، والخمس لدار الخلافة فيماعُرف بـ (تخميس البربر)، وهو ما لم يفرضه عامل قبله، فأدى ذلك إلى شيوع ثورات الاحتجاج الغاضبة المفضية إلى الفتن العظيمة التي راح ضحيتها كثير من القتلى[٤] .

ثمة اتهام آخر مباشر موجه هذه المرة إلى ابن الحبحاب، صرّح به ابن عذارى، حيث ذكر أن الخلفاء بالمشرق كانوا يستحبون طرائف المغرب،

---

(١) البيان المغرب ١ / ٥١ .

(٢) تاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ١٤٩ .

(٣) أخبار الأئمة الرستميين (دراسة وعرض) للدكتور حسن علي حسن ص ٧٥ .

(٤) البيان المغرب ١ / ٥١ - ٥٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ويبعثون فيها إلى عامل إفريقـية، فتُرْسَل إليهم البربريات السنيّات. فلما ولي ابن الحبحـاب، منّاهم بالكثير، وتكلف لهم، وكلّفوه أكثـر مما كان، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة، فقتل البربر عامله، وثاروا جميعًا عليه[1] .

سجل لنا الإمام الطبـري رواية نفيسة، تبين أن البربر لم يتـعجلوا الثورة ببلاد المغـرب، رغم وجود محـرضين من دعاة الخوارج القـادمين من العراق إليهم، حـيث كان المغاربة من أسـمع أهل البلدان وأطوعهم حـتى دَبّ إليهم أهل العراق زمن هشام بن عـبد الملك، فاستغلوا السلبيـات الموجودة من قبل بعض الولاة، ودفعوهم إلى شق عصا الطاعـة، وإشاعة الفرقة بينهم. لقد رد زعماء البربر على هؤلاء بقولهم: إنـا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال، ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. فقالوا لهم: لا نقـبل الخروج عليـهم حتى نبلوهم. وبالـفعل خـرج ميسـرة المَدْغَـري (أحد زعمائهم بالمغرب الأقصى) في وفد قدم دمشق، فلم يؤذن لهم بالدخول على هشام بن عبد الملك لعرض شكواهم، فقـابلهم الوزير الأبرش، فعرضوا عليه مظلمتهم، وطالبوه أن يبلغ أمير المؤمنين أنهم يشاركون في الغزو ويُمنعون من الغنائم بحـجة أن هذا أخلص لجـهادهم، وعند حـصار المدن يقـدمهم قـائد الجيش لتلقي الضربات والتعرض للقتل، بينما يؤخر جنده من العرب، ويقوم العمـال ببقـر بطون مواشـيهم وأغنامـهم؛ طلبًا للفـراء الأبيض بحجـة أنهم يقدمونه هدايا للخليفة، وفي هذا إضرار شديد بأموالهم وممتلكاتهم، ومع ذلك احتملوا ذلك الأمر، لكنهم لم يكتفـوا بذلك، وعمدوا إلى بناتهم الجميلات

---

(١) البيان المغـرب ١ / ٥٢ . لاحظ دفاع د. مؤنس عن الخلفاء، وأنهم كـانوا يتطلعون إلى القليل من طرف وتحف المغرب، وكـانوا يتعففـون عن المال الحرام، مستشـهداً بموقف لسليمـان بن عبد الملك من بعض هدايا أرسلها إليـه موسى بن نصير. (فتح العـرب للمغرب) ص٢٩٠ - ٢٩١ . وفي تصوري أن موسى لم يُهْد لسليمان شيئًا، وعاد بالغنائم في مرض موت الوليد؛ لذلك حقد عليه سليمان. ثم إننا نتحدث عن عصر الولاة والاستشهاد المذكور يسبق ذلك العصر .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وأخذوهن كسبايا مما لا يقره كتاب ولا سنة؛ لأن البربر مسلمون. لقد فشل الوفد في مقابلة الخليفة لانشغاله عنهم، وعدم إدراكه خطورة الوضع بالمغرب، فانصرف هؤلاء وقد خاب رجاؤهم، ولم يتيقنوا حقيقة موقف الخليفة منهم، وهل ما يتعرضون له عن ظلم من رأيه أو لا؟! فتركوا رقاعهم وأسماءهم، وأنسابهم؛ أملاً في رفعها إلى الخليفة، فلما لم تتغير الأوضاع، كانت الثورة العارمة بقيادة هؤلاء[١] .

وهكذا، يمكن القول: إن السياسة المالية والإدارية الخاطئة التي انتهجتها الخلافة الأموية وعمالها ونوابهم في بلاد المغرب كان لها أسوأ الأثر في استقرار تلك البلاد، وأسهمت بدور كبير في إشعال الثورات والفتن، كما أن تجاهل الخلافة لشكاوى البربر، وعدم الجدية في حلها وتهدئة الأوضاع في تلك البلاد البعيدة عن مركز الخلافة بدمشق زاد المشاكل تعقيداً، ومنح الفرصة لدعاة المذهب الخارجي أن ينفثوا سمومهم في شعب البربر الذي اعتنق كثير منهم فكر الخوارج المتمسك بظاهر النصوص بعيداً عن التأويل، المتسم بالصلابة في قول الحق والاستشهاد في سبيله، المتمرس بمقاومة الظلم والباطل بالقوة المسلحة. يضاف إلى ما تقدم تأجيج نيران العصبيات القبلية بين اليمنية والقيسية، إلى جانب انعكاس خلافات وثورات الشرق كثورة الحارث بن سُريح في بلاد خراسان سنة ١٢٦هـ ضد التمييز بين العرب وغيرهم في الحقوق والواجبات[٢] ، كل ذلك شكّل أسبابًا للفتن المتلاحقة التي عمّت بلاد المغرب في ذلك العصر .

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٢٥٤-٢٥٥ (أحداث سنة ٢٧هـ) .

(٢) المصدر السابق ٧ / ٩٤ وبعدها. وراجع تفاصيل الأسباب المفضية إلى الثورة في (أخبار الأئمة الرستميين - دراسة وعرض) للدكتور حسن علي ص ٧٥ وبعدها .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

النتائج المترتبة على سياسة الأمويين الخاطئة بالمغرب:

١- غزوة الأشراف (١٢٢هـ): قام زعماء البربر بالثورة على حكم ابن الحبحاب بزعامة ميسرة المدغري الخارجي الصُّفْري المقيم بالقرب من تلمسان (زعيم بَرَغْواطة الزناتيين) وتحرك بجموعه في المغرب الأقصى حول مدينة طنجة، فابتعد بذلك عن سلطان ابن الحبحاب في القيروان، متنهزاً خروج جيش كبير على رأسه حبيب بن أبي عبيدة متوجهاً نحو صقلية، فقام البربر بقتل المرادي بطنجة كما أشرنا من قبل، ثم قتلوا والي إقليم السوس إسماعيل ابن عبيد الله بن الحبحاب، وبذلك حكم ميسرة المغرب الأقصى ملقباً نفسه بلقب الخلافة. في هذا الوقت لم يكن ابن الحبحاب على استعداد لمواجهة هذه الأحداث الدامية المباغتة، فأرسل ما استطاع من القوات لمواجهة هؤلاء بقيادة خالد بن أبي حبيب الفهري، وتعجل عودة حبيب من صقلية؛ لمواجهة البربر. وقد جرت وقائع الغزوة عند نهر شِلْف على حدود المغرب الأقصى، وانتصر فيها البربر انتصاراً مدوياً بزعامة خالد بن حميد الزناتي القائد الجديد للبربر بعد مقتل ميسرة الذي أساء السيرة عما بايعوه عليه، وقتل في هذه المعركة كثير من زعماء العرب وقادتهم، حتى سميت بغزوة الأشراف[1] .

طار الخبر إلى دمشق، فغضب الخليفة هشام، وأقسم ليغضبن لهؤلاء غضبة عربية، وليرسلن إلى البربر جيشاً أوله عندهم وآخره عنده، ولا يدع حصن بربري إلا جعل إلى جانبه خيمة قيسي أو تميمي. ثم عزل ابن الحبحاب بعد فشله الذريع في القضاء على البربر الثائرين، وولى مكانه (كلثوم بن عياض القشيري)[2] .

---

(١) راجع: البيان المغرب ١ / ٥٣-٥٤، والكامل لابن الأثير ٤ / ٤١٦- ٤١٧، وتاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ١٥١-١٥٢ .

(٢) البيان المغرب ١ / ٥٤، وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ١١١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢- **معركة بقدورة:** لم تدرس الخلافة الأموية أسباب انهيار الاستقرار في بلاد المغرب، ولم تفكر في حل مشكلات البربر، ولم تدعم وحدة العرب الشاميين والبلديين بدرء العصبية القبلية، وظنت أن هزيمة جيوشها الكاسحة إنما ترجع إلى قلة الجند، فزادت أعدادهم[١] ، وجعلت مع الوالي الجديد بَلْجَ ابن بشر القشيري (ابن أخيه) على مقدم الجند نائبًا، وعينت ثعلبة بن سلامة العاملي نائبًا آخر، وتم حشد الجيوش حتى بلغت سبعين ألفًا[٢] . وكان من المنتظر أن يحقق الجيش النصر على البربر، لكن بوادر الفشل كانت بادية منذ وطئت أقدام كلثوم وبلج أرض المغرب، فقد تطامن كلثوم لرغبات وآراء ابن أخيه بلج الذي كان متعصبًا للقيسية، مسيئًا إلى اليمنية وهم أغلبية في القيروان. لقد هدد بلج أهل القيروان بالسطو على مساكنهم؛ مما ولد سخطًا وغيظًا وحنقًا في الصدور[٣] . وفي ميدان المعركة هدد حبيب بن أبي عبيدة بتوجيه قواته نحو قوات كلثوم بن عياض وجيشه عندما عامل جيش الشام عرب إفريقية بازدراء، فبدت علامات الانقسام بين أفراد الجيش الواحد[٤] ، وفي الوقت نفسه كان بلج مستبدًا برأيه دون حدود، فلم يستجب لمن نصحه بعمل خندق حول الجيش يحميه من هجمات البربر، وتهاون بجيوشهم وفرض رأيه الخاطئ على عمه، فكانت النتيجة الحتمية هزيمة أخرى مروعة لجيش الخلافة في بقدورة على وادي نهر سبُو القريب من مدينة فاس، حيث انجلت المعركة عن مقتل الوالي، وحبيب بن أبي عبيدة، ومغيث الرومي، وغيرهم من أعاظم القادة، بينما فر بلج بفلول الجيش التي بلغت عشرة آلاف

---

(١) أخبار الأئمة الرستميين (دراسة وعرض) للدكتور حسن علي حسن ص ٨٩ .

(٢) أخبار مجموعة (ط. دار الكتاب المصري اللبناني) لمؤلف مجهول ص ٣٦ - ٣٧ .

(٣) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص ١١٢ .

(٤) أخبار الأئمة الرستميين (دراسة وعرض) للدكتور حسن علي حسن ص ٨٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

إلى مدينة سَبْتَة، حيث تحصن بها من البربر[1] ، حتى نجح في إقناع عبد الملك بن قَطَن الفهري والي الأندلس بالعبور إلى بلاده على ألا تتعدى إقامتهم عنده سنة واحدة، إلا أنه خالف العهد، وتسبب في مشاكل عديدة في الأندلس نشير إليها في عصر الولاة بالأندلس، إن شاء الله .

٣- معركتا: القرن، والأصنام: غدا موقف الخلافة في غاية الحرج والتأزم بعد الهزيمتين الفادحتين اللتين مُني بهما جيش الشام، ومن انضم إليه من عرب إفريقية أمام جموع البربر بقيادة ميسرة، ثم خالد بن حميد الزناتي، تلك الجموع التي تجرأت وبدأت تعد نفسها للهجوم على القيروان واحتلالها عن طريق جيشين: أحدهما بقيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري، والآخر بقيادة عكاشة بن أيوب الصُّفْري الخارجي. في الوقت ذاته أصر الخليفة هشام على إرسال جيش ضخم بقيادة حنظلة بن صفوان الكلبي سنة ١٢٤هـ. ويبدو أن المنافسة المفضية إلى الصراع قد دبت في صفوف البربر، فكل زعيم يريد الاستيلاء على عاصمة إفريقية لنفسه[2] . وفي الوقت نفسه أعد حنظلة جيشه إعدادًا صحيحًا جادًا، وحشد المتطوعة، وأنفق على الجند بسخاء، وعبأهم تعبئة معنوية عالية، وبث فيهم الحمية في هذه المعارك الفاصلة الحاسمة، فانهزم جيش عبد الواحد في مكان يسمى (الأصنام) غرب القيروان، وقتل عبد الواحد وكثير من جنوده[3] . وانهزم عكاشة هو الآخر في معركة (القرن)، وفر من الميدان، فأسره بعض الأعراب، واقتيد إلى القيروان، حيث تم قتله هناك[4] . وهكذا نجح حنظلة في الحفاظ على الوجود العربي

(١) أخبار مجموعة لكاتب مجهول ص ٣٧ - ٤٠، وتاريخ المغرب وحضارته للدكتور حسين مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٤ .

(٣) فتوح مصر وأخبارها ص ٢٢٢ ، والكامل ٤ / ٤١٧ .

(٤) فتوح مصر ص ٢٢٣، والكامل ٤ / ٤١٨ .

الإسلامي بالمغرب، وأوقف تيار الخوارج، فاستقر أهل السنة وهدأت مشاعر المسلمين وابتهجوا في أنحاء الدولة الإسلامية بهذا النصر المبين(١)، حتى قال محدث مصر وفقيهها الليث بن سعد (ت١٧٥هـ) «ما غزوة كنت أحب شهودها بعد غزوة بدر، أحب إليّ من غزوة القرن والأصنام»(٢) .

٤- دب نزاع من نوع جديد في بلاد المغرب، حيث تطلع عبد الرحمن ابن حبيب أحد زعماء العرب الطامحين إلى الرئاسة والزعامة لتولي شئون المغرب بدلاً من الوالي حنظلة بن صفوان. وكان عبد الرحمن أحد الفارّين من هزيمة بقدورة، حيث أقام بالأندلس يحاول التغلب على ملكها، لكن أمله خاب، ورجاءه لم يتحقق بعد أن ولي أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي الأندلس، فعاد مستتراً إلى تونس في البحر سنة ١٢٧هـ(٣) . وبذلك يكون عبدالرحمن هذا ساعيًا إلى تكوين مجد شخصي معتمداً على تاريخ أسرته، وما قدمه جده عقبة بن نافع في ميدان الجهاد الإفريقي(٤) . لقد استغل الرجل اضطراب الأمويين وضعفهم، وانتقاض خراسان وغيرها، وبدء حركة العباسيين السرية ضد الأمويين. كل ذلك صرف بني أمية عن أحداث المغرب، كما أن المعارك التي خاضها حنظلة، وفقده كثيراً من الجند والسلاح أضعف مقدرته العسكرية في مواجهة ابن حبيب(٥)، الذي طالب الوالي بمغادرة القيروان خلال ثلاثة أيام بعد تخليه عن الإمارة، وألا يأخذ من بيت المال إلا تكاليف السفر(٦) . واضطر حنظلة لعدم قدرته على المواجهة إلى

---

(١) أخبار الأئمة الرستميين (دراسة وعرض) للدكتور حسن علي ص ٩١ .

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ / ٤١٨ .

(٣) البيان المغرب ١ / ٦٠ .

(٤) أخبار الأئمة الرستميين (دراسة وعرض) للدكتور حسن علي ص ٩٢ .

(٥) المرجع السابق للدكتور حسن علي ص ٩٢ .

(٦) فتوح مصر وأخبارها ص ٢٢٣ - ٢٢٤، والبيان المغرب ١ / ٦٠ (أوثق وجوه إفريقية في الحديد عندما أرسلهم إليه حنظلة يدعوه إلى الطاعة والجماعة، ومنع الناس من توديع حنظلة لدى رحيله).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

تنفيذ شروط ابن حبيب، وحقن الدماء، فولي ابن حبيب مقاليد البلاد، وبذلك صار واليًا على المغرب دون تقليد الخلافة له، وهذا تطور جديد في الوضع السياسي ببلاد المغرب، وخطوة جديدة على طريق الانفصال عن سلطة الخلافة في المشرق، وإضعاف الصلة السياسية التي تربط بين إقليم المغرب والسلطة المركزية، وإتاحة الفرصة لنجاح الحركات الخارجية في إنشاء دول مستقلة عن سلطة الخلافة. ولم يستطع مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ) آخر خلفاء بني أمية عزل ابن حبيب، بل قبل هداياه ووافق على توليته نفسه؛ لانشغاله بالوجود الأموي ذاته في المشرق، الذي بات مهددًا من قبل العباسيين[١] . وهكذا، نجح ابن حبيب في تثبيت نفوذه في بلاد المغرب، وواجه بنفسه- وعن طريق حملات أرسلها بقيادة أخيه إلياس- ثورات الخوارج المتعددة[٢] ، وضرب معاقل البربر، فأرعب قلوبهم، وأوقف النشاط المسلح للخوارج لفترة من الوقت[٣] . ثم هادن العباسيين في أول خلافتهم في عهد السفاح (١٣٢-١٣٦هـ)، وبايعه[٤] . فأقره الأخير على ولايته، لكنه اصطدم بالخليفة العباسي المنصور (١٣٦-١٥٨هـ)، فبعد أن أقره المنصور في ولايته، وقع خلاف بينهما لرسالة أرسلها ابن حبيب له مصاحبة لهدية متواضعة، قال له فيها: «إن إفريقية- اليوم- إسلامية كلها، وقد انقطع السبي منها، فلا تسألني ما ليس قبلي»[٥] . وهذا يعني مخاطبة الخليفة العباسي بطريقة الند للند، وإفهامه أن سلطانه على المغرب روحي شكلي، فلا يتطلع إلى مال أو خراج؛ لأن الأوضاع في إفريقية الإسلامية تختلف عما كانت

(١) أخبار الدولة الرستمية (دراسة وعرض) للدكتور حسن علي ص ٩٢ .

(٢) البيان المغرب ١ / ٦٠ - ٦١ .

(٣) أخبار الدولة الرستمية (دراسة وعرض) للدكتور حسن علي ص ٩٥ .

(٤) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق ص ١٣٣ .

(٥) البيان المغرب ١ / ٦٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عليه أثناء الفتح[١] . وبالطبع هدد وتوعد المنصورُ ابنَ حبيب، فخلع الأخير طاعة العباسيين، فليس لهم أدنى فضل في توليته. ولا ريب أن والي المغرب المذكور كان يدرك أنه بمأمن من انتقام العباسيين؛ نظراً للظروف العسيرة التي تمر بها خلافتهم في المشرق من مخاطر أبي مسلم الخراساني، وثورات العلويين[٢] . وبذلك انفصلت القيروان عن العباسيين كما انفصل المغرب الأقصى من قبل عن الأمويين. وهيأ ذلك الانفصال لابن حبيب فرصة مد سلطانه على رقعة كبيرة من المغرب تمتد من برقة شرقًا حتى حدود تلمسان غربًا، بعدها تطلع لإقامة حكم وراثي في أسرته، فاختص ابنه بولاية العهد من دون أخيه إلياس؛ مما أدى إلى تآمر داخلي ضده، انتهى بمقتله سنة ١٣٧هـ[٣] . ومن بعدها لم تستقر الأوضاع في بلاد المغرب، ودخلنا في حلقة مفرغة من الصراعات الدموية العقيمة التي انتهت بمقتل حبيب بن عبدالرحمن بن حبيب سنة ١٤٠هـ[٤] ، وبذلك طويت صفحة من صفحات تاريخ المغرب، وظهرت فترة أخرى نشب فيها الصراع بين الإباضية، والجيش العباسي عن طريق الولاة الذين أرسلهم العباسيون فيما عُرف بفترة حكم المهالبة، التي بدأت بعمر بن حفص المهلبي سنة ١٥١هـ، وشهدت سياسة متوازنة واستقراراً لا بأس به خاصة في عصر يزيد بن حاتم (١٥٤-١٧٠هـ)، وانتهاء بـ (الفضل بن روح بن حاتم ١٧٧-١٧٩هـ)، ثم تتابع على المغرب بعض الولاة آخرهم (محمد بن مقاتل العكّي سنة ١٨٤هـ)[٥] ، وبه انتهى

(١) أخبار الدولة الرستمية للدكتور حسن علي ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٣) البيان المغرب ١ / ٦٧-٦٨ .

(٤) المصدر السابق ١ / ٦٨ وما بعدها .

(٥) راجع دراسة د. مؤنس للمهالبة (تاريخ المغرب وحضارته): المجلد الأول، الجزء الأول ص ١٧٥ وبعدها .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عصر الولاة بالمغرب الأدنى، حيث نجح العباسيون في إدخال المذهب المالكي السني لمواجهة تيارات الخوارج، وفرضوا سياسة حازمة عن طريق ولاتهم المختارين بعناية؛ مما حقق قدراً جيداً من الأمن والاستقرار[١]، دخلت بعده المغرب في عصر جديد هو (عصر الدول المستقلة)، لكن قبل استعراض هذه الفترة التاريخية يمكن أن نوجز صورة عصر الولاة في المغرب في كلمات قليلة مؤداها: أنه عصر الصراعات الداخلية والنزاعات القبلية، والمواجهات الفكرية المذهبية، وهي سمات غالبة عليه تطبعه بطابع سلبي، وتغلفه بهالة سوداء قاتمة، إلى جانب شعاع خافت مضيء تمثل في غزوات ومعارك جهادية قادها بعض الولاة على فترات متعددة في صقلية[٢]، وسرقوسة[٣] من جزر البحر الأبيض، لكنها كانت غارات سريعة خاطفة، تكتفي بالغنائم والأسلاب، ولا تعني بالفتح الدائم والاستقرار. وهكذا، انتهينا من عصر الولاة بالمغرب، فماذا عن نظيره بالأندلس؟ ذلكم هو موضوع الفصل القادم، إن شاء الله.

***

(١) تاريخ المغرب وحضارته مج١ جـ١ ص ١٨٠-١٨٢ .
(٢) البيان المغرب ١ / ٤٩ ، ٥٣ .
(٣) الكامل ٤ / ٤١٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفصل الثاني

عصر الولاة في الأندلس

(٩٥-١٣٨هـ / ٧١٤-٧٥٥م)

بعد انتهائنا من عرض أحداث الفتح الإسلامي للأندلس، ننتقل - الآن- إلى الحديث عن الفترة التي تلت ذلك، وهي الفترة التي حكم فيها مجموعة من الولاة المتعاقبين تلك البلاد، سواء كان ذلك من قبل والي إفريقية- وكثيراً ما كان يحدث - أم من قبل الخليفة (وقلما كان يتم ذلك).

وفي البداية أسوق قائمة بأسماء هؤلاء الولاة واحداً بعد الآخر، مع ذكر تواريخ بداية ولاياتهم وانتهائها (ابتداء من عبد العزيز بن موسى بن نصير، وختامًا بـ «يوسف بن عبد الرحمن الفهري» آخر ولاة الأندلس في ذلك العصر):

١- عبد العزيز بن موسى بن نصير (ذي الحجة ٩٥هـ - رجب ٩٧هـ/ ٧١٤-٧١٦م).

٢- أيوب بن حبيب اللخمي (رجب ٩٧هـ - ذي الحجة من العام نفسه).

٣- الحر بن عبد الرحمن الثقفي (ذي الحجة ٩٧هـ - رمضان ١٠٠هـ / ٧١٦-٧١٩م).

٤- السمح بن مالك الخولاني (رمضان ١٠٠هـ - ذي الحجة ١٠٢هـ / ٧١٩- ٧٢١م).

٥- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (الولاية الأولى مدتها شهران إلى صفر ١٠٣هـ).

٦- عَنْبَسة بن سُحَيْم الكلبي (صفر ١٠٣هـ - شعبان ١٠٧هـ/ ٧٢١-٧٢٥م).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٧- عُذْرَة بن عبد الله الفِهْرِي (مدة شهرين حتى شهر شوال).

٨- يحيى بن سلمة الكلبي (شوال ١٠٧هـ - ربيع الأول ١١٠هـ / ٧٢٦- ٧٢٨م).

٩- حذيفة بن الأحوص القيسي (ربيع الأول ١١٠هـ - شعبان من العام نفسه).

١٠- عثمان بن أبي نَسْعَة الخثعمي (شعبان ١١٠هـ - المحرم ١١١هـ / ٧٢٩م).

١١- الهيثم بن عُبيد الكناني (المحرم ١١١هـ مدة عشرة أشهر).

١٢- محمد بن عبد الله الأشجعي (ذي الحجة ١١١هـ - المحرم ١١٢هـ): مدة شهرين .

١٣- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (الولاية الثانية صفر ١١٢هـ - رمضان ١١٤هـ / ٧٣٠-٧٣٢م) .

١٤- عبد الملك بن قَطَن الفهري (الولاية الأولى من شوال ١١٤هـ- شوال ١١٦هـ/ ٧٣٢هـ - ٧٣٤م) .

١٥- عقبة بن الحجاج السَّلُولي (شوال ١١٦هـ - صفر ١٢٢هـ/ ٧٣٤- ٧٤٠م) .

١٦- عبد الملك بن قطن (الولاية الثانية صفر ١٢٢- ١٢٣هـ / ٧٤٠- ٧٤١م) .

١٧- بَلْج بن بِشْر (أوائل ذي القعدة ١٢٣هـ - شوال ١٢٤هـ / ٧٤١- ٧٤٢م).

١٨- ثعلبة بن سلامة العاملي (شوال ١٢٤هـ- رجب ١٢٥هـ / ٧٤٢- ٧٤٣م) .

١٩- أبو الخطار حسام بن ضِرار الكلبي (رجب ١٢٥هـ - ١٢٧هـ/ ٧٤٣- ٧٤٥م) .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢٠- ثوابة بن سلامة الجُذامي (١٢٧-١٢٩هـ/ ٧٤٥- ٧٤٧م) .

٢١- يوسف بن عبد الرحمن الفهري (١٢٩-١٣٨هـ / ٧٤٧-٧٥٥م) .

لا يعنينا دراسة تفاصيل عصر كل والٍ من هؤلاء الولاة، وإنما يهمنا رسم صورة واضحة لأهم ملامح ذلك العصر، وهي على النحو الآتي:

أولاً: الفتن والعصبيات والاضطرابات: لعل أول مظاهر الفتنة ما جرى لوالي الأندلس (عبد العزيز بن موسى بن نصير)، الذي قام بأعمال جليلة في الأندلس، ثبتت أقدام المسلمين هناك، إذ نظم البلاد تنظيمًا إداريًا، واستكمل فتح ما لم يُفتح من مدائنه، وكان من خير الولاة، لكن نهايته كانت القتل على يد (حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وزياد بن النابغة التميمي، وغيرهما)، وذلك في شهر رجب سنة سبع وتسعين (٩٧هـ / ٧١٦م). ومهما قيل عن أسباب قتله(١) ، فإن التجرؤ على قتل الوالي غيلة والتآمر عليه من قبل كبار الجند مسألة خطيرة؛ لأنها تفتح بابًا للفتنة في المجتمع، يصعب التحكم فيها والقضاء عليها .

انتشرت الفتن والخلافات في عصر الولاة بالأندلس بين العرب أنفسهم (بلديين، وشاميين)(٢) ، وبين العرب والبربر. ففي عهد (الهيثم بن عُبيد الكناني) في سنة ١١١هـ / ٧٣٠م، بلغ استبداد الشاميين مبلغًا عظيمًا في

---

(١) راجع ما ورد بهذا الشأن في : (النفح) ١ / ٢٨١، و(فجر الأندلس) ص ١٢٩ - ١٣٢، و(دولة الإسلام في الأندلس)، العصر الأول - القسم الأول ص ٧١-٧٣، و(المسلمون في المغرب والأندلس) للدكتور زيتون ص ١٩١-١٩٣ .

(٢) العرب البلديون هم الذين قاموا بفتح الأندلس، واستقروا بها، وأصبحوا بمقتضى هذا يرون أنهم أولى بها، وبخيراتها من غيرهم. وإذا أطلق هذا المصطلح عمومًا دون تقييد، فإنه ينسحب على العرب والبربر المشاركين في الفتح معًا. أما الشاميون (القيسيون)، فهم الذين أتوا بعد ذلك في ظروف تالية للفتح وتطلعوا للمكث بالأندلس، وتنافسوا مع عرب الفتح على الرئاسة، وهم طالعة بلج بن بشر، كما سيأتي.

الأندلس؛ إذ كان الوالي المذكور من أشد الولاة عصبية للشاميين (القيسيين). ومن هنا قامت الخصومة والعداوة بين الوالي، والعرب البلديين، وانضم البربر إلى البلديين؛ نتيجة اتفاق مصالح الجانبين .

في عهد الوالي (عبد الملك بن قطن) ثار البربر على العرب ثورة شديدة. ولعل ذلك يرجع إلى أن بعض العرب، الذين استقروا في نواحي الأندلس تمكوا بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم؛ ظنًا منهم أن الدولة دولتهم. وكان معظم هؤلاء من الشامية (القيسية)، أي: من العرب الذي يرون أن الدولة الأموية دولتهم. أما البلديون فمعظمهم يمنية، وكانوا عن هذه النزعة؛ لأنهم كانوا أهل أرزاق ومعاش شأن غالبية الأمصار، في حين أن الشامية رأوا أنهم أهل حرب وسياسة وحكم(١) .

ثار البربر - إذن- على سيادة العرب جملة، فقام البربر في النواحي التي مثلوا فيها أغلبية على العرب الذين معهم، وأخرجوهم خاصة من جليقية وحوض الدويره، فيما بين هذا النهر ونهر تاجه.

كان الوالي ابن قطن كبير العرب البلديين، وفوجئ بأن البربر ثاروا على العرب جميعًا، وأن الأخيرين هربوا من نواحي (أُشْتُرْقة، وليون، وغيرهما)، وأن البربر تسير في جيوش ثلاثة موجهة إلى (طليطلة، وقرطبة، والجزيرة الخضراء).

في هذه الأثناء كان (بلج بن بشر القشيري) ومن معه محصورين في (سبتة) بعد هزيمة الأشراف في المغرب، وكانوا يستغيثون بوالي الأندلس بلا جدوى، فلما رأى ابن قطن أنه لا قبل له بثورة البربر، اضطر للسماح لبلج ومن معه بالعبور إلى الأندلس؛ للاستعانة بهم. وقد عبر هؤلاء في عشرة

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

آلاف جندي سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م، ولم ينقض عام على دخولهم الأندلس، حتى تمكنوا من القضاء على الثائرين في معركة حاسمة قرب الجزيرة الخضراء أوائل سنة ١٢٤هـ/ نوفمبر ٧٤١م.

بعد هزيمة البربر طارد الشاميون المتعصبون بربر الأندلس، فروعوا ترويعًا شديدًا، وتركوا أراضيهم خاصة في الوسط والشمال الغربي، وأخذوا يعودون في هجرات جماعية إلى إفريقية؛ مما كان له أثره السيء في مستقبل المسلمين بالأندلس؛ لأن هذه المناطق الواقعة شمال (نهر تاجه) خلت من المسلمين تقريبًا، فأصبحت هذه النواحي بدءًا من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري أراضي خالية مفتوحة أمام نصارى الشمال، الذين سيعمرون جزءًا كبيرًا منها خلال القرن الثالث الهجري، ويصبح حوض الدويره أرضًا نصرانية بعد أن أدى الخلاف بين العرب والبربر إلى فقد ربع شبه الجزيرة .

دب النزاع ثانية بين البلدية، وبلج وأصحابه الذين رفضوا العودة إلى إفريقية بعد هزيمة البربر، ونقضوا ما اتفق عليه سلفًا، واستطاع بلج عزل والي الأندلس، ونصب نفسه مكانه في ذي القعدة سنة أربع وعشرين ومائة (١٢٤هـ / سبتمبر ٧٤١م)، فأنكر أهل الأندلس ولايته، وقتلوه(١) ، وخلفه الشامي المتعصب (ثعلبة بن سلامة العاملي)، الذي نازعه البلديون من العرب والبربر، فقامت بينهم حروب مدمرة، أعمل الوالي فيهم القتل، وفي ذراريهم السبي(٢) .

محاولة أبي الخطار تهدئة الأوضاع في الأندلس:

عيّن والي إفريقية (حنظلة بن صفوان الكلبي) الحسام بن ضِرار الكلبي

(١) البيان المغرب ٢ / ٣٠-٣١ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٣٢-٣٣، وأخبار مجموعة ص ٤٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

على الأندلس في رجب سنة ١٢٥هـ/ مايو ٧٤٣م. وقد أراد الوالي الجديد وضع حد لتلك النزاعات، فأمّن العرب والبربر والبلديين على أراضيهم ومصالحهم. وأراد القضاء على الصراعات القبلية، فأبعد أذى الشاميين بإبعاد المقيمين منهم في قرطبة عنها؛ كي لا يتدخلوا في شئون السياسة والحكم، فأعاد بذلك الأمن للجميع. ثم نزل على نصيحة كبير نصارى الأندلس (أرطباس بن غيطشة)، وقام بتوزيع الجند وتفريقهم على الكُوَر[1] المختلفة، مقابل أخذهم ثلث الخراج، الذي يؤديه نصارى الذمة والمزارعون، على أن يمدوا الوالي بما يريد من الجند عند الحاجة. وتم التوزيع على الكور مع مراعاة أن تشبه الأماكن، التي قدموا منها من المشرق، وتسمى بأسمائها، وذلك كما يلي[2]:

أ- جند حمص: نزلوا إشبيلية.

ب- جند دمشق: نزلوا كورة إلبيرة، وهي المعروفة بـ (غَرْناطة).

جـ- جند فلسطين والأردن: نزلوا كورة ريَّة المعروفة بـ (مَالَقة).

د- جند مصر: نزلوا تُدْمير المعروفة بـ (مُرْسِيَة).

هـ- جند قِنَّسرين: نزلوا كورة جيَّان.

بعد هذه المحاولة الناجحة من ذلك الوالي اليمني، إذا بهذا الوالي يميل إلى عنصره اليمني، فثار نزاع جديد مع المضرية بزعامة (الصميل بن حاتم).

بين الصميل ويوسف الفهري:

شهدت السنوات العشر الأخيرة تقريبًا من عهد الولاة في الأندلس تطورًا

---

(١) الكورة: مصطلح إداري، يعني: المحافظة، أو المديرية. ولكل كورة زمامها (مساحتها) المحدد، ولها قاعدتها (عاصمتها)، التي تتبعها مدن أخرى أصغر، تقابل المراكز في التقسيم الحالي.

(٢) البيان المغرب ٢ / ٣٣، وتاريخ ابن خلدون ٤ / ١٥٣، والنفح ١ / ٢٣٧.

جديدًا في النزاع؛ إذ رأى زعيم الشاميين (الصميل بن حاتم) أن يتعاون مع زعيم البلديين المضري (يوسف بن عبد الرحمن الفهري). وقد كان الصميل شجاعًا شهمًا، عنيفًا في خصومته، شديد الحقد على شانئيه. ويضاف - إلى ذلك- أنه كان سياسيًا ماهرًا، فصار الحاكم الحقيقي للأندلس، بينما كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري (١٢٩-١٣٨هـ) حاكمًا رسميًا صوريًا. وقد ضمن الصميل بتحالفه تأييد البلديين له، وانضمامهم إلى صفوفه في صراعه مع اليمنية، إذ كانت أعداد البلديين كثيرة، ويتسمون بالاستماتة في الدفاع عن أنفسهم. هذا، وقد دارت حرب طويلة بين الصميل والزعيم اليمني شديد التعصب (يحيى بن حُرَيْث)، الذي قتل في (شَقُنْدَة) سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م[١].

ثانيًا: الجهاد والغزوات الخارجية:

لم يكن عصر الولاة بالأندلس مقصورًا على الخلافات والصراعات الداخلية، وإنما شهد محاولات جيدة لزيادة الرقعة الجغرافية الإسلامية في أوربا، وتعريف مناطق شمال البرتات بتعاليم الإسلام، وضمان تأمين الفتوح من هجمات القوط المتواجدين في إقليم (سِبْتِمانية) المكون من سبعة أقسام إدارية، تمتد على ساحل البحر الأبيض من جبال البرتات حتى مصب نهر الرون، وكذلك فتح القواعد الإسلامية المتبقية في شبه الجزيرة. بالنسبة للعنصر الأخير، فقد تكفل بذلك الوالي (عبد العزيز بن موسى بن نصير)، حيث نشط لإخضاع جنوب شرقي الجزيرة، واتخذ إشبيلية عاصمة له؛ نظرًا لأهميتها التجارية ووجود ميناء كبير بها يسع السفن الضخمة. وقد فتح مالقة التي استسلمت بسهولة دون كبير مقاومة، ثم غرناطة، ثم إقليم مرسيه[١].

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٣٤-٣٧.

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ / ٣٠٠، والبيان ٢ / ٢٤.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

أما العنصر الأول المتمثل في الجهاد فيما وراء البرتات، فقد قام الوالي السمح بن مالك الخولاني (١٠٠-١٠٢هـ) بعبور جبال البرتات، وغزو جنوب فرنسا. وكانت الأراضي الممتدة وراء البرتات عبارة عن مجموعة إمارات مستقلة: في الجنوب سبتمانية، ثم أكيتانيا. وفي الشرق بروفانس، وبرغونه (وكلاهما على نهر الرون). وفي شمال نهر اللوار توجد مملكة الفرنجة الممتدة شرقًا، حتى تشمل ألمانيا حاليًا .

تمكن السمح من حصار عاصمة سبتمانية،وهي مدينة (أربونه)، واستولى عليها، ثم اتجه شمالاً بغرب، وفتح مدينة (تولوز)، ثم توغل في (أكيتانيا)، لكنه لقي الشهادة بعد هزيمة جيشه، وانسحبت فلوله بقيادة عبدالرحمن الغافقي إلى مدينة (أربونة)، التي غدت قاعدة عربية لغزو ما وراء جبال البرتات[١] .

تابع الوالي (عنبسة بن سحيم الكلبي) حركة الفتوح لإقليم سبتمانية بمدنه السبع، واتجه شرقًا حتى بلغ نهر الرون، وفتح إقليم بروفانس في الجنوب، ثم صعد مع النهر شمالاً، حتى بلغ مدينة (ليون)، وتوغل حتى كان على بعد سبعين كيلو متراً جنوبي باريس الحالية، وهي أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً، وهي تبعد نحو ثمانمائة كيلو متر شمال جبال البرت[٢] .

تطلع النصارى إلى ملك الفرنجة (شارل مارتل)؛ ليخلصهم من غارات المسلمين المتوالية، التي كانت تثير الرعب والفزع في صفوفهم. فأتى القائد المجاهد (عبدالرحمن بن عبد الله الغافقي ١١٢-١١٤هـ)؛ ليصلح ذلك الخلل، الذي يظهر المسلمين بمظهر من يقوم بالنهب والسلب، لا الفتح

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٤ - ٢٥٥، و(في تاريخ المغرب والأندلس)، للدكتور العبادي ص ٨٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

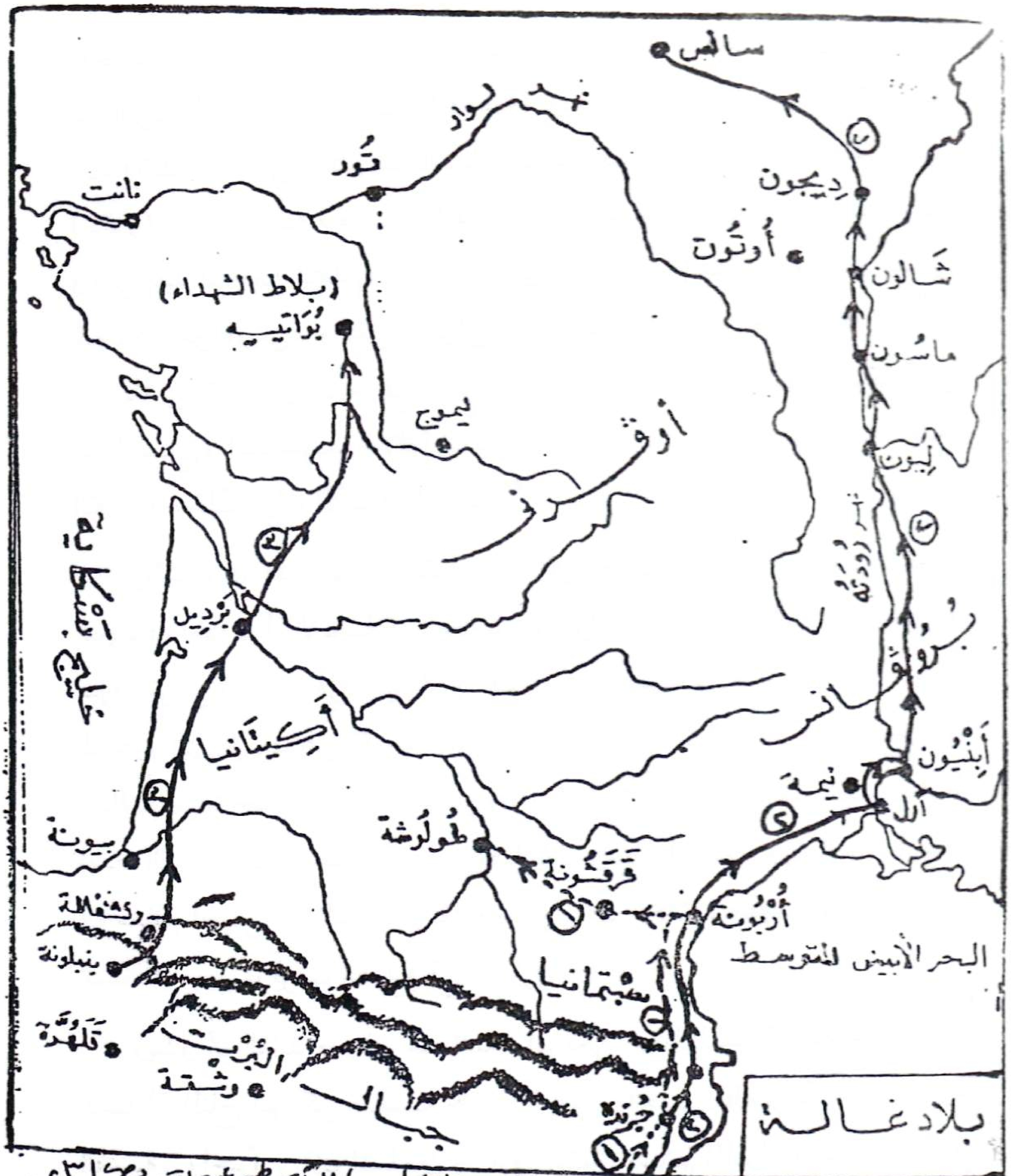

(نقلا عن: تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس) للدكتور طه عبد المقصود ص ٢٣١ .

(١) حملة السمح بن مالك الخولاني (سنة ١٠٢هـ) في إقليم (سبتمانيا)، في بلاد غالة (فرنسا).

(٢) حملة عنبسة بن سحيم الكلبي (سنة ١٠٧هـ) وتوغله في بلاد غالة حتى كان على بعد (٧٠كم) جنوبي باريس الحالية.

(٣) حملة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي وهزيمة المسلمين ومقتله في معركة «بلاط الشهداء»، (سنة ١١٤هـ) بالقرب من (بواتييه) جنوبي نهر اللوار، في بلاد غالة (فرنسا).

والجهاد المنظم. خرج عبد الرحمن بجيش قوامه سبعون ألف جندي معظمهم من البربر (أوائل سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢هـ)، ووصل عبر جبال البرت إلى قلب بلاد (أقطانية)، التي استنجد قائدها بالفرنجة، ثم استولى عبد الرحمن على (تولوز) ثانية، واتجه نحو بردو العاصمة (عاصمة أقطانية)، واحتلها. ثم واصل عبد الرحمن التقدم، واحتل (بواتييه) بعد صراع عنيف، واستعد للسير شمالاً نحو باريس، والتقى بجيش (شارل مارتل) في رمضان سنة ١١٤هـ عند بلدتي (تور، وبواتييه) في معركة (بلاط الشهداء)، ودامت المعركة أكثر من أسبوع، استشهد خلالها القائد المسلم، وانسحب جيشه تحت جنح الظلام، مخلفًا وراءه الأمتعة والغنائم(١) .

ولاشك أن هذه الهزيمة القاسية التي حلت بالمسلمين لم تكن لنقص شجاعة الجند، أو لانخفاض معنوياتهم، وإنما كان ذلك لأسباب أخرى، منها: توغل الجيش في قلب أوربا على بعد أربعمائة كيلو متر شمال جبال ألبرت، التي تبعد عن (قرطبة) العاصمة تسعمائة كيلو متر. وواضح أنها مسافة بعيدة جداً، جعلت المؤمن والأزواد أمراً عسيراً، بينما كانت خطوط إمداد الفرنجة سهلة متصلة، فهم يحاربون وسط بلادهم. ويضاف - أيضًا- أن معظم الجيش من البربر، والقائد عربي على خلاف معهم، ولم يكن من السياسة، بحيث يرأب الصدع في الجيش.

ويبدو أن القائد - رغم شجاعته- لم يكن خطط للمعركة تخطيطًا جيداً، كما أن المناخ لم يكن مناسبًا لخوض الجنود والخيول العربية تلك المعركة القاسية. وأخيراً ، فإن المسلمين ساروا مثقلين بغنائم المعارك السابقة؛ مما دفع العدو لضرب مؤخرة الجيش الإسلامي، فارتبكت صفوفه(٢) .

---

(١) معالم ص ٢٥٦ - ٢٥٨، و(في تاريخ المغرب والأندلس) ص ٨٨ . وقد مرت بعض مصادرنا على المعركة سريعًا، فذكرت الاستشهاد وسنته (البيان ٢ / ٢٨).

(٢) معالم ص ٢٥٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

حصاد المسلمين في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية عصر الولاة:

نحاول - في هذه الجزئية- إلقاء الضوء على أوضاع بلاد الأندلس بعد حوالي نصف قرن من دخول المسلمين إليها. ويمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

١- **من الناحية الحربية:** نجح المسلمون في رسم خططهم الحربية، وأعدوا أنفسهم لتنفيذها من حشد للإمكانات المتاحة، وتنسيق للجهود بين القادة، واستغلال ظروف العدو جيداً، مع ذكاء في التعامل مع كافة الأطراف المشاركة في عمليات الفتح. ومن ثم أفلح الجند الإسلامي الذي لا يتجاوز ثلاثين ألفًا في فتح هذا القطر الأوربي الفسيح الأرجاء، عسير التضاريس، وقضوا على دولة القوط، وذلك في أقل من أربع سنوات. والحق أن فتح المسلمين لبلاد الأندلس يعد معجزة في حد ذاته؛ لأنه تم على أيدي جنود، معظمهم من البربر، الذين علمهم الإسلام الحضارة، وخطا بهم إلى الأمام خطوات، وارتقى بهم في نحو نصف قرن، ونجح فيما فشل فيه الرومان بعد بضعة قرون. لقد أكمل موسى عمل طارق، وأكمل عبد العزيز عمل الاثنين، وسار المسلمون وفق خطة محكمة لم يكن من الميسور وضع أفضل منها.

قُضي على المقاومة، واحتلت العاصمة (طليطلة) في أول وثبة، ثم اتجهت الهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب، ثم احتل إقليم سرقسطة، وتم تتبع فلول المقاومة في معاقلها في الشمال والشمال الغربي، ثم فتح أقصى الغرب، وبعده فتح الجنوب الشرقي، فلو أن مجلسًا للحرب من كبار العسكريين اجتمع، فوضع خطة الفتح ما وفق إلى خير من ذلك، إنه النبوغ الحربي للمسلمين الأوائل(١).

(١) فجر الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ص ١١٨-١١٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢- من الناحية السياسية:

فتحت الأندلس، ودخلت في حوزة الخلافة بـطريقة متفردة، لم تحدث عند فتـوح الأقاليم الأخرى (في مـصر، والشـام، والعراق، والشمـال الأفريقي). فالخلافة الأموية لم تتكلف شيئًـا عند فتوح الأندلس، وغنمت كثيرًا من التحف والهدايا والغنائم الـثمينة. وتحملت بلاد مصر والمغـرب نفقات الفـتح، وتدبير إمداداته من جند البربر غالبًا. ولم تعين الخلافة- بعد الفتح- واليًا للإدارة، وآخر يشرف على الخراج. وكانت علاقة الأندلس بالخلافة علاقة ذات خصوصية، فلم يكن الخليـفة هو الذي يعين والي الأندلس غـالبًا، بل كـان الغالب تعـين والي إفريقية له. فالعلاقة مع الخلافة الأموية ذات السياسة المضطربة بعد الوليد بن عبد الملك بين بين، لا هي تبعـية مطلقة، ولا هي استـقلال تام، وإنما ولاية الأندلس ذات صلة بإفريقية، التي تتبع الخلافة الأموية[١].

٣- من الناحية الإدارية والاقتصادية:

حـرص المسلمـون على تنظيم أوضـاع شبـه الجـزيرة على أسس إدارية واقـتـصادية عـادلة، بما يضـمن الاستقـرار والهدوء، ويـظهر عدالـة الإسلام وسمـاحة الفاتحين. فالأراضـي المفتوحة عنوة قـسمت بين الفاتحين بعـد أخذ الخمس لبيت المال. أما ما فُتح صلحًا، فـتُرك بيد أصحابه بعد دفع العشر من نتاجـها. وقد تؤخـذ الجزية من أصحاب المـعاقل المنيعة والجـبال الشامـخة، ويُقَرّون على أموالهم ودينهم بأراضي الشمال.

هكذا كانت التشريعات الجديدة خـيرًا وعدلاً تجاه سكان البلاد الأصليين، ووسيلة لامتزاج المسلمين بأهل البلاد، فالأراضي المنبسطة في الجنوب (جنوب الوادي الكبيـر) عُدت أرض عنوة؛ لأن المسلمين اسـتولوا عليـها بعد مـعارك

(١) فجر الأندلس: ص ١٢٢ - ١٢٥ .

عنيفة أمام لذريق. وقد قسم موسى أربعة أخماس الأرض إلى إقطاعات بين الفاتحين، والخمس للدولة. أما بقية أراضي الأندلس، فعدت أرض صلح (وهي الواقعة شمال الوادي الكبير من شبه الجزيرة). ولكل ناحية من النواحي- فيما نعتقد - عهد واتفاق، يقرر ما عليهم من مال للدولة، كما هو الحال في (صلح تُدْمير)(١).

هذا، وقد استقر العرب في المناطق المنبسطة والمنخفضة في الجنوب والشرق والغرب، وفي (سرقسطة)، حيث الأماكن الدافئة قليلة المطر. أما البربر، فسكنوا المناطق الجبلية، وبعض الهضاب مما ألفوه في بلاد المغرب.

كان من المسلمين الفاتحين الساسة والمتصرفون في الشئون العليا بالأندلس. وتركت بعض الوظائف لأهل الثقة من سكان البلاد، فكان هناك موظفون نصارى يجبون ضرائبهم، ويسوون منازعاتهم، وتمت تولية أرطباس (ابن الملك وتيزا) على (طليطلة) مطرانًا لها، وردّ إلى ولدي (غيطشة) ضياع الأسرة وممتلكاتها.

وقد كانت الأندلس تحكم من قبل والٍ يعينه والي إفريقية غالبًا، وقسمت إلى ولايات كبرى، تضم كل منها عدداً من المدن، مثل: ولايات الجنوب (وتشمل قرطبة، وجيان، وغيرهما). والأندلس الوسطى (أهم مدنها: طليطلة، ووادي الحجارة). والولايات الشمالية (بها سرقسطة، وطرطوشة، وبرشلونة، ووشقة).

---

(١) ورد في (بغية الملتمس) للضبي ص ٢٧٤ بخصوص هذا الصلح ما يلي: تعهد الوالي بعدم الاعتداء على ملكه، ولا يؤخذ شيء من أصحابه، وحماية أرواحهم فلا يقتلون، ولا تُسبى نساؤهم، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم، وتعهد الصلح بالحفاظ على كنائسهم. وورد ذكر المدن الخاضعة لهذا الصلح وهي سبع. ويتعهد أهل تدمير ألا يكتموا خبر الأعداء عن المسلمين. وأخيراً، حددت مقادير ما يُجبى من أطعمة وغيرها.

وفي المجال المالي والعمراني، والنشاط الاقتصادي، فقد رأينا اهتمام موسى بن نصير بسك العملة منذ وقت مبكر، وإنشاء (حنش بن عبد الله الصنعاني) جامع سرقسطة. ومن الإصلاحات العمرانية ما قام به السمح بن مالك (١٠٠-١٠٢هـ) من إعادة بناء قنطرة الوادي المتصدعة، فالقنطرة تربط قرطبة بأحيائها الجنوبية عبر نهر الوادي الكبير، وكذلك أعاد بناء سور قرطبة.

ومن أبرز الأنشطة الاقتصادية للوالي المذكور أنه كان أول من نظر في أراضي الأندلس، وقام بحصر شامل لها، ومسح مدنها وجبالها وأنهارها، وطبيعة أرضها ومنتجاتها[١]، وميّز ما فتح صلحًا مما فُتح عنوة، ووزع بعض الأراضي على الزراع على أساس المزارعة (المناصفة في الغلة).

ولعل من أهم التحولات الاقتصادية المبكرة في الأندلس إلغاء نظام (عبيد الأرض)؛ إذ تم تحرير هؤلاء من العبودية، ولم يعد ملاك الأراضي يتحكمون فيهم، بل صاروا يستأجرون الأراضي، ويعملون فيها، مقابل إخراج جزء من الغلة للمسلمين، مما كان له أثره في إحساس الناس بالعدالة والرفاهية[٢].

٤- من الناحية الدينية والاجتماعية:

بعد انتهاء عمليات الفتوح، وتحقق الاستقرار للمسلمين في الأندلس، تم إحداث التنظيمات الإدارية والاقتصادية المفضية إلى صبغ المجتمع بصبغة الفاتحين الجدد. وعندئذ لمس سكان البلاد ما في الإسلام من عدالة، وتسامٍ عن الظلم، وتميز تام عما خبروه من مظالم القوط. كل ذلك أفضى - في النهاية- إلى الإقبال على الإسلام، خاصة أن المسلمين لم يكرهوا أحدًا على

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس، لابن القوطية ص ٣٩.

(٢) راجع ما يتصل بالجانب الإداري والاقتصادي في (المسلمون في المغرب والأندلس) للدكتور زيتون ص ١٨٢-١٨٥.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الدخول في دينهم الجديد، إذ كان أساس دولة المسلمين الحرية العقدية، وإزالة الاضطهاد الديني .

انعكس الدخول في هذا الدين الجديد على الأوضاع الاجتماعية في الأندلس؛ إذ تحطمت سلطة الأشراف والطبقات المتميزة سابقًا، وتم تحرير الطبقة المستعبدة، فانتشر الإسلام في سهولة ويسر. وقد أقر بالتسامح الديني لدى المسلمين المستشرق الهولندي دوزي، فأعلن أن العرب تحلوا بكثير من التسامح، ولم يرهقوا أحدًا في شئون الدين، وكانوا عادلين. ويذكر المستشرق الإسباني جاينجوس أنه في إسبانيا سطعت أول أشعة لهذه المدنية، نثرت ضوءها على الأمم النصرانية بعد، وفي مدارس قرطبة وطليطلة جمعت جذور العلوم اليونانية، وإلى ذكاء العرب ونشاطهم يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة[1] .

***

(١) راجع المزيد من أقوال المفكرين في: (المسلمون في الأندلس) لدوزي (ترجمة: د. حسن حبشي) جـ١ ص٤٧-٥٣، و(دولة الإسلام في الأندلس)، العصر الأول- القسم الأول، لمحمد عبد الله عنان ص ٦٢-٦٥ ، و(المسلمون في المغرب والأندلس) للدكتور محمد زيتون ص ١٨٥ - ١٩٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الباب الثالث
عصور الاستقلال
في المغرب والأندلس

ينقسم هذا الباب إلى ما يلي:

الفصل الأول: الدول المستقلة في بلاد المغرب.

الفصل الثاني: وحدة الأندلس واستقلالها في ظل حكم الأمويين.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفصل الأول

الدول المستقلة في بلاد المغرب

أولاً: الدولة الرُّسْتَمية (١٦٠-٢٩٦هـ):

قبل أن نتناول قيام الدولة الرستمـية، وأبرز أحداثها، وحكامها، والدور السياسي والحضاري الذي لعبته في المـغرب، باعتبارها تمثل الخوارج الإباضية في تاهرت (تيهرت) العـاصمة وشرقي المغرب الأوسط، نسرد قائـمة بأمرائها على النحو الآتي:(*)

- عبد الرحمن بن رستم (١٦٠-١٦٨هـ / ٧٧٦-٧٨٤م).
- عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٦٨-٢٠٨هـ/ ٧٨٤-٨٢٣م)
- الأفلح بن عبد الوهاب (٢٠٨-٢٥٨هـ/ ٨٢٣-٨٧٢م) .
- أبو اليقظان محمد بن الأفلح (٢٥٨-٢٨١هـ/ ٨٧٢-٨٩٤م) .
- أبو حاتم يوسف بن أبي اليقظان (٢٨١-٢٩٤هـ/ ٨٩٤-٩٠٧م) .
- يعقوب بن الأفلح (٢٩٤-٢٩٦هـ/ ٩٠٧-٩٠٩م) .

تجربة الرستميين في الحكم:

يقدم لنا المغرب الإسلامي سلسلة من التجارب في ميدان التنظيم والحكم لا نجدها فيما سواه من دول الإسلام، فبينما تتشابه في مصر تجربتا الطولونيين والإخشيديين في الاستقـلال بمصر، حتى إن الإخشـيد يتخذ من أحـمد بن طولون مثلاً أعلى يُحـتذى، فإن الدول المستقلة ببـلاد المغرب، أو المحاولات

(*) راجع - بتصـرف- ثبَت أئمة الرستمـيين في (تاريخ المغرب وحضـارته): المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٣١٥ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الاستقلالية هناك، لكل منها طابع مميز. لقد مرت بنا فترة بني حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري في محاولة لانفراد العرب البلديين بحكم المغرب، والاستبداد بشئونه، ولم تنجح تلك المحاولة؛ لأخطاء عبد الرحمن ابن حبيب، وتواضع كفاءته وقدراته، وعجز العرب البلديين عمومًا عن الثبات أمام جموع البربر المسلمَة المستعربة المستعينة بالمذهب الخارجي الصفري. وقام المهالبة بتجربة أخرى لحكم المغرب من قبل العباسيين معتمدين على الجند الرسمي للخلافة العباسية، وتأييد العرب البلديين لهم. ورغم كفاءة ومهارة أمرائهم من أمثال: يزيد بن حاتم، إلا أن البربر نظموا صفوفهم وتطلعوا مع الخوارج الإباضية نحو إقامة دولة إسلامية يرأسها إمام هو الأصلح والأعلم والأتقى بغَضّ النظر عن أصله وجنسه، خلافًا لما كانت عليه خلافة بني العباس القرشية الوراثية. ولم يجد المهالبة جندًا عربًا يقفون إلى جانبهم بإخلاص، إذ كان الجيش من الخراسانيين المرتزقة والعرب الطامعين الذين كانوا شوكة في جنب المهالبة في القيروان لا عونًا لهم. وعلى كل، فإن الأخطار الخارجية الإباضية والصفرية التي تجسدت أمام أهل القيروان وغيرهم دفعتهم دفعًا للتمسك بالسُّنَّة، ومهدت لقبولهم المذهب المالكي الذي دخل إلى بلاد المغرب، فكان طوق النجاة للحكام والمحكومين أمام تيار الخوارج[1].

مذهب الإباضية ومؤسسوه:

يعد مذهب الإباضية أكثر مذاهب الخوارج اعتدالاً، ومن أسسه رفضهم نظام الملك العضوض (المتوارث) الذي ابتدعه الأمويون ومن بعدهم العباسيون. وقد كانت الأمة رافضة ذلك، لكنها أُجبرت على الاكتفاء باشتراط الصلاحية والعدل في الحكم، مع أن الأصل صلاحية كل مسلم

(١) تاريخ المغرب وحضارته للدكتور حسين مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣١٦-٣١٨.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

لمنصب الإمامة ما توفرت فيه شروطها، وقبلته الأمة - في غالبها- حاكمًا عليها. وكان الإباضيون لا يقبلون حصر الإمامة في قريش، أو قصرها على العرب فقط. هذا، وينسب مذهب الإباضية إلى عبد الله بن إباض التميمي، ورأسه بعده جابر بن زيد الأزدي العماني (أبو الشعثاء) واضع أسس المذهب الفقهية. ومن أبرز تلاميذه: أبو عبيدة مسلم بن أبي كُريمة الذي دعا إلى التمسك بالشورى، وأوذي في عهد الأمويين، وقد أيقن ضرورة البحث عن بلد قَصِيٍّ يطبق فيه الخوارج مذهبهم وفكرهم، ويقيمون دولتهم، فأرسل تلميذه سلمة بن سعيد إلى المغرب، يستكشف الميدان في تلك البلاد بعد أن بلغته أنباء ثورة البربر ضد العرب والأمويين، وكان التطلع متجهًا نحو منطقة المغرب الأوسط الواقعة بين نهري شِلْف والمولوية الخارجة عن سلطان العباسيين، وهي أرض مشاع تتقاسمها قبائل البربر[1].

عبد الرحمن رستم مؤسس الدولة الرستمية، وظروف ولايته:

كان سلمة بن سعيد داعية ذكيًا نشيطًا، استقر في جبل نفوسة يدعو لمذهبه، وكثر أتباعه فانتقى أربعة منهم، وأرسلهم إلى البصرة لمقابلة أعيان المذهب والاستزادة من العلم، وكان منهم عبد الرحمن بن رستم، وانضم إليهم هناك أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري. وعند عودة الأخير بايعوه إمامًا للإباضية سنة ١٤٠هـ، وشملت دعوته إقليم طرابلس وفزان، وكان ابن رستم قاضيًا له في طرابلس. نجح أبو الخطاب في اجتذاب رجال قبائل نفوسة، وهوارة، ولواتة، وغيرها. وامتدت دعوته في إفريقية بعد طرده الخوارج الصفرية من القيروان بعد أن عاثوا في الأرض فسادًا، وولى عليها

(١) تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٤١ ، وتاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ٣١٩ - ٣٢٠.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ابن رستم[١] . وهنا أحست الخلافة العباسية بالخطر، وإمكان امتداد الخوارج شرقًا نحو مصر، فأرسلت الجيوش بقيادة محمد بن الأشعث الذي هزم الإباضية وقتل زعيمهم سنة ١٤٤هـ[٢] . وبعدها انسحب ابن رستم مع عدد كبير من رجاله إلى ناحية تاهرت بالمغرب الأوسط، حيث كانت الإباضية منتشرة في منطقتها[٣] .

كان عبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي، ويقال: إ جده بهرام من موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه[٤] ، وقد أتى والده رستم من العراق إلى مكة ومعه زوجته وابنه عبد الرحمن، فمات الأب هناك، وتزوجت أمه بأحد الحجاج المغاربة، حيث صحبها وابنها إلى القيروان[٥] ، حيث نشأ هناك إلى أن صار على رأس الإباضية كما أوضحت من قبل. اختار عبد الرحمن موقع مدينة تاهرت اختيارًا صحيحًا؛ فهي تقع وسط الجبال، فلا يصل إليها أحد من ناحية الغرب أو الشرق بسهولة، فهي آمنة من الغزو. أما المدخل إليها من الجنوب فكان سهلاً، فالطريق بينها وبين الصحراء مفتوح، يمكن أهلها من الاتصال بالإباضية في جبل نفوسة. توسع عبد الرحمن في بناء مدينته الجديدة؛ لأن المكان الأصلي لها صغير، وهو في حاجة إلى حصن كبير، فصعد الجبل فوق

---

(١) استغاث أهل القيروان من المسلمين بأبي الخطاب مما حَلّ بسكانها ومساجدها من الدمار على أيدي قبيلة ورفجومة الخارجة على الإسلام. وقد استولى أبو الخطاب على مدينة طرابلس؛ لتأمين خطوطه الخلفية، ونجح في إلحاق الهزيمة بزعيم ورفجومة عبد الملك بن أبي الجعد سنة ١٤١هـ، حين تخلى سكان القيروان عن تأييده، وتحمس جيش الإباضية في مقاتلته حتى قتل، وفر أتباعه. (البيان المغرب ١ / ٧٠-٧١، وأخبار الأئمة الرستميين د. حسن علي حسن ص ١٠٢-١٠٣).

(٢) البيان المغرب ١ / ٧٣ .

(٣) تاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٤) البيان المغرب ١ / ١٩٦ .

(٥) أخبار الدولة الرستمية، د. حسن علي حسن ص ١٠٩، وتاريخ المغرب وحضارته د. مؤنس، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٣٢٢-٣٢٣ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

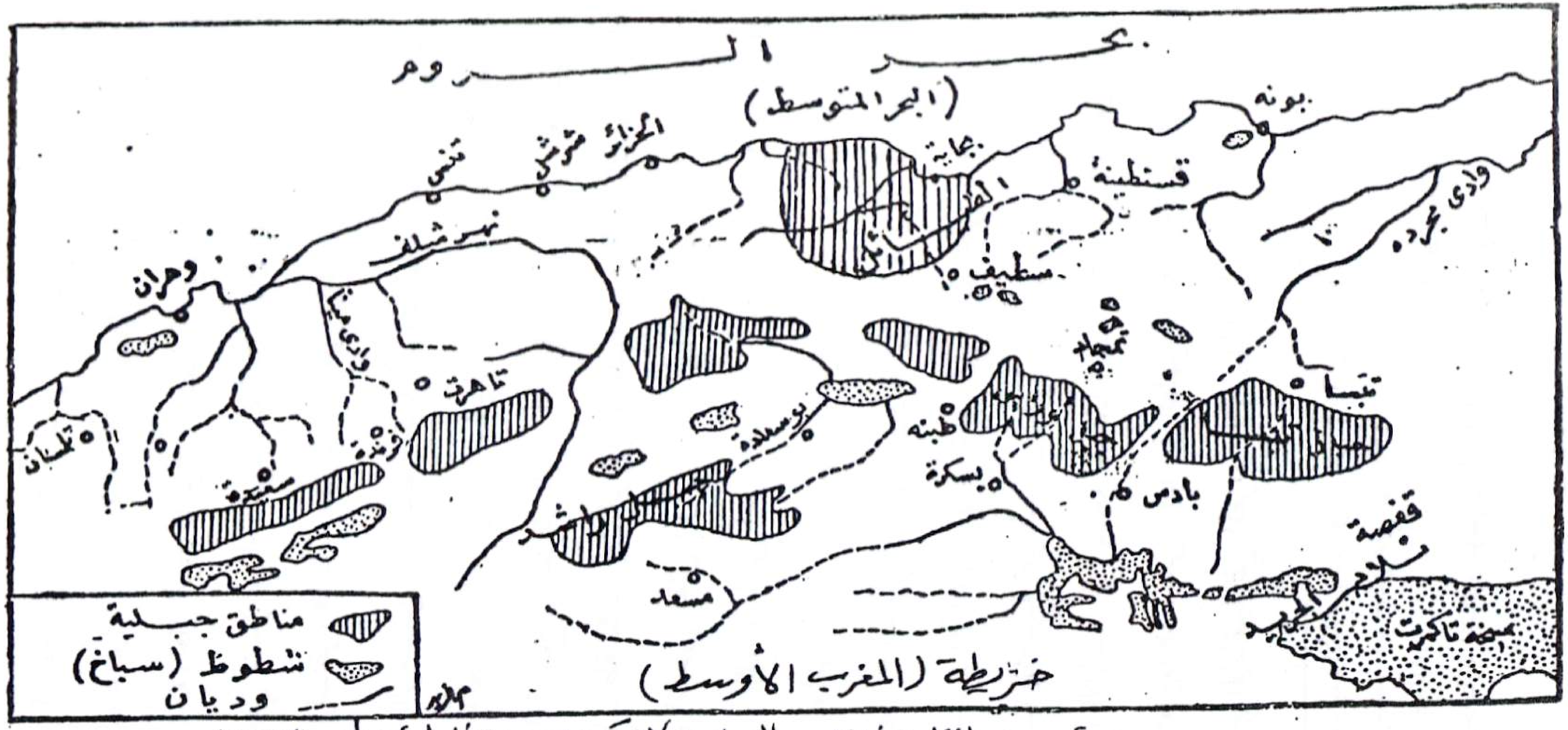

نقلاً عن: (تاريخ المغرب العربي) للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ١/٣٧٦.

تاهرت القديمة، حتى وجد مكانًا متسعًا من الأرض وافر المياه[1] ، فبالمكان نهران (نهر مينه في الجنوب، ونهر تاتش شرقي المدينة ومنه يشرب السكان، ويروون بساتينهم وزروعهم)، إضافة إلى تمتع المنطقة بالمراعي الواسعة، والأراضي الزراعية المتنوعة، فازدهرت تاهرت اقتصاديًا. وهكذا، أقيمت العاصمة في موقع إستراتيجي متميز في أماكن إقامة قبائل لواتة وهوارة الإباضية؛ مما يساعد على حمايتها واستقرارها لأداء دورها السياسي والحضاري[2] .

بويع عبد الرحمن بن رستم- كما أشرتُ قبلاً- بعد مقتل أبي الخطاب سنة ١٤٤هـ، وتعرف هذه البيعة بـ (بيعة دفاع)، وتسمى الإمامة التي وليها بعدها بـ (إمامة دفاع). ثم ثار البربر الخوارج على والي العباسيين منتهزين صراعًا على السلطة نشب بين الوالي الأغلب بن سالم التميمي، والحسن بن حرب الكندي انتهى بمقتل الوالي[3] . وواصل البربر من الخوارج أعمالهم العسكرية ضد والٍ عباسي آخر (عمر بن حفص) حيث قتلوا نائبه على القيروان، وفر أمامهم والي طرابلس حيث خضع إقليمه للإباضية، بقيادة أبي حاتم الذي سيطر -أيضًا- على القيروان في عهد يزيد بن حاتم، لكن هذا الوالي هزم جموع الإباضية، وتم قتل أبي حاتم على يده سنة ١٥٥هـ[4] ؛ ومن ثم ضعف إباضية طرابلس وجبل نفوسة، وتطلعت الأنظار إلى ابن رستم بالمغرب الأوسط في بيعة جديدة سنة ١٦٠ أو ١٦٢هـ، وهي بيعة الظهور، وإمامته بعدها تسمى (إمامة الظهور)، وكانت بعد استقرار الأمور، وانتصار الخوارج الإباضية في المغرب الأوسط[5] .

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس د. مؤنس ص ١٠٢ .

(٢) أخبار الدولة الرستمية د. حسن علي ص ١٩٥ .

(٣) الكامل ٥ / ١٨٦-١٨٧ .

(٤) المصدر السابق ٥ / ١٩٧ .

(٥) تاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٢٥ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

أسس البيعة:

انتخب شيوخ الإباضية ورؤساء القبائل عبد الرحمن بن رستم بناء على توفر شروط البيعة فيه، وهي: الفضل: ويقصد به العدالة التي تشمل سلامة الاعتقاد، والجوارح، ونزاهة النفس. والعلم: حيث يعد العلم بالإسلام وشريعته وعلومه شرطًا أساسيًا للإمامة لدى الإباضية، وهو العلم الموصل إلى مصلحة الجماعة في الدنيا، وسعادتها في الآخرة. والوصية: وتعني ثقة الإمام السابق أبي الخطاب في ابن رستم، وإسناده المناصب إليه، وما أوصى به من خلافة ابن رستم في رئاسة الجماعة من بعده. وهم يستندون إلى اعتقادهم في إيصاء الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه، ووصية أبي بكر لعمر رضي الله عنه، ثم ما أوصى به عمر للصحابة في مجلس الشورى من بعده، وهو ما استقروا عليه في مذهب الإباضية. وعدم وجود عصبية تؤيد الإمام: فعدالة الإمام، وتأييد الجماعة له هو أساس الاختيار، فلا عصبية ولا قبلية؛ لأن الرجل من أصل فارسي كما هو معلوم. وصفوة القول: إن الرجل كان عند حسن الظن به، فطبق الشريعة، وأقام العدل، وحكم بالقسطاس المستقيم، وأعمل الشورى، بل استفتى علماء الخوارج في البصرة فأفتوه، وأيدوه، وناصروه ودعموه بالأموال اللازمة لدولته طيلة السنوات الثماني التي حكمها حتى وفاته ١٦٨هـ[١].

تراجع مبدأ الشورى عند اختيار خليفة ابن رستم في حكم الرستميين، حيث رشح ستة من مجلس الشورى، لكنه خالف ما فعله عمر رضي الله عنه، حيث جعل ابنه فيمن يختار منهم، فمال بذلك إلى غير ما اختير هو على أساسه، وكانت النتيجة ميل الشيوخ إلى تولية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم مخالفين بذلك أهم مبادئهم الداعية إلى نبذ وراثة الحكم. ومن هنا وقع الانشقاق، حين ظهر فريق من المعارضين الذين عُرفوا بـ (النكّارية) في مقابل

(١) تاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول جـ١ ص٣٨٤-٣٨٥، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور مؤنس ص ١٠٢-١٠٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

جماعة المؤيدين للإمام الجديد ممن عرفوا بـ (الوهابية) أو (الوهبية)، وقام الصراع التقليدي المسلح على الحكم، وانتهى بمقتل قائد النكارية يزيد بن فندين على يد أفلح بن عبد الوهاب. لم تنته فرقة النكارية تمامًا، بل بقيت منهم جماعات متفرقة في القبائل، أشهرهم أبو يزيد مخلد بن كيداد الثائر الإباضي النكاري على خلافة الفاطميين بالمغرب[1] .

وقع خلاف بين إباضية تاهرت وإباضية جبل نفوسة بعد مقتل زعيم النكارين، وتجدد الخلاف عندما طبق إباضية جبل نفوسة مبدأ الوراثة في حكمهم، رغم أن عبد الوهاب نفسه أتى عن طريق الوراثة، وتفاقم الأمر عندما أصروا على موقفهم، وولوا خلف بن أبي عبد الأعلى إمامًا لهم بعد وفاة أبيه، فإذا بعبد الوهاب يولي إمامًا آخر غيره، فظهر الانشقاق الثاني فيما عرف بـ (الخَلَفية) أتباع الإمام النفوسي[2] . وبذلك دب النزاع والفرقة بين صفوف الإباضيين؛ نتيجة الخلاف بين فرعيهم في بلاد المغرب مما أضعفهم في نهاية الأمر، وأوهن قواهم العسكرية بمضي الوقت[3] ، إلى جانب عدم وجود أئمة أكفاء على مستوى عبد الرحمن وابنه عبد الوهاب؛ مما سهل مهمة أبي عبدالله الشيعي الفاطمي في القضاء على الدولة الرستمية سنة ٢٩٦هـ، وهو التوقيت الذي شهد معظم الدول المستقلة في بلاد المغرب، كما سنرى بعد ذلك.

نظرة على حضارة الدولة الرستمية:

يلاحظ على تجربة الرستميين أنها - في مجموعها- كانت تجربة موفقة قدر لها أن تدوم قرابة قرن ونصف من الزمان، وكان لها تأثيرها السياسي

---

(١) تاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول جـ١ ص٣٨٨-٣٩٠ ، وتاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص٣٢٨-٣٢٩ .

(٢) تاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول جـ١ ص٣٩١ (نسبة إلى خلف بن السمح).

(٣) تاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٢٩- ٣٣٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

والاقتصادي، والفكري والاجتماعي في المغرب الأوسط. ويكفي أنه- لأول مرة في التاريخ- ينجح الخوارج في هذا المكان البعيد في إقامة دولة لهم تطبق مذهبهم وفكرهم، وتحقق الشورى اختياراً ومنهجًا وأسلوبًا للحكم، إلا أن الانحراف من الطبقة الحاكمة عن مبدأ الشورى إلى الوراثة أدى إلى تفاقم الخلافات، وحدوث الانشقاق والانقسام، والاحتكام إلى السيف، وإراقة الدماء؛ مما جعل الدولة في مهب الرياح، وعرضة للزوال.

لقد توسعت الدولة الرستمية في العمران، وتأمين الطرق، وتحولت من واحات صغيرة إلى مدن ومراكز تجارية عامرة بالتجارة وأصحاب الأموال والأسواق، مثل: تاهرت، وشروس (في جبل نفوسة)، وجزيرة جَرْبَة. لقد عمر الساحل شمالي تاهرت بالموانئ، وتحولت وهران من قرية على الساحل إلى ميناء عظيم بفضل مهارة ولاة الإباضيين الذين كانوا من ذوي الصلاح والكفاية غالبًا[1]. وازدهرت الزراعة في تلك الدولة، وزادت الرقعة المزروعة بمختلف المحاصيل كالكتان والسمسم وسائر الحبوب، وانتشرت البساتين، وازدهرت زراعة الفواكه. وساعدت المراعي الشاسعة على نمو الثروة الحيوانية من المواشي وغيرها، وكذلك ظهرت صناعات قائمة على الحديد والزئبق، وازدهرت صناعة المنسوجات والأواني والخزف، وانعكس ذلك على الأسواق والحركة التجارية رخاء وثراء. وكانت تيهرت ذات مكانة متميزة في تنشيط حركة التجارة في بلاد المغرب، وتعددت منها طرق التجارة الموصلة إلى السودان، فانتعش التبادل التجاري بين الإقليمين[2].

انتشر المذهب الإباضي وتدعم وجوده بوجود دولة ترعاه وتحكم بمقتضاه، وتعمل على نشر أفكاره بين ربوع البربر، وتنظم لهم الحلقات الدراسية

---

(١) تاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٢) أخبار الأئمة الرستميين للدكتور حسن علي ص ٢٠٠ وبعدها.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

العلمية الداخلية لتكوين أجيال من علماء وفقهاء المذهب. ويلاحظ حرصهم على إيفاد الطلاب النابهين إلى البصرة مركز الخوارج الإباضية الرئيسي للاستزادة من العلم، إلى جانب وجود مراسلات ومكاتبات، واستشارات فقهية وعلمية ومذهبية متعددة، إلى جانب الاهتمام بعلوم اللغة والجدل والمناظرة فيما سُمح بانعقاده من مناظرات ومناقشات بين علماء المذهب الإباضي وعلماء الفرق الأخرى(1).

ولاشك أن الازدهار الحضاري في الدولة الرستمية كان راجعًا في جانب من جوانبه إلى احتفاظ الدولة بعلاقات جيدة -في مجموعها- مع جيرانها، فلم تقم نزاعات مسلحة بينها بين الأدارسة، وبني الأغلب، بل كانت بينهم وبين الصفريين في سجلماسة علاقات مصاهرة وصلات تجارية، وكذلك قامت علاقات مودة بينهم وبين الأمويين في الأندلس(2).

ثانيًا: دولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ):

ثار العلويين بالحجاز سنة ١٦٩هـ في خلافة الهادي العباسي، وكانوا قد ركنوا إلى الهدوء بعد ثورتهم الأكثر عنفًا في عصر المنصور سنة ١٤٥هـ، وانتهت بمقتل محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم. وكان سبب الثورة الجديدة اتهام والي المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب(3) بعضَ العلويين وفيهم الحسن بن محمد النفس الزكية بشرب الخمر، فأخذهم وأقام عليهم الحد، ثم جعل الحبال في أعناقهم، وطاف رجاله بهم في المدينة، فذهب إليه محتجًا الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب على سوء معاملة أهل بيته قائلاً للوالي: لم يكن لك أن

---

(1) أخبار الأئمة الرستميين ص ٢١٢ وبعدها.

(2) تاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٣٣.

(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ٥ ص ٢٦٥ (أحداث سنة ١٦٩هـ).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

تضربهم؛ لأن أهل العراق لا يرون به بأسًا (فيما يبدو معه أنهم اجتمعوا على شرب النبيذ ولم يسكروا، فلا حد عليهم)، فردّهم الوالي، وحبسهم يومًا وليلة، ثم أطلقهم مع إزعاجهم بمراقبة تحركاتهم، لكن الحسن بن محمد النفس الزكية اختفى عن العيون أيامًا، فأرسل الوالي جنده يتتبعون العلويين بحثًا عن هذا الهارب؛ مما أدى إلى خروج الحسين بن علي المحتج آنفًا على الخليفة الهادي، ومبايعة جمع من أهل المدينة له بالخلافة، وانضمام بعض الكوفيين بالمدينة لهم. توجه الجميع وفيهم عدد من العلويين من أحفاد الحسن ابن علي بن أبي طالب ﷺ نحو مكة، فقطع عليهم الجيش العباسي الطريق، ودارت معركة غير متكافئة بين الفريقين عند وادي (فَخّ) الذي يبعد عن مكة نحو ستة أميال، وانتهت بهزيمة العلويين وسقوط كثير من الضحايا، على رأسهم زعيم الثورة الحسين بن علي في مذبحة بشعة نكّل فيها العباسيون بهم[1] ، فأعاد ذلك إلى الأذهان مذبحة الأمويين للحسين بن علي ﷺ ومن معه من آل البيت في كربلاء (العاشر من المحرم سنة ٦١هـ)؛ فبين الموقعتين وجوه شبه عديدة، منها: ضآلة أعداد الخارجين على الخلافة، وكثرة الشهداء في المعركة من العلويين، وقيام حركة شورية في الكوفة؛ احتجاجًا على ما حدث في كربلاء، ووقوع ثورتين علويتين وحركتين انفصاليتين ضد العباسيين بعد وقعة فخ في بلاد الديلم، وفي بلاد المغرب[2] .

---

(١) راجع التفاصيل في: تاريخ الطبري جـ٨ ص١٩٢ وبعدها، والكامل لابن الأثير جـ٥ ص٢٦٥ وبعدها، والخلافة والدولة في العصر العباسي (مكتبة الشباب ١٩٨٢م) للدكتور محمد حلمي أحمد ص ٥٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٤-٥٥ . وهذه إشارة إلى كل من: يحيى بن عبد الله الفارّ من المعركة إلى بلاد الديلم جنوبي بحر قزوين (من قرى أصبهان ناحية جرجان). (معجم البلدان جـ٢ ص٦١٤)، حيث حاول إقامة دولة هناك، واستقدمه هارون الرشيد على أمان إلى بغداد. والآخر هو إدريس ابن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة التي نتناولها الآن . (تاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٧٣).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

شارك في معركة (فخ) اثنان من أبناء عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[1] هما: يحيى الذي فر من المعركة ناجيًا بنفسه إلى بلاد الديلم، حيث أقام في عصر الرشيد إمامة علوية حسنية هناك، ولم تكن الظروف مواتية للاستقرار هناك، لاسيما وقد أرسل إليه الرشيد جيشًا من خمسين ألفًا بقيادة الفضل بن يحيى البرمكي الذي صالح يحيى، وقد انخدع بأمان الرشيد، الذي حبسه في داره عقيب عودته، ثم دُسّ له السم ومات[2].

أما الثاني، فهو إدريس بن عبد الله الذي تخفى وسط الحجيج في موسم الحج. وهرب بمساعدة مولاه راشد إلى مصر، وكان على بريدها واضح مولى صالح بن أمير المؤمنين المنصور، وكان رافضيًا خبيثًا، فحمله على البريد إلى أرض المغرب، فكان جزاء واضح ضرب عنقه في عهد الهادي، أو الرشيد بعد اكتشاف تآمره[3]. توجه الرجلان معًا إلى القيروان مدة، ثم سارا إلى تلمسان، ثم ارتحلا قاصدين طنجة بالمغرب الأقصى سنة ١٧١هـ، ومنها إلى وَليلَى حيث جموع قبيلة أوربة التي ظهرت على مسرح الأحداث ثانية بعد أن توارى ذكرها في طَيّ النسيان عقب مقتل كسيلة زعيمها على يد زهير بن قيس البلوي، كما مر بنا سابقًا.

---

(١) ذكر ابن عذارى عن العُذْرى وغيره: أن إدريس وسليمان فرًا من وقعة فخ أيام جعفر المنصور. (البيان المغرب) جـ١ ص٢١٠. والصحيح أن اللذين فرا هما يحيى، وإدريس. والواقعة المذكورة كانت زمن الهادي لا أبي جعفر المنصور. وثمة معلومة جيدة أضافها ابن عذاري، وهي أن عبد الله ابن الحسن له ستة أبناء: محمد (قُتل بالحجاز)، وإبراهيم (قُتل بالبصرة أيام المنصور)، ويحيى، وإدريس، وعيسى، وسليمان (وفد على أخيه إدريس بالمغرب فأقطعه ناحية تلمسان). ويلاحظ أن الدكتور مؤنسًا ذكر أن الإخوة الستة شهدوا وقعة فخ، وأن سليمان قتل في (فخ)، وأن الذي لحق بإدريس في المغرب هو حفيده (سليمان بن محمد بن سليمان). (تاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٧٢-٣٧٣). ولا أدري مصدره الذي نقل عنه.

(٢) تاريخ الطبري ٨ / ٢٤٢-٢٥٠.

(٣) المصدر السابق ٨ / ١٩٨.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

تم اختيار هذا المكان عند قاعدة جبل زرهون منتصف المسافة بين فاس ومِكْناس الحاليتين، واستعان إدريس بزعيم وليلى إسحاق بن محمد بن عبدالمجيد الأَوْرُبي بعد أن كشف له عن شخصيته ووثق به، وتم الترحيب به، والإيمان بدعوته، وتولى خدمته، والقيام بشئونه منذ وصوله إلى تلك المدينة في ربيع الأول سنة ١٧٢هـ[(١)] . وفي رمضان من العام المذكور تمت مبايعة إدريس على السمع والطاعة، لاسيما وقد عرف شرفه وعظيم نسبه، وقرابته من رسول الله ﷺ . وكذا بايعته قبائل زناتة وصنهاجة وهوارة[(٢)] ، ولاريب أن إدريس بن عبد الله كان يتطلع إلى تحقيق طموحات العلويين في إنشاء دولة لهم بعيداً عن متناول الدولة العباسية، وصادف ذلك رغبة أكيدة لدى قبائل المغرب الأقصى في إنشاء كيان سياسي خاص بهم. وفي سبيل تحقيق هذين الهدفين الرئيسيين جمع إدريس البربر حوله، وكون الجيوش، وحاول بسط نفوذه على بعض المناطق الشمالية من المغرب الأقصى حتى امتد سلطانه في أقل من عام من تلمسان إلى ريف تامَسْنا، ومن طنجة إلى وادي أم الربيع، وهي رقعة غنية فسيحة، مهد بها لإقامة دولة ذات هيبة ومكانة[(٣)]؛ مما جعل الخليفة هارون الرشيد يتوجس شراً من اتساع رقعة وامتداد خطورة هذه الدولة الناشئة، وهو لا يستطيع إرسال الجيوش لمناهضتها، فدس على إدريس رجلاً يسمى (الشماخ) كان مولى للمهدي، وأوفده إلى المغرب، فزعم أنه طبيب، وصار من أولياء إدريس، وتقرب منه، حتى حاز ثقته الكاملة. وفي يوم شكا إدريس من علة في أسنانه، فأعطاه الشماخ سواكًا مسمومًا،

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسن علي ص ٢٩-٣٠ (ومصادره) .

(٢) المرجع السابق (ومصادره) ص ٣٠ .

(٣) معالم في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ١٠٩، ١١٢-١١٣ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

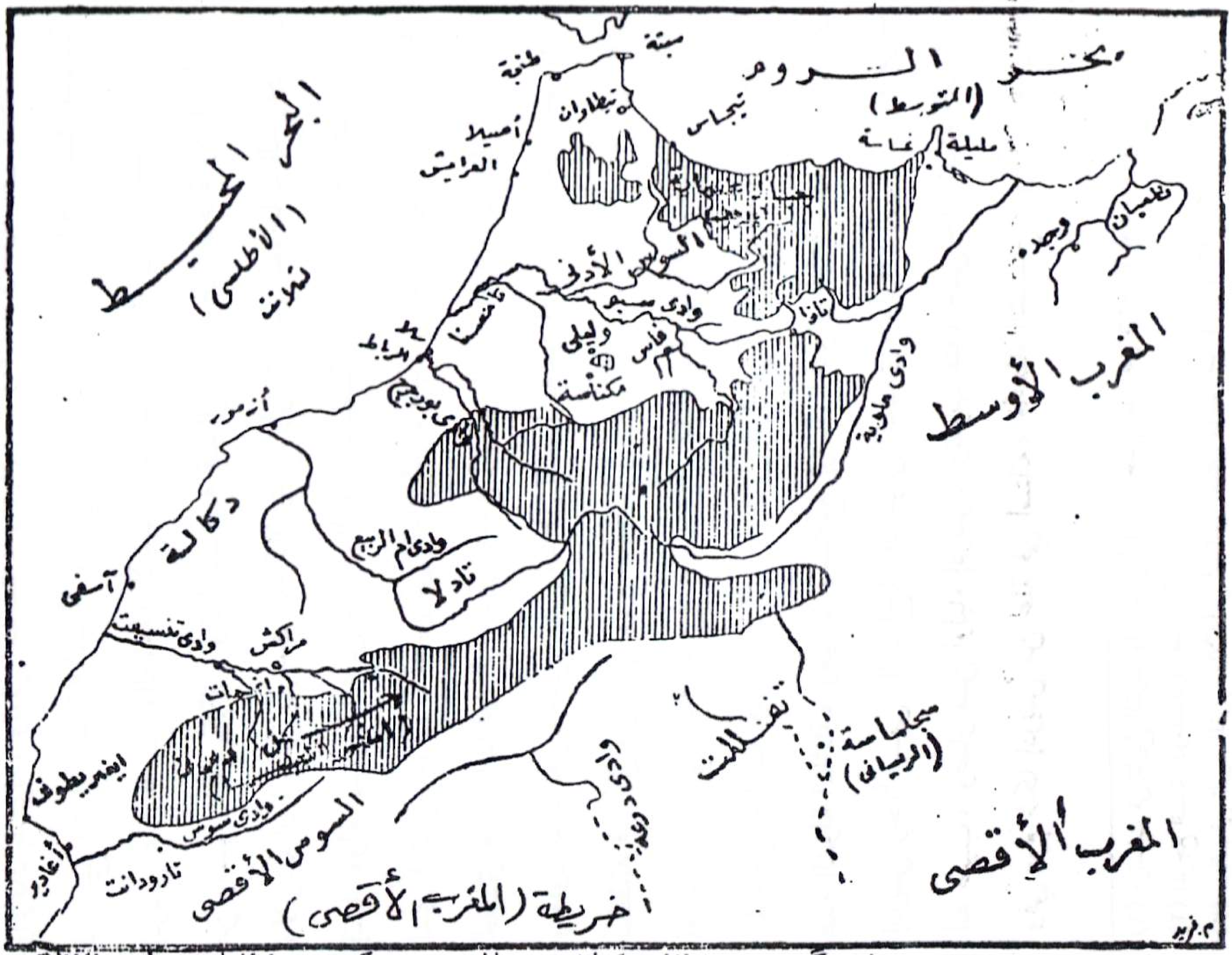

نقلاً عن: (تاريخ المغرب العربي) للدكتور سعد زغلول عبد الحميد ١/٤٠.

فقضى عليه، وذلك سنة ١٧٧هـ، ولم يظفر به، فقد انطلق إلى ابن الأغلب وأخبره بما فعل، وبلغت الأنباء الرشيد فكافأه بجعله على بريد مصر[(١)] .

بعد وفاة إدريس الأول دبر مولاه راشد أمور الدولة، واتفق مع رؤساء القبائل أن ينتظروا ما يسفر عنه حمل (كنزة) جارية إدريس المتوفى. فإذا وضعت ذكراً، بويع أميراً عليهم، وبالفعل تحقق المراد وأعيدت مبايعته مرة أخرى سنة ١٨٦هـ أو ١٨٧هـ عندما بلغ العاشرة تقريبًا، وقد اهتم راشد بتربيته وإعداده للإمارة، وسمي باسم أبيه، فعرف بـ (إدريس الثاني)، حيث استقل بنفسه في الحكم حوالي سنة ١٩٢هـ. عقب ذلك مباشرة وفد كثير من مهاجرة العرب على إدريس الثاني من القيروان خاصة، ودخلوا في موالاته وخدمته، وبدأ يفكر في الخروج من مدينة وليلي؛ ربما لأنه أراد التخلص من سلطان قبيلتي أوربة وغمارة صاحبتي الفضل الأكبر في إنشاء دولة الأدارسة، لاسيما وقد قتل زعيم أوربة بتهمة التآمر مع الأغالبة ضده[(٢)] . وقد وجد إدريس الثاني أعوانًا جدداً، وبطانة كبيرة من العرب الوافدين؛ ولذلك بدأ يبحث عن إقامة عاصمة جديدة لدولته، فدُلَّ على واد بين جبلين يسمى وادي فاس، فأسس فيه مدينة صغيرة عرفت بـ (عُدْوَة القَرَويين)، ثم وفد جماعة من مهاجري قرطبة، وأقاموا قرية مجاورة لها عرفت باسم (عدوة الأندلسيين)، ومن مجموع القريتين تكونت مدينة (فاس القديمة)، وابتنى إدريس الثاني لنفسه

---

(١) تاريخ الطبري ٨ / ١٩٨-١٩٩ . هذا هو تاريخ وفاة إدريس كما ارتضاه د. محمد حلمي في كتاب (الخلافة والدولة في العصر العباسي) ص ٥٥، ود. حسين مؤنس في (تاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول، ص٣٦٩)، خلافًا لما ذكره في (المرجع نفسه) ص ٣٨٢، حيث جعل الوفاة سنة ١٧٥هـ، وكررها في كتابه (معالم تاريخ المغرب والأندلس) ص١١٣ . ولعله اعتمد على (البيان المغرب) ١ / ٢١٠ . ويلاحظ أن الدكتور طاهر راغب جعل تاريخ وفاة إدريس بن عبد الله سنة ١٧٩هـ اعتماداً على بعض الوثائق مقارنة بالنصوص التاريخية . (التطور السياسي للمغرب) ص ١٧٣ (راجع هامش ١١) .

(٢) البيان المغرب ١ / ٢١٠-٢١١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

موقع فاس وتخطيط المدينة

(نقلاً عن : تاريخ المغرب العربي) للدكتور سعد زغلول ١/٢١٤

داراً في عدوة القرويين، وشرع في إنشاء جامع فاس، وانتقل إليها واتخذها عاصمة سنة ١٩٦هـ[١] . ومن سنة ١٩٧هـ شن عدة حملات في محاولة لتثبيت سلطانه من تلمسان إلى ساحل المحيط الأطلسي، وحارب الخوارج في جبال أطلس، ودارت حروب طويلة بينه وبين البرغواطيين المنحرفين عن الإسلام الصحيح معتمداً على جيوش أوربة وغمارة[٢] .

ازدهرت مدينة فاس بعدوتيها أيام إدريس الثاني، وفي سنوات قليلة غدت من العواصم الإسلامية الكبرى، لاسيما أنها تمتعت بموقع متميز في سهل أسياس، فالأرض فسيحة منبسطة بين جبلين ذَوي سفوح متدرجة الارتفاع تسلقتها البيوت، إلى جانب غزارة المياه وتوفرها بكثرة من العيون الكثيرة التي تفجرت في السهل وعلى سفوح الجبال. وهذه العيون كانت تمد نهر فاس التي تقع المدينة على ضفته بالمياه. هذا، وقد اهتم إدريس الثاني بنشر اللغة العربية، واتخذ من البربر المستعربين، وعرب إفريقية والأندلس الوافدين إلى فاس وزراء وقضاة، وكثرت الهجرات العربية من القيسية والأزد ومُدْلِج، فازداد عمران المدينة وسكانها وبهاؤها بعد أن أخذت الطابع الجميل الذي يميز مدن المغرب والأندلس من تجاور البيوت المطلية بالجص الأبيض الناصع، ذات السقوف المزخرفة باللون الأحمر أو الأخضر .

بذل إدريس الثاني (ت٢١١هـ) جهوداً مضنية في نشر الإسلام والعربية في بلاد المغرب، وحارب أهل البدع، وقضى - ما أمكن - على المبطلين والمحرفين لشرائع الإسلام وعقائده من البرغواطيين، ونجح في طردهم من

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٤ ، وتاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول ١ / ٤٢٠ .

(٢) راجع التفاصيل في : المرجع السابق ١ / ٤١٧، وتاريخنا لمغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٧٥ وبعدها .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

سهول المغرب الأقصى إلى مرتفعاته وجباله العالية، فخلص الناس من ظلمهم وعدوانهم ومغارمهم، وضم مواطنهم إلى دولته الفتية في طنجة وسبتة وأصيلا، والعرائش، وكل ريف تامَسنا، وتصدى لهم كذلك في سفوح جبال الريف، فأمن الناس في السهول والبوادي، فحافظ بذلك على تيار السنة في المغرب الأقصى، وثبت دعائم الدين الصحيح هناك[1] .

دخلت دولة الأدارسة في طور الضعف مبكراً؛ نتيجة تصرف أهوج طائش من محمد بن إدريس الثاني (٢١٣-٢٢١هـ)- بناء على نصيحة مدمرة من جدته كنزة- حيث قسم الدولة بين إخوته الكثيرين (القاسم، وعمر، وداود، وعبدالله، ويحيى، وعيسى، ...إلخ)، وبدلاً من مشاركتهم له في أعباء الحكم، وتولي المسئولية في أرجاء دولته الفسيحة، إذا به يمنحهم إقطاعات ينفرد كل منهم بحكمها في مناطق تلمسان، وسبتة، وطنجة، ووليلى وأعمالها، وأغمات، ومكناسة، وغيرها. لقد احتفظ لنفسه بالإمارة، وأقام بالعاصمة فاس، لكن بعض إخوته رفض التبعية له، واتجه إلى الاستقلال بمناطق إقطاعه فأدى ذلك إلى الصراع الجانبي والعداوة بينهم، ونهب بعضهم أموال إقاطعه، وحاول التوسع على حساب إخوانه، فتمزقت الدولة، وضعفت شوكتها[2] . صحيح شهد عهد يحيى بن محمد بن إدريس إقامة منشآت كثيرة على سفوح الجبال في فاس، وأنشئ جامع القرويين سنة ٢٤٣هـ الذي تحول إلى جامعة إسلامية، تعد هي الأقدم على مستوى الجامعات الإسلامية[3] ، إلا أن هذا لا ينفي الضعف الذي آلت إليه الدولة سياسيًا وعسكريًا، حتى إنه في سنة ٣٠٥هـ أقبل جيش كبير من أنصار الفاطميين يقوده مصالة بن حبوس الكتامي قائد عُبيد الله المهدي يريد إسقاط

---

(١) تاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٨٤-٣٨٥ .

(٢) البيان المغرب ١ / ٢١١-٢١٢، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٠-١١٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٥-١١٦ .

دولة الأدارسة، فانتصر هذا الجيش، وولى على المغرب الأقصى أحد شيوخ البربر (موسى بن أبي العافية شيخ مكناسة)، حيث ولى على تسول وتازا دون أن يسيطر على فاس، لكنه طمع في الدولة كلها، وحل محل الأدارسة سنة ٣١٣هـ، بعد أن قضى على أمراء الأدارسة في نواحي المغرب الأقصى، وأمر بنفي الآخرين إلى قلعة في جبال الريف تسمى (حجر النسر)(١) .

تجمع المنفيون في قلعة حجر النسر، وبدأوا طوراً جديداً من أطوار دولة الأدارسة على يد زعيم جديد من أحفادهم، الذين اختلطوا بالبربر اختلاطًا كبيرًا، وصاروا من أهل البلاد حيث امتزجوا بأهلها امتزاجًا كاملاً. هذا الزعيم الجديد هو (الحسن بن قنون)، ولا نستطرد في سرد وقائع هذه المرحلة الجديدة من عمر دولة الأدارسة، فهي مرحلة كثيرة التفاصيل كان فيها المغرب الأقصى ضحية الصراع المحموم بين الفاطميين والأمويين الأندلسيين كل يحاول السيطرة عليه، وإخضاعه لنفوذه لتهديد جيرانه. وقد نلمس بعضًا من جوانب هذا الصراع عند تناول الدولة الفاطمية الشيعية في بلاد المغرب، وكذلك عند تناول الدولة الأموية بالأندلس، خاصة عصر عبد الرحمن الناصر الذي سيطر على المغرب الأقصى، ومحاولة الفاطميين إخراج الأمويين منه إلى أن ينهزم الحسن بن قنون، ويستسلم للقائد غالب الناصري قائد الأمويين، وينتقل إلى قرطبة مع معظم الأدارسة سنة ٣٦٣هـ، وتتوالى الأحداث إلى أن يلقي الحسن بن قنون مصرعه على يد المنصور بن أبي عامر وهو في الطريق نحو الأندلس (سنة ٣٧٥هـ)(٢) ، وبذلك تختفي دولة الأدارسة من الوجود. ولا شك أن الضعف المبكر الذي أصاب الدولة بالوهن رغم مقاومة أمرائها في طورها الثاني لعوامل الهدم والفناء يرجع إلى عدد من

---

(١) البيان المغرب ١ / ٢١٢-٢١٣، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٦ .

(٢) تاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٣٩٨- ٣٩٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الأسباب، منها: تقسيم الدولة وتفتيت وحدتها بين الإخوة الكثيرين المتناحرين، وتعرض الدولة لمجابهة عدة قوى في المغرب والأندلس خاصة الأغالبة الذين يحكمون المغرب الأدنى باسم العباسيين، حيث حاولوا الوقيعة بين الأدارسة وزعماء قبيلة أوربة أكبر مناصريهم، ونجحوا في ذلك أحيانًا؛ مما أدى إلى تخلص أمراء الأدارسة من بعض مشايخ أوربة بتهمة الخيانة كإسحاق ابن محمد بن عبد الحميد سنة ١٩٢هـ. وكذلك كثرة سكان العرب والأندلسيين مما أوجد نوعًا من الصراع مع سكان البلاد من البربر، لاسيما وقد انحاز بعض أمراء الأدارسة للعرب وولوهم المناصب، وكذلك الدور الخطير الذي لعبه الفاطميون الشيعة في بلاد المغرب، وانتهى بالقضاء على جزء كبير من نفوذ الأدارسة، ثم تكفل الأمويين بالقضاء على وجودهم ذاته[1] بعد أن ترنحت الدولة وفقدت كثيراً من قوتها، وتقلصت حدودها وإمكاناتها بعد الحروب الكثيرة التي خاضتها ضد البرغواطيين المنحرفين .

نظرة على بعض الجوانب الحضارية في دولة الأدارسة:

أ- كان المغرب الأقصى مهد الثورة الخارجية الصفرية المعادية للخلافة الأموية على يد ميسرة المدغري سنة ١٢٢هـ، فكان أول المناطق انسلاخًا عن سلطان الأمويين. ويبدو أن بعد مكانه وعدم خضوعه لسيطرة دولة الخلافة شجع على مزيد من محاولات الاستقلال، التي تمثل دولة الأدارسة نموذجًا ناجحًا لها، ومعها تحول المغرب الأقصى إلى المذهب السني، فليس معنى أن العلويين من آل البيت، أقاموا لأول مرة دولة لهم في المغرب، أن الدولة دولة شيعية؛ لأن الآخرين المنضوين تحت لوائها هم الذين تشيعوا لها، لكن الدولة في حد ذاتها دولة سنية مالكية علوية هاشمية[2] .

(١) التطور السياسي للمغرب للدكتور طاهر راغب ص ١٧٤-١٧٦ .
(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ب- نجحت دولة الأدارسة في اجتثاث العقائد الوثنية من تربة المغرب الأقصى، كما أنها نقّت عقائد البربر من الأفكار والتيارات المنحرفة التي ابتعدت عن مبادئ الدين الصحيح لاسيما قبائل برغواطة. وإلى جانب ذلك نجحت في فرض الأمن والاستقرار؛ مما يسر حركة القوافل التجارية الداخلية والخارجية، فقدمت نموذجًا طيبًا لحكم المسلمين، فساعد على انتشار الإسلام في غرب السودان وجنوب الصحراء الكبرى[1] . هذا، وقد نشر الأدارسة المذهب المالكي، وموطأ مالك على نطاق واسع؛ لوجود تقارب فكري بين الإمام مالك والنفس الزكية في العصر العباسي. وهكذا كان المذهب المالكي هو مذهب القضاء والفتوى والحكم في هذه الدولة، خاصة أن إفريقية عرفت هذا المذهب من قبل على أيدي الحجاج وطلاب العلم الذين أدوا مناسك الحج، أو تتلمذوا على مالك وتلامذته في الشرق، ثم عادوا يروون أحاديثه وفتاواه، ويشرحون موطأه. يضاف إلى ذلك أن دولة الأدارسة تأثرت على الجانب الآخر بالتيارات المذهبية في بلاد الأندلس، لاسيما المذهب المالكي الذي اعتمده حكامها مذهبًا رسميًا للبلاد. وعلى كل، فوضوح ذلك المذهب واعتماده على نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، وعدم الميل إلى التأويل والقياس، والبساطة المتمثلة في الأخذ بالمصالح المرسلة تناغم وانسجم مع طبيعة البربر ذوي الطابع الملتزم المنضبط الصلب في التمسك بالحق، واتباع الجادّة[2] .

جـ- لم تتخذ دولة الأدارسة سياسة عدائية تجاه جيرانها، ومع ذلك بادر العباسيون باغتيال إدريس بن عبد الله لما زاد خطر الأدارسة بامتدادهم إلى تلمسان في المغرب الأوسط، وسمح الرشيد بقيام دولة الأغالبة في المغرب الأدنى؛ لتكون حاجزًا بين الأدارسة والمغرب الأدنى، وتم استخدام الأغالبة

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسن علي ص ١٠٨ - ١١٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١١٧ - ١٢٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ضد الأدارسة عن طريق الاغتيالات، وسلاح الرشوة والاستمالة، والتشكيك في نسبهم[1] . أما العلاقة مع الدولة الرستمية، فغلب عليها حسن الجوار؛ لأنهما انشغلتا معًا في عداء العباسيين، وكان الرستميون حاجزين بين الأدارسة في المغرب الأقصى والأغالبة أنصار العباسيين في المغرب الأدنى. وفي بعض الأحيان تأثرت العلاقات بين الجانبين بعد تفكك الدولة ومحاولة بعض أمرائها ضم بعض أجزاء الدولة الرستمية لدولة الأدارسة[2] وبالنسبة للأمويين في الأندلس، فقد كانت دولة الأدارسة قاعدة لتدبير المؤامرات ضد بني أمية في الأندلس، وملاذًا للفارّين من الأندلس، وميدانًا للتحالف مع بعض الثائرين على أمراء الأندلس[3] ، كما سنبين على نحو ما مختصر في الفصل الخاص بـ (الدولة الأموية في الأندلس).

ثالثًا: دولة الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ)(*) :

١- إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي (١٨٤-١٩٦هـ).

٢- عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (أبو العباس ١٩٦-٢٠١هـ).

٣- زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (أبو محمد ٢٠١-٢٢٣هـ).

٤- الأغلب السعدي بن إبراهيم بن الأغلب (أبو عقاب ٢٢٣-٢٢٦هـ).

٥- محمد بن الأغلب السعدي (أبو العباس ٢٢٦-٢٤٢هـ) .

٦- أحمد بن أبي العباس محمد (أبو إبراهيم ٢٤٢-٢٤٩هـ).

---

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص٧٥ وبعدها .

(٢) المرجع السابق ص٨٦ - ٨٩، والأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب وعلاقتهم بالقوى السياسية المعاصرة لهم (نشر: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦م) للدكتور بدر عبد الرحمن محمد ص ٥٣ - ٥٥ .

(٣) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسن علي حسن ص ٩٨-١٠٣

(*) راجع قائمة ولاة الأغالبة في (تاريخ المغرب وحضارته) للدكتور حسين مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٢٥٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٧- زيادة الله الثاني (أبو محمد بن أبي العباس محمد بن الأغلب السعدي ٢٤٩-٢٥٠هـ) .

٨- أبو عبد الله محمد الثاني بن أحمد (أبو الغرانيق ٢٥٠-٢٦١هـ) .

٩- إبراهيم بن أحمد (٢٦١-٢٨٩هـ) .

١٠- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد (أول شعبان إلى رمضان ٢٩٠هـ) .

١١- أبو مُضَر زيادة الله الثالث بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد (٢٩٠-٢٩٦هـ) .

ظروف ولاية الأغالبة:

تنسب دولة الأغالبة إلى (الأغلب بن سالم بن عقال التميمي)، وهو رجل عسكري من رجال وقادة الجيش العباسي. والظاهر أنه كان مقيمًا في مصر مع أسرته (زوجه التي لا نعرفها)، وابنه إبراهيم؛ لأن المؤرخ ابن عذاري يورد لنا رواية جاء فيها أن إبراهيم بن الأغلب كان مقيمًا في مصر وتملذ على يد محدث مصر وفقيهها الليث بن سعد (ت١٧٥هـ)، الذي أعجب به، وتوسم فيه خيراً، وأُثر عنه أنه قال في حقه: «ليكونن لهذا الفتى شأن»[(١)] .

انتقل الأغلب إلى إفريقية، ثم صار واليًا عليها من قبل الخليفة المنصور العباسي سنة ١٤٨هـ بعد صرف الوالي السابق محمد بن الأشعث، في آخر سنة ١٤٨هـ. هذا، وقد أمره المنصور في كتاب توليه بالعدل بين الرعية، وحسن السيرة في الجند، كما نبّهه إلى القيام بتحصين مدينة القيروان وإقامة خندقها، ومراعاة ترك حامية عسكرية قوية تكفي للدفاع عنها، إذا خرج منها

(١) البيان المغرب ١ / ٩٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

على رأس جنده لملاقاة الأعداء. ويبدو أنه أجاب النصح، لاسيما وقد كان من أهل الرأي والمشورة، فاستقامت له الأحوال(١) .

في سنة ١٥٠هـ خرج أبو قُرَّة الصُّفْري في جمع كبير من البربر، فسار إليه الأغلب في عامة قواده وجيشه، وخلّف على القيروان سالم بن سوادة، ففر أبو قرة وتفرق أصحابه، لكن الأغلب واصل المسير بالجيش إلى إقليم الزاب، وأراد الوصول إلى طنجة، فنفر منه جنده، وتسللوا عائدين إلى القيروان. ثم حدثت خيانة من بعض قادة الأغلب، حيث انضموا إلى الحسن ابن حرب الكندي، ودخلوا القيروان، وحُبس نائب الأغلب بها. ولما علم بذلك الأغلب، أقبل مسرعًا وقاتل الحسن بن حرب الذي رفض السمع والطاعة، فأصيب الأغلب بسهم قاتل، فمات شهيداً(٢) .

كره أهل إفريقية ولاية محمد بن مقاتل العكّي(٣)، وحملوا إبراهيم بن الأغلب والي إقليم الزاب على الكتابة للخليفة العباسي هارون الرشيد أن يوليه إفريقية، فاستدعى الخليفة رجاله الثقات ومستشاريه، وعرض عليهم حقيقة الموقف هناك، فأشار هَرْثَمة بن أَعْيَن(٤) بتولية إبراهيم بن الأغلب؛ لما

---

(١) البيان المغرب ١ / ٧٤ .

(٢) الكامل لابن الأثير ٥ / ١٨٦-١٨٧ (وفيه أن أصحاب الأغلب كثروا عند مدينة قابس، وأنهم ثبتوا بعد مقتل الأغلب، حتى قتلوا الحسن بن حرب)، والبيان المغرب ١ / ٧٤-٧٥ .

(٣) ولي هذا الرجل إفريقية مرتين: الأولى سنة ١٨٠هـ إلى ١٨٣هـ، والثانية - من المحرم سنة ١٨٤هـ إلى جمادى الآخرة من العام نفسه لبضعة شهور. (راجع تفاصيل ولايته في المصدر السابق جـ١ ص٨٩-٩٢) . أما تواريخ ولايتيه المذكورة، فهي مأخوذة من ثبت ولاة إفريقية في (تاريخ المغرب وحضارته) للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص١٣٢ .

(٤) وكان هرثمة قد ولي إفريقية قبل ابن مقاتل لفترة وجيزة (١٧٩-١٨٠هـ)، ويعرف شدة إخلاص ابن الأغلب للخلافة العباسية، وأنه زعيم بني تميم في المغرب، وهم أكثر عرب إفريقية، كما أنه رجل مجرب خبير بشئون السياسة والحرب. (راجع: البيان المغرب ١ / ٨٩، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور مؤنس ص ٨٢، وتاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ١٣٢).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يعرفه من عقله ودينه وكفايته، ومساعدته ابن مقاتل من قبل في الحفاظ على إفريقية، فوافق الرشيد على توليته بموجب اتفاق متبادل بينهما، حوى موافقة الخلافة على تولية البيت الأغلبي واحداً بعد الآخر شريطة الطاعة والولاء للعباسيين مع الاستقلال بالشئون الداخلية لإفريقية، ودفع مبلغ يسيرٍ سنويًا إلى خزينة بغداد مقداره أربعون ألف دينار، والتنازل عن مبلغ مائة ألف دينار كانت تصرف سنويًا من ولاية مصر معونة لإفريقية[1]. ويحق للخلافة تعيين قاضي القيروان، وعزل الوالي الأغلبي إذا أساء التصرف مع تولية غيره من البيت الأغلبي نفسه[2].

وهكذا، بدأت تجربة جديدة للحكم في طرابلس، وإفريقية، وإقليم الزاب من المغرب الأوسط، وهي مكونات وحدود دولة الأغالبة بواسطة أسرة عربية محلية تميمية تابعة للدولة العباسية يحكمها أفرادها حكمًا وراثيًا شبه مستقل، وتهدف إلى حماية حدود الخلافة العباسية الغربية التي تنتهي عند نهر شِلْف (جنوبي مدينة الجزائر الحالية)[3]، وبذلك تأمن الخلافة العباسية من أطماع الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط، والدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى.

١- فترة حكم إبراهيم بن الأغلب:

اهتم ابن الأغلب بإقامة قوة عسكرية يعتمد عليها في توطيد نفوذه في دولته، ومواجهة خصومه من الثائرين المعادين له، لاسيما أنهم كانوا يتمتعون بقوات قبلية تضارع قواته. ونظراً لصراعه مع العرب البلديين الذين لم يعترفوا بسلطته؛ حقداً وحسداً من عند أنفسهم، فإنه لم يفكر في اتخاذ العرب ضمن

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥ / ٣١٣، وتاريخ ابن خلدون ٤ / ٢٥٠، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٢ (ولم أقف على مصدر هذه المعلومات).

(٣) المرجع السابق ص ٨٣ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

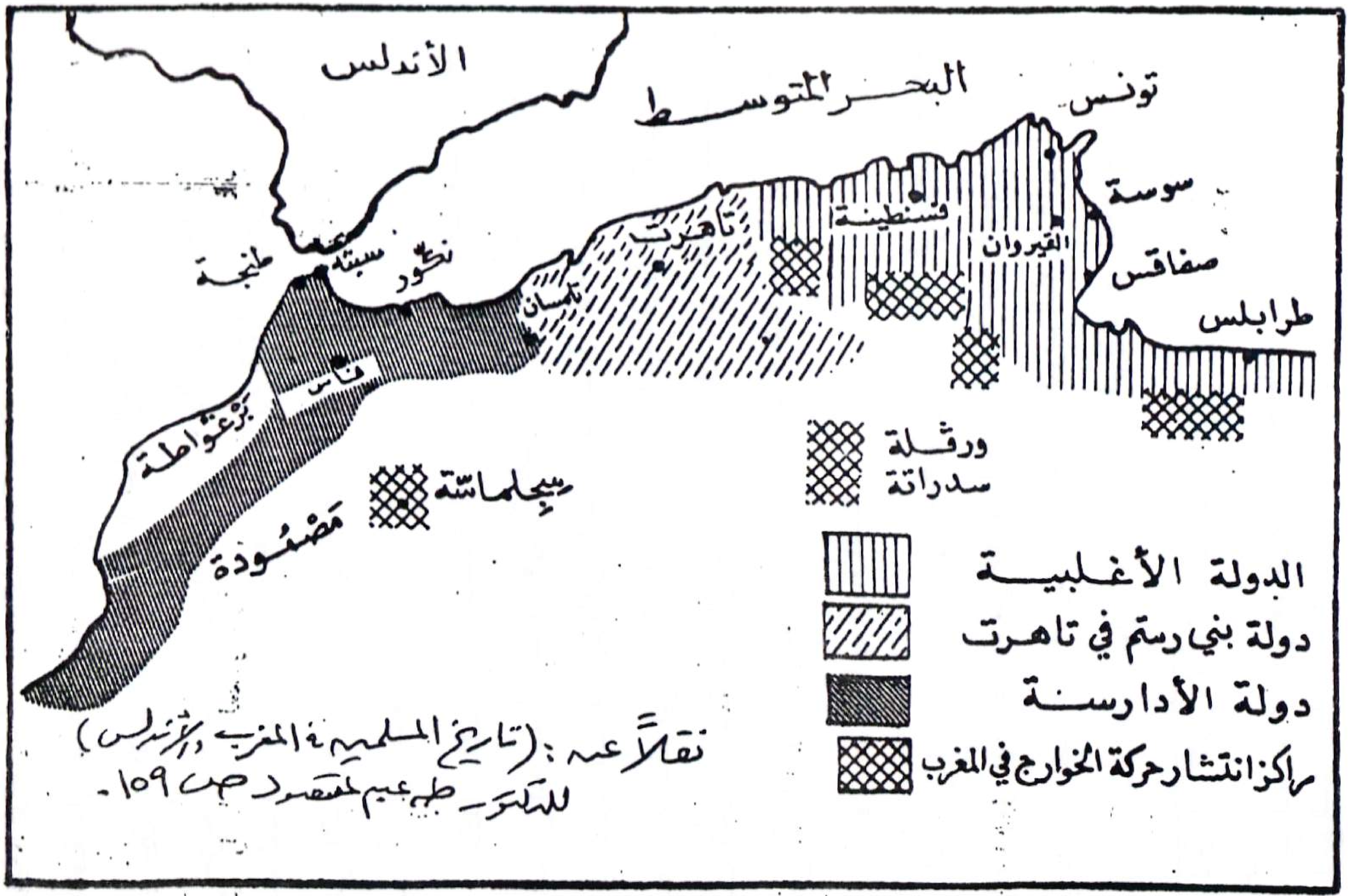

نقلاً عن: (تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس) للدكتور طه عبد المقصود ص ١٥٩ -

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

صفوف جنده، وإنما اجتلب جنده وحرص على تكوين جيشه من البربر المستعربة كجند مرتزقة شجعان، يخوضون المعارك في جسارة وبسالة منقطعة النظير، إلى جانب الصقالبة الذين كانو يُشترون صغاراً من تجار الرقيق، وهم من أصل أوربي، فيربون تربية إسلامية، ثم يلتحقون بالجيش، ويولون المناصب في الدولة، ويخدمون في قصورها. وكذلك ضم بعض السودان إلى جيشه، وبذلك اطمأن إبراهيم بن الأغلب في السنوات الأولى من حكمه إلى وجود قوة تحمي ملكه، وتحقق أهدافه(١) .

الجانب العمراني في عهود إبراهيم بن الأغلب:

اهتم ابن الأغلب بإقامة عاصمة له؛ كي تكون قاعدة عسكرية يتمركز فيها مع جنده، متقوقعًا بها منعزلاً بعيداً عن رعيته كعادة كثير من حكام ذلك الزمان، واختار موقع هذه المدينة في الجزء الجنوبي الغربي من القيروان(٢)، وسماها (العباسية)؛ تقربًا إلى العباسيين، ثم أطلق عليها (القصر القديم)، وانتقل إليها مع آل بيته، وحاشيته، وبلاطه ورجال حكمه، وجنده، وذخائره، وعتاده، وأقام بها الأسواق وما يلزمهم من المعاش، وحفرت بها الآبار الكثيرة التي تمد قاطنيها بحاجتهم من المياه، ووفر لها متطلبات الأمن، فأحاطها بسور حصين على أركانه أبراج عالية يقيم بها الحراس(٣) .

معاركه في مواجهة الثوار:

في سنة ١٨٦هـ ثار رجل في تونس يدعى (حمديس)، فنزع السواد

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) ذكر ابن عذارى أن مدينة (القصر القديم) تقع على ثلاثة أميال من القيروان، اشترى ابن الأغلب موضعها من بني طالوت، وصارت بعد ذلك دار الأمراء من بني الأغلب. (البيان المغرب ١ / ٩٢-٩٣).

(٣) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٨٥ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

شعار العباسيين، وأعلن التمرد والعصيان، والتف حوله الناس، فأرسل إليه ابن الأغلب جيشًا بقيادة عمران بن مخلد، وأمره ألا يبقى منهم أحدًا، فأعملوا فيهم السيف، وتم إخضاع تونس لسلطة الأغالبة[(١)] .

ثار عمران بن مخلد على ابن الأغلب سنة ١٩٥هـ رغم أنه كان من بطانته وقادة جيشه؛ لخلاف عارض نشأ بينهما فجمع عمران الجموع، ونزل بها في مكان بين القيروان والعباسية، وانضمت إليه القيروان، وأكثر مدن إفريقية، فتحصن إبراهيم في مدينته، وأقام حولها خندقًا يحول بين المهاجمين واقتحامها، ودارت الحرب سجالاً بين الفريقين مدة عام، فأرسل الرشيد إلى واليه بالأموال، فوزعها على جند عمران مغريًا إياهم بكثرة العطاء، فتفرق الجيش عنه وانهزموا. بعدها نادى إبراهيم بالأمان، وأمر بقية الجند بالحصول على العطاء، وهدم سور القيروان، وأمر باقتلاع أبوابها؛ نكاية في أهلها الذين انضموا إلى الثائرين. وهكذا، عانى الأغالبة ثورات عديدة من العرب والبربر طيلة فترة حكمهم مما أضعف كثيراً من قوى الطرفين. وبعد هزيمة عمران الذي فر إلى الزاب، سكنت الأحوال، واستقرت الأمور حتى نهاية عهد هذا الوالي[(٢)] .

علاقته بالأدارسة:

وبالنسبة لعلاقته مع الأدارسة، فقد أحفظه كثرة جموع الأدارسة في المغرب الأقصى في عهد إدريس الثاني، فنوى إرسال جيش يـ ضي على دولته، لكن مستشاريه نصحوه ألا يفتح على نفسه جبهة جديدة معادية، وقالوا له: اتركه ما تركك. فاستخدم ابن الأغلب الحيلة والدس للوقيعة بين

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ / ٣١٣، والأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب للدكتور بدر عبدالرحمن محمد ص ١٤ .

(٢) الكامل ٥ / ٣١٣-٣١٤، والأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب ص ١٥-١٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

إدريس الثـاني والقائم بأمـره من المغاربة (بهلول بـن عبد الـواحد) حتـى فارق إدريس، وتفرق جمـعه، فكاتب إدريسُ الثاني ابنَ الأغلب يستـعطفه، ويسأله الكف عن الوقيعة بينه وبين قبائل البربر، ويذكره بقرابته من رسول الله ﷺ، فلم يتعرض له ابن الأغلب(1).

٢- فترة حكم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب:

يعد هذا الرجل مؤسسًـا ثانيًا لدولة الأغالبة، فقد مضى عـهد التأسيس، وجاء وقت التثبـيت وتنظيم الدولة. وقد كان هذا الأمير هادئًا جـيد التفكير، محبًا للتعمير والإنشاء. لقد أقام المنشآت الكثيرة من قناطر ومساجد، وأسوار ورباطات، وصهاريج مياه، وأعاد بناء جامع عقبة بن نافع في القيروان، وأقام جسـرًا قرب القيـروان سمي بقنطرة أم الربيع، وحصن مـدينة سوسة تحـصينًا محكمًا، وأقام رباطها(2).

جُوبه زيادة الله بثورات من العرب متعـددة عنيفة؛ نظرًا لإهمالهم وعدم الاعتماد عليهم في نسـيج الجيش الأغلبي. ومن أخطر تلك الثورات وأطولها (خمس سنـوات) ثورة منصور الطُّنْبُـذي وكان من كبـار القادة وزعـماء الجند العربي في إفريقية، وإن كان من أصل بربري مـستعرب، وكان معظم مؤيديه في تونس، لكنه اتخذ من طُنْبُـذة حصنًا له، وكانت ذات أهمـية إستراتيـجية جنوب تونس على بعد أربعـة فراسخ (٩٦ كيلو مـترًا) قرب قرية المحـمدية، وتحكم الطريق الرئيسي المؤدي من إفريقـية إلى إقليم الزاب. ودخل هذا الثائر تونس، وقتل واليها سنة ٢٠٩هـ، واشتـعلت ثورات العرب في أماكن عديدة مـؤيدة له، ولم ينجح زيادة الله في وأد حـركة الثـورية منذ البداية، وحـاول

---

(1) الكامل ٥ / ٣١٣.

(2) تاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٢٦٩.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

مفاوضته عن طريق وفد من فقهاء تونس الكبار، مثل: شجرة بن عيسى القاضي، لكن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح. وتقلص نفوذ زيادة الله بعد فقده القيروان، مقتصراً على القصر القديم والساحل الشرقي من سوسة إلى قابس، ثم طرابلس ونفزاوة. ولم يستسلم الرجل، بل حالف البربر الإباضية في جبل نفوسة، حتى انتصر على عدوه الذي فر إلى طنبذة سنة ٢١٠هـ، حتى قتل بعد ذلك على أيدي بعض مخالفيه. وعقب هزيمته سكنت الأمور، وعاد الثائرون الآخرون إلى الطاعة، ورفع الحصار عن القيروان(١).

فتح صقلية(٢):

عانى زيادة الله من كثرة الجند عن احتياجات البلاد الفعلية، وواجه مشكلة توفير الأموال الطائلة التي تتطلبها نفقات هؤلاء الجند، واضطر لمعاملة بعضهم بشدة وقسوة فثاروا عليه. وأخيراً اهتدى إلى تصريف طاقات هؤلاء الجند في حركة فتوح خارجية لجزيرة صقلية ابتداء من سنة ٢١٢هـ. ولعل مما ساعد على جدية التحرك لفتح هذه الجزيرة ظروفها الداخلية السيئة بعد تذمر سكانها وثورتهم على القائد العسكري بيلاتوس حاكم الجزيرة من قبل البيزنطيين؛ بسبب الضرائب الباهظة المفروضة عليهم. عجّل زيادة الله بإرسال حملته بعد استغاثة واستنجاد أحد القادة في صقلية به، حيث ثار على الحكم البيزنطي، واستقل بالجانب الشرقي من الجزيرة، وتحصن في سرقوسة. عندئذ ولي زيادةُ الله أسدَ بن الفرات قيادة الحملة التي تجمع جندها في ميناء تونس، وسوسة. ومن المستغرب تولية أسد وهو في السبعين من عمره قيادة الجيش،

---

(١) البيان المغرب ١ / ٩٨ وما بعدها، وتاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٢٦٩ - ٢٧١.

(٢) راجع التفاصيل في: الكامل ٥ / ٤٣٦ وبعدها، والبيان المغرب ١ / ١٠٢ وبعدها، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٨٧ وبعدها، وتاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٢٧١ وبعدها.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وهو محسوب على العلماء والفقهاء، وليس من قادة الحروب. وعلى كل نزلت بعض القوات الإسلامية القادمة من تونس في ميناء (مازر) على الساحل الجنوبي لصقلية، بينما توجهت القوات من سوسة إلى ميناء (رجوسة) في أقصى الساحل الجنوبي الشرقي لصقلية؛ إنقاذاً للقائد المتحصن هناك، وكان من المتوقع توجه المسلمين رأساً بعد ذلك إلى العاصمة (بَلِرمُ) للقضاء على المقاومة الرئيسية هناك، لكن الجيش سلك طريقاً آخر أقل غناء وحسماً، حيث استولى على قصريانة وسط الجزيرة، ثم اتجه شرقاً نحو سرقوسة وحاصرها. وفي أثناء الحصار أصيب الجيش بوباء قضى على آلاف الجند، وعلى رأسهم أسد بن الفرات فتفكك الجيش، وتعرض لضربات البيزنطيين، وتراجع عن الحصار، فتحرج موقفهم بعد تأخر الإمدادات. ثم قام جماعة من الأندلسيين بقيادة أصبغ بن وكيل بمعاونة إخوانهم في مواصلة محاولات فتح صقلية، ونجحوا في رفع الحصار عن الأغالبة، وإعادة السيطرة على قصريانة، ثم حاصروا العاصمة ودخلوها، لكن الوباء وقف للمسلمين بالمرصاد، فاستشهد قائدهم، وتأزم الموقف من جديد، وتعاقب قادة أغالبة على الجيش الفاتح، وتوفى زيادة الله قبل إتمام الفتح، لكن المسلمين عاودوا جهودهم حتى استقروا في الشق الغربي من الجزيرة، ولم يفتحوا جانبيها الشمالي والشرقي إلا بعد جهد وزمن طويل، تأخر إلى أيام حكم إبراهيم بن أحمد الأغلبي. وعلى أية حال، فإن سقوط صقلية في أيدي الأغالبة من أعظم منجزات دولتهم، وبها أمن المسلمون من هجمات الأسطول البيزنطي، وأصبح لهم وجود حضاري ديني ولغوي كثير في هذه الجزيرة، ولا تزال آثارهم ماثلة للعيان حتى اليوم على هيئة قصور، وبقايا مساجد، وحصون إلى أن داهمها النورمانديون واستولوا عليها سنة ٤٨٥هـ.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٣- إبراهيم بن أحمد الأغلبي[١] :

وهو أطول حكام الأغالبة بقاء في السلطة، لكنه كان غريب الأطوار ما بين اتزان وعدل في تسيير دفة الحكم، إلى اضطراب عقلي ونفسي سفك فيه دماء الناس لأقل ريبة، حتى فزع الناس منه، وقرروا خلعه بعد تحوله المخيف الذي زاد على ست سنوات، لكنه تنبه وأفاق قرب نهاية حكمه لاسيما وقد علم بنذر الخطر الشديد الماحق المتمثل في مجيء الفاطميين الشيعة بقيادة أبي عبد الله الشيعي، الذي رسخ نفوذه في قبيلة كُتَامة توطئة للاستيلاء على أملاك الأغالبة في بلاد المغرب. وعلى الجملة- فباستثناء فترة تهوره وطيشه- أدى هذا الأمير خدمات جليلة خاصة في بداية حكمه، حتى رضي عنه الناس، وأحبته رعيته، فأكمل تجديد مسجد الزيتونة في تونس، وبنى جنوبي القيروان مدينة (رَقَّادة) وهي مدينة ملوكية تضم القصور والحدائق وصهاريج الماء. ومن هذه الصهاريج صهريج يسمى البحر؛ لضخامته، حيث بلغ طوله خمسمائة ذراع، وعرضه أربعمائة. وكذلك أقام الماجل (الجمع: مواجل) وهو حوض ماء يبنى بالحجر، تتجمع فيه مياه الأمطار على مسافات عميقة فيما يشبه الفسقيات التي قد يقام بها أماكن يجلس فيها الأمير للراحة. ولا تزال مواجل الأغالبة من المظاهر الحضارية الباقية حتى الآن. وأكملت في أيامه سلسلة المحارس على الشاطئ من بجاية على الساحل الشمالي للجزائر الحالية حتى طرابلس حيث أقيم في كل محرس برج للنار يرسل الإشارات الدالة على وقوع خطر، أو هجوم بحري مفاجئ. وبالنهار توقد الأخشاب الرطبة التي ترسل الدخان الكثيف الذي يُرَى من بُعْد لإرشاد المرابطين علي الثغور بوقوع خطر وشيك. وكان هذا من أعظم مظاهر اهتمامه بالرباطات وقصور العُبَّاد (أماكن الإقامة بالثغور)؛ حماية للشواطئ والمدن الساحلية. لقد خُتِم

(١) راجع تفاصيل إمارته في: البيان المغرب ١ / ١١٦ وبعدها، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص٩٢-٩٣، وتاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٢٨٤ وبعدها .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

للرجل بخير، حيث توجه آخر حياته إلى الزهد والتصوف والجهاد، ومات شهيداً وهو في الطريق إلى نابُلي بإيطاليا .

نظرة مجملة على حضارة الأغالبة:

تعرضنا - فيما مضى- لشذرات من المظاهر الحضارية التي عمرت بها دولة الأغالبة في فترات القوة والازدهار والاستقرار قبل أن يحل بها الضعف والانهيار من سنة ٢٩٠-٢٩٦هـ في عهد زيادة الله الثالث الذي لم يصمد أمام قوات أبي عبد الله الشيعي، وفر من الميدان إلى مصر ناجيًا بحياته، تاركًا الدولة تسقط في أيدي الفاطميين .

نواصل- الآن- عرض مزيد من المظاهر الحضارية المتنوعة التي شهدتها هذه الدولة، حيث اتسعت مدينة القيروان، وكثر بها الفقهاء والقضاة والزهاد، والتجار، والصناع، والموسرون. وتحولت المدينة إلى سوق تجاري كبير تصدر منها القوافل إلى بلاد الصحراء، ومركز تجاري مهم للقوافل المارة من الشرق إلى الغرب.

ازدهرت الزراعة في دولة الأغالبة خاصة الزيتون والقمح والفول والشعير. وبصفة عامة عاش الناس في خصب ورخاء. ووجدت في هذا العصر مصانع للنسيج مزدهرة في مدن إفريقية كلها، وبها المستشفيات والأطباء في وفرة ظاهرة. ومن خلال ما نقل عن كثرة المنشآت والعمران يمكن أن نستنتج تقدم الدولة في الهندسة والعمارة(١) .

عرف الأغالبة نظامًا سياسيًا وإداريًا جيداً حكموا عن طريقه البلاد، فهناك الأمير، وبعده الوزير الذي ينوب عن الأمير ويخلفه في غيابه، ويعرف بـ(البديل). وتعددت دواوين الدولة، مثل: ديوان الجيش (ويضم قيادة

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٩٨ - ١٠٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الجيوش البحرية، والحرس، والشرطة، وقيادة الأسطول وحراسة الثغور)، وديوان الجباية الذي يعني بالإيرادات والمصروفات. وديوان المراسلات بين الأمير وعمال الأقاليم والقادة(١) .

نشطت الحركة العلمية والفكرية في دولة الأغالبة، وعاش في رحابها كبار فقهاء وزهاد العصر، الذين لعبوا دوراً كبيراً في إثراء الحركة الدينية، وتنشئة طلاب العلم، وتعميق الإيمان في النفوس، وخرجوا أجيالاً حافظت على الطابع الديني السني لبلاد المغرب في مواجهة الشيعة الإسماعيلية الوافدة على أيدي الفاطميين. ومن هذه الأسماء الإسلامية في سموات العلم والفقه: أسد ابن الفرات(٢)، وسحنون(٣) ، وعيسى بن مسكين(٤) ، وسعيد بن الحداد(٥)، ومحمد بن سحنون(٦) ، وغيرهم ممن تعمر مصادر التراجم المغربية بصفحات مضيئات من جهادهم.

رابعاً وأخيراً: الدولة الفاطمية العُبيدية (٢٩٦-٣٦٢هـ):

قبل البدء في الحديث عن آخر الدول المستقلة، التي قامت في بلاد المغرب نورد قائمة بأسماء الخلفاء الفاطميين على النحو الآتي(*):

١- عُبيد الله المهدي أبو محمد (٢٩٧-٣٢٢هـ) .

---

(١) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية (ط. دار المنار) للدكتور محمد محمد زيتون ص ١٣١ - ١٣٣ .

(٢) راجع تزجمته في: علماء إفريقية للخشني (ط. الخانجي) ص ٣٠٥، ورياض النفوس للمالكي (طبعة بتحقيق د. حسين مؤنس) ١ / ١٧٢ وبعدها.

(٣) راجع ترجمته بالتفصيل في: علماء إفريقية للخشني ص ٣٠٥، ورياض النفوس للمالكي (تحقيق: د. حسين مؤنس) ١ / ٢٤٩ وبعدها .

(٤) راجع: علماء إفريقية للخشني ص ٣٠٨ .

(٥) راجع ترجمته ومناظراته في (المصدر السابق) للخشني ص ٢٥٧ وبعدها .

(٦) راجع ترجمته في: المصدر السابق ص ٢٥٦، ورياض النفوس ١ / ٣٤٥-٣٦٠ .

(*) راجع: تاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٤٤٨ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢- القائم أبو القاسم محمد (٣٢٢-٣٣٤هـ) .

٣- المنصور أبو طاهر إسماعيل (٣٣٤-٣٤١هـ) .

٤- المعز أبو تميم مَعَدّ (٣٤١-٣٦٢هـ حين انتقلت الخلافة إلى مصر، ثم توفى بها سنة ٣٦٥هـ) .

دعاة الشيعة من المشرق إلى المغرب:

تعرض الشيعة في عهد الدولة الأموية للتنكيل والاضطهاد، وبعد سقوط الخلافة الأموية في الشرق سنة ١٣٢هـ، تنفس هؤلاء الصُّعَداء، واستبشروا خيرًا كثيرًا بنجاح أبناء عمومة العلويين (العباسيين) في إقامة الخلافة العباسية، لاسيما أنهم كانوا يعلنون مبدأ (الرضا من آل محمد)، وهو مبدأ غامض أوهم به العباسيون الناس ومنهم الشيعة أنهم يجاهدون ويخططون من أجل إقامة حكم علوي يكون فيه للشيعة السلطة والسلطان العظيم، بيما كانوا يعملون- في الحقيقة- لأنفسهم، فما إن ارتقوا سُدَّة الخلافة حتى أظهروا نواياهم الحقيقية في الاستئثار بالحكم وتوارثه في بني العباس دون غيرهم من الناس، فقام العلويون ومؤيدوهم من الشيعة بثورات ضد العباسيين، فكان جزاؤهم القتل والتنكيل والتشريد .

ظهر اتجاه جديد أيام خامس أئمة الشيعة جعفر الصادق بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، فيه تغيرت سياسة العلويين تجاه العباسيين، حيث توقفوا عن مواجهتهم بالقوة، وابتعدوا عن المطالبة بالحكم، واقتصر هذا الإمام على الإمامة الدينية العلمية. وربما كان هذا الاتجاه مرحليًا تكتيكيًا، تم اللجوء إليه، تقيّة (اتقاء لأذى العباسيين). وعلى كل حال، فإن جماهير الشيعة سكتت على مضض، وبدأوا يعرفون الدعوة

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

السرية لأهل البيت، والأتباع يكثرون ويزيدون يومًا بعد يوم، ويجمعون الأموال الكثيرة من الناس، حيث كانت تُدفع الزكاة للإمام، وبهذه الأموال التي جمعت عن طيب نفس، وتعاطف الناس مع آل البيت، وتسترهم على دعاتهم، أخذوا يبحثون عن مكان بعيد عن سلطان العباسيين وضرباتهم، فأقاموا مركزًا للدعوة الشيعية في اليمن انتهت إمامته إلى (شهر ابن حوشب) الذي أرسل داعيين ماهرين من الشقات إلى بلاد المغرب (الحلواني، وأبا سفيان)، حيث تم نشر الدعوة في منطقة قبيلة كتامة وما حولها، وعرف البربر بأمر آل البيت، ودعوة هذين الداعيين للإمام المهدي الذي قرب أوان ظهوره، فتعلقت قلوب أهل كتامة بالشيعة، وحملوا إليهم الأموال والتحف، فلم يمت هذان الداعيان إلا وقد أثمرت دعوتهما في انتظار صاحب البذر (الإمام)، وتحققت المقولة التي قيلت لهما وهما يزمعان الذهاب إلى المغرب: «إن المغرب أرض بور، فاحرثا حتى يجيء صاحب البذر». وبعد مضي سنين طويلة من قيامهما بهذا الأمر، توفى أحدهما بعد الآخر[1]، فولّى شهر بن حوشب داعية جديدًا، يتم ما بدأه السابقان، ويمهد الأمر للمهدي، ويحول الفكر النظري للشيعة إلى واقع عملي مطبق في دولة يحكمها الشيعة بالمغرب، ويلتف حولها البربر.

أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية:

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي الصنعاني. صحب ابن حوشب بعدن، وصار من كبار أصحابه، وله فهم ودهاء ومكر. شيّعه ابن حوشب بكلمات عندما جعله داعيًا ببلاد المغرب جاء فيها: «إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا وليس لها

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦ / ٤٥٠ (أحداث سنة ٢٩٦هـ).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك». فخرج أبو عبد الله بالأموال وأحد الأتباع إلى مكة في موسم الحج، والتقى حجاج كتامة، وسمع حديثهم عن فضائل أهل البيت، فأظهر استحسان ذلك، ولم يعرّفهم حقيقته ولا هدفه، وحدّثهم بما لا يعرفون عن آل البيت. وتوثقت الصلة بهم، وسعدوا كل السعادة عندما عرفوا أنه متجه إلى مصر، وسيكون بصحبتهم. لقد أعجب بحديثه العذب المعسول وفصاحته وبيانه هؤلاء البربر، وأكبروه لعبادته وزهده وعلمه. وتظاهر أبو عبد الله أنه معلم صبيان، وأظهر التمنع عندما دعوه للمقام بينهم في المغرب، وغاب بمصر ثم قابلوه، فوافق بعد لأي على المضي معهم إلى بلادهم، ووصل إلى أرض كتامة منتصف شهر ربيع الأول سنة ٢٨٠هـ. وكان أبو عبد الله الشيعي قد جمع بذكائه المعلومات التي اطمأن إليها من هذا الوفد عن ديارهم وموقعها ومهارتهم في ركوب الخيل وحمل السلاح، وعدم وجود صلة لهم بالسلطان (الخليفة العباسي)، وعدم خضوعهم لسلطان الأغالبة، ووجود صراعات داخلية بين قبائل البربر، تؤدي إلى اقتتالهم وانفضاضهم بعد حين. وهم يُحكمون من قِبل مشايخ القبائل البربرية، ويقدم أغنياؤهم الأموال لزعماء القبائل يردونها على فقرائهم(١).

خطوات أبي عبد الله الشيعي في تأسيس الدولة:(٢)

١- نهج الرجل في منازل سكتاتة من قبائل كتامة نهج المعلم الصالح، حتى اشتهر بالصلاح والعدالة بين الناس، فسلك بينهم مسلك الطهر والديانة والعفاف. ويلاحظ أن بدايات كثير من الزعماء السياسيين في بلاد المغرب كانت هكذا (معلمون دينيون يتحولون إلى قادة مؤسسين للدول)، كما كان

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦ / ٤٥٠-٤٥١، ودراسات في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسن علي ص ٣٤-٣٩ .

(٢) راجع التفاصيل في: الكامل ٦ / ٤٥ وبعدها، والبيان المغرب ١ / ١٤٩ وبعدها .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

دخال في الدولة الرستمية (عبد الرحمن بن رستم، وأبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح). وسنرى عبد الله بن ياسين مؤسس المرابطين في قبائل صنهاجة، ومحمد بن تومرت في قبائل مصمودة بدولة الموحدين.

٢- بدأ الرجل يكشف عن شخصه الحقيقي وهدفه، وأعلمهم أنه لا يريد مالاً فمعه منه الكثير، والكتاميون هم المقيمون للدولة الشيعة في بلاد المغرب، الباذلون مهجهم وأموالهم دونها، ووعدهم بأن الله سيفتح عليهم الدنيا، وينالون الأجر المضاعف من الله (عز وجل). هنالك ازداد الناس حوله التفافًا، وازدادوا إقبالاً، ووفدوا من كل صوب وحدب، وجبل وسهل، وفج عميق يتقربون منه، ويطمعون في بركته ورضاه، ويعرضون أموالهم وأرواحهم فداء لآل البيت وإمامهم .

٣- اتجه الرجل إلى العمل التنظيمي المذهبي، وحوّل المبادئ والشعارات إلى نظام عملي مطبق، وقسم كتامة إلى سبعة أقسام يرأس كل قسم داعية يثق به، وتشدد في مطالبتهم بالعبادات، وترك المعاصي، ورأى أن ذلك هو السبيل لإقامة مجتمع إسلامي بقيادة دول شيعية تنتسب لآل البيت.

٤- تحريض البربر وتكوين الجيوش المسلحة المدربة من كتامة لإسقاط الدول المجاورة لاسيما دولة الأغالبة، وقاد الجيوش واجتاحها، وفر آخر أمرائها زيادة الله الثالث (٢٩٠-٢٩٦هـ) إلى مصر بعد أن أيقن بسقوط دولته، وتدميرها على أيدي أبي عبد الله الشيعي، وكذلك أسقط الدولة الرسمتية.

٥- أرسل إلى سَلَمِيَة ببلاد الشام من يتصل بصاحب الدعوة ويحيطه علمًا بالنجاح الذي حققه على أرض المغرب، ويدعوه للقدوم لتسلم مقاليد الأمور،

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

فحضر على عجل خفية في زي التجار عبيد الله المهدي، لكنه قبض عليه وسجن في سجلماسة، حتى قدم الشيعي بقواته، وأفرج عنه، ودخل رَقّادة عاصمة الأغالبة، وبايعه الناس بالإمامة، كأول خليفة للفاطميين بالمغرب .

المهدي يوطد نفوذه[1]:

حرص الخليفة المهدي على بسط نفوذه على ربوع دولته، وسحب البساط من تحت قدمي أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس، فقام بالتقرب إلى قبيلة كتامة، فاعترف بفضلها على دولته، وأكثر من الإغداق على زعمائها، وتقريبهم من مجلسه، ووزع عليهم الجواري الحسان، والأعمال في إفريقية، فتعلق الناس به تعلقًا شديدًا، حتى علقوا عليه أيمانهم، فكانوا يقولون: وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقادة .

أحس أبو عبد الله الشيعي أنه سيفقد كل ما بناه بجهده وعرقه طيلة السنوات الماضية، فبدأ يتآمر ضد المهدي مع بعض الكتاميين، مدعيًا أنه أخطأ في معرفة شخصه، وأنه ليس هو المهدي الإمام المنتظر، وشكك في صحة نسبه، وزعم أنه يأتي الأفعال المنكرة القبيحة ويشرب الخمور، ويقتل الجواري، ويرمي بهن أثناء سكره وعربدته. تنامت هذه الشائعات إلى عيون المهدي، وبلغته، فقرر ألاّ يضيع الفرصة، فكلف أحد مشايخ البربر الموالين له باغتيال أبي عبد الله الشيعي، وأخيه أبي العباس، فتم له ذلك، ثم قتل من قتلهما وهو عَروبة بن يوسف، وبذلك تخلص من أكبر منافسين له في خلافته.

قام المهدي بالاستيلاء على أموال كتامة، وفرض الضرائب عليهم بصورة أظهرته على حقيقته المادية الجشعة، ثم خشي على نفسه فبنى مدينة المهدية

---

(١) راجع التفاصيل في: الكامل ٦ / ٤٦٠ وبعدها، والبيان المغرب ١ / ١٥٨ وبعدها .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ابتداء من سنة ٣٠٥-٣٠٨هـ؛ كي يأمن على نفسه وولده وحاشيته وآل بيته، ونسائه وأمواله وخزائنه، لاسيما وقد علم أن أهل السنة في القيروان خاصة لن يستسلموا له ولدعوته المنحرفة في العبادات والعقيدة(١). فاختار موقع عاصمته في مكان حصين على الساحل الشرقي لتونس شمال سوسة، وعمل بها داراً لصناعة السفن؛ من أجل إنشاء أسطول بحري ضخم يدافع عن سواحل دولته، ويهدد به الأمويين في الأندلس، وحرص على أن يبيت العمال والعبيد والسوقة خارج أسوار المهدية الحصينة، حيث يتجهون إلى محل إقامتهم في زويلة، ويدخلونها نهاراً للعمل فحسب، حتى إذا فكروا الثورة والعصيان، هددهم في دورهم ونسائهم وأولادهم. واستخدم جنده المرتزقة من الصقالبة والخصيان إلى جانب البربر من كتامة. وبعد فترة تقرب المهدي من قبيلة صنهاجة واستخدم جندها في غزو المغرب الأوسط والأقصى على يد مصالة بن حبوس الصنهاجي، وبذلك أوقع بين كتامة وصنهاجة، فلا يتآمر أحد عليه، وسوف يقوم الفاطميون بعد ذلك بتحريض قبائل زناتة على صنهاجة، ثم يعودون إلى موالاة كتامة مرة أخرى عند الحاجة إلى جندها الكثيف القوي الشجاع في محاولاتهم المتعددة لغزو مصر في سنة ٣٠٣هـ، ٣٠٧هـ، ٣٢١هـ، لكنها جميعًا باءت بالفشل، وتصدى لهم المصريون وبعض ولاتهم المخلصين مثل: الوالي تِكين، فطردوهم شر طردة .

الفاطميون بعد المهدي:

كانت سياسة القائم أقرب إلى العدالة وحسن السياسة من أبيه، وكان

(١) مما قيل عن بدعهم وخرافاتهم وانحرافهم زعمهم أن المهدي بن رسول الله، وسب الصحابة ولعنهم على المنابر ما عدا عليًا، وسلمان، وعماراً، وأبا ذر، ومنعهم صلاة التراويح لارتباطها بعمر بن الخطاب ﷺ، وتعديلهم صيغة الأذان إلى: حي على خير العمل، علي ومحمد خير البشر، إلى جانب الدعاء المطول للخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة. (راجع العديد من النماذج في (البيان المغرب) ١ / ١٥١ .

يستشعر العزلة عن المجتمع، ولم ينجح في محاولات التقرب من الناس.

وفي عهد المنصور كانت ثورة أبي يزيد مَخْلَد بن كَيْداد، وكان من الخوارج الإباضية النكارية الرافضين لسياسة الفاطميين ومبادئهم الشيعية، وقد تظاهر بالزهد، حتى عرف بـ (صاحب الحمار) إشارة إلى حمار هزيل كان يركبه متنقلاً على ظهره. وكان يبلغ السبعين، ورغم ذلك طمع في قيادة جموع البربر في بلاد المغرب، مستغلاً سخط الناس وغضبهم من سياسة الفاطميين المالية المنحرفة، وتجاوزهم كل الحدود، وقيامهم بسلب أموال الناس ونهبها وأكلها بالباطل بحجة التبرع للدعوة ولإمامها. وقد دعا الرجل إلى العدالة والمساواة، وثار على تحريف العقيدة والعبادات على يد الفاطميين، وبلغ بجموعه إلى المهدية وحاصر المنصور، وكاد يقتحم عليه أسوار عاصمته، لولا استعانة الأخير ببربر صنهاجة، فتصدى لهذه الثورة العارمة بُلكين بن زيري ابن مَنَاد الصنهاجي، وقضى على تلك الحركة خاصة بعد تفرق الناس من حول زعيمها الذي أساء السيرة، ولم يحسن معاملة قبائل البربر(١).

وفي عهد المعز لدين الله الفاطمي أيقن الرجل أنه لا مكان للفاطميين ببلاد المغرب، وأن ما أنفقوه من الأموال والذخائر بها لم يأت بطائل؛ نتيجة قوة وصلابة علماء السُّنَّة المالكية في مواجهة أفكار الشيعة وتحريفاتهم، وثباتهم وثبات العوام من ورائهم في القيروان على وجه الخصوص حتى تعرض بعضهم للقتل، مثل: إبراهيم بن محمد الضبي، وأبي بكر بن هذيل(٢). وبدأ التفكير الجدي مع ازدياد ضعف الدولة الإخشيدية في مصر بعد موت كافور ٣٥٧هـ، في غزو مصر بجيش ضخم من الكتاميين بزعامة

---

(١) البيان المغرب ١ / ٢١٦ وبعدها، وتاريخ المغرب وحضارته ١ / ١ / ٤٩٥ وبعدها.

(٢) البيان المغرب ١ / ١٥٤-١٥٥، وعلماء إفريقية للخشني (ط. الخانجي)، ص ٢٨١-٢٨٢.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

جوهر الصقلي صاحب الجولات والصولات في المغرب الأوسط والأقصى، حتى نجحوا في السيطرة على مصر ٣٥٨هـ ظانين أنهم سيعوضون ما خسروه بالمغرب من كنوز وأموال، وقام جوهر ببناء القاهرة عاصمة للفاطميين، والجامع الأزهر؛ ليكون مركزاً للدراسات الشيعية لإحلال المذهب الشيعي محل السني في مصر، وبنى قصوراً عديدة للمعز، ثم دعاه للقدوم فقدم سنة ٣٦٢هـ بعد أن ولي صنهاجة حكم المغرب نيابة عنه، وبمضي الوقت تضعف قبضة الفاطميين على بلاد المغرب شيئًا فشيئًا، حتى يستقل الصنهاجيون بحكم المغرب بعيداً عن سلطان الفاطميين الذي غرقوا في مشكلات مصر، ومواجهاتهم بالشام، وعدائهم للخلافة العباسية في بغداد .

وهكذا انتهى عصر الإعصار والعواصف المدمرة في بلاد المغرب بعد تجربة فاشلة للشيعة على مدى أكثر من ستين عامًا، دانت لهم خلالها بلاد المغرب من طرابلس حتى منتصف المغرب الأوسط، وسيطروا على إفريقية وصقلية، لكنهم لم يقدموا عملاً إيجابيًا حضاريًا يفيدون به البربر، بل قاموا بأسوأ استغلال ونهب مالي لهم، وأوهموهم بالزعامة والقيادة، ولم يعمروا ببلادهم إقليمًا، ولم ينشئوا إلا المهدية عاصمة خاصة بهم. لقد أجج هؤلاء نيران العصبية في بلاد المغرب، وقاموا بحروب إبادة ضد الدول التي كانت موجودة قبلهم، وساهموا في إسقاط الأدارسة بالمغرب الأقصى، وسوف يدفعون قبائل بني هلال العربية الغوغائية المخربة إلى بلاد المغرب في القرن الخامس الهجري؛ انتقامًا من خروجها تحت سلطانهم، ولولا مجيء المرابطين ثم الموحدين من بعدُ، لأصاب الدمار والخراب كل جنبات بلاد المغرب[١] .

***

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١٢٠، ١٣٥-١٣٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفصل الثاني

وحدة الأندلس واستقلالها في ظل حكم الأمويين

نعني في دراسة هذا الفصل ببيان السمات العامة لفترات حكم الأمويين بالأندلس، وعلاقاتهم بالقوى المحيطة بهم، وأهم السمات الحضارية في ذلك العصر، الذي يقترب من ثلاثة قرون.

ينقسم هذا العصر إلى الفترات الآتية:

أولاً: فترة النشأة والاستقرار: (١٣٨-٣٠٠هـ / ٧٥٦-٩١٢م): وفيها صارت الأندلس إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية بالمشرق، وتعاقب على حكمها الأمراء التالون:

١- عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (عبد الرحمن الأول- الداخل): وحكم من (سنة ١٣٨هـ - ١٧٢هـ/ ٧٥٦-٧٨٨م).

٢- هشام بن عبد الرحمن (الرضا): ولي من (سنة ١٧٢-١٨٠هـ/ ٧٨٨- ٧٩٦م).

٣- الحكم بن هشام (الربضي) الأول: ولى من (سنة ١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦- ٨٢٢م).

٤- عبد الرحمن بن الحكم (الثاني- الأوسط): ولي من (سنة ٢٠٦- ٢٣٨هـ/ ٨٢٢- ٨٥٢م) .

٥- محمد بن عبد الرحمن: ولي من سنة (٢٣٨- ٢٧٣هـ/ ٨٥٢- ٨٨٦م) .

٦- المنذر بن محمد: ولي من سنة (٢٧٣-٢٧٥هـ/ ٨٨٦-٨٨٨م).

٧- عبد الله بن محمد: ولي من سنة (٢٧٥-٣٠٠هـ/ ٨٨٨-٩١٢م).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ثانيـا: فـترة النضج والازدهار: (٣٠٠-٣٩٩هـ/ ٩١٢-١٠٠٨م): وخلال هذه الفترة صارت إمارة الأندلس خلافة في (ذي الحجة سنة ٣١٦هـ).

وتعاقبت على حكم الأندلس الحكام التالية أسماؤهم:

١- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد (الثالث- الناصر): ولي من سنة (٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٢- ٩٦١م).

٢- الحكم بن عبد الرحمن الناصر (المستنصر- الثاني): ولي من سنة (٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م).

٣- هشام بن الحكم المستنصر (الثاني- المؤيد بالله): ولي سنة (٣٦٦-٣٩٩هـ/ ٩٧٦- ١٠٠٩م)، وتوفي سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٣م.

ويلاحظ أنه منذ حكم (هشام المؤيد) صارت السلطة الفعلية في أيدي العامريين كالآتي:

أ- المنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٢هـ / ١٠٠١م).

ب- ابنه عبد الملك المظفر (٣٩٢-٣٩٩هـ/ ١٠٠١-١٠٠٨م).

جـ- أخوه عبد الرحمن شنجول (ت ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م).

ثالثًا: فترة الانهيار (٣٩٩-٤٢٢هـ/ ١٠٠٨-١٠٣١م): وفيها احتدم الصراع بين أهل قرطبة والبربر، وحلت الفوضى محل الاستقرار والهدوء، وتعاقب على الخلافة الأموية عدة خلفاء ضعاف، منهم: (المهدي، والمستعين) حتى ألغيت الخلافة في عهد (هشام الثالث المعتد) سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م.

***

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

أولاً: فترة النشأة والاستقرار

(١٣٨-٣٠٠هـ / ٧٥٦- ٩١٢م)

تعد ولاية (يوسف الفهري) أطول ولايات العصر السابق، وكانت تمتاز بالهدوء النسبي؛ إذ خلت البلاد من الصراعات العنيفة بين العرب والبربر، وإن وجدت بعض الثورات اليمنية آنذاك. لكن بلاد الأندلس كانت تحتاج إلى ما هو أعظم بكثير من ذلك، فهي تحتاج بعد سيطرة المسلمين عليها، ومضى بضعة عقود على ذلك أن تتحول إلى بلد إسلامي؛ إذ كانت غالبية السكان نصرانية، ولو ظلت سياسة الأمور على هذا النحو المضطرب، وتجددت الفتن؛ لتلاشي أمر الإسلام والمسلمين هناك.

دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس(١):

لقد كان نجاح عبد الرحمن بن معاوية في الإفلات من يد العباسيين من موافقات القدر السعيدة؛ لأنه على يدي هذا الرجل القوي الإرادة سيتم انتقال الأندلس إلى عهد جديد في ظل الحكم الإسلامي. وصل هذا الرجل مع موليه (بدر، وسالم) إلى بلاد المغرب، ومن هناك بدأ يتابع أخبار الأندلس، فقد كان يطمح في ولايتها، ويتطلع إلى ذلك، خاصة أن الأندلس كانت عامرة بجماعة كبيرة من موالي بني أمية، وكانوا على علم بشئون الدولة والإدارة، ومندرجين تحت أنصار الوالي (يوسف الفهري).

أرسل عبد الرحمن مولاه بدراً برسالة إلى الزعماء من موالي بني أمية (مثل: عبد الله بن خالد، ويوسف بن بخت، وعبيد الله بن عثمان)؛ كي

---

(١) حول جهود (عبد الرحمن بن معاوية) بدءاً من فراره من جند العباسيين، ووصوله إلى بلاد المغرب، حتى دخوله الأندلس، وتوليه الحكم بها، راجع: (البيان المغرب) ٢ / ٤٣ وما بعدها، و(معالم) للدكتور حسين مؤنس ص ٢٤٩ - ٢٥١، و(في تاريخ المغرب والأندلس) للدكتور العبادي ص ٩٥-٩٨.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يساعدوه على دخول الأندلس، والاستقرار بها، وقد فهم هؤلاء مقصده الحقيقي من دخول الأندلس، وإن أظهروا للصميل صاحب السلطة الفعلية مجرد رغبة عبد الرحمن في دخول الأندلس، فوعدهم خيراً.

كان يوسف مشغولاً بثورة يمنية في (سرقسطة). وقد أدرك الموالي أن الصميل يضمر لعبد الرحمن بن معاوية شراً، فتقاعسوا عن الخروج مع يوسف. ووجد هؤلاء عند اليمنية استعداداً لمواجهة يوسف والصميل؛ انتقاماً لهزيمتهم في (شقندة). وقرر اليمنيون في (غرناطة) مساعدة عبد الرحمن في العبور إلى الأندلس، على أن تكون لهم الرئاسة معه، فنزل عبد الرحمن في (غرناطة) في ربيع سنة ١٣٧هـ. وبلغ يوسف والصميل في (سرقسطة) أمره، فهون الناس عليهما ذلك، وذكروا أنه رجل يريد العيش في سلام.

وقف الفهري على حقيقة أهداف عبد الرحمن من دخول الأندلس، وأنه يريد إقامة مُلك لأسرته بزعامته، فقرر هو والصميل مواجهته، وانضم إليهما الشاميون، بينما ساند اليمنيون وجماعات من البربر عبد الرحمن، ووقعت المعركة يوم الجمعة في العاشر من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة (١٣٨هـ/ ٧٥٦م) عند المصارة (طرف قرطبة الغربي)، وانتصر فيها عبدالرحمن انتصاراً حاسمًا، ودخل دار الإمارة بقرطبة. وكان ذلك إيذانًا بميلاد دولة جديدة وعصر جديد.

أما عن الفهري والصميل، فإن عبد الرحمن أمنهما، لكنهما نقضا العهد؛ إذ أعلن يوسف الفهري- بإيعاز من الصميل- العصيان، وفر إلى شمالي (ماردة)، وكون جيشًا كبيراً معظمه من البربر لغزو قرطبة، وذلك سنة اثنتين وأربعين ومائة (١٤٢هـ/ ٧٥٩م)، فقام عبد الرحمن باعتقال الصميل، ودسّ له من خنقه، بينما قتل الفهري بيد بعض أعوانه في قرية قريبة من (طليطلة)[١].

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٤٩ (أحداث سنة ١٤٢هـ)، و(معالم تاريخ المغرب والأندلس)، للدكتور حسين مؤنس ص ٢٥١، و(في تاريخ المغرب والأندلس) للدكتور العبادي ص ١٠٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

١- من أهم الأحداث الداخلية في عصر أمراء بني أمية:

يعد طابع التمرد والعصيان والثورات من الظواهر الموجودة في عصر أمراء بني أمية في الأندلس، لكن هؤلاء الأمراء نجحوا في التصدي لذلك، وفرضوا سيطرتهم على البلاد، وحققوا الاستقرار. ومن هؤلاء الأمير عبدالرحمن بن معاوية (الداخل)، الذي كانت لديه مقدرة على الثبات والتصدي لكل مخالفيه، ومواجهة خصومه فرادى (واحداً بعد الآخر)[١] ، مما مكنه من دحرهم جميعًا .

من المعلوم أن عبد الرحمن الداخل اعتمد في إقامة دولته على عون كبير من العرب اليمنيين والبربر البلديين، وقد كان اليمنيون يظنون أنهم ستكون لهم السيادة بعد مساندتهم الأمير الداخل، وأنهم باستطاعتهم الاستخفاف بالناس والأموال، والإغراق في العصبيات القبلية، لكنهم فوجئوا بأن الداخل لا يعرف إلا الولاء لشخصه، فثاروا عليه، فعاجلهم قبل اجتماع صفوفهم، معتمداً على جند بني أمية، وجند الكوز المجندة، وغيرهم. وتمت المواجهات في (الجزيرة الخضراء، وإشبيلية، وطليطلة، وباجة).

ومن أخطر الثورات الواقعة في عهد الداخل ثورة (العلاء بن مغيث الحضرمي) في (باجة)، حيث خرج في جمع كبير من اليمنيين والفهريين وجند مصر. وقد دعا لبني العباس، وطلب سجلاً؛ ليحكم باسمهم، ولكن الداخل قضى على الثورة عام ١٤٧هـ / ٧٦٤م[٢] .

وهناك ثورة بربرية قامت ضد سيادة الغرب، وكانت بزعامة (شقيا بن عبدالواحد المِكْناسي (١٥١-١٦٠هـ/ ٧٦٨-٧٧٧م)، وعمت الهضبة في وسط وشمال الأندلس. وادعى هذا الثائر أنه فاطمي شيعي، وعرف بـ (الفاطمي). وقد هُزمت جيوش الداخل أمامه؛ لأنه كان يتجنب المعارك الحاسمة في

(١) دولة الإسلام في الأندلس: العصر الأول، القسم الأول ص ١٥٦ .

(٢) البيان المغرب ٢ / ٥١-٥٢، والنفح ١ / ٣٣٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

السهول، ويفر إلى قمم الجبال عند احتدام الخطر. ولم يتمكن الداخل من القضاء عليه إلا بمؤامرة حيكت له، فاغتيل على يد أصحاب له سنة ١٦٠هـ[١].

ومن الأحداث المهمة الداخلية في عهد الأمير (الحكم بن هشام ١٨٠-٢٠٦هـ) ثورتان كبيرتان خطيرتان. لقد كان الأمير الحكم - على عكس أخلاق أبيه تمامًا - شابًا مرحًا مولعًا بالصيد، وحفلات الرقص والغناء، ومجالسة الشعراء والندماء. وقد أدى ذلك إلى سوء علاقته بالفقهاء، الذين عرضوا به في خطبهم، ورموه بالفسق والفجور، ولقبوه بالمخمور، وحرضوا الناس على عزله، واستجاب المولدون[٢] لذلك استجابة كبيرة، وقد كانوا يريدون تحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية، فقاموا بما يلي:

١- **في (طليطلة):** وهي مدينة معظم أهلها من المولدين والمستعربين[٣]، الذين كانوا يهدفون إلى الاستقلال عن حكم بني أمية بقرطبة، معتمدين على حصانة مدينتهم وقوة أسوارها. وإزاء تمرد وعصيان أهلها استخدم الحكم سياسة المكر والحيلة لإخضاعها، فاختار واليًا من المولدين المخلصين له من أهل المدينة (وهو عمروس بن يوسف)، وكتب إليهم أنه اختار عليهم واحدًا منهم؛ لتطمئن قلوبهم إليه. ثم تظاهر هذا الوالي بكراهية بني أمية، فاستمال الناس إليه، وأظهر حرصه على راحتهم، فبنى للجند قلعة خارج المدينة؛ منعًا لاحتكاكهم بالأهالي. وفي يوم مر ولي العهد الأمير (عبدالرحمن بن الحكم) بطليطلة، فأقام وليمة كبيرة بهذه المناسبة، ودعا إليها جميع أعيان البلد ورؤسائها، وأمر بضرب أعناقهم جميعًا، وحفرت حفرة كبيرة ألقيت فيها

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٥٤-٥٥، ودولة الإسلام في الأندلس، ع١ ق١ ص١٦٤-١٦٧، و(معالم) ص ٢٦٣.

(٢) المولدون: هم أولئك الذين ولدوا من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات، فنشأ هؤلاء على الإسلام، ودمهم خليط من أهل البلاد الأصليين ودم العرب والبربر الفاتحين.

(٣) هم قوم احتفظوا بديانتهم النصرانية من أهل البلاد الأصليين، لكنه تثقفوا وتعلموا العربية إلى جانب لغتهم الأعجمية الدارجة المعروفة بالرومانسية Romance وهي لهجة عامية مشتقة من اللاتينية، ومنها تكونت الإسبانية.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الجثث. فلما جُردت المدينة من خيرة رجالها، ضعفت مقاومتها واستسلمت، وقد عرفت تلك الحادثة بوقعة (الحفرة)، وكانت سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م[١] .

ولاشك أن تلك الجريمة النكراء، والغدر البيّن كان بأوامر مباشرة من الحكم بن هشام أمير الأندلس، وكانت ردًا على ما رأى أهل طليطلة من حق قديم لهم، وأوضاع يبدو أنها كانت لهم في عهد القوط، باعتبار مدينتهم العاصمة القديمة، وقاعدة الثغر الأدنى. ولم يتعقل الحكم الأمور، ويتعرف أسباب التمرد، فلجأ إلى الحيلة والعنف الشديد، فقضي على الثورة مؤقتًا، وأساء إلى نفسه وحكمه إساءة بالغة، ففقد الناس الثقة به.

٢- **ثورة المولدين الثانية**: كانت الأخطر، ولعلها كانت رد فعل لما حدث في (طليطلة)؛ إذ أصاب الناس هلع شديد في قرطبة، ثم تحول إلى غضب شديد، ظهر في الاحتكاك بين الجند والناس. وقد ظل الحكم ماضيًا في سياسته، مستخفًا بالناس، غير عابئ بمشاعرهم، فتطاول عليه الناس، وسبوه على الطريق، وصفقوا عليه بالأيدي، وهَمّ البعض بالغدر به، والخلاف عليه، وطلبوا رئيسًا يقوم به.

فما كان من الحكم إلا أن قبض على بعض الزعماء، وصلب منهم اثنين وسبعين رجلاً، وذلك في عام تسعة وثمانين ومائة (١٨٩هـ/ ٨٠٥م)، فبينما يعرف بـ (هَيج الربَض الأول)[٢] .

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٦٩-٧٠، و(في تاريخ المغرب والأندلس) للعبادي ص ١٢٨-١٢٩ .

(٢) البيان المغرب ٢ / ٧١، و(معالم) ص ٢٧٨-٢٧٩ . والربض: كلمة عامة تعني الضاحية، أو الحي. والجمع: أرباض. وكانت مدينة قرطبة منذ أيام مؤسسيها الفينيقيين، ثم الرومان والقوط عامرة آهلة بالسكان. ولما اتخذها الداخل عاصمة، نزلتها جموع غفيرة من العرب المهاجرين من المشرق، ومن البربر الوافدين من المغرب، فازدحمت بالسكان. ولما ولي هشام بن عبد الرحمن، أعاد بناء الجسر الروماني القديم الممتد على نهر الوادي الكبير؛ ليربط المدينة بأرباضها الجنوبية (جسر قرطبة ولا يزال إلى الآن). وبعد وجود هذا الجسر امتد العمران على الضفة الأخرى للنهر المواجهة للمدينة، فنشأ بها حي آهل بالسكان، عُرف بـ (الربض)، ويمتد من ضفة النهر جنوبًا حتى بلدة شقندة (في تاريخ المغرب والأندلس) للعبادي ص ١٢٩-١٣٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

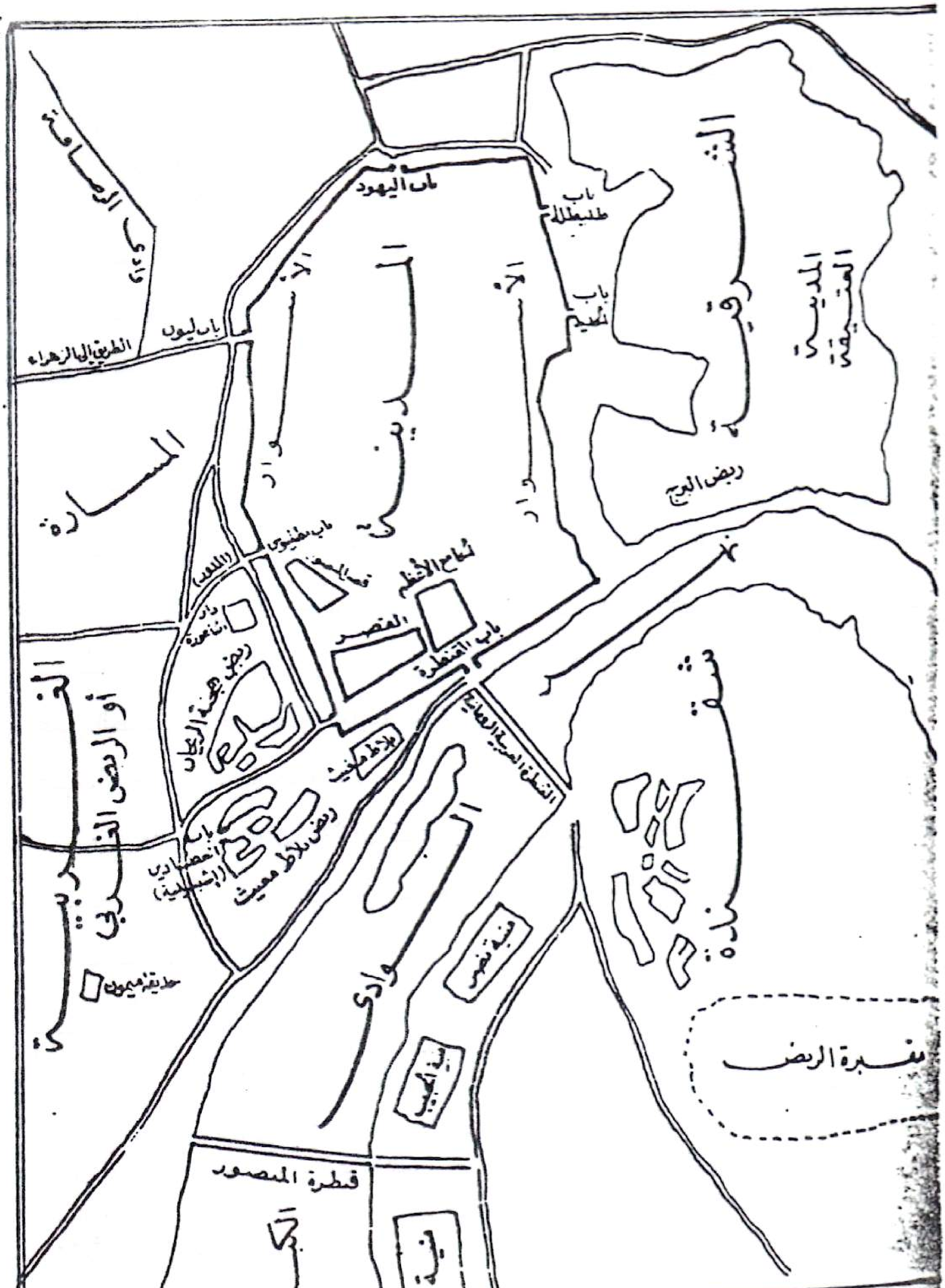

نقلاً عن : دولة الإسلام في الأندلس : القسم الثاني - عصر الموحدين
لمحمد عبد الله عنان ص ٤١٩ .

ثار هؤلاء ثانية ثورة أشد في الثالث عشر من رمضان سنة اثنتين ومائتين (٢٠٢هـ/ ٢٥ مارس سنة ٨١٨م)، وانفجر الغضب الشعبي العارم في الناحية الجنوبية لقرطبة (شقندة). وكانت بها أغلبية من المولدين، الذين كونوا طبقة اجتماعية جديدة، تألفت منها غالبية سكان الأندلس (من تجار، ومزارعين، وطلبة، وفقهاء، وأصحاب الحرف المختلفة). وكانت هذه الطبقة تشعر أنها مهضومة الحقوق، رغم أنهم أهل البلاد الأصليون، ويدفعون الضرائب، دون أن يكون لهم في ثروات الأندلس ولا مناصب البلد نصيب، فقد كانت حكراً على العرب الحكام[1] . وقد تمثلت خطورة هذه الثورة في قرب موقع هذا الحي من جامع قرطبة، وقصر الإمارة، والسوق، والطريق الرئيسي للمدينة (المحجة العظمى). وقد سكنته هذه الطبقة؛ لقربه من محال أعمالهم. لقد شحنت هذه الطبقة؛ لعدم وجود صوت مسموع لها لدى الحكام، ولاختلاط الفقهاء بها، وهم الذين أشعلوا نيرانها، ومنهم: (يحيى بن يحيى الليثي، وطالوت بن عبد الجبار، وعيسى بن دينار).

كان السبب المباشر لهذه الثورة يتمثل في احتكاك بين أحد جنود الأمير، وحداد من سكان الحي، تباطأ في إصلاح سيف الجندي، فقتله الجندي، فثار الناس بالجندي وقتلوه، ثم اشتعل الموقف، فأغلقوا متاجرهم وحوانيتهم، واتجهوا صوب قصر الأمير الحكم؛ لقتله (فقد عَدوه مسئولاً عما وقع من الجندي). فلما علم الحكم بهذه الأنباء، استعد للدفاع عن قصره وحكمه ونفسه حتى الموت، وأمر رئيس حرسه بمواجهة هجوم الثائرين. ثم استدعى صاحب الصوائف (ابن عمه: عبيد الله بن عبد الله البلنسي)، وأمره بشق بعض الجند صفوف الثائرين، ونفاذهم إلى حي الربض، وإشعار النار فيه، وبالفعل عبر بعض الجند مخاضة في النهر، ولم يستخدموا الجسر؛ لامتلائه

(١) في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٢٨ .

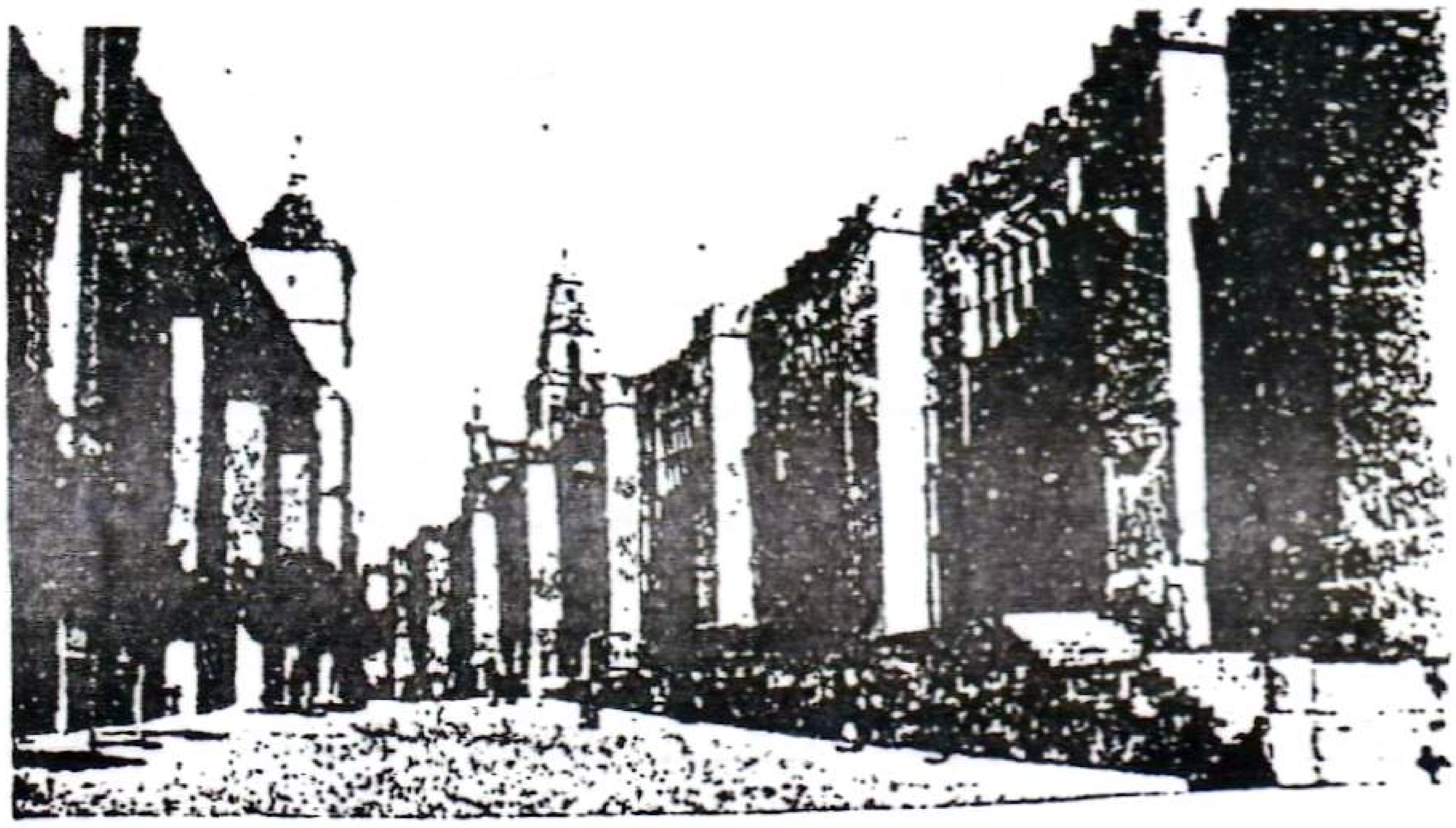

جامع قرطبة : الناحية الجنوبية المقابلة للقصر الأسقفى

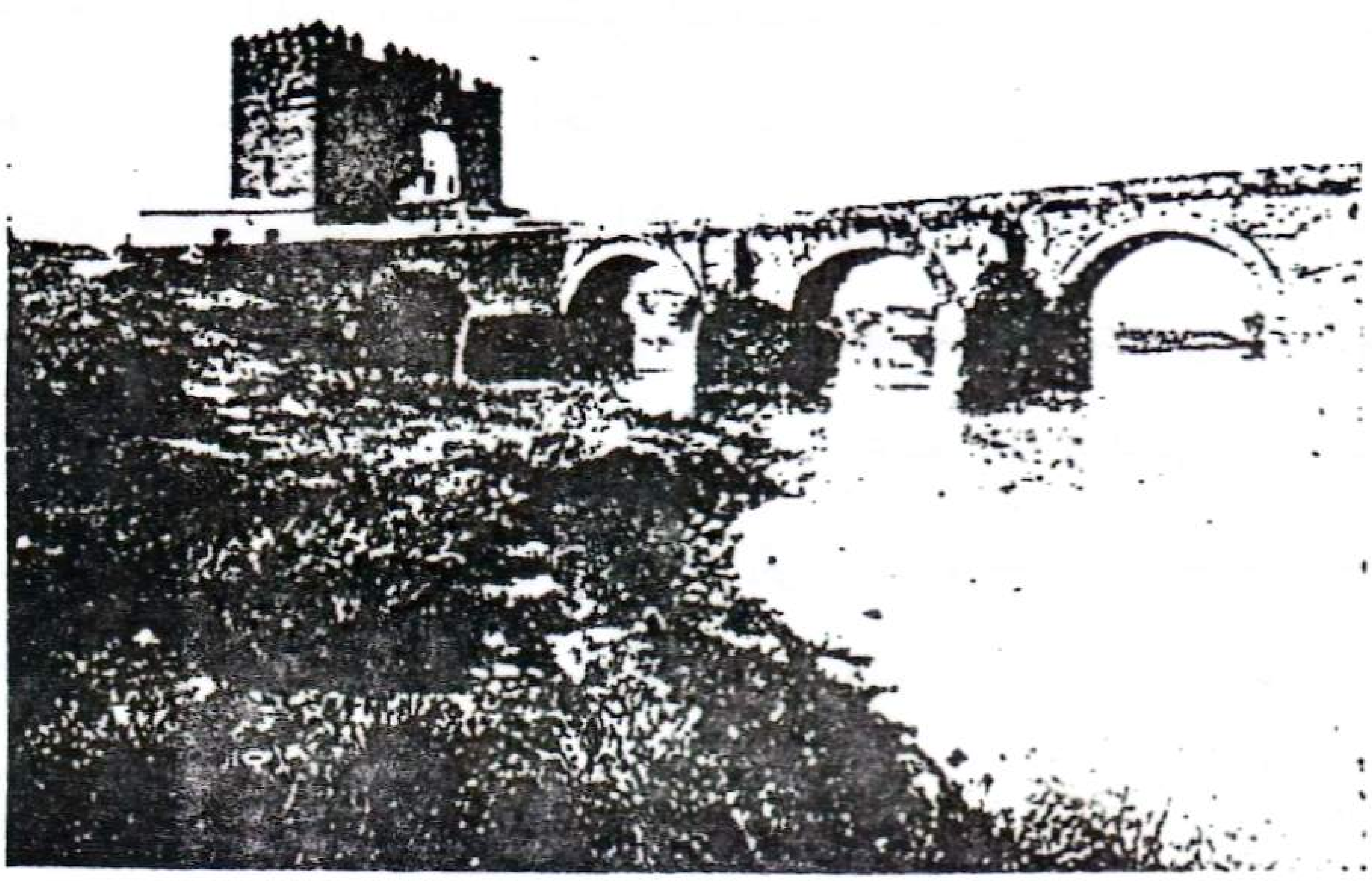

قرطبة : القنطرة العربية على نهر الوادى الكبير

(نقلاً عن: الآثار الأندلسية الباقية) لمحمد عبد الله عنان ص ٣٢.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بالثوار، وقاموا بإشعال النيران في البيوت والمتاجر. فلما أبصر الناس ذلك، عادوا مهرولين؛ لإنقاذ أولادهم ونسائهم وأموالهم. واستغل الحكم وجنده ذلك الارتباك في صفوف الناس، وأحاطوا بهم، فكانوا بين نارين: نار مشتعلة في بيوتهم، ونار جند الحكم من ورائهم، فقُتل منهم أناس كثيرون[1].

بعد سيطرة الحكم وجنده على الموقف، أمر بهدم الربض، وتخريب أرضه (عدم زراعتها)، ومن بقي على قيد الحياة من سكان الحي، أمر الحكم بإخراجهم[2].

لقد انتصر الحكم على الثوار، لكن العواقب كانت وخيمة؛ إذ فقدت قرطبة ألوفًا كانوا من أكثر السكان شهامة وبسالة وشجاعة.

وعلى كل، فقد ظل المكان خربًا، لم يعمره الأمراء التالون؛ تنفيذًا لوصية الحكم، حتى أواخر القرن الرابع الهجري[3].

فتنة المستعربين المتطرفين في (قرطبة):

في أيام (عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦-٢٣٨هـ): ظهرت فتنة التعصب النصرانية. لقد كان الرهبان والقساوسة- من قبل- يزعمون للنصارى الإسبان أن الإسلام دين باطل، ودولته لا تلبث أن تزول. وبعد ازدهار الأندلس في

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٧٥ وبعدها، والنفح ٢ / ٣٣٩، ومعالم ص ٢٧٩، وفي تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص ١٣٠-١٣١.

(٢) قام هؤلاء بأعمال دالة على شدتهم وقوتهم في كل مكان هاجروا إليه. فقد هاجر كثير منهم إلى الشمال، واستقروا في طليطلة وشمال غربي الأندلس، وكانوا من خيرة عناصر السكان، والبعض اتجه إلى المغرب، وأنشأ عدوة الأندلسيين في فاس. وبعضهم توجه إلى أماكن أخرى في المغرب الأقصى، والبعض توجه إلى الإسكندرية بحرًا، وطردوا عاملها، حتى أخرجهم منها عبد الله بن طاهر قائد المأمون ٢١٢هـ / ٨٢٨م، ثم خرجوا في مراكبهم إلى جزيرة كريت البيزنطية، حتى أخرجوا منها سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م.

(٣) في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٣٢.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عـهد الحكم الإسـلامي، وتمكنه وتمكن لغـته وآدابـها من القلوب، حـتى إن الشاب من هؤلاء كان لا يحفل باللغة اللاتينية وآدابها، وينفق جهداً كبيراً في تعلم العربية، ومطالعـة آدابها، رأى هؤلاء المتعصبون من الرهبـان والقساوسة انصراف الـناس إلى الإسلام ولغتـه. وحتى من لم يـسلم، فإنه تعـرب لغة وثقافة فيـمن عرفوا بـ (المستعربين)، ونـال بعضهم المناصب في الدولة. هنا بدأ هؤلاء يجـاهرون بالعداء للإسـلام ذاته، وسبـه كـدين علانيـة. ولاشك أنهم تقولوا عليه بأقاويل باطلة. وتزعم هؤلاء راهب متـعصب اسمه إيلوخيو Eulogio حاول حـمل الشبـاب المسيحي على قـراءة الأدب اللاتيني بدلاً من العربـي، ووضع لهم شعـراً لاتينيًا جـديداً على قافـية ووزن، يشـبه الشـعر العربي، لكنه فشل.

انقـاد عدد من الشـبـاب والفتـيـات والرهبان إلى حـملة العـداء العلني للإسلام، فكانوا يسبون الإسلام والرسول علانية، فيتم القبض عليهم؛ نتيجة استفزازهم الناس علانية في المساجد والميادين العامة. وعند محاكمتهم يحاول القـاضي ردهم عن أقوالهم، لكنـهم يرفضـون ويكررون السب والتجـريح، فيحكم عليهم بالقتل، فيتلقون ذلك في هدوء مضـحين بأنفسهم، فيستثيرون بذلك مشاعر وعواطف الناس، فيما عرف بـ (الاستشهاد).

بدأ ذلك على يد شخـص يدعى برفكتو Perfecto وكان قسًا في إحدى كنائس قرطبة، عندمـا دخل في نقاش مع أحد المسلمين حول فضـائل عيسى ومحمد، فـتجادلا، فقام القس بسب الإسلام ورسـوله علنًا؛ مما أثار جموع المسلمين، فـأعـدم علانيـة أول أيام عـيـد الفطر من سنة ٢٣٥هـ / ٨٥٠م. وتوالت هذه الحوادث بعـد ذلك مع شخص يدعى (إسـحاق) سنة ٢٣٦هـ / ٨٥١م، وتم إحراق أشـلائه؛ كي لا يُحتـفل بدفنه. وكذا الفـتاة فلورا Flora

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

التي كانت في أسرة مولدة، لكنها أصرت على مسيحيتها وتعصبها، ولقيت المصير نفسه سنة ٢٣٧هـ / ٨٥٢م .

ازدادت هذه الظاهرة، حتى استنكرها النصارى المعتدلون، فأمر الأمير (عبد الرحمن بن الحكم) بعقد مجمع ديني في قرطبة، يحضره أساقفة الأندلس، برئاسة مطران إشبيلية. وقد ناب عن الأمير في حضور المجمع (غومس بن أنطونيان) أحد كتاب الأمير، وتولى شرح خطورة الموقف وعواقبه. وقد استنكر المجتمعون ما يحدث، وأعلنوا مخالفة ذلك للكنيسة إلا أسقف قرطبة (ساؤول) Saul، الذي دافع عن هذه الحركة. وقد علق الراهب المتمرد إيلوخيو على قرار المجمع بأنه ثمرة الحرص والخوف، فأمر بحبسه هو ومن على شاكلته. وتكررت المأساة سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٣م)، وأعدم المشاركون فيها، ومات الأمير بعدها بأيام، فأرجف المتعصبون بأن الرب قد انتقم منه.

وفي عهد الأمير (محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨- ٢٧٣هـ) تم الإفراج عن إيلوخيو، وعُيِّن أسقفًا لـ (طليطلة)، فهدأت الفتنة قليلاً، لكنه عاود نشاطه المعادي في قرطبة، فتم قتله والتخلص من شره سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م ، ثم ضعفت هذه الفتنة الدينية من نفسها بعد ذلك[1].

حركة عمر بن حفصون[2] المرتد (٢٦٥- ٣٠٥هـ / ٨٨١- ٩١٧م):

بعد عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر زعيم المولدين، وحركته أخطر الحركات الثورية على الحكم الأموي. كان عمر من أسرة فقيرة، اعتنقت

(١) المسلمون في الأندلس، لدوزي (ترجمة: د. حسن حبشي) جـ١ ص ٨٥ وبعدها ، و(معالم) للدكتور حسين مؤنس ص ٢٨٣، و(دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول) لعنان ص ٢٧٠- ٢٧٣، و(في تاريخ المغرب والأندلس) للعبادي ص ١٥٥- ١٥٨ .

(٢) اسم حفصون تكبير وتفخيم لاسم حفص باستخدام الصيغة الإسبانية المأخوذة من المقطع الإسباني un أو on آخر الكلمة .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الإسلام منذ أيام جده (جعفر) في عهد (الحكم الربضي). رأى عمر أن المولدين بالأندلس يتعرضون لسوء معاملة العرب، فأراد أن يجعل من نفسه بطلاً قومياً، وجمع حوله الكثير من شباب المولدين، وقام بالاستيلاء على حصن روماني قديم (بُبَشتر) Bobastro في أعلى الجبال الجنوبية. ثم أخذ يوسع حدود سلطانه بالإغارة على الجهات المقابلة، حتى بلغ حصن بلي Poley المطل على قرطبة نفسها[1].

كان عمر بن حفصون متمرداً بطبعه، عنيفًا في خصومته، يريد الاستقلال عن نفوذ قرطبة، فقام بثورة في ولاية ريَّة الجنوبية (محافظة مالقة الآن). ولعل السبب المباشر في ثورته تشدد عامل رية في جباية الأموال المتأخرة، ولعل السبب الحقيقي أن أهل النواحي الجبلية لم يظفروا - قط- بالعناية الكافية من جانب قرطبة فغضبوا وثاروا معه.

بدأ التمرد سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م، وحاول الأمير محمد استخدام القوة ففشل، وتوالت المواجهات حتى نجح الوزير هاشم بن عبد العزيز في إحداها من أسر ابن حفصون، واستنزاله من حصنه، وترضاه بضمه إلى الجيش؛ للاستفادة منه في غزوات الشمال، لكنه عاد إلى العصيان والتمرد؛ لتعالي الوزير هاشم عليه، وإساءته إليه سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م .

نجح المنذر بن محمد (وهو ولي للعهد) في محاصرة ابن حفصون، وكاد ينجح في الاستيلاء على حصنه، لكن نبأ وفاة أبيه الأمير محمد، جعلته يرفع الحصار، ويرتد إلى قرطبة في التاسع والعشرين من صفر سنة ٢٧٣هـ/ أوائل أغسطس ٨٨٦م . وانتهز ابن حفصون الفرصة، فوسع سلطانه حتى شمل منطقة (رية) بأكملها .

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، ع١ ق١ ص٣٠٩ - ٣١٠، ٣٢٠- ٣٢١، ٣٢٤ - ٣٢٦، ٣٣٦، وفي تاريخ المغرب والأندلس ص ١٧٠-١٧١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

في عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥- ٣٠٠هـ) تواترت عليه الثورات، لكنه استطاع الثبات في مواجهتها. واتسع سلطان ابن حفصون في عهده حتى امتد إلى كل نواحي جنوبي الأندلس، فحاربه العرب في كورة (غرناطة). وضعف سلطان الأمير عبد الله، حتى لم تعد سيطرته تمتد إلا إلى قرطبة وما حولها. هذا، وقد نجح قائده أبو العباس أحمد بن عبدة، وابن أخيه محمد في إيقاع هزيمة قاصمة بابن حفصون سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م) والاستيلاء على حصن بلي، وهو من أكبر حصونه، فكانت خطوة مهمة نحو القضاء عليه، فطاردوه وحاصروه في (بيشتر)، لكن تعدد الثورات في أماكن أخرى حال دون الإجهاز التام عليه. وعلى كل، فمع وفاة الأمير عبد الله كانت قوة الثوار قد أنهكت، ووهنت معظم قواهم[1]؛ مما سهل إضعاف نفوذ ابن حفصون في عهد الناصر فيما بعد، خاصة بعد انفضاض من حوله؛ لشيوع ارتداده عن الإسلام، ثم مرضه ووفاته سنة ٣٠٥هـ .

لقد هزت ثورة ابن حفصون كيان المجتمع الأندلسي بشدة، وكان تمرده وعصيانه؛ لطبيعة فيه، ولسوء حال الإدارة، وسوء معاملة الزراع وأهل القرى. لقد كشفت هذه الثورات المتعددة عن كثير من العيوب الكامنة ، وكان لابد من تلافيها[2].

٢- **العلاقات الخارجية:** هذه نبذة مختصرة عن أهم الأحداث الخارجية، التي تعرضت لها دولة بني أمية في عهد الإمارة، وذلك كما يلي:

أ- مواجهة عبد الرحمن الداخل لملك الفرنج وإمبراطور الغرب زعيم الإمبراطورية الكارولنجية (شرلمان، أو شارل العظيم)[3]: كان هذا الملك يريد تأمين

(١) راجع تفاصيل أحداث ثورة ابن حفصون في (البيان المغرب) جـ٢ ص١٠٤ وبعدها، و(معالم) للدكتور حسين مؤنس ص ٣٠٣ - ٣٠٥ .

(٢) المرجع السابق: ص ٣٠٣ .

(٣) راجع (دولة الإسلام في الأندلس)، العصر الأول، القسم الأول ص ١٦٨ وبعدها، و(معالم) للدكتور حسين مؤنس ص ٢٦٣-٢٦٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

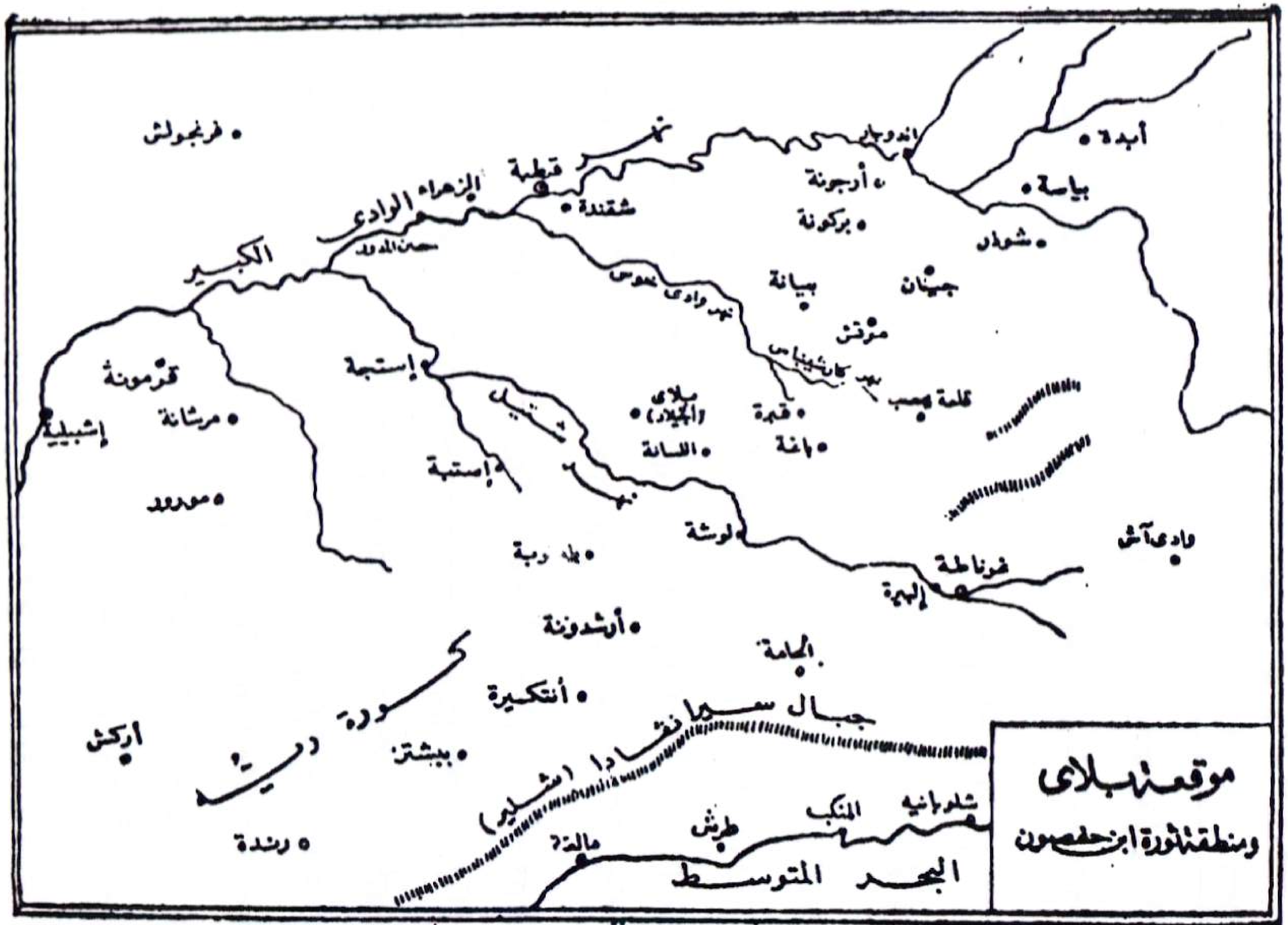

نقلاً عن: (دولة الإسلام في الأندلس) لمحمد عبد الله عنان ١/٣٢٧.

حدوده الجنوبية في إسبانيا؛ تحقيقًا لمشروعه الكبير في إحياء الإمبراطورية الرومانية. وفي سبيل ذلك تآمر مع قائدين محليين على عداء مع الداخل، وهما الحسين بن يحيى الأنصاري (والي سرقسطة)، و(سليمان بن يقظان الكلبي المعروف بابن الأعرابي) والي برشلونة. وتم الاتفاق بينهم بحيث يمكن شارلمان من السيطرة على سرقسطة، حيث يعبر بجيوشه جبال إلبرت، ويتجه إلى (سرقسطة)، فيسلمها له واليها. وقد حدث أنه بعد استيلاء شارلمان على بنبلونة عاصمة (البشكنس)، وتحقق عامة المسلمين من أهل (سرقسطة) من خيانة ابن الأعرابي، الذي خرج لاستقبال شارلمان، رفض الحسين بن يحيى تسليم سرقسطة. وقد تعرضت المدينة للحصار الطويل دونما فائدة، فرحل شارلمان مصطحبًا ابن الأعرابي معه أسيراً، ومعه من كان بين يديه من رهائن العرب، وذلك سنة ١٦١هـ / ٧٧٨م . وعُد ذلك الأسر إهانة للعرب، فقام ولدا ابن الأعرابي باستنقاذ والدهما، ثم انقض جيش المسلمين والبشكنس على مؤخرة جيش شارلمان، فمزقوه. وتجدر الإشارة إلى أن الداخل سار إلى سرقسطة بعدها بعامين، وقضى على بقايا الثائرين، ونظم شئونها، ودخل عاصمة البشكنس، فعاهدوه على الجزية، والخضوع للمسلمين سنة ١٦٣هـ / ٧٨١م .

ب- وجد عبد الرحمن الداخل أنه لن يستطيع المحافظة على أملاك المسلمين شمال جبال البرت، فأخلى هذه الأراضي، واقتصر على شبه الجزيرة الإيبيرية. وهذا خطأ منه؛ لأن هذه الجبال مفتاح الأندلس، ونتج عن هذا التخلي استعادة الفرنجة فيما بعد منطقة (قطلونية)، وأنشأ شارلمان بها ولاية الثغر الإسباني[1].

(١) معالم: ص٢٥٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

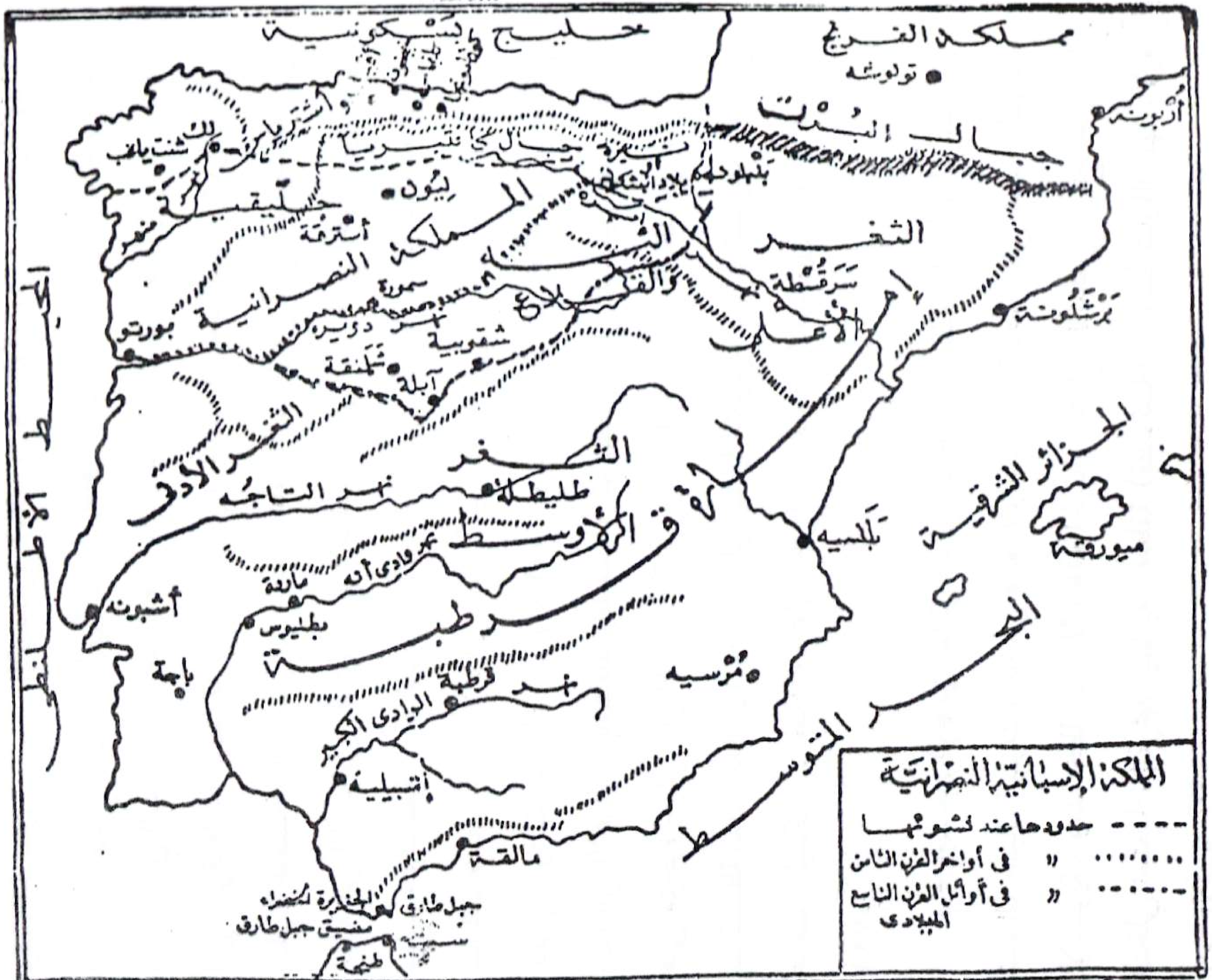

نقلاً عن: (دولة الإسلام في الأندلس (من الفتح إلى بداية عصر الناصر) لمحمد عبد الله عنان ص ٢١٧

جـ- **تعرض المسلمون لحملات نصارى الشمال** في عهد (عبد الرحمن الأوسط) أيام إمبراطور الفرنجة (لويس التقي) صاحب إقطاع (قطلونية)، فقام الأمير بكسب صداقة البشكنس ضد الفرنجة، وردّ غزوهم سنة ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م[١].

د- الجهاد البحري ضد النصارى، ومواجهة غارات النورمانديين:

تشرف شبه الجزيرة الإيبيرية بسواحل طويلة على مياه البحر الأبيض والمحيط الأطلسي شرقًا وغربًا وجنوبًا، مما جعلها عرضة لأي غزو بحري يأتيها من هذه النواحي. وقد كانت علاقات المسلمين عدائية مع الكارولنجيين في فرنسا (شارل مارتل، وخلفائه). وقد أدرك عبد الرحمن الأوسط أن قوة أعدائه تتركز في البر، فركز على تجهيز الأساطيل البحرية على طوال الساحل الشرقي للأندلس (في طرطوشة، وبلنسية خاصة)، وقام بغارات مستمرة على شواطئ جنوبي فرنسا (٢٢٣- ٢٣٦هـ/ ٨٣٩- ٨٥٠م)[٢].

رغم وجود الأساطيل الإسلامية في الأندلس إلا أن المسلمين لم تكن لديهم القواعد والمحارس الكافية لحماية جميع سواحل الأندلس، لاسيما الغربية منها؛ لذلك تعرضت لهجمات النورمان[٣] الخاطفة السريعة.

وقد اتخذ عبد الرحمن الأوسط كل السبل الكفيلة برد هذه الهجمات، فبنى في (إشبيلية) داراً لصناعة السفن الحربية، وزودها برجال مدربين، وآلات، وقوارير النفط، وأقام أسطولاً على الشاطئ الغربي كما فعل بالشاطئ الشرقي، فكانت قاعدة الأسطول على المحيط الأطلنطي (الأشبونة) وعلى

(١) معالم، للدكتور حسين مؤنس ص ٢٨١ .

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور العبادي ص ١٤٦ .

(٣) من أصل جرماني، وهم سويدون، ونرويجيون، ودنماركيون. والمجموعة الأخيرة هاجمت سواحل فرنسا وإنجلترا، ثم الأندلس والمغرب مستخدمين سفنًا صغيرة ذات أشرعة سوداء، توقد النيران؛ لإثارة الخوف، وتغير على المدن الساحلية وتهرب سريعًا.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

البحر الأبيض في (مالقة). وتم الإيقاع بالنورمان، وإلحاق هزيمة كبرى بهم عند طليطلة (شمال إشبيلية) سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٤م(١).

نظرة على مجمل الأوضاع الحضارية في الأندلس في عصر أمراء بني أمية:

دخل المسلمون الأندلس، وفي نيتهم المكث والمقام، لا مجرد الحصول على الأسلاب والمغانم. لذلك كان لابد أن يكون المسلمون مثلاً عليًا للإسبان من أهل البلاد الأصليين؛ كي يضمنوا لدينهم الانتشار، ولأنفسهم الريادة والقيادة، فهم حملة دين جديد، ومبادئ جديدة من العدل والرحمة، لم يعتدها أهل البلاد في حكامهم على مر السنين، وآخرهم ملوك القوط. وكذلك هم أصحاب لغة جديدة. فماذا قدم المسلمون من محاولات لإحداث النهضة الحضارية في الأندلس خلال هذه الفترة؟ وماذا فعلوا كي يسوسوا الأمور، ويديروها في تلك البيئة الجديدة؟

١- **استفاد عبد الرحمن الداخل من كفاءاته** ومواهبه الخاصة، وسماته الشخصية من الحزم والسياسة وبعد الهمة، وحسن التدبير، فأقام دولته وثبت أركانها، مستعينًا على ذلك بنوابغ رجال السياسة والإدارة في عهده من بيوتات. توارثت ذلك عبر الأجيال (بني عبدة، وبني مغيث، وغيرهم).

٢- **تصاهر العرب والبربر والموالي مع أهل البلاد**، فنشأت بيوت أندلسية في طبيعتها، ونشأ أولادهم أندلسيين في مزاجهم وعواطفهم، عربًا في روحهم وثقافتهم، مسلمين أمناء في ديانتهم، وكذا تصاهر أهل الحكم مع أهل البلاد. وابتداء من أيام (هشام بن عبد الرحمن ١٧٢- ١٨٠هـ) نجد أن لغة الحديث والقصر والشارع وشئون الأسرة، والأسواق صارت مزيجًا من العربية والإسبانية. فهناك - إذن - لغتان: العربية (وهي لغة الدين، والدولة،

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٨٧ وبعدها، ومعالم ص ٢٨٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

والأدب، والعلم، والرسميات)، ولغة أخرى مزيج من العربية والإسبانية[١].

٣- **من ناحية الوضع السياسي:** لم يَدَّعِ الداخل خلافة، وإنما كان أميراً يُدْعَى (ابن الخلائف)، ويبدو أنه كان يشعر أن الخلافة واحدة لا تتعدد، والخليفة هو حامي الحرمين (الخليفة العباسي)[٢]، ولعله وجد أن ادعاء الخلافة لم يحن وقته، أو التورط في منافسة غير مأمونة[٣].

٤- **من الناحية الإدارية:** عمل الداخل على تنظيم الجهاز الحكومي، فأنشأ منصب الحجابة، وأسندها إلى (تمام بن علقمة، ثم يوسف بن بخت، ثم عبد الكريم بن مهران، ثم عبد الحميد بن مغيث، ثم منصور فتاه حتى الوفاة). وكان يختص بمشورته ومعاونته في شئون الحكم مجموعة من الوزراء، منهم: (عبد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، وحسان بن مالك)[٤].

وكان يقود عسكره بنفسه غالبًا، أو يرسل في ذلك مولاه بدراً، وغيره من القواد. وكان يسند ولاية المدن والأقاليم والثغور من يثق بهم من مؤيديه، وذوي رحمه الوافدين عليه[٥].

في عهد عبد الرحمن الأوسط أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة. ومن أهمها: خطة الوزارة[٦]، التي خصها برعايته، وقسمها إلى عدة وزارات مختلفة، فكان - كما يقول المؤرخ الأندلسي ابن حيان- أول من ألزم الوزراء الاختلاف إلى القصر كل يوم،

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٢٦١-٢٦٢ .

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٣ .

(٣) دولة الإسلام في الأندلس، ع١ ق١ ص١٩٧ .

(٤) البيان المغرب ٢ / ٤٨ .

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٥٥، و(المسلمون في المغرب والأندلس) للدكتور محمد زيتون ص ٢٦٧ .

(٦) الخطة بالأندلس: الوظيفة الكبيرة .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وجعـل لهم بيتًـا رفيـعًا فـيه، فكانوا يتكلمـون في الرأي، ويتشـاورون في النوازل، ويناقـشون أمور المملـكة، ويفحص معـهم الرأي[1]. فالوزارة لـها مناصب متعددة، والحاجب هو رئيـسـها الذي يتصل بالخليفة. ويلاحظ أن في هذا التعدد ميزة في الأندلس، فكل مـجال له وزيره المختص، فهو أقرب إلى النظام الحالي، وهو أمر لم تعرفه الوزارة في المشرق[2].

وكذلك توزعت وظائف الأمن الداخلي علـى عدة اختصاصـات، مثل: صاحب السـوق (وهو المحتسب فيـما بعد، وكان يراقب الأسـواق، ويبحث مشاكل التموين)، وصاحب المدينة: يشـرف على مرافق المدينة العامة (ويقابله المجلس المحلي اليـوم)، وصاحب الشـرطة العليا: فيـعني بأمن عليـة القوم، وصاحب الشرطة السفلى: فيعني بعامة الناس[3].

٥- من الناحية الاقتصادية:

ضرب عبد الرحمن الأوسط نقودًا بالأندلس مـستقلة ثابتة، بعد أن كانت قبله نادرة (دراهم برونزية، وفـضية بسيطة). وكـانت العملة الذهبية - فـيما مضى- قليلة التداول، ومـضروبة كلها في المشرق، أو شمالي أفـريقيا، وكان البيع والشراء قائمًا على المقايضة (تبادل السلع والبضائع)[4].

وبالنسبة للمنشآت العمرانية، فقد عُني عبد الرحمن الداخل بذلك، ففي أيامه بدأ عمران قـرطبة، وأنشئ الجزء الأول من مسجدها الجامع قـبالة قصر الإمارة على مساحة فسيحة واسعـة، وإلى جانبه قصور صغيرة لأهل بيته، ثم أحاطهـا كلها بالحدائق الجمـيلة، وبنى حولها سوراً. وقـد أتم ابنه هشام بناء المسجد الجامع بقرطبة بعد ذلك.

---

(١) المقتبس (تحقيق: د. محمود مكي) ص ٢٩ .

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور العبادي ص ١٦٠ .

(٣) في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور العبادي ص ١٦١ .

(٤) المرجع السابق، للدكتور العبادي ص ١٦١- ١٦٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عنى عبد الرحمن الداخل بإنشاء قصور الإدارة ناحية ضفة الوادي الكبير، وفتح بابًا في السور في الشارع بين النهر والسور سمى باب (السدة)؛ لمواجهته سدة، جعلوها في مجرى النهر؛ ليرتفع مستوى الماء، فيحرك ساقية كبيرة، أقيمت قرب الشاطئ لرفع الماء من النهر، وتوصيله داخل المدينة. وكان باب السدة مفتوحًا للناس، فهو يفضي إلى مكاتب الدولة التي زادت وزاد موظفوها. ولما زادت دواوين الدولة، تحولت الجهة القبلية من قصور الإمارة إلى مركز إداري للدولة في قرطبة .

وتوجد بين (الربض) وقرطبة قنطرة حجرية (قنطرة الوادي)، بناها الرومان أصلاً، وجددها العرب مرات، وكانت من نزهات الأندلسيين المشهورة، إذ كانت مقامة على النهر واسعة، قائمة على أرجل (أعمدة في النهر)، وكانت عامرة بالحركة. هذا إلى جانب قصور البادية التي أنشأها الداخل ولمن معه بعيداً عن المدن(١) .

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط انتشرت حركة العمران، فأسس المسجد الجامع في إشبيلية، وآخر في جيان، وزاد في المسجد الجامع بقرطبة كثيراً نحو المحراب جنوبًا(٢) . وأنشأ مدينة مرسية سنة ٢١٦هـ في كورة تدمير على الساحل الشرقي، وتحولت من قرية خاملة إلى قاعدة للكورة ثم سميت بها. وأقام في قرطبة على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير طريقًا ساحليًا (كورنيشًا)، عُرف بالرصيف سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧هـ(٣) .

وعلى مستوى النفقات، فقد امتاز عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن بالاعتدال في النفقات، بعيداً عن البذخ والترف(٤) .

---

(١) معالم: ص ٢٦٦ - ٢٦٧ . (٢) البيان المغرب ٢ / ٢٣٠ .

(٣) في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور العبادي، ص ١٦٢ .

(٤) المسلمون في المغرب والأندلس للدكتور زيتون ص ٣١٣ .

وبالنسبة للإنشاءات العسكرية، فقد اهتم الداخل بإنشاء منازل للجند وللقواد في مكان يسمى (فحص السرادق)، وهو عبارة عن أرض فضاء واسعة قريبة من قرطبة، يطل عليها من الشمال (قصر الرصافة)[1].

وبخصوص الاهتمام بإنشاء الأساطيل البحرية، فقد كان الاعتماد في البداية على دور الصناعة القديمة المنتشرة على السواحل، مثل: طرطوشة، ودانية، وبَجّانة، والجزيرة الخضراء، وإشبيلية، وغيرها. وكانت خامات صناعة السفن متوفرة بالأندلس من الخشب والحديد وغيرهما. وقد تم الاعتماد على اليمنيين القضاعيين الماهرين في ذلك المجال، وأسندت لهم مهمة حفظ المناطق الساحلية الشرقية (وكانت بجانة أهم قاعدة لهم)، وكذلك اعتمد على جماعات بحرية من المولدين والبربر والمستعربين[2].

٦- من المظاهر الاجتماعية والثقافية:

تكون المجتمع الأندلسي في تلك الفترة من العرب المشاركين في الفتح. وكانت الروح القبلية متأصلة فيهم منذ البداية، ووقعت منهم ثورات على الحكم الأموي. وإذا كانت الرئاسة والزعامة فيهم، فإن نسبتهم لم تكن غالبة في المجتمع الأندلسي. والطبقة المتميزة تقل على الأيام، إلى جانب أن الهجرة لشبه الجزيرة منهم لم تكن غزيرة، وتوقفت - تقريبًا - منذ القرن الثالث الهجري.

وهناك طائفة الموالي، التي كانت تشد أزر الأمويين في البداية، وظهر منهم النابهون والقادة والزعماء ذوو المناصب، مثل: بني مغيث، وبني شُهيد، وبني عبدة، وبني جَهْوَر. وهناك الصقالبة الذين جلبهم الداخل، ثم

(١) معالم: ص ٢٦٧ .

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور العبادي ص ١٤٢-١٤٣ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

سيتضخم نفوذهم أيام الناصر، وكان بنو أمية يفضلون اصطناع هؤلاء الموالي، ويستفيدون منهم.

وهناك عنصر البربر، الذي ساهم بأكبر قسط في فتح الأندلس، ومعاركه وغزواته؛ إذ مثلوا - في الغالب- أغلبية تلك الجيوش المحاربة، وإن كانت القيادة للعرب. وعلى كل، فقد كانت هجراتهم إلى الأندلس أسرع، وكانوا أكثر كثافة من العرب؛ لقرب الأندلس من بلاد المغرب، ولشعورهم أنهم العمود الفقري للفتح، ولآمالهم في الإقامة هناك، إلى جانب اصطناع الأمويين لهم، واسترابتهم في العرب. وستزيد تلك الهجرات في عهد المنصور بعد ذلك.

ويوجد - أيضًا - عنصر المولدين، وهؤلاء هم الذين أسلموا من القوط والإسبان منذ بدايات الفتح، وصاروا جزءاً من نسيج المجتمع الإسلامي مع كل من العرب والبربر، واندمجوا فيه بعد جيل أو جيلين من الفتح. وقد عرف هؤلاء في الإسبانية بالخوارج والمرتدين Renegados عن النصرانية. وعُرفوا - كذلك - بـ (المسالمة)، أو (الأسالمة)، أو (أسالمة أهل الذمة) متى كان إسلامهم حديثًا. وهذه الطائفة كانوا أغلبية في المجتمع .

وهناك المستعربون (النصارى المعاهدون Mozarabes)، وهم الذين احتفظوا بدينهم، وعاشوا في المناطق المفتوحة تحت الحكم الإسلامي، ومنهم أقليات كبيرة في طليطلة وقرطبة وغيرها.

وأخيراً، يأتي عنصر اليهود، وقد ساعدوا المسلمين في فتح الأندلس؛ لتعرضهم لاضطهادات شديدة على يد القوط. وقد قاموا بدور جيد في حفظ المدن المفتوحة وإدارتها. ومنهم أقليات في معظم المدن الأندلسية، ازداد نفوذها بعد ذلك(١).

---

(١) راجع تفاصيل المجتمع الأندلسي وعناصره في (دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول) ص ٢٠٣ - ٢٠٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ومن الواضح أن الشعب الأندلسي مهتم بالسياسة، ولا يحتمل أو يصبر على الأذى طويلاً، بخلاف المشارقة، فالأندلسيون ينتقدون حكامهم، ويتحدونهم، ويشهرون بهم في كل مكان. ولم يفهم بنو أمية عنهم ذلك، فسلكوا بهم طرق القهر والعنف[١]. وكانت سياسة المسلمين للمستعربين سياسة اعتدال ومهادنة، وكان لهم زعيم (القومس) يقيم بجوار الأمير في قرطبة، حيث يستشيره الأمير في بعض الأمور[٢]. وقد سالم الداخل نصارى الشمال؛ لانشغاله بالثورات الداخلية[٣].

وهكذا لم يكن الفتح مجرد احتلال عسكري، وإنما امتزاج حضارات رومانية قوطية إسلامية، فنتجت عن ذلك حضارة أندلسية مزدهرة متأثرة بحضارة الشام ومؤثرات الشرق، خاصة عهد عبد الرحمن الأوسط، الذي فتح أبواب الأندلس للتجارة وللبضائع العراقية كالملابس وأدوات الزينة، إلى جانب الدور الذي لعبه زرياب (علي بن نافع) ومؤثراته الموسيقية والحضارية العراقية من طعام وشراب وملابس، وزينة[٤].

وبخصوص الجوانب الفكرية والثقافية، فإن أهل الأندلس تأثروا- في سياق تأثرهم العام بالشام- بالمذهب الأوزاعي (ت ١٥٧هـ) الفقيه الشامي، المرابط في بيروت، الذي يغلب على مذهبه التشريعات الحربية، وأحكام الجهاد بما يناسب الأندلسيين في البداية. ولعله انتقل إليهم عن طريق قاضي إلبيرة في عهد الداخل (أسد بن عبد الرحمن السبائي، الذي كان حيًا سنة ١٥٠هـ)[٥]. ثم أقبل الأندلسيون على مذهب الإمام مالك (ت ١٧٩هـ) دون أبي حنيفة (ت ١٥٠هـ)؛ لأن عقليتهم تغلب عليها نزعة أهل الحديث في التفكير ومعظم

---

(١) معالم: ص ٢٧٥ .

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٦١ .

(٣) دولة الإسلام في الأندلس (العصر الأول- القسم الأول) ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٤) النفح ٢ / ٣٤٤ .

(٥) تاريخ ابن الفرضي ١ / ٩٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

طلاب العلم الأندلسيين كانوا يفدون إلى المدينة؛ للتلقي على مذهب مالك، الذي كان معجبًا بالأمير (هشام بن عبد الرحمن)، الذي في عهده انتشر المذهب المالكي بالأندلس، وغدا المذهب الرسمي للدولة، بالإضافة إلى وجود جند حجازي ممثل في طالعة موسى بن نصير، إلى جانب المنتمين إلى مذهب مالك من أهل الشام ومصر في طالعة بلج بن بشر. أما العنصر العراقي فلم يكن ممثلاً، علاوة على استقلال الأندلس عن الخلافة العباسية التي تدين بالمذهب الحنفي، مما أضعف انتشاره في الأندلس(١).

وممن نقل المذهب المالكي على أيديهم إلى الأندلس زياد بن عبد الرحمن (ت٢٠٤هـ)(٢) يحيى بن يحيى الليثي (ت٢٣٤هـ)(٣). وقد وجد إلى جانب ذلك بعض المنتسبين إلى المذهب الظاهري، الذي يأخذ بظواهر نصوص القرآن والحديث(٤).

لم يكن الاهتمام الثقافي والفكري محصوراً في الفقه؛ لأن عهد عبد الرحمن الأوسط شهد اهتمامًا واسعًا بالثقافات المختلفة؛ إذ كان له شغف بالعلوم والفنون والآداب، بحيث لا يفوقه في ذلك سوى الخليفة المستنصر الأموي كما سنرى بعدُ.

وقد كان بلاط الأوسط حافلاً بالعلماء والشعراء والمغنيين (مثل: عباس ابن فرناس المختص بالطيران والفلك والكيمياء، والشاعر يحيى الغزال، والمغني زرياب)(٥).

---

(١) في تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٩ وبعدها.

(٢) سمع من مالك الموطأ، ورفض ولاية القضاء في عهد الحكم بن هشام، فأمنه وأعجب به. (تاريخ ابن الفرضي ١ / ١٨٣).

(٣) سمع موطأ مالك، وكان ممن اتهم في هيج الربض أيام الحكم بن هشام، فهرب إلى طليطلة، فأمنه الحكم. (المصدر السابق ٢ / ١٧٦-١٧٨).

(٤) في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور العبادي ص ١٢٤.

(٥) المرجع السابق: ص ١٦٣-١٦٤.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

أما علم التاريخ، فقد كانت الروايات الأندلسية في البداية تعتمد في رواية أحداث الفتح على المؤرخين المصريين الأوائل، مثل: يزيد بن أبي حبيب (ت١٢٨هـ). وعبد الله بن لهيعة (ت١٧٤هـ)، والليث بن سعد (ت١٧٥هـ)، وعثمان بن صالح (ت٢٢٤هـ)، وابن عُفير (ت٢٢٦هـ)، وابن بكير (ت٢٣١هـ). ثم بدأ الأندلسيون في الاستقلال بأنفسهم، وظهر منهم مؤرخون، يأتي على رأسهم عبد الملك بن حبيب المؤرخ والفقيه (ت٢٣٨هـ)، الذي ترك كتابًا، يتناول فيه (بدء الخلق، والخلفاء حتى الوليد، وأخبار الفتوحات الأندلسية)[١]. إلى جانب عدد آخر من علماء الأندلس، الذين وردت عنهم روايات تاريخية أندلسية، مثل: (يحيى بن إبراهيم بن مُزَين (ت٢٥٩هـ / ٨٧٣م)، ومحمد بن موسى الرازي (ت ٢٧٣هـ) وله كتاب (الرايات)، وتميم ابن عامر (ت ٢٨٣هـ) الذي له أرجوزة مشهورة في فتح الأندلس[٢].

ثانيًا: فترة النضج والأزدهار (٣٠٠-٣٩٩هـ / ٩١٢-١٠٠٨م):

أولاً: الأوضاع السياسية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

انتهت الفترة السابقة بحكم الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥هـ - ٣٠٠هـ)، وخلال فترة حكمه التي بلغت ربع قرن لم يهدأ للأمير عبد الله بال، ولم يقَرّ له قرار؛ ذلك أنه ورث تركة ثقيلة في حكم البلاد. لقد تتابعت طوال عهده المحن والثورات، وتغلب الخارجون على مختلف الجهات بالأندلس[٣]، حتى أتى على الأمير وقت، كانت فيه خيول عمر بن حَفْصُون

(١) بحث (التاريخ الأندلسي- تدوينه ومروياته حتى نهاية القرن الثالث الهجري) للدكتور عبد الله جمال الدين ص٤٣ - ٤٤ .

(٢) السابق: ص ٦٩ - ٧٥ .

(٣) أعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٢٧-٢٨، و(في تاريخ المغرب والأندلس) للدكتور أحمد مختار العبادي ص ١٦٨-١٦٩ (ذكر الدويلات المستقلة بالأندلس قبيل الناصر من بربر، وعرب وغيرهم).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

زعيم الثوار غادية ورائحة بجوار قرطبة وضواحيها، تتهدد قصر الأمير نفسه كل حين[١].

وبالرغم مما حل بالأندلس خلال عهده؛ نتيجة تراكمات عهود سابقة، وعدم قدرة الأمير على تدارك الأمر، إلا أنه امتاز بالثبات العظيم في مواجهة الثورات والضربات المتوالية[٢]، ونجح في إنزال الهزيمة بابن حفصون، وظل حتى أواخر عهده يرسل الصوائف ضد الخارجين[٣]، على قلة في الموارد، وضعف في الإمكانات، وندرة في النصراء.

هيأت الأقدار الأمير عبد الرحمن الثالث[٤] حفيد الأمير عبد الله، لإنقاذ الأمة الأندلسية من التردي والضياع. لقد ولي حكم البلاد والأعداء متربصون به من كل جانب، وكان عليه أن يتوج كفاح جده، فيعيد الوحدة للبلاد، والهيبة للأمويين، فينقذ الأندلس من نفسها، ويتفرغ لنصارى الشمال المحدقين بها.

الأمير عبد الرحمن الثالث وتوحيد الجبهة الداخلية:

حدد عبد الرحمن الثالث أعداءه جيداً، وسلك الطرق العملية الموصلة إلى القضاء على هؤلاء الأعداء، واحداً تلو الآخر. ومن أوائل المناطق التي أخضعها الأمير عبد الرحمن لسلطانه (إشبيلية)[٥]. وكان بنو حجاج قد

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٣ .

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور حسين مؤنس ص ٣٠٦ .

(٣) منها صائفته إلى (ببشتر) معقل ابن حفصون الحصين، وكذلك إلى غيره من الخارجين سنة ٢٩٩هـ (المقتبس - طبعة العربي) ص ١٦٨- ١٦٩ .

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) . أهلته كفاءته أن يلي بعد جده، وكان عمره يوم قُتل أبوه يومًا، أو عشرين يومًا. وكفله جده وأحسن تنشئته للمهمة الثقيلة التي تنتظره . ولد حوالي ٢٧٧هـ، وولي ٣٠٠هـ، وتوفي ٣٥٠ بعدما نجح في توحيد الأندلس، والقضاء على الأعداء في الداخل والخارج . (أخبار مجموعة ص ١٣٥ - ١٤١، والبيان المغرب ٢ / ١٥٦ وبعدها).

(٥) مدينة كبيرة عامرة حصينة ذات أسوار، وأسواق كثيرة. أهلها مياسير، وجُلّ تجاراتهم الزيت.=

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

استقلوا بالأمر هناك[1]. وبعد وفاة (إبراهيم بن حجاج سنة ٢٨٨هـ)[2]، وولي ابنه عبد الرحمن حتى توفي سنة ٣٠١هـ. فلما مات اجتمع أهل إشبيلية على تولية (أحمد بن مسلمة)؛ مما دفع (محمد بن إبراهيم بن حجاج) إلى مخالفته، والاتصال بالأمير عبد الرحمن الثالث، الذي بعث جيوشه لمحاربة ابن مسلمة، وأمر محمد بن إبراهيم بن حجاج بالتضييق على أهل إشبيلية، وعقد له مع قاسم بن الوليد صاحب شرطة الأمير لإتمام هذه المهمة. فلما حوصر ابن مسلمة، استغاث بجيوش عمر بن حفصون، التي أغاثته بالفعل، لكن جيوش الأخير هُزمت، واضطر إلى الفرار من المعركة. هنا قلب ابن مسلمة الأمر على وجوهه، وعلم أن لا طاقة له بالحرب، وأصلح ما بينه وبين الأمير عبدالرحمن مقابل أن يوليه إشبيلية.

وبذلك دخلت قوات الناصر هناك دون قتال. لم يعجب هذا الأمر محمد ابن إبراهيم بن حجاج، واعتدى على بعض أغنام لأهل قرطبة، وهو في طريقه إلى قَرْمُونَة[3]، ولم يرفع الحصار عن إشبيلية كما أمر بذلك، بل سار من قرمونة إلى إشبيلية مهاجماً إياها. هنا أرسل الأمير عبد الرحمن مزيداً من

= هواؤها طيب، وبها شجرة الزيتون، وسائر الفواكه. تفوق غيرها من نواحي الأندلس بزراعة القطن وتصدره للمغرب وبقية مدن الأندلس، وتقع على النهر الكبير (نهر قرطبة)، وتسمى حمص الشام؛ لنزول أهل حمص من المشرق بها (نزهة المشتاق للإدريسي ١ / ٢٣٩، ٢ / ٥٤١، ورحلة ابن جبير ٢٣٢ - ٢٣٣ . ووصف الأندلس لابن الشباط ١٣٨- ١٣٩، ١٦٤)).

(١) كان بيت بني الحجاج بيت رياسة وشرف بإشبيلية، وقد استبدوا بالأمر دون بني أمية، وكان إبراهيم بن حجاج زعيمهم، فخالف الأمير عبد الله، ثم هادنه على أن يوليه بلده، ولا يعرض له. فجبى الأموال، وأخضع الرجال، وتبسط على الأمير عبد الله، حتى ساء ما بينهما، فحدث الخلاف والتحالف مع ابن حفصون (البيان المغرب ٢ / ١٢٥-١٢٩، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٣٤-٣٥ .

(٢) البيان المغرب ٢ / ١٢٩ وأعمال الأعلام ٣٥ .

(٣) جاء في معجم البلدان ٤ / ٣٧٥: هي كورة بالأندلس، يتصل عملها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي إشبيلية، قديمة البنيان، عصت الأمير عبد الرحمن بن محمد، فخربها بجنده وفتحها، ثم عادت إلى بعض ما كانت عليه .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

القوات لتأمين إشبيلية، ومازال يتودد إلى محمد بن إبراهيم بن حجاج وبلاينه، حتى عاد إلى الطاعة والجماعة. ثم أنزله الأمير قُرْطبة[1]، على أن يترك نائبًا عنه في قرمونة، وأحسن الأمير إليه وإلى من معه وأكرمهم ووصلهم، بل ولاه الوزارة من حينه، حتى وقع ما أغضب الأمير عليه فحبسه وعزله[2]، ثم أطلقه، فمات بعدها بقليل في شهر شوال سنة ٣٠٢هـ[3]. وبذلك انقضت أيام بني حجاج الثائرين بإشبيلية.

من الثوار الذين عُني الأمير عبد الرحمن بالقضاء على ثورتهم عمر بن حفصون وأولاده من بعده. وقد كان عمر قد حل به الضعف في عهد عبد الرحمن، ورأى أن يسالم الأمير، فأمنه، وكتب له عهدًا ولعقبه من بعده ما وَفوا، وارتهن عنده عبد الرحمن بن عمر بن حفصون؛ لضمان تنفيذ الاتفاق. ولكن الأمر اختلف بعد موت ابن حفصون سنة ٣٠٥هـ[4]، إذ عاود بنوه نكث العهد، وشق عصا الطاعة، وقطع الطرق، والاعتداء على الآمنين، لكن الأمير عبد الرحمن وجيوشه كانوا لهم بالمرصاد، حتى وفاة حفص آخرهم بعد سنة ٣٢٠هـ[5]. بعد أن نجح الخليفة عبد الرحمن الناصر

---

(١) هي أعظم مدن الأندلس، وهي قاعدة الأندلس، وأم المدائن، ومستقر الخلافة، ودار الإمارة، بينها وبين الساحل خمس ليال، وآثار بني أمية بها ظاهرة، وبها الجامع المشهور. وهي حصينة بسور من حجارة، ومبانيها متصلة من الشرق والشمال، ومساكن العامة في ربضها، وأكثر ركوب أهلها البغلات (نزهة المشتاق ٢ / ٥٧٤-٥٧٥، وفرحة الأنفس لابن غالب ص ٣٦).

(٢) ابن حيان في (المقتبس) ٥ / ٨٣ - ٨٤ .

(٣) تراجع التفاصيل في: المقتبس ٥ / ٦٩ وما بعدها، والبيان المغرب ٢ / ١٢٩-١٣١ .

(٤) المقتبس لابن حيان ٥ / ١٣٨ .

(٥) تعاقب بعد وفاة عمر بن حفصون بنوه: جعفر، ثم سليمان، ثم حفص. وقد حاصرتهم قوات الناصر في قلعتهم الحصينة (بُبشتر) التي مات بها أبوهم في (كورة رية)، وقاد الناصر الحملات بنفسه سنة ٣٠٨هـ، ٣١١هـ، ثم أوفد قائده الوزير عبد الحميد بن بسيل سنة ٣١٤هـ (بسبب القحط)، وأنزل بهم ضربات موجعة، وماتوا واحدًا بعد الآخر، ولم ينخدع الناصر بطلبهم الأمان؛ لتعدد نكثهم وخيانتهم، خاصة بعد التأكد من ارتدادهم، ودفن أبيهم عمر، وأخيهم سليمان على النصرانية (المقتبس ٥ / ١٦٨-١٦٩، ١٨٤- ١٨٥، ٢٠٤-٢٠٦، ٢٠٩- ٢١٢ . والبيان المغرب ٢ / ١٨٠ - ١٨٤، ١٩٢-١٩٧) .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

في افتتاح مدائن غربي الأندلس[1] سمت همته لفتح مدينة طليطلة[2]. ورأى الناصر- قبل أن يرسل إليها الجيوش- أن يقدم الإعذار والإنذار أولاً؛ كي يقطع على أهلها وقادتها الحجة، فأرسل إليهم وفداً من أكابر الفقهاء والشخصيات[3]، داعين إياهم إلى الطاعة والجماعة. فلما تبين له خداعهم، خرج إليهم بالجيوش سنة ٣١٨هـ، وقد أعمل فكره وعقله وخبرته في تشديد الحصار على طليطلة ومن بها[4]. وفي سنة ٣١٩هـ واصل إرسال قادته وجيوشه إلى هناك؛ لمزيد من تشديد الحصار[5].

وفي سنة ٣٢٠هـ خرج الناصر بنفسه يغزو تلك المدينة الحصينة للمرة الثانية. وقد حاول أهلها وقادتها الاستنجاد بالنصارى في الشمال، لكن قوات الناصر تصدت لهم، وأجبرتهم على الفرار؛ مما دفع قائد وأمير طليطلة (ثعلبة ابن محمد بن عبد الوارث) إلى طلب الأمان، فأمنه الناصر، وعفا عنه. فامتثل أهل طليطلة فعله، فأمّن الناصر الجميع، وهدم ما رأى هدمه من المدينة، وأعاد تجديد ما رآه، وترك فيها من القوات والقادة ما يضمن حسن السيطرة عليها[6].

تعد غزوة الخليفة الناصر لسَرَقُسْطة[7] سنة ٣٢٥هـ، وما تبعها من

---

(١) مثل: باجة، وأكشونبه، ومَاردة، وبَطليوْس، وشَنْتَرين. وذلك سنة ٣١٧هـ (المقتبس ٥ / ٢٤٥- ٢٨٠).

(٢) هي أم المعاقل، وقاعدة المدائن منذ الملوك الأوائل، وليس في الجزيرة أمنع منها. وأهلها أخلاط من العرب، والبربر، والموالي. وبها نهر عظيم (تاجه)، وأهلها خارجون عن الطاعة، ولا يدفعون لبني أمية جباية. كانت عاصمة الروم، ووجد بها المسلمون كنوزاً هائلة. بها فواكه وبساتين عديمة المثال (نزهة المشتاق ٢ / ٥٥١-٥٥٢، ووصف الأندلس لابن الشباط ص ١٤٨).

(٣) من أكابر الفقهاء: محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن عبد الله بن أبي عيسى.

(٤) البيان المغرب ٢ / ٢٠٢-٢٠٣، والمقتبس ٥ / ٢٨٠ - ٢٨٤.

(٥) البيان المغرب ٢ / ٢٠٤، والمقتبس ٥ / ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٦) المقتبس ٥ / ٣١٧ - ٣٢٢.

(٧) بلدة مشهورة بالأندلس، تتصل أعمالها بأعمال تطيلة، ذات فواكه عذبة، ولها فضل على سائر فواكه الأندلس، وتقع على نهر كبير، وتنتج الثياب والمنسوجات الرقيقة الراقية، وتشتهر بالملح الأبيض الصافي. (معجم البلدان ٣ / ٣٤٠، ووصف الأندلس لابن الشباط ص ١٥٠).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

استئمان صاحبها (محمد بن هاشم التجيبي) سنة ٣٢٦هـ[١] أعظم برهان على ما يمتلكه الناصر وجيوشه وقادته من قدرات فائقة على الحرب والتدبير، والحصار الطويل، وإرغام العدو - في النهاية - على الانصياع للطاعة، والاستسلام للجماعة[٢].

وهكذا، نجح الناصر بهذه المعارك التي خاضها، وبغيرها[٣]، وبإجادته فن الحصار واستنزال القواد وتأمينهم، في توحيد البلاد تحت رايته.

علاقات الناصر مع نصارى الشمال:

لم يكن حرص الناصر على إخضاع كافة الثائرين لسلطان بني أمية بالأندلس نابعًا من فراغ، وإنما كان عملاً له ما وراءه من مواجهة اعتداءات نصارى الشمال، وكف ترويع الآمنين في مناطق الثغور خاصة، وإبراز هيبة المسلمين كعامل مهم يردع به أطماع ممالك الشمال المسيحية[٤]. ومن هنا، فإن توالي انتصارات الناصر الداخلية، وحسن قيادة جيوشه، وحسن التصرف مع شعبه ومع الثائرين عليه لدرجة أنه نجح في استقطابهم وضمهم إلى صفوفه، كل ذلك حرم أعداء الشمال من تأييد حكام الثغور، وإذا نجح في تحقيق ذلك كله، فإنه يعظم فرصة انتصاره على النصارى، وتحقيق أهدافه حيالهم[٥].

---

(١) نص الأمان في (المقتبس) ٥ / ٤٠٥ - ٤٠٧ .

(٢) المقتبس ٥ / ٣٥٧ - ٣٦٥ ، ٣٩٣ - ٣٩٩ .

(٣) مثل: فتح إلبيرة (٣٠٠هـ). (السابق ٥ / ٦٦)، وفتح القائد أحمد بن محمد بن إلياس ماردة صلحًا ٣١٦هـ (السابق ٥ / ٢٣٨ وبعدها). وقبل ذلك إخضاع بني ذي النون بكورة شَنْتَبَرية ٣١٢هـ (السابق ٥ / ١٩٥-١٩٦).

(٤) وهي ممالك: ليون، ونبره (نافار)، وقشتالة. (حول التعريف بها، وبظروفها الداخلية التي أثرت في علاقاتها بالمسلمين في الأندلس يراجع كتاب الدكتور رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية) ص ١٩٣- ٢١٠ .

(٥) ويمكن مطالعة أخبار بعض حروب الناصر ضد نصارى الشمال سنوات: ٣٠٨، ٣١٢، ٣٢٧هـ (ضد نصارى جليقية، والبشكنس، وجموع النصرانية من الجلالقة في موقعة الخندق) في: (المقتبس ٥ / ١٥٩ - ١٦٨، ١٨٩ - ١٩٥، والبيان المغرب ٢ / ١٨٤ - ١٨٩، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٣٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

علاقة الناصر بالمغرب:

ونعني بذلك موقفه من العبيديين المناوئين لأهل السنة، وموقفهم منه. ولاشك أن العداء الشديد متبادل بين الطرفين؛ نظرًا لاختلاف المذهب من جهة، ولتناقض المصالح من جهة أخرى، وقد بذل كلا الطرفين ما في وسعه- في ضوء ظروفه الداخلية وعلاقاته الخارجية- للسيطرة على الآخر، بل لتقليص نفوذه في مناطق سيادته؛ توطئة للقضاء عليه. لقد تطلع العبيديون للسيطرة على المغرب الأوسط والأقصى؛ تمهيدًا للعبور إلى بلاد الأندلس ونشر التشيع بها. وفي الوقت نفسه أحس الناصر- منذ ادعاء العبيديين الخلافة- خطورتهم الشديدة، وتهديدهم القوي لدولته خاصة، وهم يمتلكون أسطولاً بحريًا قويًا، يستطيعون به العبور إلى الأندلس.

ويمكن تحديد المعالم العامة لسياسة الناصر في بلاد المغرب في النقاط الآتية:

١- قطع الصلة بين العبيديين بالمغرب، وثوار الأندلس (خاصة عمر بن حفصون)(١).

٢- استغلال الصراع القائم ببلاد المغرب بين صنهاجة وكتامة الموالين للعبيدين من جهة، وبن زَنَاتَة المعادين لهم من جهة أخرى، إذ قام الناصر بتأييد زناتة، ومدها بما تحتاج إليه من سلاح وعتاد؛ لزعزعة استقرار العبيديين بالمغرب(٢).

٣- إعلان الناصر قيام الخلافة الأموية بالأندلس في ذي الحجة سنة ٣١٦هـ، ونصب نفسه أميرًا للمؤمنين(٣) متحديًا بذلك بني عبيد، مهددًا نفوذهم.

---

(١) البيان المغرب ٢ / ١٦٥، وتاريخ البحرية في المغرب والأندلس للدكتور سيد سالم، والدكتور مختار العبادي ص ١٧٤ .

(٢) البيان المغرب ١ / ١٨٠ .

(٣) المقتبس ٥ / ٢٤١ - ٢٤٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٤- الترحيب بكافة الخارجين على طاعة العبيديين، وتقديم الرعاية لهم في الأندلس[١]، وإرسال الجيوش الأندلسية التي تمكنت من ضم سَبْتة[٢]، وطنجة[٣]؛ مما ساعد على التحكم في الشواطئ القريبة من الأندلس، ومنع الأسطول العبيدي من الهجوم على الأندلس.

وبعد، فقد وفق الخليفة الناصر في إدارة شئون الأندلس (داخليًا، وخارجيًا) رغم قسوة وصعوبة الظروف، التي ولي فيها أمور البلاد، ولعل من أفضل من عبر عن منجزات الناصر بصدق مُنذر بن سعيد القاضي في خطبة له بين يديه؛ إذ يقول: «ألم تكن الدماءُ مسفوكة فحقنها، والسبلُ مَخُوفَةً فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها، والبلاد خرابًا فعمرها، والثغور مُهتضمة فحماها ونصرها؟»[٤].

وبالنظر والتأمل في عوامل نجاح الناصر، يمكن رصد الخطوط العامة لسياسته كما يلي:

١- تقديم الاهتمام بالأولويات دون التشاغل بتوافه الأمور، التي يمكن أن يقوم بها سواه: فاهتم بشأن الثغور وحمايتها، وتأمين أهلها وحل مشكلاتهم، واستشارة ذوي الخبرة فيما يصلح لهم.

٢- حسن تنظيم الدولة، والتدقيق في اختيار المسئولين والوزراء والقواد: فحظيت الأندلس في عهده بنظم إدارية راقية[٥]. وكانت له سياسة في كثرة

---

(١) البيان المغرب ١ / ١٧٥.

(٢) السابق ١ / ١٨٨.

(٣) الاستقصا ١ / ١٧٨.

(٤) تاريخ الإسلام، للذهبي ٢٦ / ١٣٤.

(٥) يمكن معرفتها من خلال كتاب (نظم وإدارة بني أمية بالأندلس) للدكتور التهامي الراجي ص ٢٨ وبعدها.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

تغيير الوزراء، ونقلهم من وظائفهم كل عام تقريبًا[1]، كما كان يحسن توزيع الأعمال على وزرائه؛ حتى يتم تصريف شئون الرعية، والتسهيل على الناس[2]. وكان شديد الحرص على تحقيق العدل في البلاد، فاهتم بخطة المظالم[3]، وبتولية القضاة وتوجيههم[4].

٣- سياسته مع المتمردين والثائرين: العفو خلة أصيلة في الناصر[5]. وقد أحسن عندما ولي الأندلس وقام بإصدار عهود أمان لكافة الخارجين عند استسلامهم، على أن يعودوا إلى الطاعة والجماعة[6]. وكانت سياسته مع المعاندين منهم تقوم على الإرهاب وإظهار القوة، والمحاصرة للقلاع والحصون فترة طويلة، حتى يستسلم الثوار، ويطلبوا الأمان، فيمنحهم إياه، وينزلهم بجواره في قرطبة مكرمين، حتى ينصلح حالهم، فيستفيد منهم في حروبه وغزواته، ثم يوليهم بلادهم بعد الاطمئنان إلى إخلاصهم، فهي سياسة تتراوح بين الشدة واللين الحذر، الذي يحفظ للدولة هيبتها، ويحقق بالسلم ربما ما يمكن الاستغناء به عن الحرب[7]. والناصر خلال ذلك كله لا يقف مدافعًا عما بقي تحت سلطانه كما فعل جده عبد الله[8] بل كان بشخصيته وعزمه، وعلمه بسوء حال شعوب الثائرين، يجبرهم على الاستسلام والانقياد له[9]، حتى بسط

(١) فلعله أراد عدم استئثار أحد بسلطة دونه، فهو يريد جمع كل السلطات في يده، وعدم إعطاء فرصة للخروج عليه، أو للتبسط معه. (شيوخ العصر في الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ٦٢-٦٣، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٢٣-٣٢٥).

(٢) البيان ٢ / ٢٢٠ .

(٣) تاريخ القضاء في الأندلس للدكتور خلاف ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(٤) تراجع بعض توجيهاته لقضاته في (قضاة قرطبة - طبعة الكتاب المصري اللبناني) ص ٢٣٢-٢٣٣ .

(٥) البيان ٢ / ٢٠٦ .

(٦) المقتبس ٥ / ٥٥ ، ٥٨ وغيرها، والبيان ٢ / ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٧) النقود الإسلامية (الكتاب الثاني) د. طاهر راغب ص ٨٨ - ٨٩ .

(٨) دكتوراه (الحياة العلمية في قرطبة)، لمصطفى محمد إبراهيم ص ٥٧ .

(٩) موسوعة التاريخ الإسلامي ٤ / ٥٣ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

نفوذه على كافة النواحي. وقد يؤخذ عليه قسوته أحيانًا[1]، ونعتقد أنها كانت في ظروف استثنائية، وفي أمور لا تهاون فيها ولا تسامح من وجهة نظره.

٤- حسن متابعته تنفيذ توجيهاته: فقد كان يهتم بمصالح أهل الكُوَر والثغور والحصون التي يفتحها، فينظم شئونها، ويأمر بتعميرها، وإصلاح ما خرب منها، ثم يعود بعد فترة - بصورة مفاجئة - في زيارات ميدانية، أو عند العود من إحدى الغزوات الأخرى، فيشرف بنفسه على تنفيذ ما أمر به من قبل[2].

٥- موضوعيته واتزان علاقاته الخارجية: أيقن الناصر أنه لا سبيل إلى القضاء على العبيديين بالمغرب، فقام بالممكن ممثلاً في إثارة القلاقل، وإمداد الثائرين عليهم بصفة دائمة، بحيث تنشغل الدولة العبيدية عن التفكير في ضرب الأندلس، بالإضافة إلى السيطرة على أهم المدن المغربية، التي تعد مفاتيح دخول الأندلس (سبتة، وطنجة)، وإعداد أسطول ضخم مستعد للدفاع عن الشواطئ الأندلسية. وبالنسبة للنصارى في الشمال فهو وإن لم يستأصل شأفتهم، إلا أنه نجح في إلحاق عدة هزائم بهم، وأظهر لهم من القوة والهيبة ما جعلهم يتورعون عن الاعتداء على الثغور الأندلسية، ووصل الأمر - في النهاية - إلى وجود سفارات، ووفود تأتي إلى قرطبة بالهدايا والرسل والكتب، تخطب ود الناصر، وتلح في السلم والمصالحة[3]، فاستجاب لهم مع الحذر من غدرهم وعدوانهم.

---

(١) مثل: (المغرب - قسم الأندلس - ١ / ١٨٦، والبيان ٢ / ٢١٧).

(٢) يراجع في مثل ذلك ما يختص بـ (بيشتر) سنة ٣٠٨ (البيان ٢ / ١٧٩ - ١٨٠، وسنة ٣١٧هـ (المقتبس) ٥ / ٢٥٠. وكذا ما يتعلق بـ (سرقسطة) سنة ٣١٦هـ، ٣٢٦هـ في (المصدر السابق) ٥ / ٢١٥، ٤١٩.

(٣) تراجع السفارات الوافدة على الناصر من قبل ملوك القسطنطينية، والصقالبة، والجلالقة، وبرشلونة وغيرهم في سنوات ٣٢٣هـ، ٣٢٤هـ، ٣٣٤هـ، ٣٣٨، ٣٤٢هـ في: (السابق ٥ / ٣٦٥- ٣٦٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٤٤٩ - ٤٥٠، ٤٥٤، والبيان ٢ / ٢١٣، ٢١٥- ٢١٦، ٢١٨، والنفح ١ / ٣٦٤- ٣٦٦، وأزهار الرياض ٢ / ٢٥٨ وبعدها).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الخليفة الحكم المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م)(١):

توفي والده الخليفة الناصر بعد عمر مديد بلغ ثلاثًا وسبعين سنة، بعد أن قضى في حكم الأندلس ما يزيد على نصف قرن، حقق خلالها إنجازات طيبة على المستوى الداخلي والخارجي على سواء. وعلى الرغم مما عيب على الناصر من حكم مطلق، إلا أنه أحسن إعداد ولي عهده الحكم، ودربه على تحمل مسئوليات الحكم، والنهوض بأعبائه الضخمة. ولا شك أن طول عمر الناصر أعطى الفرصة كاملة لنضج شخصية الحكم، وتراكم خبراته، وبالإضافة إلى ذلك، فقد تسلم بعد وفاة والده دولة مستقرة قوية مهيبة الجانب موحدة، ومن هنا، فإن عهد المستنصر يعد امتدادًا لعهد أبيه وجني لثمرات كفاحه الطويل، وعلى الجملة، فقد كانت سياسة الابن كأبيه، فلم يغب إلا شخصه(٢).

وأحب أن أبين الملامح العامة لسياسة المستنصر الداخلية مركزة فيما يلي:

١- **حرصه الشديد على إقامة شرع الله بين رعيته:** فقد تطلع المستنصر إلى القضاء على الخمر نهائيًا في الأندلس، وأمر بإراقتها، وتشدد في ذلك، حتى استشار المقربين منه في استئصال شجرة العنب من كافة جهات الأندلس، لكنه توقف عن ذلك لما قيل له: إنها يمكن عملها من التين وغيره(٣).

٢- **اهتمامه بأحوال رعيته وتفقده لها:** وسلك في سبيل ذلك طرقًا عدة، منها: الاهتمام بإقامة العدل بين الناس، فهو يستشير الثقات من أهل العلم والخبرة قبل تولية المناصب، ويهتم بتوجيه قضاته للحكم بالعدل، وإعطاء كل

(١) له ترجمة في: الحلة السيراء ١ / ٢٠٠ - ٢٠٥، والمغرب (قسم الأندلس) ١ / ١٨٦- ١٨٧، والنفح ١ / ٣٨٢- ٣٨٦.

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٨٢، وأزهار الرياض ٢ / ٢٨٦.

(٣) جذوة المقتبس ١ / ٤٣، والبغية ١٨.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ذي حق حقه[1]. وكان يرسم لعماله ولولاته منهج الحكم الصحيح، الذي يجب أن يتوخوه في مهامهم الموكلة إليهم[2]. وكان يرقب عماله، ويتابع سيرتهم في رعيتهم، وذلك عن طريقين: إما أن يرسل من لدنه مندوبين يسألون أهل كل إقليم عن أحوالهم، ويعرفون منهم رأيهم في عمالهم، ويلمسون بأنفسهم رضا الناس أو سخطهم على معايشهم وحياتهم[3]، وإما أن يستدعي وفود الولايات والكور إلى حضرته بقرطبة، وهي وفود تضم العمال، وممثلي عامة الناس، ويستمع من العمال إلى تقارير عن كورهم، ويسأل الطرف الآخر عن مدى صدق ما رُفع إليه، فإن صدقوا عاملهم كافأه، وإن كذبوه عاقبه[4].

٣- الهدوء والرفق: وهذه سمة بارزة في عهده فلم نقرأ - فيما قرأنا- عن ثورة ثائر، أو اضطراب إقليم، أو خروج عن الطاعة. لقد مر عهده في أمن وسلام، وسكينة واطمئنان، ولعل مرد هذا يرجع إلى جهود أبيه الناصر من قبل وإلى صفتي: التسامح، والرفق، اللتين يتحلى بهما المستنصر.

والآن، أحاول تركيز العنصر الثاني والأخير في سياسة المستنصر، وهو علاقاته الخارجية، على النحو الآتي:

١- موقفه من المغرب:

أ- استمرار النفوذ الأموي الأندلسي في المغرب في بدايات عهد المستنصر كما كان أيام الناصر، وزاد الاهتمام بمدينة سبتة، فبُني حولها سور سنة ٣٥١هـ[5]، وأسقط الضرائب عن أهلها سنة ٣٥٣هـ[6].

(١) تراجع توجيهاته الصادرة في ظهير (مرسوم) ولايته للقاضي محمد بن إسحاق بن السليم. (تاريخ قضاة الأندلس) للنباهي. وقد انتصف لشاعر ضُرب ظلمًا من عامل مُرسية (الذيل والصلة) للمراكشي، السفر الخامس، القسم الأول ص ٢٤٠-٢٤٢)، وكان يهتم بالمظالم (تاريخ القضاة في الأندلس) للدكتور خلاف ص ٨٢- ٨٤، ٥٥٠ .

(٢) كفعله مع عامله على شطر كورة رية . (المقتبس، طبعة الحجي) ص ٧٧ - ٧٨ .

(٣) السابق ص ١٠٠ .

(٤) المصدر السابق: ص ٥٧ ، ١٥١ - ١٥٢ .

(٥) البيان المغرب ١ / ٢٧٧ .

(٦) السابق .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ب- استكمال المستنصر تحصينات ثغر المرية المتاخم للسواحل المغربية؛ لمواجهة أي هجوم عبيدي محتمل، وذلك سنة ٣٥٣هـ[(١)].

جـ- استمرار المستنصر استقبال وفود المغرب المبايعة له المعادية للعبيدين[(٢)].

٢- موقفه من نصارى الشمال:

أ- واجه المستنصر نكث الجلالقة بعهودهم عقب وفاة الناصر، فرد جيوشهم التي طمعت في اجتياح ثغور المسلمين، وضرب بلاده بنفسه سنة ٣٥١هـ[(٣)]، وسنة ٣٥٢هـ[(٤)].

ب- رغم أحداث الغدر والنكث المتوالية[(٥)] من جانب النصارى في الشمال، إلا أن المستنصر لم يغلق الباب أمام المصالحة معهم، فظل يستقبل وفودهم ورسلهم وسفراءهم، ويجدد المعاهدات معهم[(٦)]، بل حكموه فيما شجر بينهم من خلافات، وسارعوا إليه؛ ليحوزوا رضاه وتأييده[(٧)].

وهكذا، مضى عهد المستنصر الأموي بالأندلس، وبقي أن نذكر بعض الملاحظات النقدية، التي وجهت إليه، وكان لبعضها آثار بعيدة المدى في عدم استقرار الأندلس، وهي كما يلي:

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٢٣٦ .

(٢) يراجع في ذلك: المقتبس (ط. الحجي) ص ٢٦- ٢٧، ٣٢، ٨٠- ٨١ وبعدها، والبيان المغرب ٢ / ٢٤١-٢٤٣ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٣٥ .

(٤) السابق ٢ / ٢٣٦ .

(٥) كما حدث ذلك سنة ٣٦٣هـ (المقتبس - ط. الحجي) ص ١٨٨ - ١٨٩، وسنة ٣٦٤هـ (السابق ٢١٨ - ٢٢٢).

(٦) التفاصيل في المقتبس (ط. الحجي) ص ٢٠-٢٢، ١٣٨- ١٣٩، ١٨٢- ١٨٣، وتاريخ ابن خلدون ٤ / ١٨٦-١٨٧، والنفح ١ / ٣٨٤- ٣٨٦، وغيرها.

(٧) دولة الإسلام في الأندلس، لعنان ع١ ق٢ ص ٤٨٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

١- يذكر الدكتور حسين مؤنس[1]: أن المستنصر أسرف في الانصراف إلى العلم، وأن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي. ويرى أنه لو عَدَّلَ سلوكه نوعًا ما، فاكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به (قراءة، وتأليفًا، وتعليقًا)، ما ظهر أمثال ابن أبي عامر، ووجدوا لهم سبيلاً إلى السلطان.

والحق أن الوضع السياسي في عهد المستنصر كان مستقراً، وأحسن المستنصر في توزيع مهام الدولة على خيرة رجاله وقواده، وكان أخف استبداداً من أبيه الناصر. أما ظهور ابن أبي عامر وسيطرته على السلطة، فليس راجعًا إلى انشغال المستنصر بالعلم، وإنما إلى ضعف صحته واعتلاله أواخر حياته[2]؛ مما شجع على نمو نفوذ كبار رجالات الدولة، ومنهم ابن أبي عامر، الذي استطاع بكفاءته- أمام الحكم- التدرج السريع في المناصب. هذا إلي جانب عوامل أخرى، سنظهرها بعد قليل.

٢- أعطى الحكم لأمر العبيديين في المغرب اهتمامًا مبالغًا فيه، وظل مشغولاً بخطرهم حتى بعد رحيلهم إلى مصر واستقرارهم بها، وجنَّد كل إمكانات الدولة من جند وقادة وأساطيل وأموال، وحفلات استقبال ضخمة للمئات من رجالات البربر، ونفقات إسكانهم وإعاشتهم في قرطبة، وإرسال الهدايا إلى مناصريه هناك، كل ذلك لأجل أن يعلنوا الطاعة له، والدعاء على منابرهم. وكان يكفيه ما اكتفى به والده من حماية سواحل الأندلس، والاحتلال المستديم لسبتة وطنجة. ويبدو أن هناك أطرافًا مستفيدة من إعطاء صورة غير حقيقية لخطر العبيديين، فاكتسبت من ذلك جاهًا ونفوذًا ومناصب وأموالاً. ولا شك أن ذلك أثر في احتياجات الأمن والدفاع عن الثغور

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٣ .

(٢) المقتبس (ط. الحجي) ص ٢٠٣ وبعدها (سنة ٣٦٤هـ).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الشمالية، وكان الأولى توجيه وتكثيف جهوده إلى أولئك النصارى ناكثي العهود، وناقضي المواثيق[1]. ويضاف إلى ذلك أن الإكثار من اجتلاب هؤلاء البربر بجندهم إلى قرطبة، ومزاحمتهم أهلها، لم يعد على الأندلس بشيء، بل كلف خزائنها الكثير، وثبت بعد قليل عدم جدارة هؤلاء المجتلبين، وعدم إخلاصهم وولائهم للمستنصر؛ مما جعله ينزل بهم النكبات، ويخرجهم من الأندلس[2]، ويا ليته أخرج جميع البربر الوافدين من المغرب، إذاً لجنب البلاد مأساة ستقع بعد سنوات قليلة، فيها يتقابل البربر مع سكان قرطبة في الفتنة الكبرى، التي هدمت الخلافة الأموية بالأندلس[3].

٣- وأخيراً، دفعت عاطفة الأبوة الحكم المستنصر إلى الوقوع في خطأ قاتل، مال في ارتكابه إلى هواه، وعاطفته الشخصية، وهو ما لا يليق برجل دولة مشقف سياسي خبير محنك مثله. وذلك عندما عهد بالأمر من بعده لابنه الوحيد هشام الطفل الصغير[4]، مما عني فتح الباب لتدخل الأوصياء والطامعين من ذوي النفوذ مما أضعف من سلطة الخلافة، ومهّد الطريق إلى إحلال سلطة العامريين محلها، مما جرَّ على البلاد الويلات، وأنذر بأوخم العواقب، عندما خلت الساحة من القائد، الذي يستطيع إدارة الدولة .

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٣٥ - ٣٣٧ .

(٢) أساء جعفر ويحيى ابنا علي الأندلسي الأدب مع المستنصر، وأظهرا له من التبسط والجفاء ما لا يحتمل، فحبسهما، وبعد فترة أكرمهما، وأطلقهما، وسيرهما إلى بلاد المغرب ٣٦٣هـ (المقتبس، ط. الحجي) ص ١٧١-١٧٤ .

(٣) تنبه إلى هذه العواقب في تحليل علمي رائع ابن حيان في (المقتبس، ط. الحجي) ص ١٨٩ - ١٩٣ .

(٤) في سنة ٣٦٥هـ أعلن المستنصر عن أخذ البيعة لابنه هشام من الخاصة والعامة بسائر كور الأندلس وقرطبة، ومن في طاعته ببلاد المغرب. وهذا يعني: أنه بويع له وهو ابن ١١ سنة، وولي الخلافة وهو ابن ١٢ سنة. (البيان ٢ / ٢٤٩).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الأندلس بعد وفاة المستنصر:

توفى الخليفة الحكم المستنصر في الرابع من شهر صفر سنة ٣٦٦هـ[١]. وخلّف وراءه دولة قوية مستقرة في الداخل، مرهوبة الجانب في الخارج. وكانت في الأندلس بعض القوى ذات التطلعات المتباينة حول مستقبل الخلافة الأموية بالأندلس، منها: ولي عهد الحكم (ابنه هشام)، وأمه (صُبْح)، والحاجب (جعفر بن عثمان المصحفي)[٢]، وهؤلاء يريدون إنفاذ عهد الخليفة الراحل. وهناك الفتيان الصقالبة القائمون على شئون الحكم والقصر، وكانوا يرون تولية المغيرة بن الناصر[٣]. وهناك (ابن أبي عامر)[٤]، ذلك الرجل الكفء اللامع، ذو المواهب المتعددة، الذي حاز إعجاب وثقة الحكم، فتدرج في المناصب، حتى صار من المقربين إليه[٥]، وكان يتطلع إلى حكم الأندلس من خلال الوصاية على الخليفة الصغير (هشام المؤيد).

لقد أفلح ابن أبي عامر - بغض النظر عن مراعاة القيم والأخلاق- في

---

(١) البداية والنهاية ١١ / ٣٠٤، وأعمال الأعلام ٤٣ .

(٢) مؤدب الحكم في صغره، ولما ولي الخلافة استوزه، وجعله على كتابته الخاصة، وولاه الشرطة أيضًا، وأخدمه ابنه هشامًا. أشرف على أخذ البيعة لهشام المؤيد وحجبه. استطال عليه ابن أبي عامر؛ لعدم كفايته في الدفاع عن الثغور، وتغلب عليه بمساعدة صهره غالب القائد مولى الخليفة الناصر. قبض عليه ابن أبي عامر، وظل في محبسه حتى توفى سنة ٣٧٢هـ. (الجذوة ١ / ٢٨٩، والبغية ٢٥٧، والحلة السيراء ١ / ٢٥٧ - ٢٥٩).

(٣) البيان المغرب ٢ / ٢٦٠ .

(٤) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن أبي عامر. دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق بن زياد، وله أثر جميل في فتحها، ونزل الجزيرة الخضراء، فساد أهلها، وكثر عقبه بها. وكان والد المنصور من أهل الدين والعفاف والزهد. صحب الخليفة الحكم، وولي له الأعمال من القضاء وغيره، وصار في أهل الخدمة، ثم اختصه بخدمة أم ولده هشام، فاتصل بولي العهد، وعظمت منزلته عند الناس لقضاء الحاجات. تولى الحجابة بعد جهد كبير، واستبد بالأمر، وغزا النصارى، ودوخ بلادهم وجيوشهم حتى توفى سنة ٣٩٢هـ (البيان ٢ / ٢٥٦ وما بعدها، والإحاطة ٢ / ١٠٢ - ١٠٨).

(٥) يمكن مراجعة المناصب التي تقلدها أيام الحكم في : (المقتبس (ط. الحجي) ص ٤٣ - ٤٤ ، ٧٢، ١٢٣، ١٣٨، ١٦٩-١٧٠، والمعجب ٢٩-٣٠، والبيان ٢ / ٢٣٩).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

القضاء على كافة منافسيه، واستولى على الحكم في بلاد الأندلس دون منازع. ودون دخول في تفاصيل مؤلمة، نكتفي بإيراد عبارة جامعة تعبر عن مراحل بلوغه هدفه المأمول: «استعان - أولاً- بالمصحفي على الصقالبة[1]، ثم يغالب على المصحفي[2]، ثم بجعفر ممدوح ابن هانئ على غالب[3]، ثم بعبد الرحمن بن هاشم التُّجيبي على جعفر[4]، وعدا بنفسه على عبدالرحمن[5]، وقال للدهر: **هل من مبارز؟!**[6].

تحقق لابن أبي عامر أمله، واستطاع عزل الخليفة هشام المؤيد وحجبه عن إدارة شئون دولته، ومنعه من لقاء رعيته، ومن التصرف في أمواله[7]، واتخذ مجموعة من الإجراءات التي تهدف - في النهاية- إلى تركيز سلطات الدولة كلها في يديه، وتشكل - في مجموعها- الملامح العامة للسياسة الداخلية، وهي:

١- تمزيق الروابط بين أفراد القبائل العربية بالأندلس، فشتت شمل أفراد القبيلة الواحدة، بعد أن كانت كل قبيلة تمتاز بأفرادها وبمكان معين تقطنه،

---

(١) البيان المغرب ٢ / ٢٦٠ - ٢٦٤ .

(٢) أظهر ابن أبي عامر تخاذل المصحفي في الدفاع عن الثغور، وإنجاد أهلها، وقوى شوكة غالب وتزوج ابنته أسماء، ثم صرف المصحفي عن الحجابة سنة ٣٦٧هـ، وقبض عليه (السابق ٢ / ٢٦٥- ٢٧٠).

(٣) المقصود به: جعفر بن علي بن حمدون، الذي ولي المغرب مع أخيه يحيى من قبل المستنصر (السابق ٢ / ٢٧٨-٢٧٩).

(٤) ذكر ابن عذارى (المصدر السابق ٢ / ٢٧٩): أن الذي قتله بإيعاز من المنصور هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي فارس العرب مع طائفة من أصحابه الأندلسيين سنة ٣٧٠هـ، ثم قتله المنصور .

(٥) ظروف مقتل عبد الرحمن بن مطرف صاحب سرقسطة، الذي أغرى عبد الله بن المنصور بالقيام على والده سنة ٣٧٩هـ في (السابق ٢ / ٢٨٣- ٢٨٤).

(٦) المغرب (قسم الأندلس) ١ / ٢٠٢ .

(٧) الجمهرة لابن حزم ٩٢، وتاريخ الأندلس لابن الكَرْدَبوس ٦٢، والبيان ٢ / ٢٧٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وبراية تقاتل تحتها. وأحَلَّ محل ذلك أن يكون الولاء للقائد، وله شخصيًا في النهاية، فضمن بذلك إضعاف هذه القبائل، والقضاء على العصبية[1].

٢- إضعـاف شأن البيـوتات القرطبيـة ذات الأصول العـريقة بالأندلس، والتي كـانت تتوارث المـناصب والخطط (مثل: أسـرة بني حـدير، وابن أبي عبدة، وغـيرها)، فاستغنى عن كـفاءات رجالها، وخبرات قـادتها ووزرائها؛ خوفًا من ولائهم لبني أمية. وبذلك أضعف نفوذهم في سبيل تفرده بالسلطة، واستبداده بشئون الحكم[2].

٣- قضى على نفوذ العلـماء والفقهاء الروحي، وأضـعف مكانتهم أمام عامة الناس، فقلَّت قـيمتهم وانحط إجلالهم في عيونهم. لقـد جمعهم على بيعة هشام المؤيد[3]، ورغم مخالفـتها لشرط الإمامة، فـأظهرهم أمام الناس مشاركين في هذا الأمر، أو على الأقل اضطروا للموافـقة؛ تهاونًا وخوفًا[4]. وكان يتـدخل في أحكام القضاة أحـيانًا، فيسـيرها تبعًـا لهواه[5]، أو يتدخل لإصدار الفـتاوى التي يريدها من بعض الـعلماء[6]. وقد دفع ذلك الـبعض

---

(١) نفح الطيب ١ / ٢٩٣ .

(٢) مقدمة الدكتور محمود مكي لكتاب (المقتبس) لابن حيان ص ١٢٣ .

(٣) أورد ابن الخطيب أسمـاء الفقـهاء الذين شهدوا بيعة المؤيد بالخلافـة (أعمال الأعلام) ص ٤٨- ٥٧ .

(٤) شيوخ العصر في الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٧٤ وما بعدها.

(٥) كما في حالة الشاعر (قاسم بن محمـد القرشي المرواني) شاعر الدولة العامرية، الذي شهد عليه عند القضاة بما يوجب القتل، فسُجن، فكتب إلى المنصور قصيدة طويلة يستعطفه فيها، فخلصه. (جذوة المقتبس ٢ / ٥٢٥-٥٢٦).

(٦) فكان يتعـرض لأحكام القاضي مـحمد بن إسـحاق بن السليم (ت ٣٦٧هـ)، وينقض قـضاياه؛ حتى يجبره على تغـيير رأيه المعارض لتولية صبي كهـشام المؤيد، فاضطر ابن السليم إلى مداراته حتى توفي (ترتيب المدارك جـ٤ ص ٥٤٨- ٥٤٩، والقضاء في الأندلس، للدكتـور السيد محمد داود ص ١٨٩- ١٩٠).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

للتآمر ضده، لكن يقظته وعيونه المنبثة في كل مكان أحبطت كل تخطيط معادٍ له، ساعٍ إلى إقصائه عن السلطة[1].

٤- استطاع بشدته وصرامته أن يحفظ أمن الناس، وينشر الاستقرار في عهده[2]، وفي مقابل ذلك كان حريصًا على الارتقاء في الألقاب، وإحاطة نفسه بكل مظاهر الفخامة والوقار، فلقب بالمنصور[3]، وأمر أن يُخاطب بالملك في المكاتبات والمراسلات[4]، بل فكر جديًا في انتزاع لقب الخلافة، لكن عواقب ذلك دفعته إلى التراجع[5].

سار المنصور في علاقته بالمغرب مسير الناصر والمستنصر، وإن فاقهما في استجلاب جند البربر والاستعانة بهم في حروبه وغزواته. وقد استدعى المنصور جعفر بن علي بن حمدون المعروف بـ (ابن الأندلسي) من المغرب؛ ليستعين به على القائد (غالب)، فحضر ومعه ستمائة من خيرة جند البربر، فأكرمهم المنصور وأحسن إليهم، وتمكن بهم من القضاء على منافسه (غالب) سنة ٣٧٠هـ، وعلى طريقة المنصور المعهودة في الغدر، قتل جعفرًا بعد أن دعاه إلى مجلس أنس وشراب، فشرب حتى الثُّمالة وسكر، ثم وكل به من قتله في طريق منصرفه إلى داره، وذلك سنة ٣٧٢هـ[6].

(١) كانت عيون المنصور في كل مكان في دولته (أعمال الأعلام ٧٦ – ٧٧، وتاريخ قضاة الأندلس للنباهي ص ٨٠). ولاحظ إحباط مؤامرة استهدفت حياة هشام المؤيد، وبالتالي سلطان المنصور (الحلة السيراء ١ / ٢٧٩- ٢٨٠)، وفيها صلب عبد الملك بن المنذر ٣٦٧هـ .

(٢) نهاية الأرب ٢٣ / ٤٠٥ .

(٣) البيان المغرب ٢ / ٢٧٩ – ٢٨٠ (٣٧١هـ) .

(٤) السابق ٢ / ٢٩٤ (سنة ٣٨٦هـ) .

(٥) حول هذا الأمر يراجع: (نَقْط العروس لابن حزم ٧٧، ودولة الإسلام في الأندلس ع١، ق٢ ص٥٥٤).

(٦) الحلة السيراء ١ / ٣٠٦، والبيان المغرب ٢ / ٢٧٩ – ٢٨١، وتاريخ ابن خلدون ٤ / ١٠٩ . وقد جانب ابن خلكان الصواب لما جعل وفاة جعفر بالأندلس ٣٦٤هـ. (وفيات الأعيان ١ / ٣٦٠).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وفي سنة ٣٧٥هـ، جهز المنصور جيشًا كثيفًا، أرسله إلى المغرب؛ لمجابهة الحسن بن قَنُّون الشريف الحَسَني، الذي حاول الخروج عن الدعوة المروانية. وقد أراد المنصور بذلك أن يظهر أنه حامي حمى الخليفة هشام المؤيد، المحافظ على ممتلكاته بالمغرب، رغم أنه - في الحقيقة - يدافع عن نفوذه هو، فهو الآمر الناهي. وقد نجح الجيش في محاصرة ابن قنون، الذي لم يجد مفراً من الاستسلام، فأمنه قائد الجيش، لكن المنصور - على طريقته - خان العهد والميثاق، فأمان قائده أمانه، وأمر بقتله، وبتشريد أتباعه[1].

كانت للمنصور إستراتيجية جديدة، تختلف عمن سبقه من خلفاء بني أمية، إذ كان يهدف إلى القضاء الكامل والاستئصال التام لقوى الشمال النصرانية[2]. ولذلك وجدناه يواصل الغزو لها طوال سني حكمه، حتى بلغ اثنتين وخمسين غزوة[3]. وكان المنصور لا يُعَوِّل كثيراً على سفارات الصلح والمسالمة؛ لأنه يوقن أنها ستار يخفي وراءه استعدادات هائلة، لغزو بلاد المسلمين[4]. ولم يكن المنصور ينتظر حتى يهاجم نصارى الشمال الثغور الإسلامية، فيهب للدفاع عنها، أو يكتفي بِرُسوّ الأساطيل هناك؛ لمنع العدو من مجرد التفكير في الهجوم، وإنما كان يبدأ بالهجوم، ويغزو الأعداء في عقر دارهم، ويوسعها تدميراً وتخريباً[5]، وغزواته خير شاهد على منهجه،

(١) الحلة السيراء ١ / ٢٢٦، والبيان المغرب ٢ / ٢٨١ .

(٢) العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية للدكتور رجب عبد الحليم ص ١٦٥ .

(٣) النفح ١ / ٤٠٢، ومقدمة د. محمود مكي لديوان ابن دراج ص ٥٢ .

(٤) لقد اعتدوا على ثغور المسلمين بعد وفاة المستنصر، وخارت العزائم عن ردهم على أعقابهم إلا ابن أبي عامر، الذي غزا بلادهم ٣٦٦هـ، ٣٦٧ في ثلاث غزوات خلال عامين، مما ملكه جيوش الأندلس. (البيان ٢ / ٢٦٤-٢٦٧).

(٥) أعتقد أن التدمير والتخريب الذي كان يحدثه المنصور في غزواته للنصارى سلوك غير إسلامي، فقد ورد في توجيهات عمر لعمرو وجنده في فتح مصر: «لا تخربوا ولا تفسدوا، ولا تعرضوا لأهل قرى مصر ومنازلها» (المغرب - قسم مصر - ص ١٧).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

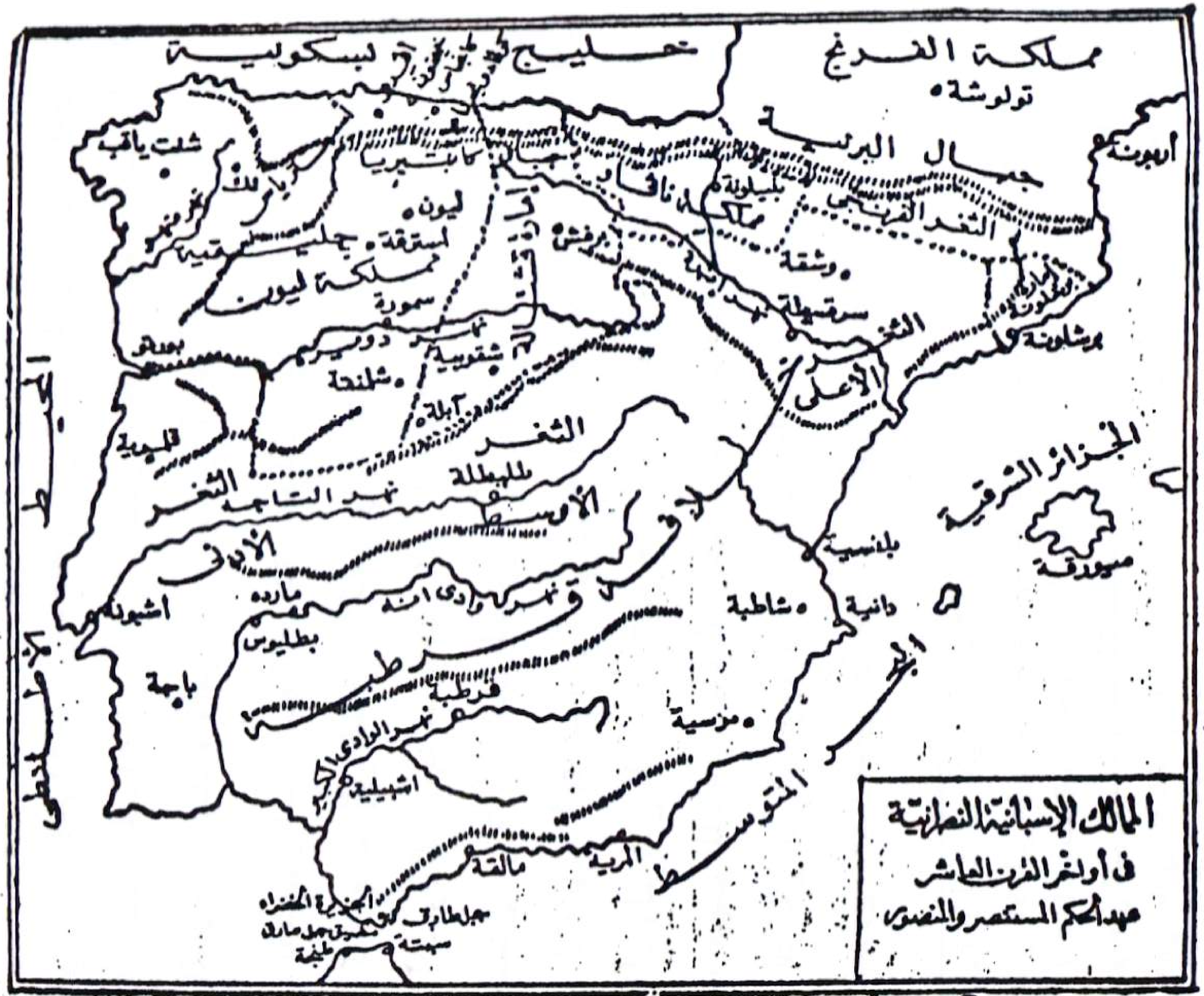

نقلاً عن: (دولة الإسلام في الأندلس) لمحمد عبد الله عنان ٢/ ٥٩٥.

الذي اتبعه في التعامل مع ممالك الشمال النصراني[١]. وظل المنصور على غرامه بجهاد النصارى، حتى أواخر أيامه، إذ وافته منتيه وهو عائد من إحدى غزواته قشتالة ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢هـ[٢].

ولي عبد الملك بن المنصور حجابة الخليفة هشام المؤيد بعد وفاة والده[٣]. وملخص أحداث ولايته ذات السنوات السبع تتمثل في نجاحه في ضبط الأمور داخل الأندلس، رغم ضعف مؤهلاته وإمكاناته بالقياس إلى والده[٤]. وقد أُخذ عليه انهماكه في الشراب والملذات[٥]، وتركه تصريف الدولة لغلمانه ووزيره عيسى بن سعيد بن القطاع، حتى انكشف أمامه مؤامراتهم ضده، فانتقم منهم[٦]، وأفاق إلى نفسه، ودبر شئون دولته، فحظي بحب الناس ورضائهم[٧]. وظل في علاقته بالخليفة هشام حريصًا على حجبه والاستبداد بالأمر دونه، رغم ثورة بعض الناس مطالبين بظهور الخليفة[٨]. وحصل عبدالملك بن المنصور على لقب المظفر[٩].

وبالنسبة للمغرب، فقد حرص على مخاطبة أمرائه الموالين للخلافة الأموية، وإجابته المعز بن زيري بتوليته على فاس والمغرب الأقصى[١٠].

---

(١) تفاصيل حروبه مع النصارى تراجع في: (البيان ٢ / ٢٩٤ - ٢٩٨، وأعمال الأعلام ٦٧-٧٣، وأزهار الرياض ٥ / ١٠٦-١٠٩).

(٢) الإحاطة ٢ / ١٠٧ .

(٣) وكان والده قد رشحه للحجابة من بعده سنة ٣٨١هـ . (البيان ٢ / ٢٩٣).

(٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ٦٦ .

(٥) البيان ٣ / ٣، وأعمال الأعلام ٨٤ .

(٦) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول ص ١٢٣ - ١٢٩، والمغرب (قسم الأندلس) جـ١ ص ٢١٣، والبيان ٣ / ٢٤ - ٢٩ .

(٧) المغرب (قسم الأندلس): ١ / ٢١٢ .

(٨) نهاية الأرب ٢٣ / ٤٠٧ .

(٩) البيان ٣ / ١٥ .

(١٠) أعمال الأعلام ٨٤، وتاريخ ابن خلدون ٧ / ٤٦-٤٧، وصبح الأعشى ٥ / ١٦٨- ١٨٦، والنفح ١ / ٤٢٣ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وبالنسبة لجهاد النصارى فقد واصل هجومه على ممالك النصارى الشمالية، مقتفيًا بذلك آثار والده، وظل في غزو بلادهم وتخريبها حتى عند اشتداد علته التي مات بها في صفر سنة ٣٩٩هـ(١).

ولي عبد الرحمن بن المنصور بعد وفاة أخيه عبد الملك، ولم تكن له أية مؤهلات للقيادة، بل إن المؤرخين يتهمونه بالفسق والمجون والخلاعة. وقد كان فتى غراً مغروراً دفعه جنون العظمة للضغط على الخليفة المحجوب المقهور، وهدده بالقتل، حتى أصدر مرسومًا بتوليته العهد من بعده(٢). هنا انقلب الناس- خاصتهم وعامتهم- على عبدالرحمن، وأظهروا له التأييد، بينما أبطنوا له الكراهية. وأراد تقليد أخيه في غزو بلاد النصارى، وفي أثناء ذلك وصلت إليه أنباء استيلاء محمد بن هشام عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على شئون الحكم، فأراد العود إلى قرطبة. وفي الطريق خذله جنده ورجاله، وانفضوا من حوله، حتى قُبض عليه، وتم قتله وصلبه في شهر رجب من سنة ٣٩٩هـ(٣).

ثانياً: مجمل الأوضاع الاقتصادية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

لعل جهود خلفاء بني أمية بالأندلس في مجال العمران في هذا القرن هي أبرز آثار حضارتهم الماثلة للعيان في زمنهم، والتي لا تزال بعض بقاياها شاهدة على عظمة منجزات هؤلاء القوم حتى العصر الحالي(٤). لقد أولع هؤلاء الخلفاء بكل مظاهر التشييد والعمران أيما إيلاع، حتى بلغوا في ذلك درجة من الإسراف، عرضهم لانتقادات بعض رجال زمانهم(٥)، وجعلهم في

---

(١) البيان ٣ / ٣٦-٣٧ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ٣٨-٣٩ ، وأعمال الأعلام ٩١-٩٣ (في ربيع الأول ٣٩٩هـ).

(٣) البيان ٣ / ٤٩-٥٠، وأعمال الأعلام ٩٦ - ٩٨ .

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامي، للدكتور شلبي ٤ / ٩٦-٩٧، ١٠٠-١٠١ .

(٥) مثل: قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلوطي. (المغرب - قسم الأندلس - ١ / ١٧٩- ١٨٠، وتاريخ قضاة الأندلس للنباهي ٧١ - ٧٢، وأزهار الرياض ٢ / ٢٨١- ٢٨٢).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عداد المسرفين في نظرنا، ونظر الباحثين الآخرين(١). لقد رأى الخليفة الناصر أن أبهة الملك تقتضي ما قام به من منشآت وتجديدات، وأن تخليد آثار الملوك من بعدهم إنما يكون بهذه الطريقة(٢). ومن هنا رأينا أكبر حركة عمران في عصره، الذي امتد أكثر من نصف قرن. لقد حظي المسجد الجامع بقرطبة بعمليات تجديد وتوسيعات متتالية؛ ليلائم النهضة الحضارية والعمرانية وكثرة عدد السكان بقرطبة عاصمة الخلافة. واستمر ذلك في عهد ابنه المستنصر من سنة ٣٥٤-٣٥٥هـ، فجددت منارته، وأبوابه، ومقصورته، ومنبره، وتضاعفت مساحته، وتم إجراء الماء العذب إليه في أنابيب، تحفظها من التلوث، وأنشئت دار الصدقة، لتكون مقراً لتوزيع الصدقات على الفقراء والمعوزين(٣). كما أنشئ مسجد آخر في عهد الحكم، استمر بناؤه خمس سنوات كاملة، واكتمل بناؤه سنة ٣٦٥هـ، وتكلف أموالاً طائلة(٤). وإذا كان الناس على دين ملوكهم، فقد كثرت المساجد جداً في قرطبة وغيرها(٥). وشرح ذلك الدكتور مؤنس بأن الناس - فيما يبدو- كانوا ينشئون زوايا صغيرة في بيوتهم، ويعدونها مساجد، وبكثرة عدد الدور، وانتشار حركة العمران ، بلغت هذه المساجد الصغيرة أعداداً هائلة(٦).

تطلبت مقتضيات التوسع العمراني، ثم أبهة الخلافة أن ينشئ الناصر

(١) انتقد ابن خلدون هذا المسلك بعامة (المقدمة ٢ / ٥٥٦، ٥٩٩-٦٠٠)، وانتقده من المعاصرين د. عبد الحليم عويس في (التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس) ص ٥-١٩، وقيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي للدكتور العمري ١ / ١٣٦-١٣٧ .

(٢) للناصر شعر مأثور، يدافع فيه عن وجهة نظره، ويعلل شغفه بالعمران (النفح ١ / ٥٢٠-٥٢١، ٥٧٥).

(٣) نزهة المشتاق ١ / ٣٥٩ - ٣٦٠، ٢ / ٥٧٥، والبيان (٢٤٨هـ) ٢ / ٢٢٩-٢٣١، ٢٤٠ (أحداث ٣٥٦هـ)، والنفح ١ / ٥٤٨ وما بعدها .

(٤) البيان ٢ / ٢٥٠ .

(٥) النفح ١ / ٥٤٠ .

(٦) معالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٢٧ .

عاصمة جديدة، تتسع طرقها وشوارعها لجيوشه الجرارة دون إيذاء عامة الناس. ومن هنا بدأ ينشئ مدينة الزهراء وجامعها[١]، وقصر الحكم، مع توصيل المياه العذبة إليه في مشروع ضخم. وقد بدئ في إنشاء هذه المدينة- بإشراف ولي العهد الحكم- أول المحرم سنة ٣٢٥هـ، واستوعب ذلك طوال عهد المستنصر تقريبًا، حين انتهى من بنائها سنة ٣٦٥هـ (أي: استغرقت حوالي أربعين عامًا)[٢]، ولنا أن نتصور بعد ذلك مقدار ما تكلفته من جهد ومال، وهو لون من الإسراف الممقوت. وفي عهد المنصور أنشأ مدينة الزاهرة على مقربة من جنوبي قرطبة سنة ٣٦٨هـ، وأنشأ بها مسجدًا وقصرًا، وجعلها مقر دواوين الحكم ومركزه، بينما كان المؤيد يتنقل بين قرطبة والزهراء[٣].

واهتم الناصر ببناء مدن ثغرية، تكون في مواجهة النصارى، وتكون شجي في حلوقهم، وتعمر بالمرابطة والسفن الحربية؛ لمواجهة الهجمات البحرية، فأقام مدينة المرية سنة ٣٤٤هـ[٤]، ومن قبل أعاد الناصر إحياء مدينة سالم سنة ٣٣٥هـ[٥].

ويُضاف إلى ما سبق من مظاهر العمران ما يتعلق ببناء الحصون والقلاع في مناطق الثغور[٦]، وتعمير المناطق المفتوحة بعد سقوطها في أيدي

---

(١) تم بناؤه ٣٢٩هـ (أزهار الرياض ٢ / ٢٦٦ . وتعريف الزهراء في (صورة الأرض ١٠٧، ومعجم البلدان ٣ / ١٨١) .

(٢) المغرب (قسم الأندلس) ١ / ١٨١ ، والبيان ٢ / ٢٣١، وأزهار الرياض ٢ / ٢٦٧، ٢٧١، والنفح ١ / ٥٢٣-٥٢٤، ٥٦٣- ٥٦٨ .

(٣) أزهار الرياض ٥ / ١١١ ، وبحث عنان عن (جغرافية الأندلس) في مجلة (تطوان) بالمغرب (العددان: ٣، ٤)، ١٩٥٨ / ١٩٥٩م، ص ٤١ .

(٤) تراجع أهميتها في: (تاريخ الجغرافية والجغرافيين بالأندلس) للدكتور مؤنس ص ٣٨٢، وتاريخ مدينة المرية للدكتور محمد أبي الفضل ص ٤٤-٤٥، ٥٦ .

(٥) صورة الأرض ١١٢ ، والبيان ٢ / ٢١٣-٢١٤ .

(٦) المقتبس ٥ / ٤٥٦ - ٤٥٧ (سنة ٣٢٨هـ) .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

المسلمين[١]. واهتم الخليفة المستنصر بتنظيم عمارة السوق، وتوسيع طريقها؛ تيسيرًا على الناس الصادرين والواردين[٢]، كما لمس الحكم بنفسه وهو في طريقه إلى دار الطراز تزاحم الناس في الطريق، وضيق المقابر، فاشترى دورًا كثيرة من أصحابها، وأمر بهدمها، وتوسعة الطريق[٣]. ساعد الاستقرار السياسي والأمن الداخلي في عهد خلفاء بني أمية على ازدهار مظاهر النشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة[٤]. ومن هنا، فقد ازدهرت الزراعة بالأندلس، وكثر الإنتاج خاصة عند هطول الأمطار بغزارة كافية[٥].

كما اهتم المستنصر بتنظيم عمليات الري، فأقام السدود والقناطر لتنظيم الاستفادة من مياه الأنهار[٦]، واستخدمت آلات الري المختلفة[٧]، وأثمر هذا كله زراعة جيدة لمختلف المحاصيل والفواكه التي تشتهر بها كثير من مدن الأندلس[٨]. وفي بعض السنوات كان القحط يعم البلاد[٩]؛ نتيجة منع القطر من السماء، فترتفع الأسعار مع قلة المحاصيل وندرتها، وهلاكها أحيانًا، مما كان يدفع الخلفاء إلى سد حاجات الناس، والإكثار من توزيع الأطعمة والصدقات على الناس[١٠]، لدرجة كانت تمنع الناصر من الخروج بنفسه في

---

(١) مثل: متابعة البناء في قلعة ببشتر ٣١٧هـ (البيان ٢ / ٢٠١).

(٢) المقتبس (ط. الحجي) ص ٦٧ - ٦٨، ٧٠-٧١ .

(٣) السابق ص ٩٢ .

(٤) ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري للدكتور عبد الحليم عويس ص ٢٨-٢٩ .

(٥) كما في سنة ٣٦١هـ (المقتبس، ط. الحجي) ص ٦٦، والنقود الإسلامية (الكتاب الثاني) للدكتور طاهر راغب ص ٩٣ .

(٦) أشرف المستنصر على هذا بنفسه، واستعجل إنجازه قبل حلول الشتاء (المقتبس، ط. الحجي ٥٨).

(٧) مثل: آلة تعرف بـ (السانية)، وهي كلمة أندلسية تقابل (الساقية). (الإحاطة ٢ / ٥٢ بالهامش).

(٨) النفح ١ / ٢٠٠ .

(٩) مثل: قحط سنة ٣٠٣هـ، ويُشبه بمجاعة ٢٦٠هـ. (المقتبس ٥ / ١٠٩- ١١٠). وفي سنة ٣١٧هـ ظهر القحط أيضًا (البيان ٢ / ١٩٩)، ومجاعة ٣٥٣هـ (السابق ٢ / ٢٣٦).

(١٠) السابق .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

غزواته المعتادة[1]؛ مشاركة للناس، وإشرافًا على توزيع الغذاء، وضبط أمور البلاد. وبخصوص الصناعة، فقد عمرت أرض الأندلس بالكثير من المعادن كالنحاس والذهب والفضة، والرخام الأبيض، فقام على ذلك العديد من الصناعات المعدنية والحربية[2]. وبرع الأندلسيون في صناعة السفن، وقاموا بإنشاء الأساطيل البحرية اللازمة للدفاع عن ثغور الأندلس[3]. وطبعي أن تروج التجارة بين مدن الأندلس، وأن تساعد ثغورها في تيسير حركة التبادل التجاري مع المغرب[4]، ومصر[5]، وممالك الشمال النصراني[6].

وعلى الجملة، فقد حظيت الأندلس ونعمت نتيجة الازدهار الاقتصادي بوفرة في الدخل، وارتفاع في إيرادات الدولة، فبلغ الخراج في قرى وكور الأندلس ٥ ملايين، و ٤٨٠ ألف دينار[7]، وكان الناصر يقسم تلك الجباية أثلاثًا: للجند، وللبناء والتعمير، وللادخار[8]. وكانت الدولة لا تتهاون في

---

(١) كما في قحط ٣١٤هـ (البيان ٢ / ١٩٢). (٢) النفح ١ / ٢٠٠- ٢٠٢ .

(٣) المقتبس ٥ / ٣٢٣ - ٣٢٤ (٣٢١هـ)، ط. الحجي ص ٢٣ - ٢٥، وتاريخ مدينة المرية، للدكتور أبي الفضل ٧٢-٧٤ .

(٤) كاستيراد سبائك الفضة الخالصة والديباج وغيرها من نفيس المتاع بأوسط الأسعار، واستفاد بتلك الصفقات تجار الأندلس، فاستوردوها من تجار جزيرة سردانية بالمحيط الأطلنطي (المقتبس ٥ / ٤٧٨ ، ٤٨٥ (٣٣٠هـ).

(٥) حيث وجدت منسوجات مصرية بأسواق الأندلس. وقد تعيد الأندلس تصديرها إلى أقاصي خراسان وغيرها. (صورة الأرض ١٠٥). وذكرت د. سعاد ماهر في (النسيج الإسلامي) ص ١٢٣-١٢٤ : أن نسيج الأندلس يشبه جدًا نسيج مصر، وقالت: توجد قطعة نسيج تعود إلى عصر المؤيد؛ مما يدل على وجود مصانع طراز بالأندلس، استقدمت نساجين من مصر للعمل بها .

(٦) حول العلاقات الاقتصادية مع تلك الممالك تراجع التفاصيل في كتاب: (العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية ص ٤٦٦ - ٤٧٦ (وذكر أن التبادل التجاري كان يتم على الحدود، وفي مناطق الثغور في المرية، وطرطوشة وغيرهما).

(٧) أزهار الرياض ٢ / ٢٧١ . ونقل ابن حوقل في (صورة الأرض) ص ١٠٧ : أنه سمع غير واحد من ثقات محصلي الخراج بالأندلس في عهد الناصر أن قيمة ما جمعه إلى سنة ٣٤٠هـ كانت ٢٠ مليون دينار إلا قليلاً بخلاف ما في خزائنه من حلي ومتاع ونحوه .

(٨) البيان المغرب ٢ / ٢٣١- ٢٣٢، وأزهار الرياض ٢ / ٢٧١ . وفي (تاريخ الأندلس) لابن الكردبوس ص ٥٩ : جعل بدل ثلث البناء (توزيع العطاء على الشعراء، والوافدين). وأرى أن ابن عذارى أرجح .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

جباية الخراج من مختلف أقاليمها[١]، فهو ضروري لبسط سيادتها، ووسيلة للوفاء بالتزاماتها، وقد تُفرض ضريبة خاصة عند غزو الجيوش سنويًا[٢]، ولكن ذلك لا يعني أنها تتعنت في جمع الخراج، أو تكلف الناس ما لا يطيقون، بل كان الخليفة يُعنف عماله إذا اشتطوا في استخراج الأموال من الرعية[٣]، وفي بعض المناسبات السارة كانوا يسقطون قدراً من الضرائب عن كاهل الناس[٤]، أو يسقطون ضريبة مستقلة لدى الناس؛ لتحقيق هدف سياسي[٥]، وقد شهد الرحالة ابن حوقل[٦]، الذي زار الأندلس في القرن الرابع الهجري بمدى ما تتمتع به هذه البلاد وأهلوها من الغنى والثراء، وما تمتلئ به أسواقهم من صنوف الأطعمة والفواكه وبأسعار رخيصة.

ومن ثم، نتوقع لعملة بلاد الأندلس الثبات والقوة الاقتصادية الحقيقية في ظل ذلك الرخاء الحقيقي على مستوى العامة والخاصة[٧]، وفي ظل إشراف الخلفاء على دور الضرب، وحرصهم على نقاء العملة وخلوص وزنها[٨]، ومعاقبة أي تلاعب في هذا الشأن[٩]. وامتد النفوذ الاقتصادي وراء السيطرة

(١) فالخليفة يرسل الجيوش لإجبار الخارجين على الوفاء بالخراج (المقتبس ٥ / ٤٨٦).

(٢) وهي ضريبة الحشد التي تُفرض على أصحاب الضياع في الريف، وتعطي لجيش الخليفة في غزواته (الحلة السيراء ٢ / ١٠ بالهامش).

(٣) البيان (٢ / ٢٣٩ - أحداث سنة ٣٥٦هـ).

(٤) مثل: إسقاط سدس المغارم عن الرعية؛ فرحًا بشفاء المستنصر (المقتبس، ط. الحجي أحداث ٣٦٤هـ) ص ٢٠٧ - ٢٠٨، والبيان ٢ / ٢٤٩ .

(٥) مثل: إسقاط ضريبة الزيتون على الزيت المستخرج منه بقرطبة، وكانت مستكرهة للناس. وقد سر الناس بإسقاط هشام المؤيد لها في صفر ٣٦٦هـ، ثم أشيع أن الذي أشار على الخليفة بذلك ابن أبي عامر، فأحبه الناس. (البيان ٢ / ٢٥٩).

(٦) صورة الأرض ١٠٩ وبعدها .

(٧) غنى الخاصة وثراؤهم الفاحش معروف، ومثاله: الهداية التي قدمها ابن شُهيد للناصر (أزهار الرياض ٢ / ٢٦٢- ٢٦٣).

(٨) البيان ٢ / ١٩٨ (٣١٦هـ)، والنقود الإسلامية (الكتاب الثاني) للدكتور طاهر راغب ص ١٢٧ .

(٩) عزل الناصر صاحب السكة عندما غش في وزن الدينار سنة ٣٣٠هـ (المقتبس ٥ / ٤٨٦ - ٤٨٧).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

السياسية والعسكرية للأندلس في بلاد المغرب، فضربت السكة باسم الخليفة المستنصر هناك[١].

ثالثاً: مجمل أوضاع الأندلس الاجتماعية في القرن الرابع الهجري:

استطاع الخليفة الأموي الناصر توحيد الجبهة الداخلية بالأندلس على تعدد وتنوع عناصرها[٢]، بحيث استفاد من الروابط التي تشد طبقات هذا المجتمع بعضها إلى بعض في أغلب الأحيان، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميز كالبيئة المشتركة، والثقافة المشتركة، والخلافة الواحدة، والسياسة الموحدة، والهدف الواحد الذي يجتمع عليه الكل، وهو بناء حضارة أندلسية رائعة، يسهم الجميع في إقامة صروحها، بغض النظر عن أصله وجنسه[٣].

يأتي على رأس عناصر المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة العنصر العربي، الذي ينتسب إليه الفاتحون، ودخل أفراده الأندلس ضمن الجيوش الإسلامية الفاتحة، واضطروا إلى التزاوج من الإسبانيات، فتكونت من هؤلاء وأولئك عن طريق المصاهرة سلالات جديدة، صارت أبرز عناصر المجتمع الأندلسي، وأهم مكوناته البشرية[٤]. وكانت للعرب مكانتهم في دولة بني أمية بالأندلس، وعانت شبه الجزيرة من صراعات القيسية واليمنية. ولما ولي الناصر استبدل بالعنصر العربي عنصراً جديداً هو (الصقالبة)[٥]، الذين استكثر منهم، فكان منهم الغلمان والخدام وفتيان القصور، بل اعتمد عليهم

---

(١) المقتبس (ط. الحجي) ص ١٨٢ (٣٦٣هـ).

(٢) تراجع: العناصر البشرية في المجتمع الأندلسي في: (الأدب الأندلسي، د. هكيل ٣٠-٣٣، ودولة الإسلام في الأندلس، عنان (ع١ ق٢ ص٥١٤ - ٥١٦، وظهر الإسلام لأحمد أمين ج٣ ص٢).

(٣) الأدب الأندلس، د. هيكل ٣١.

(٤) الأدب الأندلسي، د. هيكل ص ٣١ - ٣٢.

(٥) جمع صقلبي، وهم الروس غالبًا، وكانت بعض الشعوب الأوربية تبيعهم عبيداً للأندلسيين، وكانوا يُخصَون، ويعملون في خدمة القصور، حيث بلغ عددهم في مدينة الزهراء لحين وفاة الناصر (٣٧٥٠شخصًا). (النفح ١ / ٥٦٧، وفي تاريخ المغرب والأندلس) د. العبادي ص ٢١١ - ٢١٣.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

في بناء جيشه، فغدوا أهم عناصر الجيش، وبلغ إهمال العنصر العربي؛ نظراً لاستحكام العصبية القبلية في أفراده، بلغ أوجه في غزوة الخندق (٣٢٧هـ) التي أسند الناصر قيادة الجيش فيها إلى الصقالبة، مما أثار الجند العربي المشارك فيها، وتآمروا ضد الناصر، فكانت الهزيمة التي كاد الناصر يفقد حياته من جرائها. وقد نجح المنصور في القضاء على نفوذ الصقالبة، الذي كان قد تنامى وتزايد في عهد الحكم والمستنصر، واستحدث عنصراً جديداً، اعتمد عليه بدرجة كبيرة في تكوين جيوشه، وهو عنصر (البربر) الذي بدأ الاهتمام به في عهد المستنصر. وقد ترتب على الاستكثار من هذا العنصر تراجع مكانة العرب والصقالبة، وافتقاد الأندلسيين حاسة الجندية، فتضاءلت الروح الجهادية عندهم، وخمدت جذوة الحماس للغزو، فاستكانوا واستناموا إلى ذلك العنصر الحربي المحترف، الذي حقق به المنصور انتصاراته المدوية على نصارى الشمال، ثم انقلب إلى خطر ماحق، وشر مستطير في الفتنة، واصطدم مع أهل قرطبة الكارهين له، فكانت الكارثة[١].

ومن عناصر المجتمع الأندلسي أهل الذمة من اليهود والنصارى، وقد لقوا المسلمين كل عدل وإنصاف، وترك لهم الأمويون حرية إدارة شئونهم الدينية والإدارية[٢]، بل استعان الناصر بالنابهين من اليهود في بعض المهام الدبلوماسية[٣]. وهناك (المولدون)[٤] الذين هم المسلمون من أصل أسباني، وبعبارة أخرى: هم (مسلمو الإسبان). وكانوا يحتلون مكانة بين الطبقات

---

(١) بحث (المنصور بن أبي عامر: المستبد المستنصر) د. محمود مكي، مجلة العربي بالكويت، ع ٢٢٤ (يونيه ١٩٧٧م) ص ١٣٩ .

(٢) تاريخ النصارى في الأندلس، د. كحيلة ص ٨٤ وبعدها .

(٣) هو حسداي بن إسحاق الإسرائيلي الكاتب (راجع مهامه في المقتبس ٥ / ٤٥٤، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٣، سنوات ٣٢٨- ٣٣٠هـ).

(٤) وهؤلاء يختلفون عن (المستعربين) أي: الإسبان الذين عايشوا المسلمين في المجتمع الأندلسي مع بقائهم على دينهم، واتخذوا العربية لغة واتبعوا بعض تقاليد الإسلام، كالختان عادة وأسلوباً (هامش ١ ص٢٠، كتاب المقتبس من طبعة الحجي).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

المتوسطة والميسورة، وبينهم الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثروة. وعلى كل، فقد كان هؤلاء يعدون أقل مكانة من المسلمين الأصليين[1].

وأخيراً، فإن للمرأة في المجتمع الأندلسي تأثيراً لا يُستهان به، بعد أن أكثر المسلمون من الاقتران بالإسبانيات، مما أدى إلى تحول المجتمع بعد عدة أجيال إلى عناصر لاتينية، وبالتحديد إسبانية من جهة الأم[2]. ولاشك أن كثيرات منهم لم يكن مخلصات لأزواجهن، وربما عمل بعضهن جاسوسات لصالح نصارى الشمال. وقد وصل الأمر أن بلغ بعضهن مراكز حساسة في قصور الخلفاء، مثل: مرجان زوج الخليفة الناصر[3]، ذات الدلال والتأثير الكبير في هذا الخليفة العظيم، وكان ابنها الحكم أثيراً لديه دون سائر إخوته، وصار ولي العهد وخليفة من بعده. ونذكر من هؤلاء النساء (صبح) زوج الخليفة المستنصر، والدور الذي لعبته في حياة زوجها وبعد وفاته، وصلتها الوثيقة بابن أبي عامر حتى وصل إلى قمة السلطة في الأندلس، وصار حاجباً لابنها الصغير هشام المؤيد[4]، ثم تدهورت العلاقات بينهما بعد افتضاح نوايا المنصور في الاستبداد بالسلطة والحجر على الخليفة[5]. وكان من أسباب قتل المظفر بن المنصور وزيره عيسى بن سعيد عداوته للحُرَم (نساء القصر)[6].

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ع١ ق٢ ص٥١٤ - ٥١٥ ، د. كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس ٤٣ - ٤٤، وبحث (جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس) د. عمر بنميرة ص ٨ - ٩ (ندوة السعودية ١٩٩٣م).

(٢) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميللي (مترجم) ٣٣٨-٣٣٩، ٣٤١ .

(٣) يمكن معرفة مكانتها عند الناصر، ودلالها عليه، وكيف توصلت بأساليبها الناعمة المؤثرة إلى ذلك بمطالعة (المقتبس ٥ / ٧ وما بعدها، والنفح ١ / ٣٦٠ - ٣٦١).

(٤) حول صبح (الجارية النافارية الأصل)، وشغفها بابن أبي عامر، ومساعدتها منذ عهد المستنصر له، حتى وصل إلى ما وصل إليه. راجع: (البيان ٢ / ٢٣٩ ، ٢٨٠)، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ع١ ق٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥، ٥٣٦ - ٥٣٧ .

(٥) المغرب (قسم الأندلس ١ / ١٩٥، ودولة الإسلام في الأندلس ع١ ق٢ ص٥٣٧ . والظاهر أنها لم تستطع الوقوف أمام المنصور بعد أن سيطر الأخير على الأمور كلها، وسلب السلطة منها ومن ابنها، فاختفت أخبارها حتى سنة ٣٨٩هـ فيذكر لنا ابن الفرضي في (تاريخ العلماء والرواة) ١ / ٢١٠ : أنها توفيت في هذه السنة .

(٦) البيان ٣ / ٢٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وأخيرًا، فقد لعبت أم المظفر دورًا ملموسًا في الثورة على عبد الرحمن بن المنصور؛ لاتهامها إياه بدس السم لابنها[1]، تلك الثورة التي انتهت بمقتل عبدالرحمن، وضياع الخلافة الأموية بالأندلس.

والآن، نذكر - في اختصار شديد- **أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:**

١- **اعتزاز الأندلسيين بأنفسهم وببلادهم وبأزيائهم وعاداتهم: فالجاري** على ألسنة الناس دومًا هو أن يسموا كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليمًا، مثل: إقليم (مصر)، وإقليم (إفريقية)، وهكذا. أما أهل الأندلس خاصة، فمن شدة اعتدادهم بأنفسهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة في بلادهم إقليمًا، فيقول الأندلسي: أنا من إقليم كذا، أي: من بلدة كذا[2]. والفقراء منهم لا يعرفون السؤال، فهو أمر مستقبح عندهم إلى نهاية، فهم لا يعرفون ذلك الذل، ولا الكسل الذي يقعدهم عن الكد. وإذا رأوا شخصًا صحيحًا معافى يسأل الناس سبوه وأهانوه، فلا يوجد بالأندلس سائل إلا أن يكون صاحب عذر حقيقي[3]. وهم - في الغالب- لا يلبسون العمائم، وإذا رأوا أحدًا من الشرق يلبسها، يظهرون التعجب والاستظراف، ولا يقلدونه؛ لأنهم لم يستحسنوا غير أوضاعهم[4]. وقد اعتادوا النظافة الشديدة فيما يلبسون ويفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، ويقدمونه على طعامهم[5].

---

(١) البيان ٣ / ٥٢ ، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٥٢ وبعدها (تآمرت الذلفاء أم المظفر مع محمد بن هشام بن عبد الجبار ، للظفر بعبد الرحمن بن المنصور، وانتزاع الخلافة من هشام المؤيد).

(٢) معجم البلدان ١ / ٤٢ .

(٣) النفح ١ / ٢٢٠ ، ٢٢٣ .

(٤) السابق ٢٢٣ ، ولهذا كان تعديل عبد الرحمن بن المنصور أزياء رجال الدولة ذا أثر كبير في انحطاط مكانتهم لدى العامة، فانهالوا عليهم سخرية واستهزاء، وهو ذلك عليهم الثورة بعد ذلك (البيان ٣ / ٤٨).

(٥) النفح ١ / ٢٢٣

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢- الترف والنعيم المفضي إلى الترهل: وقد شجعهم على ذلك كثرة خيرات بلادهم، وتوفر طعامهم وغذائهم وفاكهتهم في كافة الأقاليم مع تنوع ذلك[١]، فاندفعوا يسرفون على أنفسهم في الطعام والشراب؛ مما أضعف عزائمهم، وقوض بنيان دولتهم[٢].

٣- تعدد مظاهر الاحتفالات[٣]، والمواكب[٤]، ومناسبات الجلوس والتهاني[٥]، ومجالس السمر والشراب، وما يترتب على ذلك من فساد ومجون[٦]، وذلك على مستوى الحكام وعلية القوم.

٤- على الرغم مما يشيع في المجتمع الأندلسي من مظاهر التراحم[٧]، والتمسك بأداء الشعائر[٨]، إلا أن هذه المعاني السامية لم تتغلغل في نفوس وقلوب عوام الناس (خاصة أهل قرطبة)[٩]، فاستجابوا لأول ناعق، وخربوا

---

(١) صورة الأرض ١٠٩ ، ووصف الأندلس لابن الشباط ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) يراجع بحث: (تهذيب المائدة في الأندلس)، لسهام الدبابي، المجلة العربية للثقافة، ع٢٧، السنة ١٤ (سبتمبر ١٩٩٤) ص ١٦٥ - ١٨٠ .

(٣) راجع: المقتبس ٥ / ٣٢٠-٣٢١ (٣٢٠هـ)، وترتيب المدارك ٢ / ٤ / ٤٢٩، ووفيات الأعيان ٧ / ٢٢٧ - ٢٢٨، وأزهار الرياض ٢ / ٢٨٢ وبعدها .

(٤) راجع: المقتبس (ط. الحجي) ص ٢٠٨، ٢١٢ - ٢١٣، ٢٢٣ ، والنفح ١ / ٤١٩ .

(٥) المقتبس (ط. الحجي) ص ٢٩ - ٣٠، ٥٩ - ٦٢، ٩٣ - ٩٥، ١٥٢ - ١٥٣، ١٨٤- ١٨٦، ٢٢٩ - ٢٣٣ .

(٦) (المغرب- قسم الأندلس) ١ / ١٨٤، ١٨٩، والبيان ٢ / ٢٨٩، ٣ / ٣٨ وبعدها، والنفح ٣ / ٢٤٤ .

(٧) كما في صدقات الناصر في قحط سنة ٣٠٣هـ (البيان ٢ / ١٦٨)، وصدقات المستنصر الكثيرة في رمضان (المقتبس ، طبعة الحجي ص ٢٢٦ ، ٢٣٣- ٢٣٤)، وإعتاق الرقاب بعد شفاء الحكم (السابق ٢٠٦، والبيان ٢ / ٢٤٨ - ٢٤٩)، ورعايته أولاد إخوته المتوفين (المقتبس، طبعة الحجي ص ٩٢)، واستجابة الناس لنداء خطيب الجمعة (القاضي محمد بن إسحاق بن السليم) بالتصدق على الفقراء سنة ٣٦٣هـ (السابق ١٤٩ - ١٥٠).

(٨) صورة الأرض ١١١ ، وأزهار الرياض ٢ / ٢٧٢ .

(٩) راجع مخازيهم ومعايبهم في : البيان ٣ / ٩٠ ، ومقدمة د. محمود مكي للمقتبس ص ١١٣ - ١١٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بأيديهم حضارة بلادهم، ومظاهر رقي مجتمعهم، الذي كان يبدو براقًا من الخارج، لكنه خواء من الداخل، كما سنرى ذلك في حديثنا عن (فترة الانهيار).

٥- يتصف عوام أهل الأندلس بصفات الغوغاء، الذين يُسَوّدون غير السيد، ويفضلون غير الفاضل، ويتشوقون إلى اللهو واللعب، ويحبون الاجتماع حول مضروب أو يقفون عند مصلوب. يصاح بهم فلا يرتدعون، لا ينكرون منكرًا، ولا يعرفون معروفًا. إذا اجتمعوا غلبوا، همج رعاع يتبعون كل ناعق[١]. وأهل الأندلس يتصفون بالحرص والحذر، وما يترتب على ذلك من قلق، يخفف منه ميلهم إلى الفكاهة[٢]، وطردهم للأحزان والآلام[٣]. وأخيرًا، فإن أهل الأندلس قوم ذوو خيلاء وغرور واعتداد بالنفس، وثورة لأتفه الأسباب. وكان عامة أهل قرطبة قومًا لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم[٤]، فخربوا ديارهم بأيديهم.

رابعًا: الخطوط العامة للثقافة في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

أولاً: القراءات: شهدت بلاد الأندلس اهتمامًا متزايدًا بالقرآن الكريم وإقرائه، وتلقين ذلك لطلاب العلم، ومن هؤلاء: أحمد بن عمر بن أبي الشعرى المقرئ القرطبي[٥]. كان أهل قرطبة يتلقون عليه الكتاب العزيز، وكان يكتب المصاحف، والناس يقبلون ويتنافسون على شرائها؛ لجودة خطه وجماله. توفى سنة ٣٥٠هـ. وهناك (أحمد بن حكم بن محمد العاملي

---

(١) مروج الذهب مجلد ٢ ص٣١-٣٢ .
(٢) النفح ٣ / ٣٨١ .
(٣) السابق: ٣ / ٤٤٠-٤٤١ (يلبسون البياض في الحزن، لا السواد كما يفعل المشارقة).
(٤) تفاصيل ذلك في فتنة البربر نهاية ق ٤هـ (البيان ٣ / ٩٠).
(٥) الصلة، لابن بشكوال (نشر الحسيني) ١ / ١١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

القرطبي)(١). كان من أهل العناية التامة بالقرآن، وتجويد تلاوته على أئمة المقرئين. ذكره القاضي (أحمد بن ذكوان) للمنصور بن أبي عامر، فرقاه في المناصب، حتى تقلد قضاء طليطلة، حتى توفى سنة ٣٩٠هـ. وكان الأندلسيون يرحلون إلى المشرق؛ لاستكمال معارفهم بالقراءات، فمثلاً رحل المقرئ (خلف بن قاسم بن سهل الأندلسي)(٢) إلى الرملة ومصر؛ لتلقي القراءات هناك، ثم رجع إلى الأندلس، وأقرأ بها وألف. ولد سنة ٣٢٥هـ، وتوفي سنة ٣٩٣هـ.

ثانيًا: التفسير: ممن اهتم بالتفسير إلى جانب القراءات بالأندلس المفسر (يحيى بن مجاهد الإلبيري)، وكانت له رحلة إلى مصر؛ لتلقي العلم. وكان لا نظير له زهداً وعبادة. توفى شهر جمادى الأولى ٣٦٦هـ(٣). وهناك (عبدالرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس)، وكان مشاركًا في سائر العلوم، وخلف بعده مكتبة ضخمة، وعدة مؤلفات، منها: أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وهما على قدر كبير من الأهمية لطالب التفسير. توفى سنة ٤٠٢هـ(٤).

ثالثًا: الحديث: كان للأندلسيين ولع بحديث رسول الله ﷺ، حفظًا، ورواية، ودرسًا. وعلى رأس محدثي الأندلس يأتي الإمام المحدث أبو محمد قاسم بن أصبغ البياني القرطبي(٥)، الذي كان مسند عصره، وحافظ بلده الأندلس. ورحل إلى المشرق، وسمع على أعلامه، ثم أتى إلى بلده، وطال

---

(١) الذيل والصلة للمراكشي، السفر الأول، القسم الأول ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) طبقات القراء، لابن الجزري ١ / ٢٧٢ .

(٣) طبقات المفسرين، للداودي ٢ / ٣٧٥ .

(٤) السابق ١ / ٢٨٥ - ٢٨٧ .

(٥) ترجم له: ابن الفرضي في: (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس) ١ / ٤٠٦ - ٤٠٨ ، والجذوة ٢ / ٥٢٦ - ٥٢٨ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عمره (٢٤٤-٣٤٠هـ)، حتى سمعت منه أجيال أندلسية متعاقبة. وكان مكثراً مصنفًا. من أهم مصنفاته: كتاب في السنة حسن، و(غرائب حديث مالك مما ليس في الموطأ)، و(المجتبى على أبواب المنتقى) لابن الجارود.

والمحدث الحافظ (خالد بن سعد القرطبي)(١): كان بصيراً بعلل الحديث، عالمًا بطرقه، مقدمًا على أهل زمانه في ذلك. وضع كتابًا للخليفة الحكم المستنصر في (رجال الأندلس). وكان المستنصر يقول: إذا فاخرنا أهل المشرق بـ (يحيى بن معين)، فاخرناهم بـ (خالد بن سعد)(٢). توفى سنة ٣٥٢هـ.

رابعًا: الفقه: كان للفقهاء الأندلسيين دور متميز فعال، وتأثير كبير في حياة المجتمع (العوام والخواص) في تلك الفترة التي ندرسها (خاصة قبل سيطرة المنصور على مقاليد الأمور). وكان المذهب المالكي الأوسع انتشاراً هناك؛ نظرًا لتبني الحكام له، ورضا الناس عنه. ومن فقهاء المالكية آنذاك: (أبو عبدالله محمد بن عمر بن لبابة القرطبي(٣)، الذي كان إمامًا في الفقه، بصيراً بالفتيا، حافظًا لآراء الفقهاء. توفى سنة ٣١٤هـ. وهناك الفقيه (محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة القرطبي)(٤): كان يحفظ الفقه على مذهب مالك وأصحابه، وبينه وبين أصحاب الحديث عداء متبادل. ترك بعض المؤلفات الفقهية، مثل: (المنتخب)، و(الوثائق). توفى سنة ٣٣٠هـ. ومن علماء المالكية وفقهائها أيضًا: (عبد الله بن محمد بن أبي دليم القرطبي، المتوفى

---

(١) راجع: تاريخ العلماء لابن الفرضي ١ / ١٥٤ - ١٥٦، وتاريخ الإسلام ٢٦ / ٧٢ - ٧٣.

(٢) تاريخ العلماء لابن الفرضي ١ / ١٥٥.

(٣) البيان المغرب ٢ / ١٩٢، ومخطوط (عيون التواريخ) ١٢ / ١٤-١٥، والديباج ٢ / ١٨٩ - ١٩١.

(٤) تاريخ العلماء لابن الفرضي ٢ / ٥٣-٥٤، والجذوة ١ / ١٥٩، وتاريخ الإسلام ٢٥ / ١٤٢-١٤٣.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

سنة ٣٥١هـ[١]، وأخوه (محمد) المتوفى سنة ٣٧٢هـ[٢]، و(أحمد بن مطرف ابن عبد الرحمن، المشهور بابن المشاط)، المتوفى سنة ٣٥٢هـ[٣].

ومن أشهر فقهاء الشافعية في الأندلس في ذلك القرن:

(أ) عبد الله بن عبد الرحمن الناصر (ت ٣٣٨ أو ٣٣٩هـ)[٤].

(ب) حسن بن سعد بن إدريس القرطبي (ت ٣٣١هـ)[٥].

خامساً: اللغة: في هذا القرن حدثت نهضة لغوية في بلاد الأندلس، وظهر عدد من اللغويين والنحاة أثروا الدراسات اللغوية والنحوية العربية بعد انتشار اللغة العربية وتفوقها على ما عداها من اللغات.

ومن أبرز اللغويين والنحاة إبان هذه الفترة:

١- محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي الرياحي (ت ٣٥٨هـ)[٦].

---

(١) فقيه مشاور له تآليف (ت٣٥١هـ). (ترتيب المدارك ٢ / ٤ / ٤٤٠-٤٤١ ، والديباج ١ / ٤٤١).

(٢) عالم فقيه، زاهد ثقة، جلس يسمع العلم قبل وفاته بثلاث سنوات، فأخذوا عنه علمًا كثيراً. له أقوال صائبة في شروط الفقيه، وضوابط الوصول إلى تلك المكانة، والتلقب بهذا اللقب (من حيث السن، والعلوم اللازمة)، وإلا سمي طالبًا (السابق ٢ / ٢٠٢ - ٢٠٣).

(٣) كان من أعيان فقهاء المالكية بالأندلس، وولي الصلاة بقرطبة، (تاريخ الإسلام ٢٦ / ٦٩).

(٤) كان الحكم المستنصر مالكيًا، وأخوه عبد العزيز حنفيًا، وكان عبد الله هذا شافعيًا (المغرب - قسم الأندلس- ١ / ١٨٨)، وذكر صاحب (البغية) ص ٣٥٠: كان عبد الله فاضلاً، قتله أبوه؛ بسبب متابعة أكثر الناس له، لأدبه وفضله (ت ٣٣٨هـ). أما ابن خلدون في (تاريخه) ٤ / ١٨٤ ، فذكر أن الناصر رشح الحكم لولاية العهد دون إخوته، وكان عبد الله يساميه في الرتبة، فحسده ونكث بالعهد، واتفق مع بعض رجال الدولة الخونة ضد الناص، ونمى الخبر إلى الناصر، فاستكشف الأمر، حتى وقف على الجلية منه، وقبض عليهم جميعًا، وقتلهم ٣٣٩هـ .

(٥) كان يكره التقليد الفقهي، ويميل لآراء الشافعي واجتهاده، وعين في الشورى، فلما رأى الشورى دائرة على فقه المالكية، ترك مكانه فيها (تاريخ الإسلام ٢٥ / ٥٤).

(٦) سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وغيره، ورحل إلى المشرق، فسمع بمكة ومصر على أبي جعفر النحاس، وحمل عنه رواية كتاب سيبويه، كان جيد النظر، دقيق الاستنباط حاذقًا بالقياس. أدب المغيرة بن الناصر، وخدم المستنصر في مقابلة الدواوين والنظر فيها. (طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي ص ٣١٠ - ٣١٤، وتاريخ العلماء لابن الفرضي) ٢ / ٧١ - ٧٢) .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢- محمد بن عمر بن عبد العزيز، المعروف بـ (ابن القوطية)، والمتوفى سنة ٣٦٧هـ[1].

٣- أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (ت ٣٧٩هـ)[2].

٤- أحمد بن أبان بن سيد اللغوي (ت ٣٨٢هـ)[3].

٥- حسين بن وليد بن نصر القرطبي، المعروف بـ (ابن العريف) ت ٣٩٠هـ[4].

سادسًا: الأدب: في ظل الرقي السياسي الذي تمثل في تحول الأندلس إلى خلافة، وفي ظل الحياة الاجتماعية العامرة بالخصب والرخاء، والنهضة الثقافية المزدهرة، واكب الأدب نموه وارتقاءه، فظهر عدد من الشعراء والكتاب، الذين أثروا الحياة الأدبية بالأندلس، وصوروا جوانب الحياة، ومدحوا الحكام، ووصفوا معاركهم وغزواتهم .

ومن أبرز هؤلاء:

١- الشاعر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦- ٣٢٨هـ)[5].

---

(١) إشبيلي الأصل، قرطبي المولد والدار. عالم بالنحو واللغة، له مؤلفات حسان، منها: (تصاريف الأفعال)، و(المقصور والممدود). كان عظيم القدر لدى أبي علي القالي، الذي استوطن الأندلس. (تاريخ العلماء ٢ / ٧٨-٧٩، والبغية ١١٢، ووفيات الأعيان ٤ / ٣٦٨ - ٣٧١).

(٢) إشبيلي، نزل قرطبة، واحد عصره في النحو اللغة. من مؤلفاته: (مختصر كتاب العين)، و(طبقات النحويين واللغويين)، ولحن العامة، والواضح في العربية. أدب هشام بن الحكم، وتولى قضاء إشبيلية . (تاريخ العلماء لابن الفرضي ٢ / ٩٢، ووفيات الأعيان ٤ / ٣٧٢ - ٣٧٤).

(٣) كان يلي منصب صاحب الشرطة بقرطبة أيام المستنصر، وفي الوقت نفسه كان عالمًا لغويًا، حدث بالكامل للمبرد، وبالنوادر لأبي علي القالي، ألف في اللغة كتاب (العالم) في ١٠٠ مجلد، وله (العالم والمتعلم) في النحو، وشرح كتاب الكسائي ، (الجذوة ٢ / ٦٤١، والصلة ١ / ١٤، والبغية ٥٣٨، وإنباه الرواه ١ / ٣٠-٣١).

(٤) نحوي عالم بالعربية، أخذ عنه ابن القوطية بقرطبة، رحل إلى المشرق، وأقام أعوامًا في مصر، عاد إلى الأندلس، فاستأدبه المنصور لبنيه، وقربه من صحبته (تاريخ ابن الفرضي ١ / ١٣٤-١٣٥).

(٥) أخذ شعراء الأندلس الكبار، وصحب الناصر، ومدحه بأشعار كثيرة، وتغنى بصفاته، وأرخ بالشعر غزواته من سنة ٣٠٠ إلى ٣٢٢هـ . (العقد الفريد ٣ / ٥ / ٢٦٠ - ٢٨٨، والمقتبس ٥ / ٤١ - ٤٢، والأدب الأندلسي د. هيكل ١٩٩ وما بعدها).

٢- الشاعر أبو عمر يوسف بن هارون الكندي المعروف بـ (الرمادي)[١].

٣- الكاتب البليغ (عبد الملك بن إدريس الجزيري)[٢].

٤- الشاعر أحمد بن محمد بن دراج القَسطلي (ت ٤٢٠هـ)[٣].

٥- الكاتب أبو حفص أحمد بن برد[٤].

سابعًا وأخيرًا: التاريخ: شهد القرن الرابع الهجري طفرة في حركة التأريخ في الأندلس، واستقلت تلك البلاد في ذلك العلم عن مدرسة مصر، وبدت شخصية المؤرخين الأندلسيين واضحة فيما تركوه لنا من مؤلفات:

ومن هؤلاء المؤرخين: ابن جلجل في (طبقات الأطباء)، وتوفى حوالي سنة ٣٧٧هـ، وكتب الزبيدي كتابه: (طبقات النحويين واللغويين)، وأبدع ابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ) في كتابه الموسوم بـ (تاريخ علماء الأندلس). وفي مجال النظم والحضارة ترجم الخشني (ت ٣٦١هـ) لبعض كبار قضاة قرطبة

---

(١) يظن أنه ينسب إلى رمادة (موضع بالمغرب)، ينتسب إليه أحد آبائه. وهو شاعر قرطبي سريع القول، مشهور لدى العامة والخاصة. نسب إليه شعر في ذم المستنصر فحبسه. عمل بالسجن كتاب (الطير) في أجزاء، كله من الشعر (في وصف كل طائر معروف وذكر خواصه)، وذيل كل قطعة شعر فيه بمدح ولي العهد هشام؛ ليشفع له، ويبدو أنه أطلقه. وكان بعد ذلك من مداح المنصور. توفى سنة ٤٠٣هـ (الجذوة) ٢ / ٥٨٩ - ٥٩٣، ووفيات الأعيان ٧ / ٢٢٥ - ٢٢٩، والمغرب (قسم الأندلس) ١ / ٣٩٢ ، والأدب الأندلسي (٢٨٣ - ٢٨٨) .

(٢) كان أحد بلغاء الأندلس، وكان كاتب المنصور، ثم سجنه وعفا عنه بعد ذلك، كتب لابنه المظفر بعده، لكنه اتهم بالتآمر مع طرفة الفتى، وقتل في السجن ٣٩٨هـ، (المغرب - قسم الأندلس - ١ / ٣٢١ - ٣٢٢، والبيان ٣ / ٢٦).

(٣) شاعر موهوب، له أشعار كثيرة، لازم المنصور في خرجاته وغزواته، ومدحه وتملقه؛ ليسلم من الأذى، ومدح وهنأ المظفر بعده. توفى سنة ٤٢٠هـ (راجع أخباره وأشعاره في: (ديوانه ص ٨-٩ . ١٢- ١٥، ٣٧٣-٣٧٧، ٣٨٠ - ٣٨١).

(٤) كاتب مقدم في الدولة العامرية وبعدها، ولاه المظفر ديوان الإنشاء بعد مقتل أبي مروان عبدالملك ابن إدريس الجزيري، وهو كاتب رسالة المظفر حين قتل صهره الوزير (عيسى بن سعيد القطاع، وكاتب ولاية عهد عبد الرحمن بن المنصور. توفى ٤١٨ هـ (الذخيرة ق١ جـ١ ص١٠٣ - ١٠٨)، والمغرب (قسم الأندلس ١ / ٢٠٤ - ٢٠٦).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

في كتابه: (قضاة قرطبة)، وأورد فيه معلومات قيمة عن نظم القضاء، وملامح الحياة الاجتماعية آنذاك. وسرد لنا اللغوي والمؤرخ المشهور أبو بكر ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ) ما تيسر له له من تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله في كتابه: (تاريخ افتتاح الأندلس).

ملاحظات عامة على الأوضاع الثقافية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

أولاً: من حيث الظروف والعوامل المؤثرة في تلك الأوضاع:

شهدت الأندلس نهضة علمية مزدهرة في ذلك القرن الذهبي. لقد حرص الخليفة الناصر - رغم انشغاله في غزواته بالداخل والخارج - على استقدام العلماء النابهين من المشرق، وحسن الاستفادة منهم[١]. وقد أنعم الله على بلاد الأندلس بالحكم المستنصر العالم المثقف، سواء في فترة ولايته للعهد، أم في فترة توليه الخلافة[٢]، فأولى العلم والعلماء كل عنايته، وسلك في سبيل النهوض بالثقافة في الأندلس طرقًا عديدة، منها: استقدام العلماء المتفوقين من أقاليم الأندلس الأخرى إلى العاصمة قرطبة؛ للاستزادة من علومهم[٣]، وتوجيهه الدعوة وبذل كل المغريات لاستجلاب العلماء من المشرق[٤]، وتوجيه علماء الأندلس للتأليف في موضوعات معينة، يثري بها المكتبة الأندلسية[٥]،

---

(١) مثل: أبي علي القالي البغدادي الأصل، الذي دخل الأندلس سنة ٣٣٠هـ، وظل بها وعاصر الحكم المستنصر بعد وفاة أبيه الناصر، توفى القالي سنة ٣٥٦هـ (أخباره في: البغية ٢٣١- ٢٣٤، والنفح ٣ / ٧٠-٧٥).

(٢) حول ثقافة المستنصر، وسعة اطلاعه، ومؤلفاته (يراجع: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، لابن الفرضي ١ / ١٢٠، ١٤٠، ١٥١، ٢ / ٣٨، ١٣٣، ١٤٧، ١٩٥، وطبقات الأمم ٥٩، والنفح ٣ / ٦٠).

(٣) تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضي ١ / ١٧٧ .

(٤) أحسن المستنصر من قبل إلى أبي علي القالي، ويذكر الذهبي أنه أحسن استقبال الفقيه أبي الطيب محمد بن أحمد بن إبراهيم البغدادي الشافعي، وإن كان المنصور أخرجه بعد ذلك سنة ٣٧٣هـ؛ لاتهامه بالاعتزال (تاريخ الإسلام ٢٦ / ٥٤٦ - ٥٤٧).

(٥) تاريخ العلماء، لابن الفرضي ١ / ٨٩، ١٥٦، والجذوة ١ / ١٦٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بل عرفت الأندلس - بحسن توجيهه - التأليف العلمي المشترك في مجال الفقه المالكي[1]. وكذلك حرص المستنصر على إقامة علاقات وطيدة بالوراقين، يجلبون له من المشرق كل كتاب قيم جديد، ويبذل في سبيل ذلك الأموال[2]، فتكونت له مكتبة ضخمة من جَراء ذلك كله[3].

وفي عهد المنصور بن أبي عامر كان له اهتمامه بالعلم والعلماء، وكان له مجلس أسبوعي، يستقدم فيه العلماء من كل فن وعلم، يتناظرون ويتناقشون في حضوره، إبان وجوده في قرطبة[4]. وكان للمنصور موقف عدائي من كتب الفلسفة، أمر فيه بجمع كتبها من مكتبة المستنصر بعد وفاته، وأمر بإحراقها في محضر الفقهاء؛ تحببًا للعوام، وتقبيحًا لرأي المستنصر عندهم[5]. وقد اهتم المنصور بالعالم البغدادي (صاعد بن الحسن)، وأكرم نزله، وأحسن استقباله، وأحدث بالأندلس رواجًا علميًا كبيرًا، ومناقشات حامية مع علمائها[6].

على الرغم من العداء السياسي بين العبيديين في مصر والأمويين بالأندلس إلا أن الصلات الثقافية بين البلدين لم تنقطع لا قبل العبيديين ولا في عصرهم؛ مما يدل على عمق الصلات بين شعوب المشرق والمغرب[7].

---

(١) ترتيب المدارك ٢ / ٤ / ٦٣٤-٦٣٥، والصلة ١ / ٢٨ . وذكرت روايات أخرى أن هذا المؤلف كان بأمر المنصور (المدارك ٢ / ٦٣٥- ٦٣٦، والبغية ٥٢٩). والأول - عندي- أرجح، لاهتمام المستنصر بالعلم جدًا، بينما كان الغزو شغل المنصور الشاغل .

(٢) ترتيب المدارك ٢ / ٤ / ٥٧٣، ومعجم الأدباء ١٣ / ١٠٠ ، والحلة السيراء ١ / ٢٠١-٢٠٢، وتكملة الصلة (ط. الحسيني) ١ / ٣٤٧، ووفيات الأعيان ٣ / ٣٠٨ .

(٣) خاصة بعد أن ضم إليها مكتبة أخيه عبد الله بعد قتله. (ترتيب المدارك ٢ / ٤ / ٦٣٨، والحلة السيراء ١ / ٢٠١ ، ٢٠٣، وتكملة الصلة (ط. الحسيني) ١ / ٣٤٧ .

(٤) جذوة المقتبس ١ / ١٣١ ، والمعجب ٣٨ .

(٥) طبقات الأمم ٦٦-٦٧ ، والبيان ٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٦) أخباره في : الجذوة ١ / ٣٧٣ - ٣٧٩ ، والصلة ١ / ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٧) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميللي (مترجم) ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وتفيد النصوص الموجودة في كتب التراجم وغيرها وجود رجالات لمحدثين[1]، ومؤرخين[2]، ولغويين[3]، وفقهاء[4] أندلسيين إلى مصر، ولم أعثر على ما يفيد وجود علماء مصريين بالأندلس؛ مما يدل على أن مصر كانت لا تزال كعبة القُصَّاد، وموئل العلم، بينما كانت تستكمل الأندلس أدوات الاستقلال العلمي.

ثانياً: من حيث الظواهر الثقافية في ذلك العصر:

في الوقت الذي كانت مصر فيه قبلة طلاب العلم الأندلسيين في رحلاتهم إلى المشرق، وعند أداء فريضة الحج، استمرت بلاد الأندلس تنظر إلى المشرق على أنه المثل الأعلى الذي يحتذى في مختلف العلوم. وفي الوقت الذي لم تقبل فيه العلوم العقلية والفلسفية في الأندلس، كانت مصر - مثلاً - تفتح ذراعيها لمختلف التيارات الفكرية[5].

وفي الوقت الذي كانت الثقافة الدينية الفقهية المالكية بالذات هي محور اهتمام الأندلسيين، وكان أتباع المذهبين الشافعي والظاهري محدودين، ولم يجد المذهب الحنفي رواجًا هناك[6]، كانت مصر - مثلاً- أرحب أفقًا، فاحتضنت كافة المذاهب الفقهية، بل واجه علماؤها المذهب الشيعي الإسماعيلي؛ بدليل عدم اندثار السنة .

---

(١) راجع أخبار رحلة (خلف بن قاسم بن سهل- ويقال: سهلون - بن محمد بن الدباغ القرطبي (ت٣٩٣هـ) إلى مصر في: (الجذوة ١ / ٣٢٦ - ٣٣٩)، وبغية الطلب ٧ / ٣٣٤٦ - ٣٣٤٧).

(٢) راجع نماذج ذلك في : تكملة الصلة: (ط. الحسيني): ١ / ١٣-١٤، ٢٠٦ .

(٣) تاريخ الإسلام ٢٧ / ١٩٧- ١٩٨، وتذكرة الحفاظ جـ٣ من مج ٢ ص ٨٦٩ - ٨٧٠ .

(٤) ترتيب المدارك مج ٢ ص٣٠٠، والنفح ٢ / ٦٣٣ .

(٥) ومنها: المعتزلة؛ بدليل وجود (سيبويه المصري المعتزلي) ت ٣٥٨هـ الذي كتب المؤرخ المصري ابن زولاق (ت ٣٨٧هـ) سيرته .

(٦) تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا (مترجم) ص ٤٣٩-٤٤١، و(في تاريخ المغرب والأندلس) ص ١٢١-١٢٤، و(ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري) ص ٨٥، ٨٧، ٨٩ .

ثالثاً وأخيراً: دور المجتمع ونصيبه من الحركة الثقافية:

من المعلوم أن المجتمع يتأثر بالوضع الثقافي بعد أن يسهم في تشكيله وتكوينه والتأثير فيه، فالثقافة تأخذ من المجتمع وتعطيه. وعناصر المجتمع وأفراده يشتركون في صياغة ثقافته ونهضته الفكرية، ثم تنعكس هذه النهضة ثانية على أفراد هذا المجتمع وعقول أبنائه وسلوكياتهم.

والحق أن الحكام الواعين المثقفين والعلماء النابهين هم الذين حملوا لواء النهضة العلمية في الأندلسي في تلك الفترة، وكان حكام الأندلس أعظم دوراً وأكبر تأثيراً من غيرهم، والتفاف العلماء والشعب حولهم كان عظيماً؛ نتيجة الالتحام والاتفاق الفكري والمذهبي بينهم .

كان انعكاس النهضة الثقافية على الشعب الأندلس الطموح الجاد العامل ذي العقل المتفتح الواعي كبيراً(١) لقد اهتم خلفاء بني أمية بنشر الفقه المالكي بين الناس حتى في أسواقهم(٢)، وأدى الفقهاء دورهم كاملاً، حتى إنهم كانوا يقرئونه في حوانيتهم(٣)، ناهيك عن مجالس العلم في المساجد العامرة هنا وهناك. وانعكست الثقافة وحب العلم على عوام الناس في الأندلس، فألفينا ظاهرة (المؤدبين) شائعة في الأندلس في كافة طبقات المجتمع على مستوى الأمراء والعوام في آن(٤). وانتقل حرص اقتناء الكتب، والشغف بتكوين

---

(١) حول صفات الأندلسيين وعقليتهم وحبهم للعلم، والرد على ابن حوقل وما أثاره عن ضعف عقولهم في (صورة الأرض ١٠٤-١٠٥)، راجع : إنباه الرواه ٣ / ٣٦٢ - ٣٦٣، والنفح ١ / ٢١٢، ٢٢٠ -٢٢١، ٣ / ١٥٠ - ١٥٢، ١٥٤ - ١٥٥، و(شيوخ العصر)، د. مؤنس ص ٦١، وبحث عنان: (جغرافية الأندلس) ص ٤٧ (مجلة الأبحاث المغربية ١٩٥٩م).

(٢) راجع: دور مفتي السوق، وأهميته، والتعريف ببعض العاملين في ذلك المجال في: (تاريخ ابن الفرضي ١ / ٣٥٦ ، ٢ / ٤٩، والقضاء والقضاة بالأندلس، د. السيد داود ص ١٧٠).

(٣) كان الفقيه (إسحاق بن إبراهيم الطليطلي) يقرئ الفقه في حانوت أحد الفقهاء بسوق الكتاب بقرطبة (تاريخ الإسلام ٢٦ / ٦٩، وفيات ٣٥٢هـ).

(٤) المقتبس (ط. الحجي) ص ٢١٦، وتكملة الصلة (ط. الحسيني) ١ / ٢٠٥، وشمس العرب تسطع على الغرب، سيجريد هونكه (مترجم) ص ٣٩٣ - ٣٩٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

المكتبات من الحكام إلى العلماء وطلاب العلم، وطبقات الشعب: أغنيائهم ومتواضعيهم، فشاع العلم في المجتمع ككل[1]، ولم يكن العلم حكراً على الرجال، بل شاركت فيه فضليات النساء في الأندلس[2].

وبعد، فها نحن قد عرضنا للنواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الأندلس في القرن الرابع الهجري، وتبين لنا: أن الاستقرار السياسي يفضي إلى نمو اقتصادي، وأن رخاء الشعوب أساس لاستقرار الحكم[3]، وأن الاستبداد السياسي يؤدي إلى التحلل الاجتماعي والمفاسد والنفاق في المجتمع[4]، وأن اللهو والترف والسرف يؤدي إلى مفاسد خلقية واجتماعية خطيرة، وأن عناية الحكام بالعلم، ونشاط وإخلاص العلماء في توصيله إلى الناس يحبب العلم إلى الشعب، وأن الثقافة تتأثر بالأوضاع القائمة، وتؤثر في جموع الناس.

ثالثاً: فترة الانهيار (٣٩٩ - ٤٢٢هـ / ١٠٠٨ - ١٠٣١م):

من الأمور المدهشة الغريبة حقًا أن تتقلب بلاد الأندلس بين مرحلتين متباينتين كل التباين. ففي منتصف القرن الرابع الهجري حتى أواخره بلغت تلك البلاد ذروة القوة والمجد والازدهار في عهود الناصر، والمستنصر، والمنصور. ثم إذا بها عقيب مقتل عبد الرحمن بن المنصور- ومنذ أوائل القرن

---

(١) التربية الإسلامية، ريبيرا (ترجمة: د. الطاهر مكي) ص ٢١٠ - ٢١٢، وبحث (مكتبة الأمويين الإسلامية في قرطبة) د. زغرونت ص ٣٣٥ وبعدها (مجلة البحوث الإسلامية بالرياض) ١٤٠٦هـ / ١٤٠٧هـ.

(٢) تراجم هؤلاء النسوة الكاتبات النحويات الشواعر في: البغية ٥٤٦ - ٥٤٧، وتكملة الصلة: (ط. مدريد) ص ٤٠٢-٤٠٤، والتربية الإسلامية، ريبيرا (مترجم) ص ٢٠٣-٢٠٥.

(٣) معالم تاريخ المغرب والأندلس ٢٨٤.

(٤) راجع مظاهر التحلل الاجتماعي، وفساد الناس، وشيوع الحقد والحسد والنفاق في عهد العامريين. (راجع: المعجب ٣٨ - ٣٩)، والأدب الأندلسي د. هيكل ص ٢٦٨ وبعدها).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الخامس الهجري- تنحدر انحداراً خطيراً وتهوي هُوِيًا سحيقًا، وتدخل في معترك الاضطرابات والفتن المدمرة، والحروب الطاحنة فيما بينها، وينجح نصارى الشمال في توحيد صفوفهم، والتوسع على حساب الأندلس الإسلامية. فقدت الأندلس قوتها ووحدتها، وتحولت إلى أشلاء متناثرة لا رابط بينها، ولا وحدة بين ولاياتها، ولا جيش يدفع عنها هجمات أعدائها المتربصين بها.

أسباب تدهور الأندلس في تلك الفترة:

١- أدى عدم اهتمام المسلمين بفتح الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة، وعدم الإجهاز على المتحصنين به، والانشغال عن ذلك بأمور أخرى منذ البداية، إلى نمو واستفحال خطر هؤلاء الذين نجحوا في توحيد صفوفهم للهجوم على الأندلس الإسلامية، وانتزاعها مدينة بعد أخري، حتى يتم استعادتها بالكامل، وطرد المسلمين منها بعد ثمانية قرون.

ب- كثرة الفتن والعصبيات القبلية في (عصر الولاة، وبني أمية): فقد شغلت المسلمين في جانب ليس بالقليل عن مواصلة تأمين فتوحاتهم، وتصفية جيوب المقاومة. صحيح كانت هناك محاولات جهادية متعددة، اقتربت إحداها من باريس، ولكن الصراعات الداخلية فوتت الفرصة على المسلمين للتنبه إلى خطر نصارى الشمال. وفي عصر بني أمية بعد أن مكَّن الداخل لنفسه ولأسرته في الحكم، إذا به يستأثر بالسلطة، وفي سبيل تكريس الولاء لشخصه وحده، حطم الزعامات العربية المحلية، ولم يعط هؤلاء ولا خلفاؤه من بعده الفرصة لها، ولا لرجالات البربر فرصة الظهور، ولم يحاولوا الاستفادة من طاقاتهم الكامنة، وصهرها في بوتقة الأندلس، وتسخيرها للصالح العام، مع حسن التعاون معها، لذلك قامت كثير من الثورات في عصر الداخل، وتفاقمت ثورات العرب والبربر والمولدين (العنصر الجديد

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الغالب في المجتمع)، واستقل كثير من عمال النواحي خاصة عهد عبد الله بن محمد. وسار الناصر في الطريق نفسه - رغم النجاح الذي حققه- فطارد الأسر العربية ذات البأس والقوة، وقضى على زعاماتها المحلية، وأهمل العنصر العربي، ومال إلى اصطناع الموالي والصقالبة، واستكثر منهم جداً، وولاهم المناصب العليا، وقيادة الجيوش (كما رأينا في معركة الخندق سنة ٣٢٧هـ؛ مما دفع العرب إلى خذلانه أمام جموع النصارى، فأدى ذلك إلى الهزيمة).

جـ- الاستبداد في الحكم، وسياسة البطش:

وهذه نجدها أشد ما تكون في عهد المنصور بن أبي عامر، الذي وصل إلى قمة السلطة بطرق غير شرعية، ورغم أنه من أصل عربي إلا أنه قضى على زعامات العرب، وسحق كل الزعامات الموجودة بما فيها الفتيان الصقالبة، ولم يبق منها إلا على قلة مخلصة له. وفي الوقت نفسه استكثر من العنصر البربري، الذي انثال - في عهده- على الأندلس انثيالاً، وجعل منهم قادة الجيش، وعماله بالمغرب. وغدا المنصور هو الوحيد البارز في الصورة، وتوارت بقية الزعامات النابهة في المجتمع. وحتى العناصر المعتمد عليها كانت تتربص ببعضها (بربر، وصقالبة).

لقد تجمعت تلك العوامل، وتفاعلت، وتراكمت حتى أتت لحظة الانفجار المناسبة بعد موت المنصور، وضعف ولديه (خاصة عبد الرحمن)، فظهرت قوى عديدة على الساحة، لكن لم تظهر الشخصية البارزة القوية القادرة على توحيد الصفوف، ومعالجة السلبيات، والنجاة بالبلاد مما هي مقدمة عليه من خراب وتدمير وصراع، ولم نجد الشخصية الماهرة التي تستوعب كل طبقات وعناصر الأمة، وتستفيد من كل الكفاءات.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بانتهاء عهد العامريين كانت تتصارع على الحكم في الأندلس القوى الآتية:

أ- بنو أمية الذين يـريدون استرداد ملكهم المغتصب عـلى يد العامريين، وجمع الناس والتفافهم حول خلافتهم.

ب- البربر الذين يحاولون الاحتفاظ بامتيازاتهم ومناصبهم.

جـ- الأسر العربية المضطهدة تحاول استرداد مكانتها الضائعة .

د- الصقالبة (الفتيان العامريون): يحاولون الأخذ بنصيبهم من أسلاب السلطة.

أحوال الأندلس حتى سقوط الخلافة الأموية:

قضى أهل قرطبـة الفترة من قبـيل مقتل شنجول حـتى الإعلان الرسمي بانتهاء الخلافة في فتنة كبـرى وصراعات دامية. وحاول الأمويون جمع الناس حول خلافتهم، لكنهم افتقدوا الشخصية القوية القادرة على ذلك. ولم ينجح الشاب المغامر الذي اختاروه (محمـد بن هشام بن عبد الجبار) في تحقيق ذلك الهدف. لقد انتـهز فرصة خـروج شنجول إلى بلاد النصارى، وقام باقـتحام قـصر قـرطبـة هو وأنصاره في (جـمـادى الأولى سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م)، وقتلوا صاحب المديـنة (عبدالله بن أبي عامر). وبويع لـه بالخلافة، ولقب بـ (المهدي)، وأرغم هشامـًا المؤيد على التنازل عن الخلافة. ثم تهـدمت قصور الزاهرة، وتلاشى أمرها في أيام جرَّاء أعمال السلب والنهب والتخريب. وتم قتل شنجول على أيدي رجال المهدي في (رجب ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م)(١).

لـم يكن المهدي أهلاً لـتولي الخلافـة، وكان حوله طائفـة من الرعاع، لا يحـسنون إلا النهب والقـتل والفوضى، وكـان المهـدي يسعـى للانتقـام من العامريين. وقد ناصب البربر العداء؛ لأنهم كانوا عدة المنصور التي يتقوى بها على بني أمية. ومن هنا أمـر بإخراج جميع البربر من قرطبـة، فرفضوا لأول

(١) راجع ما يتصل بـ (شنجول) في: البيان ٣ / ٣٩ وما بعدها، ومعالم ص ٣٥٣-٣٥٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الأمر. فحدث الانشقاق في الجيش؛ نتيجة قيام هذا الصراع . ثم تجمع البربر خارج قرطبة، وقرروا اقتحامها بالقـوة، واختاروا لأنفسهم خليفة (سليمان بن هشام الملقب بالمستعين)، فصار في البلاد خليفتان : واحد في قرطبة، والآخر على رأس البربر.

لا نريد الانسياق وراء التفاصيل بعـد ذلك؛ لأن الأحداث التالية عبارة عن صراعـات دموية، استعـان خلالها المهدي بـجيوش النصارى، وانتـهى الصراع بانتصار البـربر، الذين حصدوا صفوف الأنـدلسيين حصداً في معـركة (قنتيش بالوادي الكبير) في ربيع الأول سـنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م. وفر بعض الأندلسيين الصقالبـة إلى شرقي الأندلس، وعلى رأسهم (واضح العامري)، واسـتقروا في دانية. وهكذا كُـتبت نهاية القـوات الأندلسية التـقليدية الأصيلة، التي كـسبت المعارك من قبل، وأضعـفها المنصور. ثم دخل البربر قرطبة، وعاثوا فـيها فساداً حتى قُـتل المهدي في ذي الحـجة سنة ٤٠٠هـ، ودخل المستـعين قرطبـة، وقتل الخليفة الأسبق (المؤيد) في سنة ٤٠٣هـ/ مايو ١٠١٣م .

لم يخلص البـربر للمستعين، وولـوا من بينهم أحد بني حـمود البـربر الصنهاجـيين، الذين كانوا في خـدمة المنصور وولده. وقـد اسـتعان علي بن حمـود والي سبتة من قـبل المستعين بـ (خـيران الصقلبي)، وهاجم قـرطبة، وقتل المستعين، وظل في قـرطبة مـدعيًا الخـلافة حتى قـتل سنة ٤٠٨هـ / ١٠١٧م ، فولي أخوه القـاسم بعده، ثم عاد الأمويون إلى الخـلافة من (سنة ٤١٤-٤٢٢هـ) على أيدي خلفاء ضعفاء، آخرهم (هشام المعتد). وكان زعيم القرطبيين (أبو الحـزم بن جَهْوَر) لما لم يجد من يصلح من الأمـويين، اجتمع مع كبـار أهل قرطبة، وقرروا خلع آخـر الخلفاء الأمويين الضعـاف، وإعلان سقوط الخلافـة؛ وإخراج الخليفة في (ذي القعدة سنة ٤٢٢هـ / ٣٠ نوفمبر ١٠٣١م) من قرطبة، فأقام في نواحي سرقسطة، حيث مات خاملاً[1].

(١) راجع الفتنة من مقـتل شنجول حتى سقوط الخلافة في : البـيان ٣ / ٧٧ وبعدها، والنفح ١ / ٤٢٦ وبعدها، ومعالم ص ٣٥٤ - ٣٦٠ .

الباب الرابع والأخير
عصور السيادة والهيمنة المغربية
على الأندلس حتى سقوطها في يد الإسبان

يحتوي هذا الباب على أربعة فصول :

الأول : عصر ملوك الطوائف بالأندلس .

الثاني : المرابطون في المغرب والأندلس .

الثالث : الموحدون في المغرب والأندلس .

الرابع : في أعقاب الموحدين حتى سقوط غرناطة .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفصل الأول

عصر ملوك الطوائف بالأندلس(*)

تقديم:

انتهت الخلافة الأموية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، فوجد عمال وولاة الأقاليم الأندلسية أنفسهم فجأة دون خليفة يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، فتولوا شئون ولاياتهم بأنفسهم، وتحولوا إلى أمراء، كل على ناحيته، فهم - إذن- لم يستبدوا بالأمر من دون الخلافة، ولم يخرجوا عن الطاعة. ويلاحظ أنهم لم يتزعموا طوائف من سكان الأندلس، فلم تكن هناك طائفة عربية أندلسية يتزعمها بنو عباد، ولا طائفة صقلبية شرقي الأندلس يقودها الصقالبة العامريون، وإنما انقسمت الأندلس إلى دويلات، ووحدات صغيرة متفرقة متعادية متناحرة، كأن كلاً منها طائفة منعزلة عن الأخرى تمامًا، فلا روابط بينهم، وإنما هي حرب أهلية بهدف التوسع والسيطرة على حساب إخوانهم المسلمين، ولا مانع لديهم من دفع إتاوات لنصارى الشمال؛ للاستعانة بهم على بعضهم البعض دون وجود جيش قوي يدفع النصارى الطامعين في بلاد المسلمين[1] !

(*) يمكن الرجوع إلى المصادر والمراجع الآتية: (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) لابن عذاري (طبعة دار الثقافة- بيروت. تحقيق: بروفنسال، وكولان) جـ٣ ص ١٥٣ وبعدها، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام (ط. دار الثقافة- بيروت. تحقيق: د. إحسان عباس) جـ١ ص٤٨١ وبعدها، ٢ / ٧٢٩ وبعدها، ٣ / ٥-٨١، ٥ / ٢٤٩-٢٥١، ٧ / ١٤٢ وبعدها، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (دار المكشوف، بتحقيق: بروفنسال) ص ١٤٤ وبعدها، وتاريخ ابن خلدون ٤ / ٢٠٠ وبعدها، ونفح الطيب للمقري (ط. دار الفكر ببيروت. تحقيق: د. إحسان عباس) جـ١ ص ٤٣٨ وبعدها، ودولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف)، طبعة الخانجي، لمحمد عبد الله عنان ص ٣١ وما بعدها، والتاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (ط١- دار الاعتصام ١٩٨٣م) للدكتور عبدالرحمن علي الحجي ص ٣٥٥ وبعدها، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس (دار ومطابع المستقبل بالقاهرة ١٩٨٠م) ص ٣٥٩-٣٧٢ .

(١) دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لمحمد عبد الله عنان ص٣، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٥٩-٣٦٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

انقسمت الأندلس - في هذه الفترة- إلى ست مناطق رئيسة: منطقة العاصمة الأموية قرطبة وما إليها من المدن والأراضي الوسطى، ومنطقة طليطلة أو الثغر الأوسط، وإشبيلية وغربي الأندلس وما جاورها من الأراضي حتى المحيط الأطلنطي، ومنطقة غرناطة وريّة وما جاورهما، ومنطقة شرقي الأندلس في بلنسية وما جاورها شمالاً وجنوبًا، ومنطقة سرقسطة والثغر الأعلى[1] . وسوف نتناول ما يتيسر لنا من هذه الإمارات .

١- **مملكة بني هود في سَرَقُسْطَة:** من أعظم ممالك الطوائف اتساعًا، وتعرف بـ (ولاية الثغر الأعلى)، ولها موقع بين دول نصارى الشمال، وتقع سرقسطة العاصمة في ناحية جبلية وعرة، وتحيط بها من الشمال مملكة أرجون، وفي الشمال نافار، وفي الشرق برشلونة، وغدت في خطر كبير - بعد سقوط طليطلة- فقد أصبحت محاطة بملوك النصرانية بعد مجاورتها مملكة ليون، وقشتالة من الغرب والجنوب[2] .

أول من حكم سرقسطة من حكام (بني هود) أبو أيوب سليمان بن محمد ابن هود الجذامي (٤٣١-٤٣٨هـ/ ١٠٣٩-١٠٤٦م)[3] ، وقد قضى فترة حكمه في الصراع مع المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، واستعان كل منهما بنصارى الشمال، فأمد فرناندو الأول ملك قشتالة المأمون بقوات عاثت في أراضي مملكة سرقسطة وخربتها؛ انتقامًا من هزيمة المأمون أمام ابن هود، وقد استنجد ابن هود بدوره بملك قشتالة، فبعث جنوده - أيضًا - يعيثون في أراضي طليطلة فسادًا. ولا شك أن كلا المتحاربين دخل تحت طاعة النصارى، وقدم من الأموال والتحف الجليلة ما يتناسب مع إغاثة ملكهم ومساعدته له

(١) دولة الإسلام في الأندلس (دولة الطوائف) لعنان ص ١٧ .
(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٦٦ .
(٣) الحلة السيراء لابن الأبار، (تحقيق: د. حسين مؤنس) ٢ / ٢٤٦ .

(نقلاً عن: دولة الإسلام في الأندلس - دول الطوائف) لمحمد عبد الله عنان ص ٢٧.

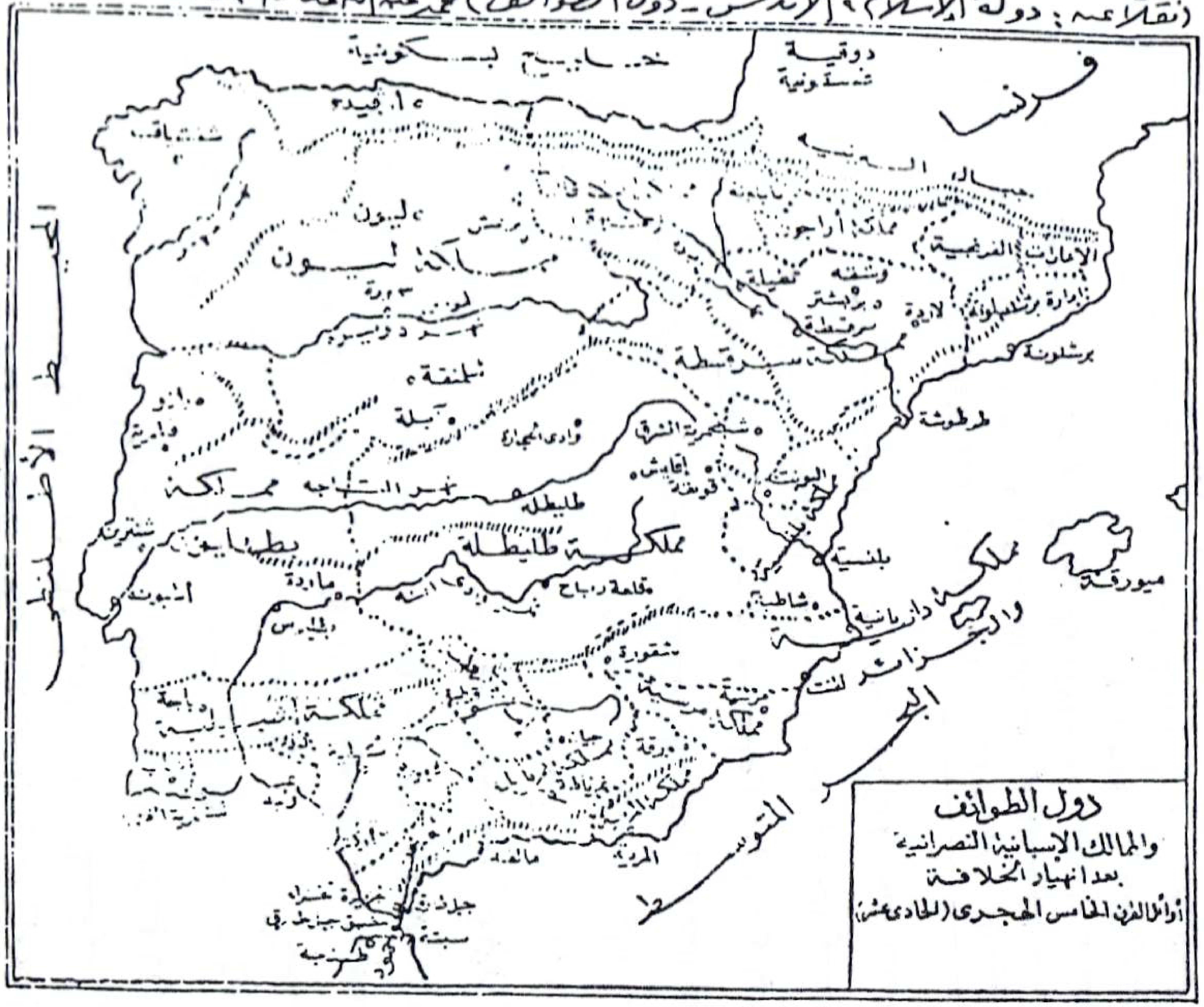

ضد إخوانه المسلمين[١] ! وهكذا ظلت الحرب مستعرة بين الجانبين، ويلعب النصارى لعبتهم القذرة في إذكاء روح العداء بين الفريقين المسلمين بهدف إضعافهما معًا، ثم السيطرة على بلديهما .

حاول الفونسو السادس ملك أرجون الاستيلاء على سرقسطة، وحشد جموعًا كبيرة من ملوك النصرانية، ولجأ إلى البابوية، وقاموا بالهجوم على بلد إسلامي صغير يسمى بربشتر Barbastro على بعد ستين كيلو مترًا شمال شرقي سرقسطة سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م، وأنزلوا بأهلها مذبحة بشعة بمباركة من البابا إسكندر الثالث، وحاق بالمسلمين العار بعد انتهاك حرمات نسائهم، ووقوع خمسة آلاف من بناتهم في السبي، حيث تم بيعهن في أسواق النخاسة[٢] . هذا، وقد حركت هذه النكبة مشاعر المسلمين الملتاعة من الأعماق، واهتز للفجيعة أمراء الأندلس قاطبة، وفي مقدمتهم المقتدر بن هود (٤٣٨-٤٧٤هـ/ ١٠٤٦-١٠٨١م)، فوصلت الأمداد والمتطوعة والرماة من بقاع الأندلس المختلفة، حتى تم النصر المؤزر واسترداد البلد المحتل، وجبر الصدع، وإزالة المعرة في جمادى الأولى سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م[٣] . لم تصف الحياة لإمارة سرقسطة بعد ذلك، فقد تعرضت لهجمات وابتزازات ممالك النصارى الشمالية يقتطعون أطرافها، ويضربون عليها الجزية لنهب أموالها وخيراتها، وظلت مطامع هؤلاء في امتلاكها لا تنتهي، إلى أن تمكن الفونسو المحارب ملك أرجون من إسقاطها سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م، وبذلك تضاعف حجم مملكته، وغدت من أكبر ممالك النصرانية[٤] .

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ٣ / ٢٧٧- ٢٧٨، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٧٨ .

(٢) راجع التفاصيل في: البيان المغرب ٣ / ٢٢٥-٢٢٧، ودولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لعنان ص ٢٧٤-٢٧٨، والتاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة للدكتور الحجي ص ٣٥٩-٣٦١ .

(٣) البيان المغرب ٣ / ٢٢٧، ودولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لعنان ص ٢٧٨-٢٧٩، والتاريخ الأندلسي للدكتور الحجي ص ٣٦١ وبعدها .

(٤) الحلة السيراء لابن الأبار ٢ / ٢٤٨، والتاريخ الأندلسي للدكتور الحجي ص ٣٥٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢- **دولة بني ذي النون في طليطلة:** تعد ولاية طليطلة من الولايات الواسعة الممتدة، حيث كانت تبلغ خُمس مساحة الأندلس الإسلامي، وبلغت درجة كبيرة من الرخاء والازدهار في عـهد يحيى بن إسماعـيل (المأمون بن ذي النون ٤٣٥-٤٦٧هـ/ ١٠٤٣-١٠٧٥م) الذي جمع الثروات الطائلة، وبنى القـصور الباذخة المشهورة بروعتها وفخامتها، وأقام الحفلات المشهورة الرائعة[1] . ثم خلفه حفيده (يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر ٤٦٧-٤٧٨هـ/ ١٠٧٥- ١٠٨٥م) .

حاول الأمير الجديد الحدث مسالمة النصارى، إذ لم تكن لديه قوة عسكرية، ولا إرادة التحـدي للصمود في مواجـهتهم، والدفـاع عن ملكه. ولم تعد هٰذه السياسـة صالحة بعد أن اشتـد ساعد إمارة (قشـتالة) غرب طليطلة[2] . وتجدر الإشارة إلى أن قشتالة كـانت تُحكم بحكام تابعين لمملكة ليون، وقد تقاتل أبناء ملكها وتحاربوا من بعده، وطرد سانشو أخاه الفونسو، ونفاه إلى طليطلة، حيث استضافه المأمون سنوات طوالاً، عرف خـلالها ظروف الإمارة، ونقاط ضعفها. فلما قتل سانشـو، استدعاه النبلاء للحكم، وعُرف بـ (الفـونسو السادس ملك قشـتالة وليون)، وكان طامعًـا في ضم طليطلة إلى ممتلكاته[3] ، وانتهـز فرصة ضعف (القادر)، وقلة خبرته، وجعل طليطلة تحت حمـاية قشتالية ليونية، دفع بمقتضـاها القادر الجزية مقابل حـمايته من هجوم إمـارة سرقسطة[4] ، ثم انتهز الفونسو فرصـة الثورات والفتن والخلافات الداخلية، التي أعقـبت مقتل الوزير ابن الحديـدي سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م، وفرار الأمـير القـادر إلى أحد حصـونه الشرقية سنة ٤٧٢هـ / ١٠٨٠م، حتى قام الفـونسو بإعادته إلى عرشه المتهاوي مرة أخرى، تمهيدًا لتنفيذ خطته العملية للاستيلاء على طليطلة[5] .

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٧ / ١٢٦-١٣٧، ١٤٧، والنفح ١ / ٤٤٠، ودولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لعنان ص ١٠٤-١٠٦ .

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٦٣ .

(٣) البيان المغرب ٣ / ٢٣٢، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦٣ .

(٤) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٧٨ .

(٥) الذخيرة لابن بسام ٧ / ١٥١ ومـا بعدها، ودولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لعنان ص ١٠٧-١٠٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ضمن الفونسو حياد ملوك الطوائف - خاصة أمير إشبيلية المعتمد بن عباد- إزاء قيامه بمحاولات إسقاط طليطلة، ذلك أن قوته المتنامية أرعبت الجميع، فهادنوه وصالحوه، وأمدوه بالأموال اللازمة؛ إيثاراً للسلامة والنجاة(١). قام الفونسو بعدة حملات تخريبية بمساعدة الخونة في الداخل ضد طليطلة إلى أن نجح- بعد حصار مرير لها استمر تسعة أشهر- في السيطرة عليها سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٦م(٢) بعد أن فقدت كل مصدر للعودة والنجدة، إذ لم يُستجب لنداءات المخلصين كالقاضي أبي الوليد الباجي(٣)، ولم يفطن أمراء الطوائف إلى أن الخطر تهددهم جميعًا واحداً بعد الآخر، وأن سقوط طليطلة وهي إحدى قواعد الأندلس العظمى هو نذير شؤم بانهيار الأندلس كله(٤).

استسلمت المدينة للمحاصرين، وتم عقد اتفاق ينص على حرية المسلمين في التنقل، وعدم زيادة الضرائب عليهم، وحماية أمتعتهم وأملاكهم، مع الاحتفاظ بمسجد طليطلة الجامع لإقامة الشعائر، وبقاء قضاة المسلمين يحكمون بشريعتهم(٥). لكن هيهات الالتزام بهذه النصوص إلى الأبد، فقد حُول المسجد إلى كنيسة، وشُرع في تغييره سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٤م(٦). وهكذا، تضاعفت مساحة مملكة ليون ثلاث مرات بعد السيطرة على طليطلة وما حولها؛ مما أطمع ممالك النصرانية في التهام مزيد من أراضي المسلمين بالأندلس(٧).

---

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٨١-١٨٢، ودولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لعنان ص ٧١-٧٢.

(٢) الذخيرة لابن بسام ٧ / ١٦٤ وما بعدها، ودولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لعنان ص ١١٢-١١٣.

(٣) الحلة السيراء لابن الأبار ٢ / ٩٨.

(٤) دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لعنان ص ١١٦. (٥) المرجع السابق ص ١١٣.

(٦) النفح ٤ / ٤٤٧.

(٧) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور مؤنس ص ٣٦٣-٣٦٤.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٣- **إمارة بلنسية:** تقع هذه الإمارة شرقي الأندلس، وهي من أغنى أقاليمه، وتجاور من طرفها الشمالي سرقسطة الخاضعة لبني هود، وعاصمتها مدينة (بلنسية) من حواضر الأندلس المشهورة، وتعد شاطبة من مدنها المهمة(١) .

حكم بلنسية- بعد الفتنة الأولى (٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م)- نفر من الفتيان الصقالبة، الذين كانوا يخدمون العامريين، إلى أن بايعوا حفيداً للمنصور محمد بن أبي عامر هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور (٤١١-٤٥٢هـ/ ١٠٢١-١٠٦١م)، الذي كان من أكثر الناس صلة لرحمه، حيث جمع قرابته، وآواهم، وأحسن إلى فقيرهم. وكانت له صلات طيبة- لأول أمره- بالقاسم بن حمود بقرطبة، ولاطفه بهدية حسنة، فتقبله الرجل بقبول حسن. وعندما نازعه مجاهد العامري صاحب دانية الأمر، وضيق عليه، استعان بالجيوش النصرانية؛ إذ كانت له صلة بهم من جهة جدته لأبيه(٢) .

ولي عبد الملك حكم بلنسية بعد وفاة والده عبد العزيز، وتزوج ابنة ليحيى بن ذي النون (المأمون)، وقام بتدبير بلنسية كاتبُ والده عبد العزيز المعروف بابن رويش القرطبي(٣) إلى أن استولى الفونسو السادس على طليطلة، وغدا القادر تحت حمايته ووصايته. وفي هذه الأثناء ظهر على مسرح الأحداث فارس قشتالي اسمه رودريجو، عُرف بين المسلمين الذين كان يخدم بينهم ويحارب معهم بـ (السِّيد) El Cid وهو تحريف لكلمة (السيد) العربية، ووصف بالكمبيادور El Campeador بمعنى المحارب الباسل. وكان هذا الرجل يخدم ملوك ليون، ويؤيد سانشو ضد أخيه الفونسو، ونُفي إلى

---

(١) التاريخ الأندلسي للدكتور الحجي ص ٣٦٦-٣٦٧ .

(٢) الذخيرة لابن بسام ٥ / ٢٤٩ - ٢٥٠، والبيان المغرب ٣ / ١٦٤-١٦٥، وأعمال الأعلام ص ١٩٤-١٩٥ .

(٣) المصدر السابق: ص ١٩٥-١٩٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بلاط سرقسطة بعد أن صار الأمر إلى الفونسو ملك قشتالة وليون، فتكلم العربية، واستخدمه بنو هود في أعمالهم العسكرية. فلما سقطت طليطلة، قاد مجموعة من قطاع الطريق، وتوجه نحو بلنسية الضعيفة بتأييد من الفونسو بعد تصالحهما، وقام بحصارها إلى أن تمكن من السيطرة عليها سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م(١)، وأقام بها مجازر بشعة، لعل أشدها وأنكاها إصداره حكمًا بالموت حرقًا على قاضي بلنسية أبي أحمد جعفر بن جَحّاف، وبعض كبار أهلها سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م(٢).

٤- **إمارة إشبيلية**: يعد بنو عباد أمراء إشبيلية من العرب الداخلين إلى الأندلس من لَخْم، وانتقلوا- بعد تفرقهم في أقطار الأندلس- إلى إشبيلية، وصارت لهم وجاهة ونباهة في دولة الحكم المستنصر، وابنه هشام، وحاجبه المنصور(٣).

ولي القاضي أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عباد اللخمي قضاء إشبيلية من قبل المنصور، ونجح في الحفاظ على إشبيلية في الفتنة المندلعة آخر القرن الرابع الهجري، وبداية القرن الخامس/ الحادي عشر الميلادي. وفي دولة بني حمود ولاه القاسم بن حمود قضاء إشبيلية أيضًا، فاحتفظ بمنصبه، ثم ولي إشبيلية ووطد نفوذه بها في خلافة القاسم بن حمود على قرطبة (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م)، ثم انفرد بزعامة بلده حتى وفاته (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)(٤).

تقع إشبيلية غربي الأندلس، وقد حاول المعتضد (عباد بن محمد بن

---

(١) البيان المغرب ٣ / ٣٠٥، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور مؤنس ص ٣٦٥، ودولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لعنان ص ٢٣٢ وبعدها.
(٢) الحلة السيراء ٢ / ١٢٥-١٢٦، والبيان المغرب ٣ / ٣٠٦، وأعمال الأعلام ص ٢٠٤-٢٠٥.
(٣) المصدر السابق: ص ١٥٢.
(٤) الذخيرة لابن بسام ٣ / ١٤ وبعدها، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٥٢، والبيان المغرب ٣ / ١٩٣-١٩٤.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

إسماعيل) توسيع إمارته حتى شملت معظم حوض الوادي الكبير وما يليه جنوبًا، وكان يطمع في ضم الإمارات الصغيرة غربي الأندلس بزعم توحيدها، لكن حروبه أمام صاحب بطليوس (المظفر بن الأفطس) شجعت الفونسو السادس على مهاجمة ديار المسلمين. وكان المعتضد (ت٤٦١هـ/ ١٠٦٩م) رجلاً لا يقيم للأخلاق وزنًا، وكل همه جمع الأموال، وتدبير المؤامرات لجيرانه المسلمين، وفي الوقت ذاته يدفع الجزية ذليلاً لـ (فرنندو الأول، والفونسو السادس) لاسيما بعد هلعه وفزعه بسقوط طليطلة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)[1] .

بعد وفاة المعتضد ولي ابنه المعتمد (محمد بن عباد)، وبلغت دولته قمة شهرتها، وضم قرطبة، ومالقة، ومرسية، واستصفى الإمارات الصغيرة جنوبي الوادي الكبير. وهذا الرجل كان كوالده منغمسًا في الشراب والملذات والشهوات، وإسالة الدماء لتحقيق الأطماع الشخصية. وقد سقطت إمارته على يد المرابطين سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، وقام يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين الداخل إلى الأندلس لإنقاذها من النصارى، والحكام الممالئين لهم بنفي المعتمد إلى أغمات (جنوب شرقي مراكش)، حيث قضى بقية عمره متحسرًا، إلى أن توفى سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م.[2]

على الرغم من الهوة السحيقة التي انحدر إليها حكام الطوائف أخلاقيًا ودينيًا وسياسيًا وحربيًا، وبالرغم من صراعاتهم الداخلية وحروبهم المتبادلة مع الخنوع والخضوع للنصارى وحكامهم، فإن عصرهم لم يخل من نقطة مضيئة تمثلت في ازدهار العلم والأدب، وكثرة العلماء والأدباء؛ نتيجة تنافسهم على اجتذاب هؤلاء إلى بلاطهم بدافع التباهي والتفاخر فيما بينهم.

.خيرة ٣ / ٢٣- ٤١، وأعمال الأعلام ص ١٥٥-١٥٧، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٠-٣٧٠ .

.خيرة ٣ / ٤١ وبعدها، وأعمال الأعلام ص ١٥٧-١٥٩، ١٦٣-١٦٤ .

فظهر علماء كثيرون أغرقوا في دراساتهم ومؤلفاتهم؛ كي ينسوا الواقع البغيض لأمتهم وأوطانهم. وممن بلغت شهرتهم الآفاق في بلاط إشبيلية ذو الوزارتين محمد بن عمار صاحب المعتمد بن عباد، وجليس أنسه وشاعر الأندلس بلا مدافع(١). وفي سرقسطة برع بعض حكامها، كالمقتدر، وابنه يوسف في الفلسفة والرياضيات، والفلك(٢) . وفي قرطبة ظهر ابن حيان المؤرخ العظيم (٣٧٧-٤٦٩هـ/ ٩٨٧-١٠٧٦م). وفي طليطلة ظهر علماء الفلك، والزراعة مثل: الزَّرْقالي صاحب الجداول الفلكية، وصاعد صاحب (طبقات الأمم)، وغير هؤلاء كثير(٣) .

السمات العامة لعصر ملوك الطوائف:

أولاً: هذا العصر مثال لما انحدر إليه حكام المسلمين في الأندلس في الجانب الأخلاقي من خمر ونساء، ولهو وانحراف، وموالاة للأعداء وأنانية مفرطة، ورغبة جامحة في جمع الأموال. يضاف إلى ذلك الصراعات الداخلية على سدة الحكم، إلى جانب الصراع الخارجي بين الإمارات المختلفة، كل يبغي التوسع على حساب الآخرين. وفي الوقت ذاته تجد تخاذلهم المهين أمام ملوك النصارى، حتى وصل بهم الأمر إلى دفع إتاوات لهم، والقعود عن نصرة إخوانهم المسلمين في الولايات الأخرى. وذلك كله شجع ممالك النصرانية على زيادة رقعتها على حساب بلاد المسلمين، بل تضاعفت مساحاتها مرات، وثرواتها عشرات المرات، كما حدث في (أرجون، وقشتالة، وليون).

---

(١) الحلة السيراء لابن الأبار ٢ / ١٣١-١٦٥ (ترجمة مفصلة برقم ١٣٣) .

(٢) راجع التفاصيل في دولة الإسلام في الأندلس (دول الطوائف) لعنان ص ٢٩٤-٢٩٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٣٥، والتاريخ الأندلسي للدكتور الحجي ص ٤١٤ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ثانياً: كان حكام الطوائف من السفاهة في الإنفاق، بحيث بددوا ما خلفه حكام الأندلس في (فترة الازدهار)، فكانوا يقدمون مقادير كبيرة من الذهب على هيئة إتاوات، تدفع إلى ملوك النصارى، فاستفاد الأعداء من ذلك في تكوين وتسليح وإعداد الجيوش وتعمير المدن والأراضي، حتى اغتنى الأعداء وافتقر المسلمون.

ثالثاً: استتبع فساد الأمراء فساد الوزراء والموظفين، وانتقل الفساد والانحلال بدورهما إلى عامة الشعب، فظهر التحلل من الدين، وشاع الغش والتزوير في العملة، وشح الأغنياء بأموالهم، فامتنعوا عن دفع الزكاة وانتشر التعامل بالربا، والاستخفاف بالدين، والإباحية[1].

رابعاً: إذا كان ما مضى يذكر في جانب السلبيات، فإن النقطة المضيئة في هذا العصر تتمثل في اهتمام ملوك الطوائف- بدافع الغرور، وإظهار السلطة، والأبهة والتفوق على الأمراء الآخرين- بالشعر والشعراء، والعلم والعلماء، فظهر عدد من الكتاب والعلماء الذين خدموا في بعض الإمارات، وحاولوا تناسي الواقع البغيض بالإغراق في طلب العلم والتأليف فيه. ومن هؤلاء: أبو الوليد بن زيدون الذي كان في وزارة بني جهور بقرطبة، ثم ساءت حاله، فغادرها إلى إشبيلية سنة ٤٤١هـ، فأكرمه المعتضد. وكذلك أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر صاحب كتاب (بهجة المجالس وأنس المجالس)، الذي نظمه المعتمد في سلك وزرائه، وكان كاتبه إلى الرؤساء[2].

وكان سرقسطة في عهد بني هود كإشبيلية في عهد بني عباد مركزاً لحركة علمية وأدبية زاهرة، وكان حكامها يرعون العلوم والآداب، بل إن بعضهم

---

(١) راجع عناصر الضعف في ذلك العصر في كتاب: (العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف) للدكتور رجب عبد الحليم ص ٢٨٢ - ٣٠١.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس حتى الفتح المرابطي، لعنان ص ٥٧ - ٥٨.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

نبغ في ميـدان الفكر والعلوم، مثل: المقتـدر، وولده يوسف اللذين برعا في الفلسفة والرياضيات والفلك. وكـذلك نبغ المفكر السياسي والفيلسوف أبوبكر الطرطوشي، وهو صاحب (سراج الملوك) ذي النظريات والموضـوعات المبتكرة في أسس سياسـة الحكم في التفكير الإسلامي. ومن أدباء وشعـراء سرقسطة في ذلك العـصـر: ابن الدباغ، وابن حسـداي، وأبو عـمـر بن القـلاس، وغيرهم[١] .

وفي (قرطبة) ظهـر المؤرخ الأندلسي العظيم ابن حيان (٣٧٧-٤٦٩هـ)، والحافظ ابن عبد البـر (٣٦٨-٤٦٣هـ)، والجغرافي العُذريّ (٣٩٣-٤٧٨هـ)، الذي يعد أحد الرؤساء الأعلام .

وفي بلاط (طليطلة) اشـتهـر علماء الفلك، والزراعـة، مثل: الزَّرقـالي صاحب الجداول الفلكيـة. وهناك (صاعد الأندلسي) صاحب كتـاب (طبقات الأمم). وهكذا، كان العلم مزدهراً رغم الأوضـاع السياسية والحربيـة المتدنية في ذلك العصر؛ لأن الشعب كان لا يزال يتحرك بقوة الدفع السابقة في عصر الازدهار، والعلماء كثيرون، والأمراء الحاكمـون محبون للعلم مشجعون له، وكـان الوزراء من العلمـاء والأدباء، والأندلس بلد مثـقف وأهلوه مـحبـون للعلم. ومن هنا ظهـرت مـوسوعـات ومؤلفـات كـبار، وتلك حـسنة ذلك العصر[٢] .

***

(١) دولة الإسلام في الأندلس حتى الفتح المرابطي، لعنان ص ٢٩٤-٢٩٥ .
(٢) التاريخ الأندلسي، للدكتور الحجي ص ٤٠٩ - ٤١٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفصل الثاني

المرابطون في المغرب والأندلس

(٤٥١-٥٤١هـ / ١٠٥٩-١١٤٧م)

تقديم:

قبل تناول دولة المرابطين في بلاد المغرب والأندلس من حيث النشأة والتطور، والدور الجهادي والحضاري الذي لعبته في القرنين الخامس والسادس الهجريين، نشير إشارة مجملة إلى الأحداث السياسية التي أعقبت خروج الفاطميين من بلاد المغرب متجهين إلى مصر، متخذين من العاصمة القاهرة التي بنوها مقرًا لخلافتهم في الشرق .

حرص المعز لدين الله الفاطمي أن يولي زعيمًا بربريًا مؤيدًا للفاطميين شئون إفريقية، وما يفتحه من بلاد المغرب الأوسط نيابة عنه، فوقع اختياره على أبي الفتوح بُلُكّين (يوسف) بن زيري بن مَنَاد الصِّنْهاجي (٣٦٢-٣٧٣هـ)[١] على أن يظل تابعًا للفاطميين تمامًا يحكم باسمهم، ويتلقى الأوامر منهم، إلا أنه يمكن القول: إن الرجل كان يحكم حكمًا شبه مستقل - في الحقيقة- بدليل ما ذكره ابن خلدون بهذا الصدد حيث قال ما نصه: «وأنفذ أمره في الجيش، والمال، وأطلق يده في الأعمال»[٢]. وهكذا، مر المغرب بأطوار متعددة نحو الحكم المستقل، فقد مضت محاولات لحكم بلاد المغرب قام بها العرب البلديون، ثم العرب المؤيَّدون من جند العباسيين (المهالبة)، ثم المستظلون بسلطان الخلافة العباسية (الأغالبة)، ثم العرب المؤيَّدون بقوة عسكرية بربرية (الفاطميون). وفي عهد بني زيري يحكم المغرب - لأول مرة- رجل من صميم أهل المغرب من أسرة بربرية أصيلة مستعربة، مثَّلت

---

(١) راجع: العبر لابن خلدون ٦ / ٢٠٦-٢٠٧، والبيان المغرب لابن عذاري ١ / ٢٢٨ وبعدها .

(٢) العبر لابن خلدون ٦ / ٢٠٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

مرحلة انتقالية سبقت قيام الدول المغربية المستقلة الكبرى (مثل: دولة المرابطين، والموحدين)[1]. ولا أريد الاسترسال في هذه العجالة القصيرة مع تفاصيل أحداث دولة بني زيري الصنهاجيين، إلا أنني أخلص- في النهاية- إلى بلوغ نزعة الاستقلال إلى منتهاها في عصر المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣هـ)[2] ، الذي ألغى المذهب الشيعي في المغرب جملة سنة ٤٤٠هـ، وأعلن في القيروان العودة إلى المذهب السني المالكي، فابتهج الناس بذلك كل الابتهاج، وثاروا على من كان من الشيعة بالقيروان. ثم راسل المعز بن باديس الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٤٧هـ) يطلب إليه توليته على إفريقية والمغرب، فاستجاب له. وبذلك وصلت الأمور إلى النهاية المتوقعة منذ مغادرة الفاطميين بلاد المغرب، وغرقهم في مشكلات مصر والشام، وصراعهم مع الخلافة العباسية في بغداد.

كان رد فعل الخلافة الفاطمية عنيفًا ضد المعز بن باديس ودولته عمومًا، إذ حرضت في عصر المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ) ووزيره أبي محمد الحسن بن علي اليازوري قبائل بني هلال وبني سُليم على دخول إفريقية ومواجهة الزيريين بها، والقضاء على دولتهم التي عادت الفاطميين، وتركت المذهب الشيعي، واستقلت عن التبعية لهم، وصارت تابعة موالية للخلافة العباسية. وقد كانت غالبية المهاجرين إلى المغرب من بني سليم، إلا أن اسم بني هلال غلب عليهم جميعًا؛ لأنهم كانوا أوغل في البداوة وأعنف من بني سليم في معاملة الناس، وإنزال الضرر بهم. هذا، وقد وصل بنو هلال إلى برقة سنة ٤٤٣هـ، فوجدوها خالية تقريبًا من السكان؛ نتيجة الحروب الطويلة التي دارت بين أهلها من زناتة وقوات بني زيري الصنهاجيين، فاستقر البعض

(١) تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول، الجزء الأول ص ٥٦٨ .

(٢) راجع عنه: العبر لابن خلدون ٦ / ٢١٠-٢١١، والبيان المغرب ١ / ٢٧٣ وبعدها، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١٤٦، والتطور السياسي للمغرب للدكتور طاهر راغب ص ٢٠٨ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

في برقـة، وانطلق الآخرون إلى طرابلس وإفـريقيـة دون أن يلقـوا مقـاومة، واستـقروا في طرابلس بزعامـة مؤنس بن يحيى الرياحي شـيخ بني رياح أحد فروع بني هلال، وكـان بدويًا شجـاعًا له سلطة كبـيرة على جنوده وأتبـاعه، وطمع في ملك بني زيري، وأراد بنو هلال التوغل في أراضيهم وكانوا يقدرون بعشـرات الآلاف، وكان هؤلاء البـدو الأجـلاف لا يمرون بشيء إلا خـربوه ودمروه وأتوا عليه، فعلوا ذلك ببرقة وأجدابية وطرابلس وفزان، وسادوا معظم سكان هذه النواحي واختـلطوا بهم. لقـد تصور المعـز بن باديس خطأ أنه يمكن الاستعانة بهؤلاء الأعراب في مواجهاته ضد خصومه، إلا أنه فوجئ بهم بزعامة مؤنس بن يحيى الريـاحي يخربون ويحرقون، وينسفـون المزارع دون رحمة ولا هوادة، فقبض على مؤنس المقـيم بالقيروان، وطالبه بالخروج بقومـه من إفريقية إلا أنه فات الأوان، وتشبث هؤلاء بإفريقية، فدارت رحى معركة حامية الوطيس بين أهل إفريقية بقيادة ابن باديس، والعـرب الهلالية عند مكان يسمى (حيدران) قرب قابس في ذي الحجة سنة ٤٤٣هـ، وعلى غير المتوقع هُزم جيش ابن باديس الجرار رغم كثرة الجند ووفرة السلاح وكثرة الخـيل؛ نتيجة خيانة العرب البلديين في جـيش المعـز، وتم القضـاء على جـيش ابن باديس تمامًـا، ونجـا من الموت بأعجوبة، وتراجع مـتحصنًا بالقيـروان، فحاصره بنو هلال بهـا، فانسحب إلى المهدية، بينما نجح الهـلاليون في دخول القيروان، فعم القتـل والتخريب البلاد والعباد، وتفرق الآخـرون الباقون فارّين بأرواحهم التي حصد الهـلاليون الكثير منها، وذلك سنة ٤٤٦هـ. وقضى ابن باديس آخر سنوات حكمه سجينًا بالمهدية إلى جانب شريط من الأرض حولها حتى توفى سنة ٤٥٣هـ[1].

---

(١) راجع تفاصيل الغزوة الهلالية ونكباتها الدامية في: البيان المغرب لابن عذاري ١ / ٢٨٨ وبعدها، وتاريخ المغـرب وحضارته: المجلـد الأول، الجزء الأول، ص ٥٩١ وبعدها، ودراسـات في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسن علي ص ١٦٢-١٧٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

مثلت الأعمال الهمجية لبني هلال نكبة كبرى وخرابًا أكبر لبلاد المغرب، وقضت على عمرانه وعلى ما بذل في الدول الماضية من جهود مضنية لبناء الحضارة المغربية، إلا أنهم ساهموا بدور كبير في تعريب تلك البلاد بعد انتشارهم الكبير في السهول والجبال والسواحل ومصاهرتهم أهل البلاد، واختلاطهم بهم اختلاطًا تامًا، وبذلك أثروا في الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في المغرب[1].

قائمة بحكام المرابطين:(*)

١- يوسف بن تاشفين أمير المسلمين (٤٥٣-٥٠٠هـ).

٢- علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠-٥٣٧هـ).

٣- تاشفين بن علي (٥٣٧-٥٣٩هـ).

٤- إبراهيم بن تاشفين (دامت إمارته أسابيع خلال سنة ٥٣٩ أو ٥٤٠هـ).

٥- إسحاق بن علي (قتل على أيدي الموحدين في مراكش سنة ٥٤١هـ).

التعريف بقبائل صنهاجة:

بعد النصف الثاني من القرن الهجري الرابع/ العاشر الميلادي كانت تعيش في أقصى جنوبي المغرب، فيما يلي نهر درعة جنوبًا وفي الصحراء

(١) تاريخ المغرب وحضارته: المجلد الأول، الجزء الأول ص ٦٢٨ وبعدها، ودراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٧٠-١٨٠.

(*) تاريخ المغرب وحضارته: المجلد الثاني، الجزء الثاني ص ٧. ويلاحظ أني اعتمدت في صياغة تاريخ المرابطين على: البيان المغرب لابن عذاري (الجزء الرابع)، والحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي ص ١٧ وبعدها، ودولة الإسلام في الأندلس (العصر الثاني: دول الطوائف حتى الفتح المرابطي) لمحمد عبد الله عنان ص ٢٩٨ وبعدها، والمجلد الخاص بعصر المرابطين، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١٥٧-١٧٥، ١٨٦، وتاريخ المغرب وحضارته: المجلد الثاني، الجزء الثاني ص ٩ وما بعدها.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

التي تليهـا جنوبًا التي تمتد إلى حوض السنغال، كـانت تعيش مجـموعة من القبائل الصنهاجية تسمى بصنهاجة الصـحراء. أهمها: جدالة ومسوفة ولمتونة وتارجـا ولمطة وجزولـة وبنو وارث. كانت تعـيش حـياة شـظف وجهـد في الشـريط الصحـراوي الأطلسي بعد أن طـردها الزناتيون إلى أقـصى الجنوب وأخرجوها من نواح مـثل تافيلالت، وأصبـحت في صحرائها مـحصورة بين سود حوض السنغال وزناتة المغـرب. وكانت قبائل عفية كثـيرة العدد، تعيش على الرعي وقليل من الزراعة، وكـانت قد دخلت الإسلام، ولكن إسـلامها كان سطحـيًا، في حاجة إلى عـمق وفهم. وكان زعمـاء بعضها مـثل جدالة ومسـوفة ولمتـونة على جانب كـبيـر من بعد الهمـة، والتطلع إلى كـسر هذا الحصار المضروب حولها.

وطول هذه الصحراء التي سكنتـها قبائل صنهاجة الصـحراء حوالي ألف كيلومتر، تقطعها القوافل في شـهر لتصل إلى حوص نهر السنغال، وهو أول أنهار إفـريقية المدارية الغـربية شمـالاً، وجدير بالذكر أن لفظ سنغـال صورة برتغالية مـحرفة لاسم صنهاجة، فـقد نطقها البرتغـاليون لأول وصولهم إلى هذه السواحل سنهاجال Senhagal ثم سنجال Senegal .

في ذلك العصـر- أوائل القرن الخامس الهـجري/ الحادي عشـر الميلادي- كانت الرياسـة بين القبائل الصـنهاجيـة التي أشرنا إليهـا لقبيلة جـدالة، وكان يتزعمها إبراهيم بن ترغوت، وخلفه في الرياسة ابنه عمر ثم حفيده يحيى. وقد خرج للحج يحيى بن عمـر بن إبراهيم بن ترغوت الجدالي سنة ٤٢٧هـ، ولقي في طريق عودته أبا عمران الفاسي، وكان من أكبر فقهاء المالكية في القيروان في عصره. واسـتمع يحيى بن عمر الجدالي إلى دروسه، فـتاقت نفسه إلى أن يرى في بلاده فقـيهًا مثله، يلقي دروسـه في منازل قبيلته، ويعلمـهم الكتاب والسنة

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ويفقههم في الدين، فتحدث إلى أبي عمران الفاسي في ذلك .

كان يحيى بن عمر يفكر في الوقت نفسه في أمر آخر إلى جانب اهتمامه بالعلم والفقه، وهو إنقاذ المجموعة الصنهاجية التي ينتسب إليها من استبداد الزناتيين وطغيانهم.

وكانت القبائل الصنهاجية الكبرى تعاني كثيراً من تلك السيادة الزناتية، وكان يسودها خوف على المصير؛ لأن سيادة القبيلة على قبيلة أخرى لمدة طويلة، تنتهي بهبوط القبيلة المستضعفة إلى مستوى الرعايا المحكومين الخاضعين، وهذا نذير بزوال أمر القبيلة؛ نتيجة لانكسار قوتها وطول العهد باستذلالها .

هذا الخوف كان بعض السبب الذي حفز يحيى بن عمر بن إبراهيم الجدالي إلى البحث عن شيخ يعلم رجال قبيلته شرائع الإسلام، ويجمع كلمتهم وينور أبصارهم؛ لأن العلم نور للبصائر وتنبيه للأذهان، وإخراج للناس من غفلة الجهالة إلى يقظة العلم.

وكان يحيى بن عمر يرجو أيضًا أن يتنبه قومه من صنهاجة الصحراء، إلى خطر الحصار الذي يضربه عليهم من الجنوب أهل السودان، ويسجنونهم في صحرائهم القاسية، ويحولون بينهم وبين الانتشار في الأراضي الخصيبة في وديان أنهار السودان الغربي .

تحدث يحيى بن عمر إلى أبي عمران الفاسي في إرسال أحد تلاميذه معه، ولكن أحداً من أولئك التلاميذ لم يستجب للدعوة لبعد المسافة وخطورة المغامرة، وفي النهاية وجد تلميذاً شابًا من تلاميذه قبل القيام بهذه المهمة يُسمى عبد الله بن ياسين الجزولي.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عبد الله بن ياسين المجاهد المرابطي :

نهض عبد الله بن ياسين لأداء مـهمته، وتوجه إلى منازل قـبيلة جدالة، وبدأ يعمل، وتكشف عن رجل نشـيط متحمس واسع المطامح. فلم يقـتصر على تعليم الجداليين شعائر الدين، بل أراد أن يهذب أخلاقهم ويخرجهم عن حيـاة الخشونة والبدائيـة التي كانوا يعيـشون فيهـا. ووضع لهم نظامًا للآداب العامة، وأخذهم بالشدة. وكان الجداليـون كثيرين وكانوا أهل فوضى وجفوة وقلة نظام، فلم يلبثوا أن ثاروا على عبد الله بن ياسين وأخرجوه من بلادهم؛ لأنهم لم يتحملوا عنفه وشدته .

كان ابن ياسين رجلاً واسـع العلم بعيد الطموح شديـد الذكاء، وسبق له أن زار الأندلس ودرس فيـه علومًا شتى، وعنـدما عاد إلى المغـرب قطعه من الشمال إلى الجنوب، ومر في طريقه بريف تامـسنا، ورأى كيف أن جماعات الصنهاجيين هناك ترزح تحت وطأة الزناتيين، وقدر جنود الزناتيين هناك بما لا يزيد على ثلاثـة آلاف، وأدرك أنه من الممكن التـغلب عليـهم وإقـامـة دولة لصنهاجة هناك، وبعد ذلك بسنـوات، عندما توجه إلى منازل لمتونة أحس أن فرصـته قد حانـت ليحقق ما كـان يجول في ذهنه، وهنا تجلى عـبد الله بن ياسين عن شخصية رجل سياسي مؤهل للقيام بحركة سياسية كبيرة .

كان عـبد الله بن ياسين -كما ذكـرنا- رجلاً نشيطًا ومغـامرًا سياسـيًا لا يهاب شيـئًا، وكان عظيم الإيمان بالإسلام، وكانت فيـه شدة في حمل الناس على إقامة شعائر الدين، حتى كان يوقع العقوبات البدنية على من يتراخى في أدائهـا. وقـد أفاد يـحيى بن عـمـر من مـواهب عـبـد الله بن ياسين؛ لأن الشخـصية المهيـبة التي كان يتمـتع بها هذا الأخيـر، كانت ترغم الناس على

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الطاعة ليحيى، وكان يحيى من ناحيته لا يدخر وسعًا في تقديم العون لعبدالله بن ياسين.

وعندما تأكد عبد الله بن ياسين من أنه كون حوله جماعة من المخلصين خرج بهم إلى جزيرة في المحيط، قرب مصب وادي السنغال في الغالب. لكي يفرغوا لأمور العبادة. وهناك أنشأ رباطًا لم يلبث أن اتسع وكثر الناس فيه. فلما رأى عبد الله بن ياسين وفرة أعدادهم وحماسهم، قال لهم: «اخرجوا فأنتم المرابطون!» هذا رأى في أصل تسمية المرابطين، ولكن هناك من يقولون: إن عبدالله بن ياسين أطلق عليهم هذا اللقب بعد انتصارهم في إحدى معاركهم.

عندما اكتمل عدد هؤلاء الرجال الأشداء المخلصين ألفًا، أمرهم عبدالله ابن ياسين بالخروج من معتصمهم هذا في الجزيرة إلى البر والسير للجهاد، وانضمت إليهم أعداد غفيرة من الجداليين واللمتونيين وغيرهم، وكان ذلك في سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م، وكانت القوة والقيادة في تلك الجماعة المرابطية الأولى للمتونة، فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر من بين القبائل الكثيرة، التي تكونت منها مجموعة قبائل صنهاجة الصحراء.

هنا تظهر صفة أخرى من صفات عبد الله بن ياسين الكثيرة: صورة القائد العسكري الماهر الذي يُحسن قيادة الجيوش وترتيب المعارك، ويبدي في ذلك الميدان مهارة لا بأس بها، وكانت الخطوة الأولى أمامه القضاء على سلطان المغراويين الزناتيين الذين كانوا يسيطرون على المغرب الأقصى.

عبر عبد الله بن ياسين على رأس رجاله الصحراء متجهًا إلى الشمال، واستخلص سجلماسة، واسترسل إلى الشمال ونزل سهل مراكش سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م.

بعد ذلك ارتد عبد الله بن ياسين إلى الجنوب، فعبر الصحراء، وهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال، وانتصر عليهم، وفتح بذلك أمام قبائل صنهاجة البربرية أبواب إفريقية المدارية، أي: إن ذلك الرجل كسر الحصار الذي كان مضروبًا على صنهاجة الصحراء، وفتح أمامها أبواب التوسع شمالاً وجنوبًا، فأخذت قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة تتوسع جنوبًا، ومعنى ذلك أن الإسلام كسر الحاجز المنيع ووصل إلى شعوب إفريقية السوداء من هذه الناحية، وذلك حادث تاريخي عظيم الأثر والمغزى، أعقبه استشهاد ابن ياسين سنة ٤٥١هـ.

أحوال قبيلة لمتونة بعد ابن ياسين:

عندما قتل عبد الله بن ياسين كان سلطان أبي بكر بن عمر وقبيلته لمتونة قد استقر وخضعت له كل قبائل لمتونة الصحراء، أي: إن عبد الله بن ياسين أتم مهمته قبل موته، ووحد صفوف الصنهاجيين تحت راية الجهاد في سبيل الله، وقاد خطواتهم الأولى في الانتصار على الزناتيين في الشمال وقبائل إفريقية المدارية السوداء في الجنوب، وأخرجها من الفوضى والتفرق إلى الانتظام والوحدة، وأشعرها بقوتها، وأعطاها غايات وأهدافًا دينية وسياسية واضحة، ورسم لها الطريق لتحقيق هذه الغايات والأهداف.

سار أبو بكر بن عمر بالحركة في طريقها، وكان يستعين في عمله بالظاهرين من قرابته وأهل بيته، خاصة ابن عمه يوسف بن تاشفين، وكان إذ ذاك شابًا واسع الطموح.

شرع أبو بكر بن عمر في بناء قاعدته سنة ٤٦١هـ/ ١٠٦٨-١٠٦٩م، وأطلق عليها اسم مراكش، وهي بالبربرية مروكش ومعناه قصر الحجر؛ لأن مباني المدينة أقيمت بالحجر، وما لبثت المباني الرئيسية في المدينة أن تمت،

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ومضى الناس ينشئون البيوت والأسواق، وهكذا نرى كيف أن هذا الرجل الذي ولد في حوض نهر السنغال في إفريقية المدارية، عرف بفضل إيمانه بالإسلام ودخوله في حضارته، أن يضيف إلى تاريخ الحضارة الإسلامية مدينة من أجمل مدائن الإسلام، وأوفرها بركة وأشهرها في الدنيا، وهي مدينة مراكش الزاهرة إلى اليوم.

بينما كان أبو بكر بن عمر يرقب العمل في بناء مدينته الجديدة بعد أن تزوج بزوجة جميلة تسمى زينب بنت إسحاق النفزاوية، بلغه خبر أزعجه، خلاصته أن قبيلة جدالة وثبت بقبيلة لمتونة في الصحراء، وأنزلت بها مذبحة، فقرر العودة مسرعًا إلى منازل القبائل الصنهاجية في الصحراء لإنجاد لمتونة. وقبل رحيله جمع رؤساء قومه، وطلب إليهم أن يختاروا من بينهم رئيسًا لهم يقوم بأمرهم في غيابه، فاختاروا ابن عمه يوسف بن تاشفين، وكان تاشفين والد يوسف أخًا ليحيى وأبي بكر ابني عمر بن إبراهيم بن ترغوت.

ترك أبو بكر بن عمر ثلث القوة المرابطية مع يوسف بن تاشفين، وأخذ الثلثين ومضى إلى منازل لمتونة وجدالة وراء الصحراء سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م.

من ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين قسمين: واحد منهما شمالي، مركزه سهل مراكش، وميدان نشاطه المغرب ثم الأندلس ويقوده يوسف بن تاشفين، والثاني يعمل في إفريقية المدارية الغربية، ويقوده أبو بكر بن عمر. ونظرًا لبُعد الشقة بين القسمين؛ لأن الصحراء تفصل بينهما، فقد مضى كل من القسمين في طريقه يعمل بنشاط. فأما القسم الشمالي الذي يقوده يوسف ابن تاشفين، فهو الذي سنتتبع تاريخه الآن، وأما القسم الثاني الجنوبي فقد تابع مسيرته ونشاطه في فتح السبل لانتشار الإسلام في إفريقية المدارية، وكان له دور عظيم في ذلك المجال.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين في المغرب والأندلس:

(٤٦٣-٥٠٠هـ / ١٠٧١-١١٠٧م):

يعد يوسف بن تاشفين من أعاظم الرجال الذين أنجبهم المغرب الإسلامي، وكان لهم أبعد الأثر في توجيه تاريخه، وقد قام بدور أساسي في إنشاء المغرب الأقصى، وإعطائه حدوده الطبيعية التي ثبت عليها في التاريخ، فهو الذي وحد نواحيه من الصحراء الكبرى إلى ساحل البحر المتوسط، ومد حدوده من ساحل المحيط إلى شرقي نهر المولوية، وضم إليه إقليم تلمسان والجزء الغربي من المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر، ولم تصبح تلمسان وذلك الجزء الغربي من المغرب الأوسط جزءاً من المغرب الأقصى، ولكن يوسف بن تاشفين بعمله هذا قام بالمحاولة الأولى لتوحيد أكبر جزء من بلاد المغرب تحت لواء واحد، وهي محاولة سيتابعها الموحدون فيما بعد، وستظل دائمًا نقطة البداية في إنشاء ما يُسمى بالمغرب العربي الكبير.

يمتاز يوسف بن تاشفين بالخصائص الأساسية، التي تميز بها كبار بناة دولة الإسلام على مر العصور، وأولى هذه الخصائص الإيمان العميق بالإسلام وفضله ورسالته، وشعوره بأنه ينبغي أن يخدم هذا الدين وينصره ويجاهد في سبيله ويعمل على حماية عالمه من الأخطار. وثانيتها النظرة الواسعة إلى العالم الإسلامي على أنه عالم واحد مترابط، فهذا الرجل الصحراوي لم يكد يقيم دولته حتى كتب إلى الخليفة العباسي يدخل في طاعته ويستظل برايته؛ لأن ذلك كان رمزاً على وحدة العالم الإسلامي. وثالثة هذه الخصائص هي الشعور الكامل بضرورة نصرة الإسلام وحماية داره ما وسعه ذلك داخل بلاده وخارجها، وسنرى كيف أن هذا الرجل لم يكد يسمع صريخ المسلمين في الأندلس حتى أسرع فلبى النداء، ووضع إمكاناته كلها في القيام بهذه الرسالة

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الكبرى. وهي الرابعة هي إيمانه بالعروبة وعظيم قدرها وأهميتها، فقد كان يوسف بن تاشفين يعرف العربية دون أن يجيدها، ولكنه اجتهد في إتقانها وشجع العلماء والفقهاء، وحثهم على نشر العلوم العربية والإسلامية، وقرب إليه كبار الكُتَّاب والأدباء من أندلسيين ومغاربة وأدخلهم في خدمته، وانتقل نفر من علماء الأندلس وأدبائها إلى المغرب للعمل في الدولة الجديدة.

ورث يوسف بن تاشفين -عند توليه قيادة المرابطين في سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م- كل النتائج السياسية التي حققها قبله في المغرب عبد الله بن ياسين، ويحيى بن عمر وأخوه أبو بكر، فاختار لنفسه من الألقاب لقب أمير المسلمين، وهو لقب مبتكر كان هو أول من اتخذه، ولم نسمع كذلك بأن أي رئيس دولة إسلامية اتخذه، وجعل من سجلماسة قاعدة جنوبية لدولته، فأصبحت مركز تجمع للصنهاجيين الصادرين من الصحراء، واهتم كذلك بمراكش وسهلها، فاتسع العمران فيها، وأصبحت بالفعل عاصمة دولة كبيرة، وكثرت فيها المساجد والمنشآت، وتتبع بقايا المغراويين الزناتيين، الذين كانوا يسودون هذه المنطقة كلها من قبل ويجبون من أهلها المغارم، ثم مد سلطانه إلى الشمال واحتل مدينة فاس ووادي سبو، ثم هاجم بقواته معاقل غمارة وبرغواطة في جبال الريف، وقضى على زعماء مذاهب الزندقة والخروج عن الإسلام، التي كانت تعشش هناك من زمن طويل، وأخذ الفقهاء في نشر مذهب السنة والجماعة، وقد اعتبر يوسف بن تاشفين حربه لبراغوطة وغمارة جهاداً دينيًا .

أصلح يوسف بن تاشفين مدينة فاس بعد دخوله إياها، وجعلها مدينة واحدة بعد أن كانت مدينتين، وأدار عليها سوراً حصينًا، وأكثر من إنشاء المساجد. ثم استولى على ممر تازا وهو الممر المؤدي من المغرب الأقصى إلى

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

المغرب الأوسط، وعمَّر مدينة تازا في وسطه، وابتنى بها مسجدًا جميلاً لازال باقيًا إلى اليوم، ومن ممر تازا مضى يوسف بن تاشفين إلى إقليم تلمسان، وبسط سلطانه على وادي ملوية الذي يصل إلى سجلماسة جنوبًا، وواصلت قواته السير شرقًا في منازل صنهاجة المغرب الأوسط، ودخلت مدينة الجزائر وابتنى فيها مسجدًا جامعًا لازال باقيًا إلى اليوم. كانت تلك المدينة هي أقصى ما وصل إليه سلطان المرابطين شرقًا، إذ شغلتهم عن استكمال توحيد المغرب أحوال الأندلس على ما سنراه.

ثم تجرد يوسف بن تاشفين للاستيلاء على سبتة وطنجة، وكانت هذه الأخيرة عاصمة المغرب الشمالي، وكانت البلدتان في ذلك الحين من توابع الأندلس، وقد بدأت تبعيتهما للأندلس من أيام عبد الرحمن الناصر. وبذلك يكون يوسف بن تاشفين قد وحد المغرب الأقصى من حدود الصحراء جنوبي وادي درعة إلى ساحل البحر المتوسط، فإذا أضفنا إلى ذلك ما استولى عليه يوسف بن تاشفين من بلاد المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر ومجرى نهر شلف، تبينا ضخامة العمل السياسي الذي قام به هذا الرجل القدير، الذي نهض بقومه، من جماعة من المجاهدين المتحمسين، إلى مستوى أصحاب الدول الكبرى في ذلك العصر.

وقد ساس يوسف هذا الملك العريض الذي لم يجتمع لغيره من أهل المغرب قبله، بحكمة وسياسة دلت على ملكات إدراية وتنظيمية كبيرة، وكان أساس تنظيمه كله العدل، فكان يختار للولايات والإمارات خيرة رجاله، من أهل العدالة والدين من رجال القبائل الصنهاجية، ويضم إلى كل وال فقيهًا أو أكثر؛ لكي تكون أحكام رجاله كلها متمشية مع الشريعة الإسلامية، ورفع عن أهل المدن والقبائل المغارم الثقيلة التي كان الزناتيون يجبونها، وكان

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يوصي رجاله بالعدل والرفق بالناس، وكانت له شخصية مهيبة فرضت نفسها على رجال القبائل الصنهاجية، وأهمهـا في أيامة لمتونة وجدالة ومسوفة. وقد سرت روح الجهاد فـي سبيل الدين في نفوس أهل هذه القبائل كلـها، فغادر معظم الرجـال القادرين على الحرب منازلهم في الصـحراء وما يليـها جنوبًا، وانضموا إلى جـيوش المرابطين؛ إذ إن الجهاد كان عصب هذه الحـركة والقوة التي دفعتها إلى الأمام، وكان يوسف بن تاشفين رائدًا في ذلك المضمار.

المرابطون في الأندلس:

لو سارت الأمور على النحو الذي كانت عليه في (عصر الطوائف)، لضاع الأندلس كله قبل نهـاية القرن الخامش الهجـري، حين نجح ملوك النصارى في استقطاع بلاد المسلمين بلدًا بعد الآخر، وأذاقوا الناس الويلات. وماذا يجدي ما وجد في هذا العصر من علوم وآداب، إذا كان المسلمون في طريقهم إلى الفناء؟ لقد عانى المسلمون المظالم والمغارم على أيدي حكام الطوائف، فافتقروا ونزحوا عن مزارعـهم، وتركوا قـراهم، وتحصنوا داخل أسوار المدن. وأقـبل المرابطون على بلاد الأندلس، وقد ضعفت وذهب رخاؤها، ومعظم أراضيها[1].

ابن تاشفين ومواجهة نصارى الإسبان:

قـدم وفد من فـقهـاء الأندلس إلى (يوسف بن تاشـفين) من قبل أمـراء الطوائف، مستنجدين به في مواجهة النصارى. استشار يوسف فقهاء المغرب، وأهل الشـورى، فأشاروا عليـه بالجهـاد. عندئذ خَفَّ يوسف لنجـدة إخوانه المسلمين بـالأندلس، وعـبـر إلى هـناك للمـرة الأولى في (ربـيع الأول سنة ٤٧٩هـ/ يوليـه ١٠٨٦م)، وانضـمت إليـه قـوات من إشـبيليـة وغـرناطة

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٧٢ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وبطليوس. ولما سمع الفونسو السادس أنباء مجيء المرابطين، رفع الحصار عن (سرقسطة)، وكاتب ملك أرجون، وطلب النجدة من فرنسا وإيطاليا.

وكان اللقاء في (الزلاقة قرب مدينة بَطَلْيُوس) صباح الجمعة الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م. وأبلى المعتمد بن عباد- وكان من طلائع المسلمين - بلاءً حسنًا، لعله كفّر به عن بعض ذنوبه. وقد أبيدت معظم قوات النصارى، وانتصر المسلمون انتصاراً، حَدّ من تقدم النصارى، وحفظ ما بقي من بلاد المسلمين[١]. وقد دلت المعركة على قدرة المسلمين على مواجهة النصارى عند اتحاد صفوفهم، ووجود القيادة المخلصة، والنية الصادقة.

ابن تاشفين وموقفه من الأندلس بعد موقعة الزلاقة:

عادت وفود الأندلسيين وكتبهم تنهال على ابن تاشفين بالمغرب ثانية، تستنجد به لإنقاذ الأندلس من هجمات الفونسو والقشتاليين، الذي عاثوا في الأرض فسادًا، واجتاحوا المنطقة الواقعة بين (مرسية، ولورقة)، وأقاموا حصنًا ضخمًا منيعًا، وشحنوه بالسلاح والمقاتلة، واتخذوه قاعدة للإغارة على أراضي مرسية والمرية.

وقد استجاب يوسف لنداء الجهاد، وعبر بقواته إلى الأندلس ثانية في (ربيع الأول سنة ٤٨١هـ/ يوليه ١٠٨٨م)، وتلقاه المعتمد بن عباد في الجزيرة الخضراء بالمؤن والإمدادات، فقد كان يطمع في ولاية مرسية. فرض يوسف الحصار على الحصن، لكنه أثناء الحصار، الذي دام أربعة شهور دون جدوى أحس بما بين أمراء الطوائف من أحقاد وعداوات، وبلغته كثير من الوشايات، فأسَرّ في نفسه أمراً .

---

(١) راجع التفاصيل في: (دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني حتى الفتح المرابطي) ص ٣٢٠-٣٣٢، والتاريخ الأندلسي للدكتور الحجي ص ٤٠٣ وبعدها، ومعالم ص ٣٧٢-٣٧٣.

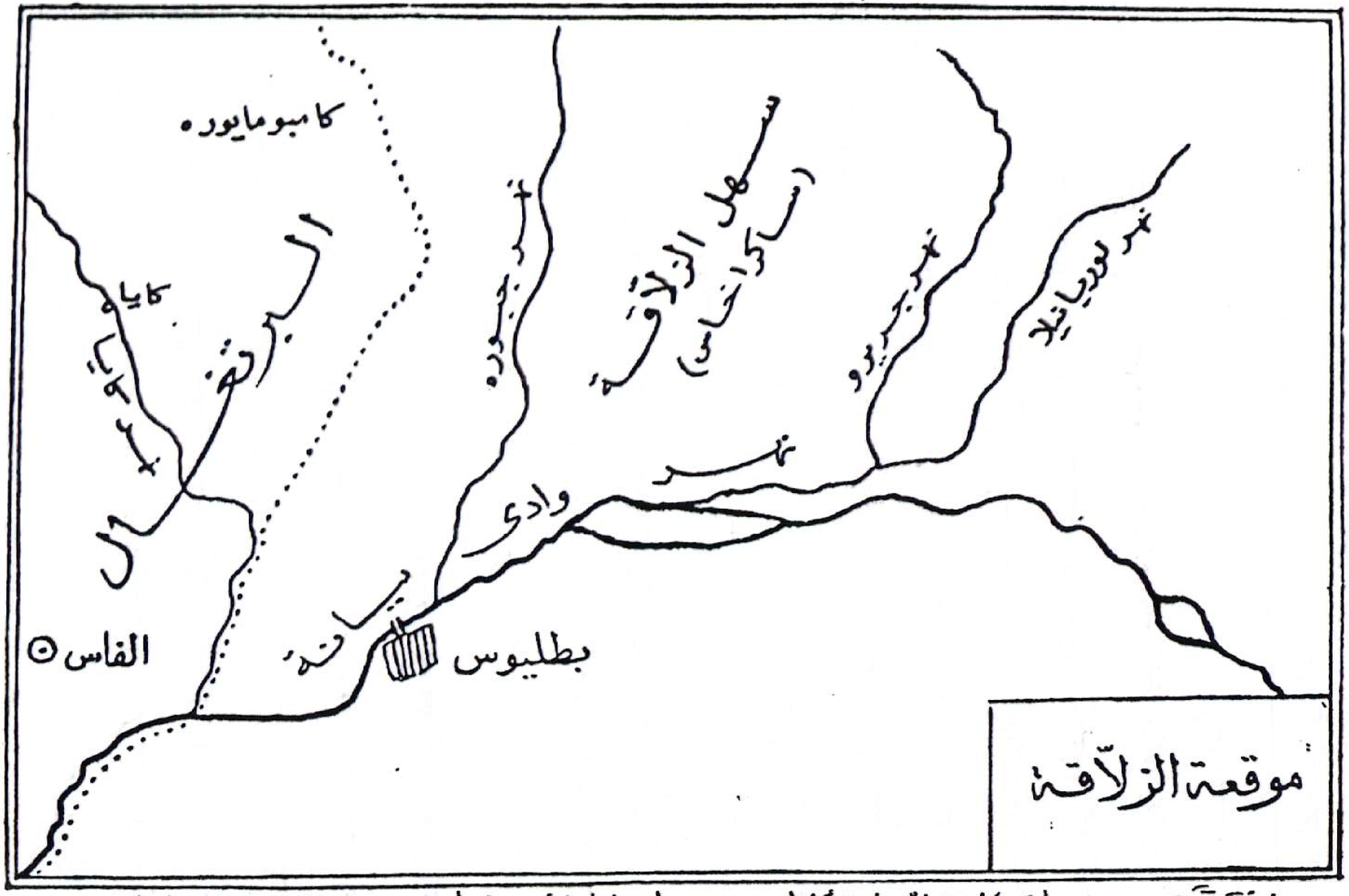

(نقلاً عن: دولة الإسلام في الأندلس - دول الطوائف) لمحمد عبد الله عنان ص ٣٢٧.

عاد ابـن تاشفين إلى الأندلس مـرة ثانية سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م بـعد أن شاور الفقهاء والزعماء، وصـدرت الفتاوى في المغرب والأندلس تجيز له خلع ملوك الطوائف[١]. ولا شك أن هناك دوافع دفـعـتـه إلى الإقـدام على تلك الخطوة، منها: إراحة الناس من فـسـاد هؤلاء الحكام، ومنازعاتهم وصراعاتهم فيما بينهم تـلك الصراعات التي أضعفتهم وأنهكـت قواهم، وأطمعت العدو فيهم[٢]. وتغير هؤلاء الحكام تجـاه يوسف لما شعروا بتغيره نحـوهم، واتفقوا فيمـا بينهم على منع المؤن عن عساكره بـالأندلس، فساءه ذلك[٣]. بالإضافة إلى رجوع بعضـهـم إلى مصادقة إلفـونسو وممالأته، واستعـدائه ضد المرابطين بالأندلس[٤]. وكـذلك فإن الأنـدلس بما تمتاز بـه من جمـال منظر، وروعـة مناخ، ووفرة ثروات لابد أنهـا راقت لابن تاشفين، فتطلع إلى امتـلاكها[٥]. وأخيرًا فإن سـيطرة المرابطين على الأندلس ضرورة إستراتيجيـة لحماية المغرب من هجمـات نصارى الإسبان، إذ سـقطت ممالك الطوائف بأيديهم؛ لأن هذا يعني سقوط جناح المغرب الدفاعي من جهة الشمال[٦].

وعلى كل، فإن ابن تاشفين سيّر جيـوشه نحو ممالك الطوائف، واستولى عليهـا واحدة بعد الأخـرى ما عدا سـرقسطة[٧]، وبذلك انتهى عـصر ملوك الطوائف، وبدأ عصر المرابطين الفعلي بالأندلس.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦ / ٢٤٩، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٢٤٧.

(٢) المعجب للمراكشي ص ١٦٢-١٦٣، وأعمال الأعلام ص ١٦٣.

(٣) تاريخ ابن خلدون ٦ / ٢٤٩.

(٤) المصدر السابق: الجزء والصفحة نفسها.

(٥) المعجب ص ١٣٨، وأعمال الأعلام ص ١٦٣.

(٦) دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني حتى الفتح المرابطي ص ٣٣٩.

(٧) تاريخ ابن خلدون ٦ / ٢٤٩-٢٥٠، ودولة الإسـلام في الأندلس، العـصـر الثاني حـتى الفتح المرابطي ص ٣٤١ وبعدها.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

المرابطون في الأندلس بعد ابن تاشفين حتى قيام الموحدين:

لا نريد الاسترسال في الحديث عن تلك الفترة، لكن يكفي أن نذكر انتصار المرابطين في معركة (أقليش) سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٨م، واستيلاءهم على (شنتبرية) القريبة من طليطلة، ومحاصرتهم حصن (أقليش)، ومقتل الابن الوحيد للفونسو السادس وولي عهده من بعده، لدرجة أن الفونسو مات متأثراً بذلك سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م .

ظل المرابطون يجاهدون ملوك النصارى على أرض الأندلس، حتى ثار عليهم المصامدة بالمغرب بزعامة (محمد بن تومرت) مؤسس دولة الموحدين، الذي قاد حملة ظالمة ضد المرابطين، ونتج عن ذلك أنهم اضطروا إلى سحب قواتهم من الأندلس؛ لمواجهة الموحدين بالمغرب، فتساقطت قواعد الأندلس من بعدهم، فسقطت سرقسطة سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م في أيدي الفونسو المحارب ملك أرغون، ثم سقطت ألمرية في يد رجال جنوة وبيشة سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م[1]. وظلت الأندلس تنتظر من ينقذها من جديد.

نظرة عامة على أوضاع الأندلس الحضارية في ظل المرابطين(*):

أ- حرص الأمراء المرابطون، ورجال دولتهم على مراعاة قيم الإسلام، والقيام بعبء الجهاد في سبيل الله، ونصرة إخوانهم في الأندلس، وتحملوا في سبيل ذلك بذل الكثير من الأرواح والأموال؛ لأنهم كانوا يواجهون أكبر ملوك أوربا في القرن الخامس الهجري مثل: الفونسو السادس (ملك قشتالة)،

---

(١) معالم ص ١٧٥ .

(*) التفاصيل في (عصر المرابطين، وبداية الدولة الموحدية) لعنان ٤١٠ وبعدها، والتاريخ الأندلسي للدكتور الحجي ص ٤٤٧-٤٥١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

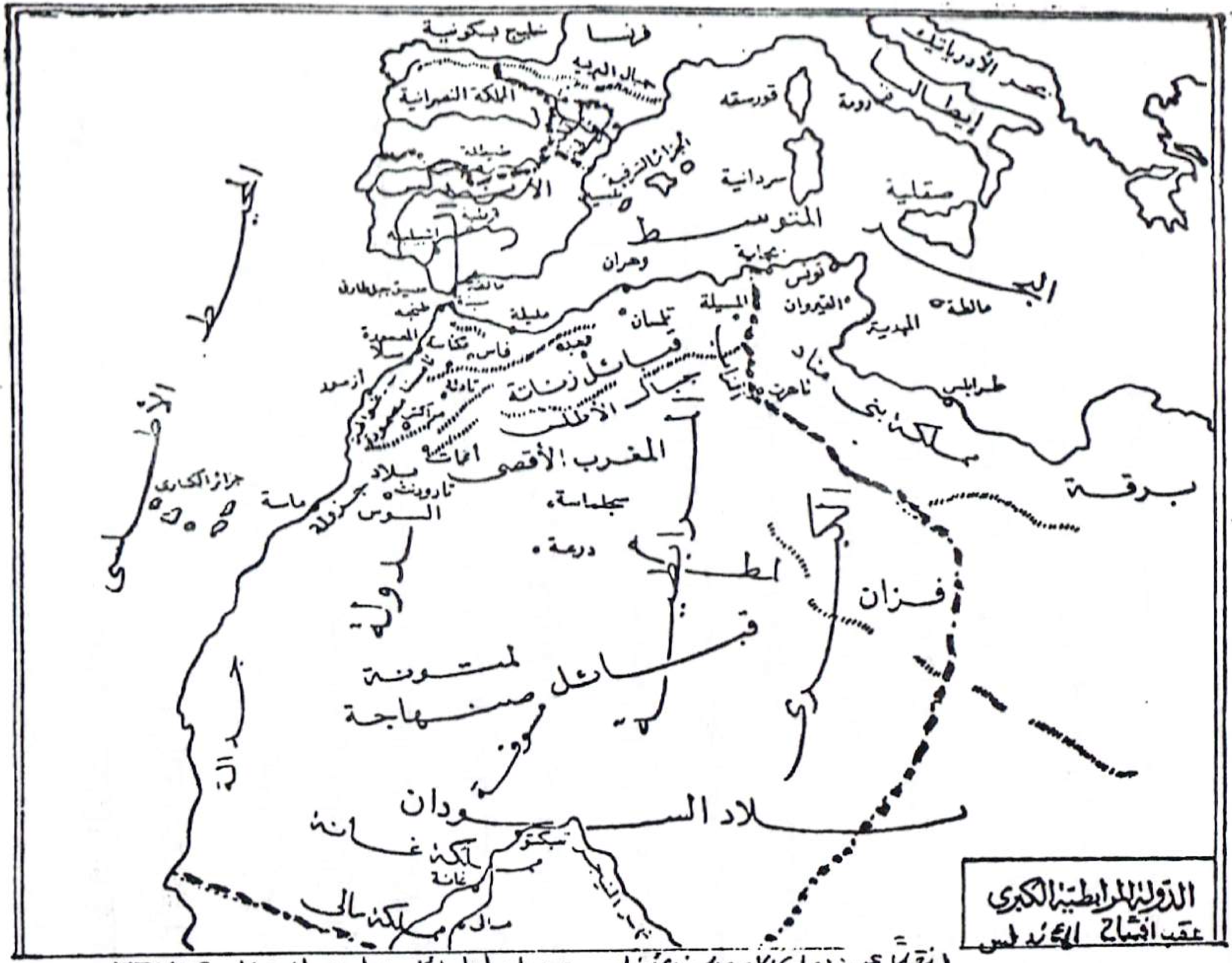

الدولة المرابطية الكبرى
عقب افتتاح الأندلس

(نقلاً عن: دولة الإسلام في الأندلس: دول الطوائف) لمحمد عبد الله عنان، ص ٣٦٧.

والفونسو الأول (ملك أرجون). وإذا كانت دولة المرابطين دينية عسكرية في المقام الأول، فإنها نجحت في تنظيم شئون الأندلس، فكان لهم حاكم عام للأندلس، وقادة يديرون المدن الأخرى تحت قيادته. وكانوا يضطلعون بشئون الإدارة والإصلاح، ويتحرون العدل والدقة في تولية الولاية وعزلهم إذا قصروا، وأبقوا على منصب القضاء، وجعلوه مستقلاً يتولاه الأندلسيون، وكان للقضاة وللعلماء منزلتهم لديهم ولدى الناس، وكانت آراؤهم يؤخذ بها، ولها مكانة واعتبار(١).

ب- تحرير الناس من مظالم الجباية، وتمتع الناس في ظلهم بشيء من الاستقرار والرخاء، وقد اهتموا ببناء الأساطيل، وتحصين المدن الأندلسية. وواصلوا الاهتمام بالصناعات الموجودة بالأندلس، مثل: صناعة الملابس (كالحلل)، وغيرها من الستور المكللة، وصناعة الديباج، وكذلك الاهتمام بصناعة الآلات النحاسية والحديدية وغيرها(٢).

جـ- يؤخذ على المرابطين شدتهم وقسوتهم في معاملة أمراء الطوائف، وما صدر عن بعض جندهم من فساد. وكذلك يؤخذ عليهم ما وقع في عهد علي بن يوسف (٥٠٠-٥٣٧هـ)، عندما صادر بعض الكتب الدينية لاسيما كتب الأصول، وكذلك كتب الفلسفة. ولاشك أن هذا مسلك خاطئ، وحجر على الأفكار إلا أن قوة الدفع العلمية من العصور السابقة ساعدت على تقديم الحركة العلمية والتأليف في عصر المرابطين أيضًا. ومن علماء تلك الفترة: ابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ) صاحب كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، وخلف بن عبد الملك المعروف بـ (ابن بشكوال ت٥٧٨هـ)

---

(١) البيان المغرب ٤ / ٤٦ .

(٢) نفح الطيب ١ / ١٦٣ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

صاحب كتاب (الصلة). ومن القضاة والفقهاء العلماء: أبو بكر بن العربي المالكي (٤٦٨-٥٤٢هـ)[١]، والقاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (٤٥٠-٥٢٠هـ)[٢] . وهناك يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري المعروف بـ (ابن الصيرفي) المتوفى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م، وكان من أعلام العصر المرابطي في (البلاغة، والأدب، والتاريخ) وكان كاتبًا، وشاعراً مجيداً، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن علي (٥٣٧-٥٣٩هـ)، وألّف في تاريخ الأندلس في العصر المرابطي كتاب (الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية)، وله كتاب آخر بعنوان: (تقصي الأنباء، وسياسة الرؤساء)، وكلاهما مفقود[٣] . هذا إلى جانب ظهور عدد من الأطباء وعلماء العلوم الأخرى، مثل: علي بن عبد الرحمن الطليطلي (ت٤٩٩هـ)، وكان من أشهر أطباء قرطبة، وعلى علم بطرق العلاج. وكذلك العلامة الفلكي الطبيب صاحب (الأدوية المفردة) أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت (٤٦٠-٥٢٩هـ)[٤]. إلى جانب بعض أفراد من أسرة بني زُهْر المشهورين بالطب والعلوم الطبيعية والكيميائية[٥] .

نهاية دولة المرابطين:

بينما كان علي بن يوسف يواصل جهوده في المغرب والأندلس، بدأ محمد بن تومرت المعروف بمهدي الموحدين دعايته ضد المرابطين، واجتهد في تشويه سمعتهم واتهامهم بالمروق من الدين والتجسيم وما إلى ذلك، وقد

---

(١) له ترجمة في (الصلة) لابن بشكوال ٢ / ٥٥٨- ٥٥٩ .

(٢) حافظ للفقه المالكي، وقاضي الجماعة بقرطبة. (المصدر السابق) ٢ / ٥٤٦ .

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة ٤ / ٤٠٧-٤١٥ .

(٤) وفيات الأعيان ١ / ٢٤٣-٢٤٧ .

(٥) مثل: أبي مروان عبد الملك بن زهر صاحب كتاب (الاقتصاد في صلاح الأجساد)، الذي ألفه للأمير أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين. توفى سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

نجحت دعايته؛ لأنه توجه بها إلى فريق آخر من البربر البرانس كانوا يتشوقون بدورهم إلى إنشاء دولة لهم تضاهي ما وصلت إليه قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة وغيرها من المجموعة الصنهاجية الصحراوية المرابطية. ولهذا فإن نجاح محمد بن تومرت لا يمكن أن يعزي إلى صدقه في الاتهامات التي وجهها إلى المرابطين، بل إلى ذكائه في معرفة اللغة التي يخاطب بها المصامدة ويجذبهم بها إلى صفه.

ويهمنا الآن أن نقول: إن علي بن يوسف خَلّف هذا الملك العريض والحافل بالمشاكل والمصاعب لابنه تاشفين، وكان شابًا حسن الاستعداد، ولكن الظروف التي تولى فيها كانت عسيرة تحتاج إلى رجل ذي تجربة أوسع، ثم إن محمد بن تومرت استعمل أساليب غاية في العنف والقسوة والبعد عن المألوف في محاربة المرابطين، معتمداً على قبائل أكبر وأضخم وأقوى من قبائلهم.

وقد اضطر المرابطون إلى توجيه كل قواهم إلى صراع الموحدين في المغرب دفاعًا عن كيانهم، وبهذا حرم الأندلس من جهودهم فيه. ومن أغرب ما حدث في تاريخ الإسلام قيام دولتين كبيرتين من دول الجهاد والذود عن دار الإسلام في الموقع نفسه والعصر نفسه، فقد كان القيام الحقيقي لدولة المرابطين سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦١م عند استقلال يوسف بن تاشفين بالقسم الشمالي من دولة المرابطين، وقامت دولة الموحدين سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م بولاية عبد المؤمن بن علي، فتلاقت الدولتان في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وإحداهما في أوج قوتها، والثانية في عنفوان شبابها، فكان لقاؤهما بلاء على المسلمين، ولو تأخر ظهور دولة الموحدين نصف قرن من الزمان لتعاقبتا على الجهاد، ولكان تعاقبهما نعمة

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

على الإسلام وأهله، ولكن هكذا شاءت المقادير، وخسر المسلمون في هذا التعاصر شيئًا كثيرًا، ولكن النتيجة على الجملة طيبة في النهاية، فقد خطا المغرب على أيدي الموحدين بعد المرابطين خطوات واسعة نحو الوعي بشخصيته، ومسئوليته نحو عقيدته الإسلامية، وظهرت للمرة الأولى فكرة توحيد المغرب في دولة واحدة على يد المرابطين أولاً ثم الموحدين من بعدهم.

***

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفصل الثالث

(الموحدون في المغرب والأندلس)(*)

(٥٤١-٦٦٨هـ/ ١١٤٧-١٢٦٩م)

ثبت بعدد من حكام دولة الموحدين(١):

* محمد بن تومرت (٥١٥-٥٢٤هـ) .
* عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ) .
* أبو يعقوب يوسف (٥٥٨-٥٨٠هـ) .
* أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ).
* أبو عبد الله محمد الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ) .

وتنتهي الدولة في عهد (أبي العلاء إدريس الواثق) المعروف بـ (أبي دبوس) آخر خلفاء الموحدين (٦٦٥- ٦٦٨هـ)، وهو تاريخ دخول بني مَرين مراكش عاصمة الموحدين .

محمد بن تومرت:

كان النجاح الذي لقيه المرابطون في إقامة دولتهم بفضل تفكير الفقيه عبدالله بن ياسين محركًا لهمم المصامدة في أن يقيموا هم الآخرون لأنفسهم دولة تضاهي دولة المرابطين، خاصة وهم أغنى بلاداً وأعز نفراً، وقد ذكرنا

(*) اعتمدت في صياغة تاريخ دولة الموحدين على الجزء الخامس من (البيان المغرب) لابن عذاري، والحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي ص ١٤٢ وبعدها، وتاريخ المغرب وحضارته للدكتور مؤنس: المجلد الثاني، الجزء الثاني ص ٦٣ وبعدها، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور مؤنس ص ١٧٧ وبعدها، والتطور السياسي للمغرب للدكتور طاهر راغب ص ٢٤٣ وبعدها .

(١) راجع الثبت كاملاً في (تاريخ المغرب وحضارته): المجلد الثاني، الجزء الثاني ص ٦١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

في كلامنا على يوسف بن تاشفين، أنه أدخل المصامدة في طاعته وساد بلادهم، وضم مقاتلة منهم إلى جيوشه، فكان هذا باعثًا آخر حرك في نفوس المصامدة الرغبة في إنشاء دولة لهم، فهم معظم سكان المغرب الأقصى، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد، تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة الراشدة. وقد أتاحت الظروف لهم هذه القيادة في شخص فقيه مصمودي من قبيلة هرغة التي تسكن في ناحية من نواحي جبال الأطلس العليا على سهل السوس.

هذا الفقيه هو محمد بن تومرت الهرغي الذي ولد سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م على وجه التقريب في بيت يغلب عليه طلب العلم، ولا نعرف عن أصله إلا القليل. واتجه محمد بن تومرت إلى الدراسة والعلم من بداية الأمر، فدرس في بلده ثم في مراكش.

ولا شك في أن محمد بن تومرت كان رجلاً غير عادي الذكاء، ولكن مواهبه الحقيقية كانت سياسية لا علمية، وكان العلم عنده نقطة بداية، وطريقًا يوصله إلى تحقيق غاياته السياسية، وكانت هذه الغايات غير واضحة في ذهنه أول الأمر، كما يحدث للكثيرين من أهل المواهب السياسية، فإنهم يحسون في نفوسهم نزوعًا غامضًا إلى القوة والسلطان، ويتجهون الوجهة التي توصلهم إلى تحقيق هذه النزعات غير الواضحة في نفوسهم، وكلما ساروا في الطريق شوطًا، اتضحت لهم ملكاتهم الحقيقية شيئًا فشيئًا.

وعندما ندرس حياة ابن تومرت نرى كيف أنه وضع كل ما حصله من العلم في خدمة غاياته السياسية. وهذا الطموح السياسي عند ذلك الشاب الهرغي مشكلة من مشاكل دراسة حياته، فهذا الشاب الذي تصدى لإنشاء كيان سياسي ديني فريد في بابه في تاريخ الإسلام، وتمكن من إسقاط دولة

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

كبرى هـي دولة المرابطين، وإقامة دولة أكبـر هي دولة الموحدين، هذا الرجل كان زاهدًا متقشفًا لا يتمسك بأي مظهر من مظاهر الجاه أو السلطان، ولكنه وصل بالفعل إلى جاه ديني وسلطان سيـاسي بلا حدود. ثم إنه كان حصوراً لا يأتي النساء، ومن ثم فلا يمكن القول بأنه كان يسعى لإقامة دولة لبيته، ثم إنه لم يتخـذ وهو في أوج سلطانه لقب الخلافـة أو السلطنة أو الإمارة، وإنما زعم أنه «المهـدي»، والمهـدي في تاريخ الـفكر السـيـاسي الديني الإسـلامي صورة، صنعـها تطلع المسـلمين إلى العثـور على الحاكم القـوي العادل الذي يزيل المفاسد والمظالم، ويقـيم دولة العدل والدين والإيمان والمساواة، أو الذي يملأ الدنيا عدلاً بعـد أن ملئت جوراً كما يقول المصطلح الذي يسـتعمل عادة في الكلام على المهديين. ومعظم من نقـرأ عنهم في تاريخنا بدأوا فقهاء، ثم تحولوا إلى دعـاة للمعروف ونهـاة عن المنكر، وهذه الدعوة تنقلهم من الفـقه إلى السـيـاسة، ومن ثم يندفعـون في الطريق السياسي مـتدثرين دائمًا بثـياب العلم والفقه والدين.

ويستوقف النظـر في تاريخ محمد بن تومرت، أنه منذ لـقي عبد المؤمن بن علي وضـمـه إلى زمـرة تلاميـذه وأتبـاعـه جـعله على رأس أولئك الأتبـاع، واستخلصه لنفسه ورشحه لخلافته. وبالفعل مات محمد بن تومرت وحركته في بدايات نجاحها، فخلفه عبـد المؤمن بن علي، وقد تلقب فعلاً بخليفة المهدي ثم خليفـة المسلمين، واتخذ لقب أميـر المؤمنين، وأقام دولة كبـرى ذات نظام وقوة وأصـبح خليفـة جليلاً، وورث أبناؤه مـلكه، وتمتع هو وأولاده بالقوة والثـروة والجاه، في حين أن مـحمـد بن تومرت مـات فقيـراً زاهدًا، لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، وإن تمتع بسلطان على أتباعه، لم يصل إليه أعاظم السلاطين.

من تلمسان سار الفقيه ابن تومرت من السوس إلى وجدة ثم فاس، وهنا

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يأمر تلاميذه بتحطيم ما يجدون من أدوات الموسيقى، ففعلوا ذلك، فأمر عامل فاس بإخراجهم من البلد، فذهبوا إلى مراكش، وقد كثر جمع محمد ابن تومرت، وانتشر صيته كولي من أولياء الله وفقيه عالم كبير، لا يتصدى له فقيه إلا أفحمه، فيما يقول الذين كتبوا عنه، وكان يهتم اهتمامًا شديدًا بإظهار علمه الواسع وجهل الفقهاء الذين يحاولون الاعتراض على ما كان يتظاهر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

انتشر صيت ذلك الرجل في مراكش، وأصبح حديثه على كل لسان، وهنا نسمع أنه هاجم ما كان يسميه بتجسيم المرابطين، والتجسيم معناه إعطاء الله تعالى صورة مادية أو ملموسة، كالقول بأن له سبحانه وجهًا ويدين وعينين، أو أن له صوتًا يُسمع وما إلى ذلك. وما كان المرابطون يقولون بذلك؛ لأنهم كانوا جماعة سُنية مجاهدة تعمل ولا تتكلم أو تكتب، فلم يكن لأفرادها رأي خاص في أي ركن من أركان الإسلام، ولكن كان في الفقهاء في المغرب وغيره عدد كبير من أهل الظاهر، الذين يقولون بأنه مادام القرآن يقول: إن يد الله مع الجماعة فلابد أن أن تكون لله سبحانه وتعالى يد دون تحديد صورة هذه اليد أو معناها، فينبغي ألاَّ أن نقول: إن يد الله (سبحانه وتعالى) لابد أن تكون كأيدينا، فقد يكون المراد بها شيئًا آخر، ولكننا لا يجوز أن نتناول تأويل كلام الله بحسب ما يتراءى لنا .

كان نقد ابن تومرت للمرابطين في مجموعه على غير حق، ولكنه كان رجلاً جريئًا لا يخاف السلطة أو رجالها. فمضى يقول كلامًا يرمي من ورائه إلى إثارة غضب رجال الدولة، فيتعرضون له بالحبس والطرد من المدن، فيزداد صيته ويكثر جمعه؛ لأن الناس في تلك العصور يستهويهم مثل هذا الشخص، ويسرهم أن يجدوا إنسانًا يتحدى الحكومة ورجالها، سواء أكان

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

على حق أم باطل؛ لأن الفكـرة العامـة لديهم، أن رجـال الدولة دائمًـا على باطل؛ ومن ثم فكل ناقد لهم يكون على صواب.

ابن تومرت ينشئ جماعة الموحدين:

بعد أن تأكد ابن تـومرت من تكوين جماعة من الأتبـاع المخلصين، انتقل بهم إلى موضع في قلب جبال الأطلـس قريب من منابع وادي نفيس، ثم أخذ ابن تومرت يرتـب أنصاره طبقـات بحسب إخـلاصهم له، وما سـماه سـابقة انضمـامهم إلى دعـوته. وكان يقسم أصـحابه إلى طائفـتين كأنهم المهـاجرون والأنصار مـن الصحابة، وصـحابة مـحمـد بن تومرت يسـمون أهل عـشرة والأنصار يسمون أهل خـمسين. وتلى هاتين الطبقتين طبقـة «المستدركين» بعد التمييز، أي: الذين عدلت مراتبهم بعد الفحص والاختبار. وابن تومرت يظهر هنا ملكة تنظيمية كبرى، ويقبض بيد من حديد على أنصاره، فيعطي المهاجرين سلطانًا كبـيرًا ويحكمهم فـي الناس. ولما كان أفراد الأنصـار كلهم من رؤساء القبـائل، فإنه يسيطر بواسطتـهم على قبائلهم، وهؤلاء جـميعًا بالإضـافة إلى المستدركين يعملون عيونًا له بعضهم على بعض، يوافونه بكل صغيرة وكبيرة مما يقع حـوله أو يصل إليـهم من أنبـاء؛ مما يجـعل هذا الرجل مطلعًـا على كل شيء، على ظواهر الأمـور وبواطنها، وهـذا بدوره يلقى له رهبة شـديدة في النفوس؛ ولهذا نرى أصحابه ينفذون أوامره مهما بلغت من الصعوبة أو القسوة خوفًـا من العقاب. وهـكذا نجد هذا الرجل يصبح سـيدًا مطاعًـا ومرهوبًا في جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طـاعة عمياء حقًا، وتخاف منه خوفًا شديدًا، حتى كان يأمر الرجل من أتباعه بأن يقتل صاحبه أو أخاه أو أباه، فيسارع إلى تنفيذ الأمر دون تردد.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

هذه المكانة الرفيعة التي وصل إليها محمد بن تومرت جعلته يتخذ لقب الإمام المهدي المعصوم، أي: الرجل الذي اختاره الله لإصلاح حال الدنيا وإقامة ميزان العدل في الأرض.

بعد ذلك نجد محمد بن تومرت يستخدم أحد أتباعه في القيام بعملية تصفية جسدية بشعة، يقضي فيها على كل من يشك في ولائهم أو في تصديقهم بأنه المهدي المعصوم حقًا، فيرتب معه خدعة تسمى «بالتمييز»، أي: تمييز الصالحين من غير الصالحين، ومصير غير الصالحين هو القتل الناجز على أيدي رجال قبائلهم، فمات في هذا التمييز المخيف ألوف من الأبرياء. وأحس ابن تومرت بعد ذلك أن أمر جماعته قد صفا له تمامًا، وأنه يستطيع أن يقوم بالخطوة الحاسمة في تحقيق حلمه السياسي الكبير.

ففي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٩م قرر محمد بن تومرت أن يتحدى القوة المرابطية، فأرسل نحو مراكش جيشًا عدته أربعين ألفًا من الموحدين، على رأسه عبد المؤمن بن علي. وقد أخطأ ابن تومرت التقدير؛ لأن هذا الجيش الموحدي لقي هزيمة شديدة على يد المرابطين، وهلك في هذه المعركة نفر كبير من كبار الموحدين والمهاجرين، وذلك في معركة دامية تسمى «يوم البحيرة»، وكان من بين الهالكين الشيخ أبو محمد البشير، وهو الذي دبر معه ابن تومرت مذبحة التمييز، ولم يأسف ابن تومرت على أحد ممن مات مادام عبد المؤمن بن علي قد نجا! وفي هذه المعركة جرح أبو حفص عمر الهنتاتي، وكان ثاني شخصية بين أتباع محمد بن تومرت بعد عبد المؤمن بن علي. وقد مات أبو حفص بعد ذلك بسنوات، ولكن رجال الحركة قالوا: إنه مات من أثر الجرح الذي أصابه في يوم البحيرة ولقبوه بالشهيد، وقد ارتفعت مكانته بين جماعة الموحدين ، خاصة أنه قد وقف إلى جانب عبدالمؤمن بن علي.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بعد هزيمة البحيرة بقليل يموت محمد بن تومرت في التاسع عشر من رمضان سنة ٥٢٤هـ/ ٢٦ أغسطس ١١٣٠م بعد أن أسلم قيادة الحركة لعبد المؤمن بن علي، وقد مات فقيراً محروماً وحيداً.

عبد المؤمن بن علي وقيام الدولة الموحدية:

(٥٢٤-٥٥٨هـ / ١١٣٠-١١٦٣م).

ينتسب عبد المؤمن بن علي الكومي إلى قبيلة كومية، وهي ليست من قبائل المصامدة الكبرى. بل هي فرع زناتي في الغالب كان يسكن غرب تلمسان. وقد ولد في قرية هناك تسمى «تاجرا»، ولقي محمد بن تومرت أثناء عودة هذا الرجل من المشرق، وقد تعلق ابن تومرت بعبد المؤمن من أول لقائه له، ورأى فيه خليفته فعمل على دفعه إلى الأمام بصورة مستمرة، وابن تومرت نفسه كان حصوراً، فهو لم ينجب أولاداً، ومعنى ذلك أنه كان يشعر أنه يمهد الأمر لصاحبه هذا، وهذه ظاهرة فريدة في بابها في التاريخ؛ لأن عبدالمؤمن نفسه لا يعد من منشئي الدول، ولا كانت له المواهب اللازمة لذلك، وهو مدين في كل شيء لصاحبه هذا، فهو الذي أعده للرياسة وعلمه ودربه، وأخذ أتباعه بطاعته مما مهد له الأمر، وفضله يتجلى في أنه عرف كيف ينتفع بالتعليم والتدريب، فعرف كيف ينهض بعبء الخلافة وينظم الدولة ويسير بها إلى الأمام.

وفي أواخر أيام ابن تومرت حاول الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي أن يستولوا على مراكش، ولكنهم ارتدوا عنها بخسارة كبيرة، وكان الذي هزمهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين.

ويقال: إن اسم الموحدين أطلقه ابن تومرت على جماعته أثناء الاستعداد

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

لهذه الغارة. إذ إنه كان يحسب أنهم سيستطيعون دخول مراكش والقضاء على المرابطين بسهولة، فسماهم الموحدين بصورة رسمية زيادة في حماسهم، وهناك سمي جيشهم بجيش المؤمنين، وسمى عبد المؤمن بن علي بأمير المؤمنين.

احتاج عبد المؤمن إلى وقت طويل ليثبت سلطانه، فإن ابن تومرت توفى سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، وأعلنت وفاته سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٣م، وقد قضى هذه السنوات الثلاث بجمع الصفوف وينظم الحركة بعد موت صاحبها، ولكننا لا نسمع عن قيامه بعمل كبير إلا في سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م عندما بدأ التصادم العسكري مرة أخرى بينه وبين تاشفين بن علي، خليفة علي بن يوسف، وقد شغل عبد المؤمن نفسه خلال هذه السنوات بالاستيلاء على حصون مرابطية في الطريق إلى مراكش.

بعد ذلك نجد عبد المؤمن يتحاشى مقابلة المرابطين في مراكز سلطانهم في سهل مراكش وما يليه شمالاً، فيسير بجيوشه شرقي جبال درن، ويخترق ممر تازا، ويصعد شمالاً إلى تلمسان ونواحيها، وقد تمكن بذلك من بسط سلطانه على مساحة واسعة في المغرب الأوسط. وفي سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢-١١٤٣م توفي علي بن يوسف وخلفه ابنه تاشفين، فتشجع عبدالمؤمن ومن معه من الموحدين على مهاجمة المرابطين، خاصة أن تاشفين بن علي كان شابًا قليل التجربة، وإن كان شديد الحماس، وقد مات هذا الشاب صريعًا وهو يحارب الموحدين، ويدفعهم عن وهران في يوم ١٧ رمضان ٥٣٩هـ/ فبراير ١١٤٥م، وبموته سقطت وهران وتلمسان، وأخذ بناء دولة المرابطين يتداعى تحت ضغط الموحدين المتوالي عليها.

وقد أبدى المرابطون بسالة كبيرة في الدفاع عما بأيديهم من البلاد رغم الظروف العصيبة التي أحاطت بهم، فلم يستطع عبد المؤمن بن علي الاستيلاء

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

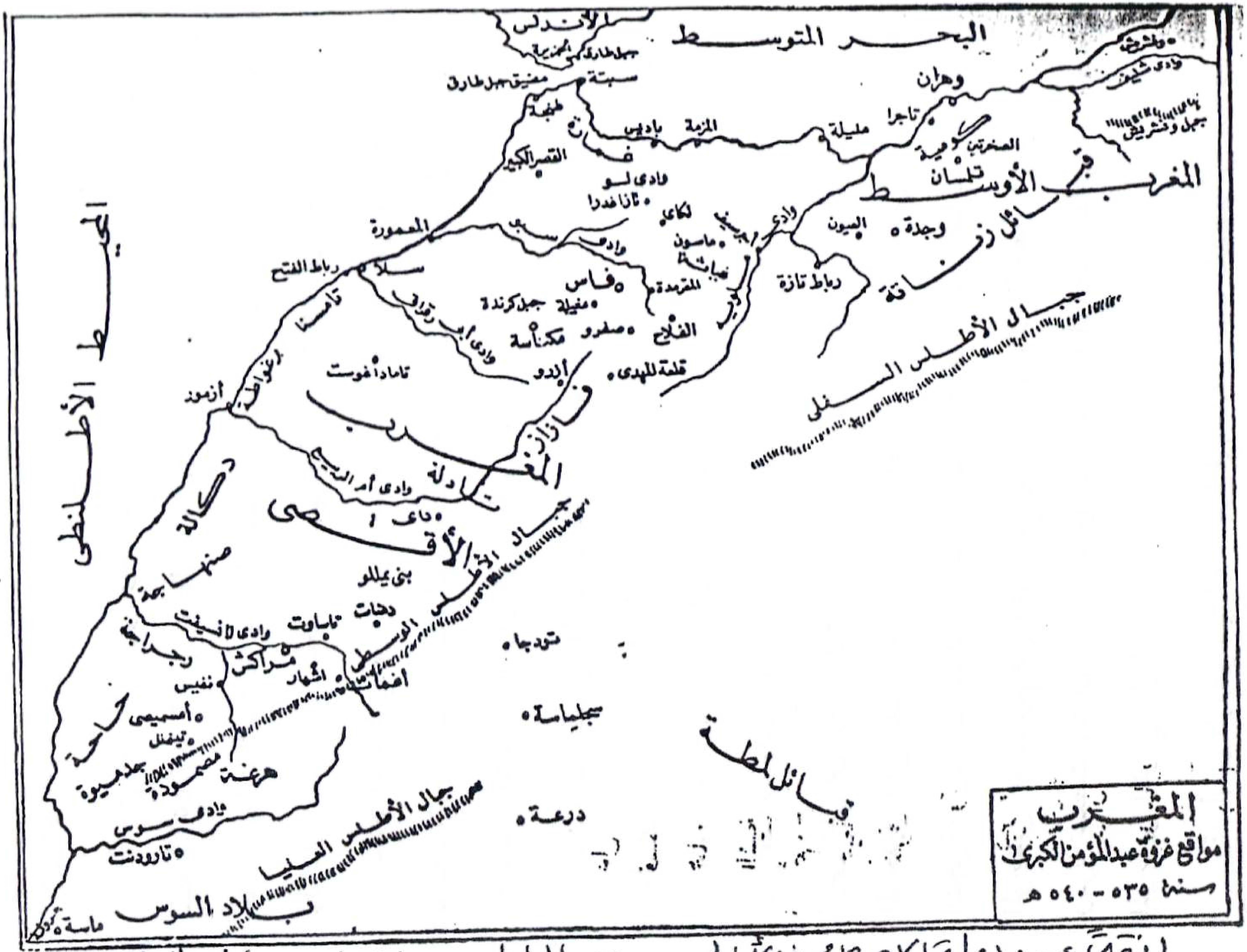

(نقلاً عن: دولة الإسلام في الأندلس - عصر المرابطين وبداية الموحدين) لمحمد عبد الله عنان ص ٢٣٩.

على فاس إلا بعد حرب طويلة وحصار شديد داما تسعة أشهر في ذي القعدة ٥٤٠هـ/ أبريل ١١٤٦م، وفي محرم ٥٤١هـ/ يونيو ١١٤٦م، وبعدها دخل مراكش وقتل إسحاق بن علي بن تاشفين ونفراً من أمراء المرابطين، وبذلك انتهت الدولة المرابطية، وأصبح الموحدون سادة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط.

الموحدون في الأندلس:

بعد قضاء الموحدين على المرابطين في (شوال سنة ٥٤١هـ)، اتجه عبدالمؤمن بن علي أول خلفائهم إلى ضم ما بقي للمسلمين في الأندلس إلى دولته؛ لأن كثيراً من زعماء النواحي في الأندلس كانوا قد ثاروا على المرابطين في نواحيهم. ومن هنا فإن أمير الموحدين اهتم بالأندلس عقب بسط نفوذه على نواحي المغرب الأقصى، وتوحيد بلدان المغرب حتى قفصة وطرابلس سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م. وقد عبر إلى الأندلس مع نهاية العام المذكور واستقر في إشبيلية، ووضع نظاماً للدفاع عن الأندلس، ثم اتخذ قرطبة عاصمة بدلاً من إشبيلية عاصمة المرابطين، وإن كان الموحدون عادوا بعد ذلك إلى اتخاذ إشبيلية عاصمة لهم، وإن ظلت قرطبة مركزاً عسكرياً مهماً لهم، ثم ولي أفراد بيته الملقبين بـ (السادة) على مدن الأندلس المهمة .

وفي آخر أيام الأمير عبد المؤمن بن علي، حاول ملك البرتغال ابن الريق (الفونسو أتريكي) الذي انفصل عن (قشتالة)، أن يوسع ملكه على حساب المسلمين غربي الأندلس. ومن هنا فإن نشاط الموحدين سيهتم في الأندلس بالجانب الغربي، بينما كان اهتمام المرابطين بالجانب الشرقي. وعلى كل، فقد حاول أبو يعقوب يوسف ثاني خلفاء الموحدين عمل شيء حاسم سنة ٥٨٠هـ؛ لاستعادة شنترين (شمالي شرقي لشبونة)، وكاد يستولي عليها،

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

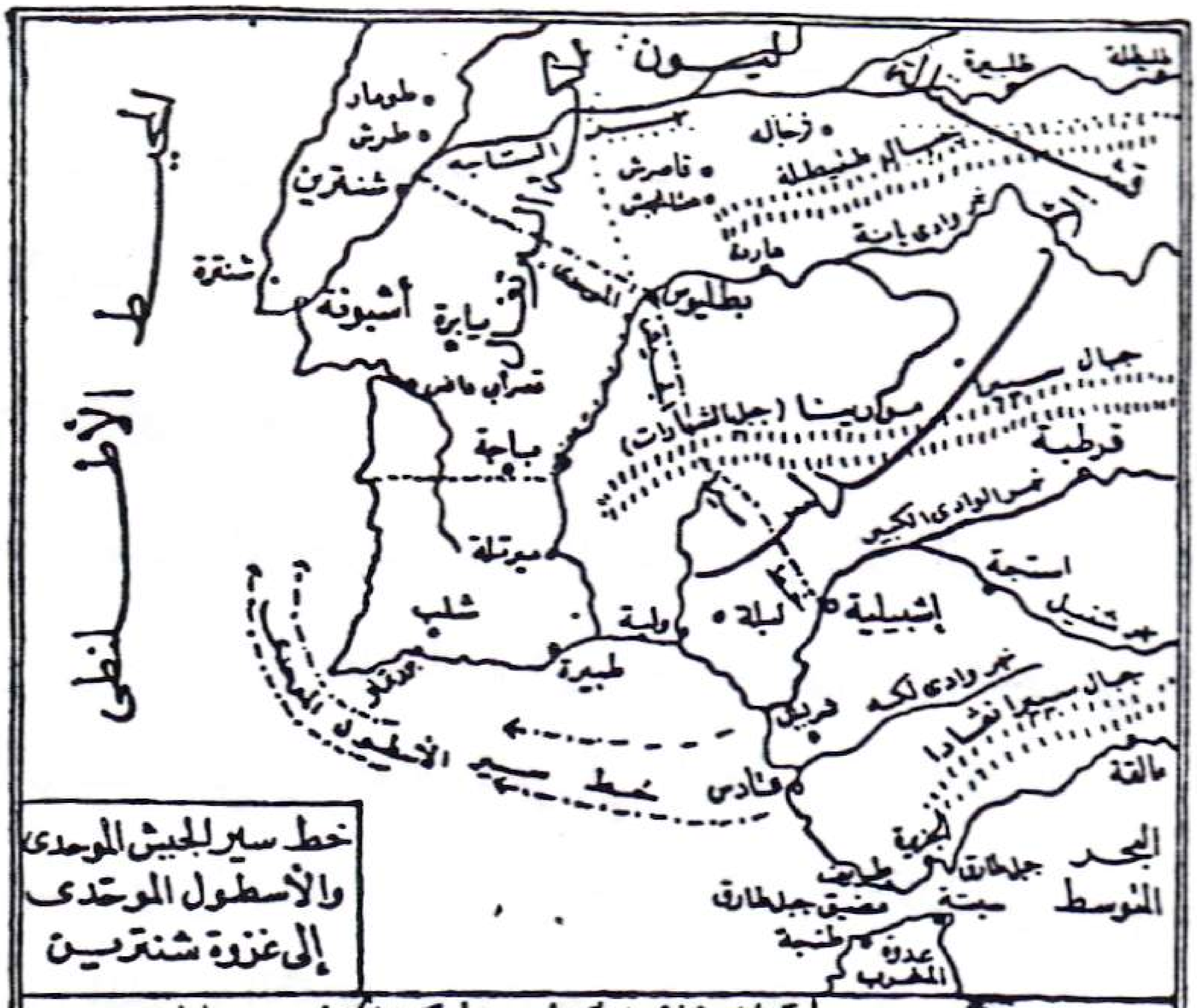

خط سير الجيش الموحدي والأسطول الموحدي إلى غزوة شنترين

(نقلاً عن : دولة الإسلام في الأندلس القسم الثاني - عصر الموحدين)
لمحمد عبد الله عنان ص ١٢١ .

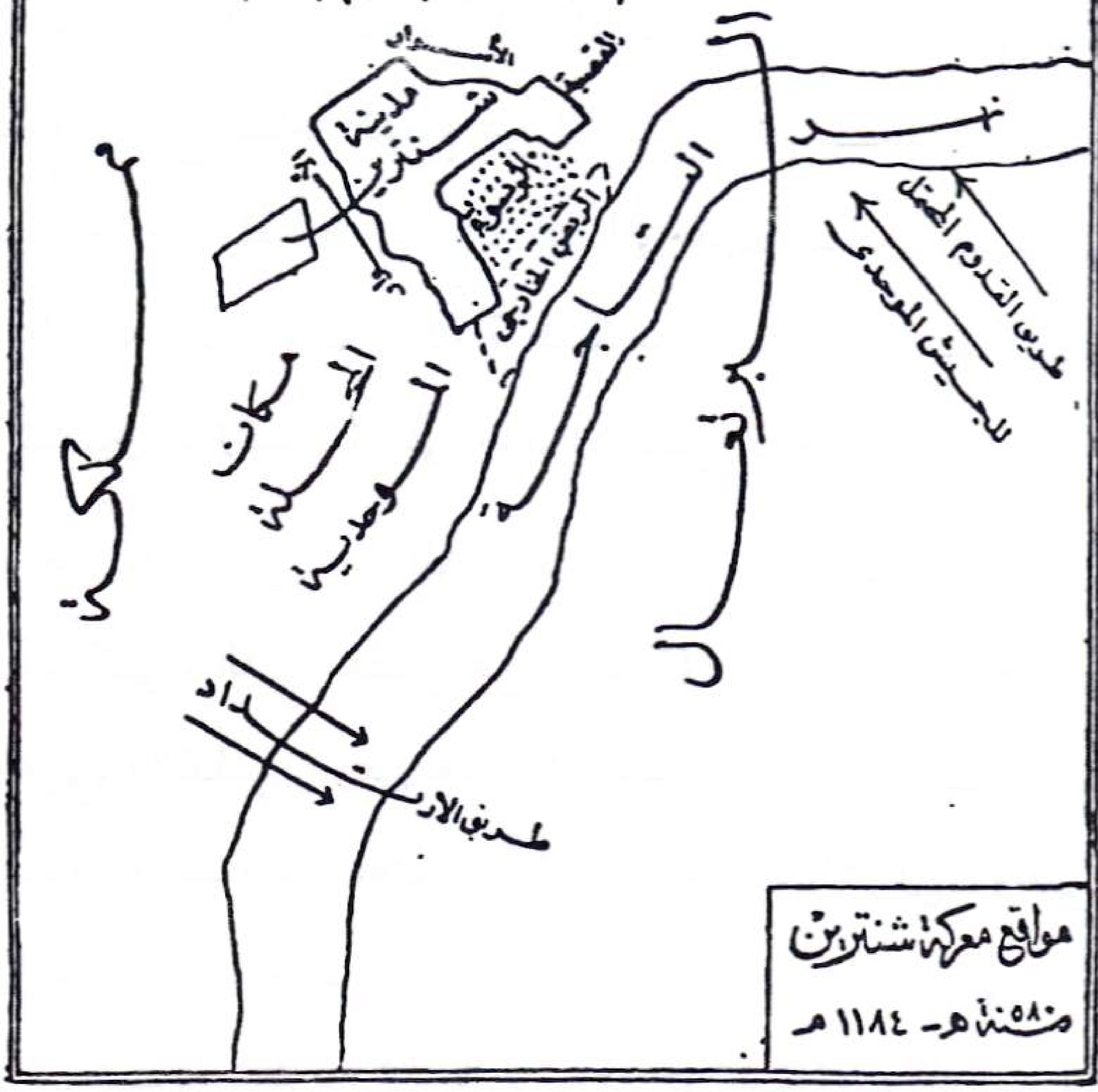

مواقع معركة شنترين
سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

لولا المرض ثم الوفاة في العام نفسه في شهر ربيع الآخر/ يوليه ١١٨٤م[1].

عقد الفونسو الثامن (ملك قشتالة، وليون) هدنة مع الموحدين سنة ٥٨٦هـ حتى سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، ثم هاجم أراضي المسلمين، فعبر أبو يوسف يعقوب (٥٨٠هـ-٥٩٥هـ) (أكبر خلفاء الموحدين بعد ابن تومرت، وعبد المؤمن بن علي إلى الأندلس سنة ٥٩١هـ، وكانت وجهته طليطلة، لكن الفونسو عاجله، فاحتشد له الموحدون بجيش كبير، فاستعان الفونسو بالبابوية وملوك أوربا، وسار في جيش ضخم من قلعة (رباح)، وعسكر عند حصن الأرك Alarcos في نهاية الطريق المؤدي من طليطلة إلى قرطبة، وقامت المعركة سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م، وحُصدت صفوف الإسبان حصداً، فكان لهذه المعركة أثرها في تثبيت الإسلام فترة أخرى، فهي معركة شبيهة بـ (الزلاقة).

استعد الفونسو الثامن لمواجهة الموحدين، وتعويض هزيمة (الأرك)، فاستعان بملوك غرب أوربا وإسبانيا، وحشد جيشًا كبيراً، فلقيه محمد الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ) بجيش حافل، نزل إشبيلية، وعسكر في سهل به كثير من التلال الصغيرة في منطقة تسمى (العُقاب)، بينما عسكر النصارى على هضبة عالية مشرفة على معسكر المسلمين. وقبيل اللقاء استولى النصارى على قلعة رباح من قائدها الأندلسي (محمد بن قادس). فلما وصل القائد إلى محمد الناصر، قتله دون تحقيق؛ مما أدى إلى ثورة الأندلسيين، الذين عزموا على ترك الميدان أثناء المعركة، وهو ما حدث بالفعل في الخامس عشر من صفر سنة تسع وستمائة (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، حين انخذل الأندلسيون والعرب

(١) البيان المغرب : ص ٢١٨-٢٢١، (وعصر الموحدين وانهيار الأندلس) لعنان ص ٢٠٤ وبعدها، والتاريخ الأندلسي للدكتور الحجي ص ٤٨٤ وبعدها، ومعالم ص ٣٧٧-٣٧٩ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

(نقلا عن: دولة الإسلام في الأندلس، القسم الثاني عصر الموحدين) لمحمد عبد الله عنان ص ٢٠١.

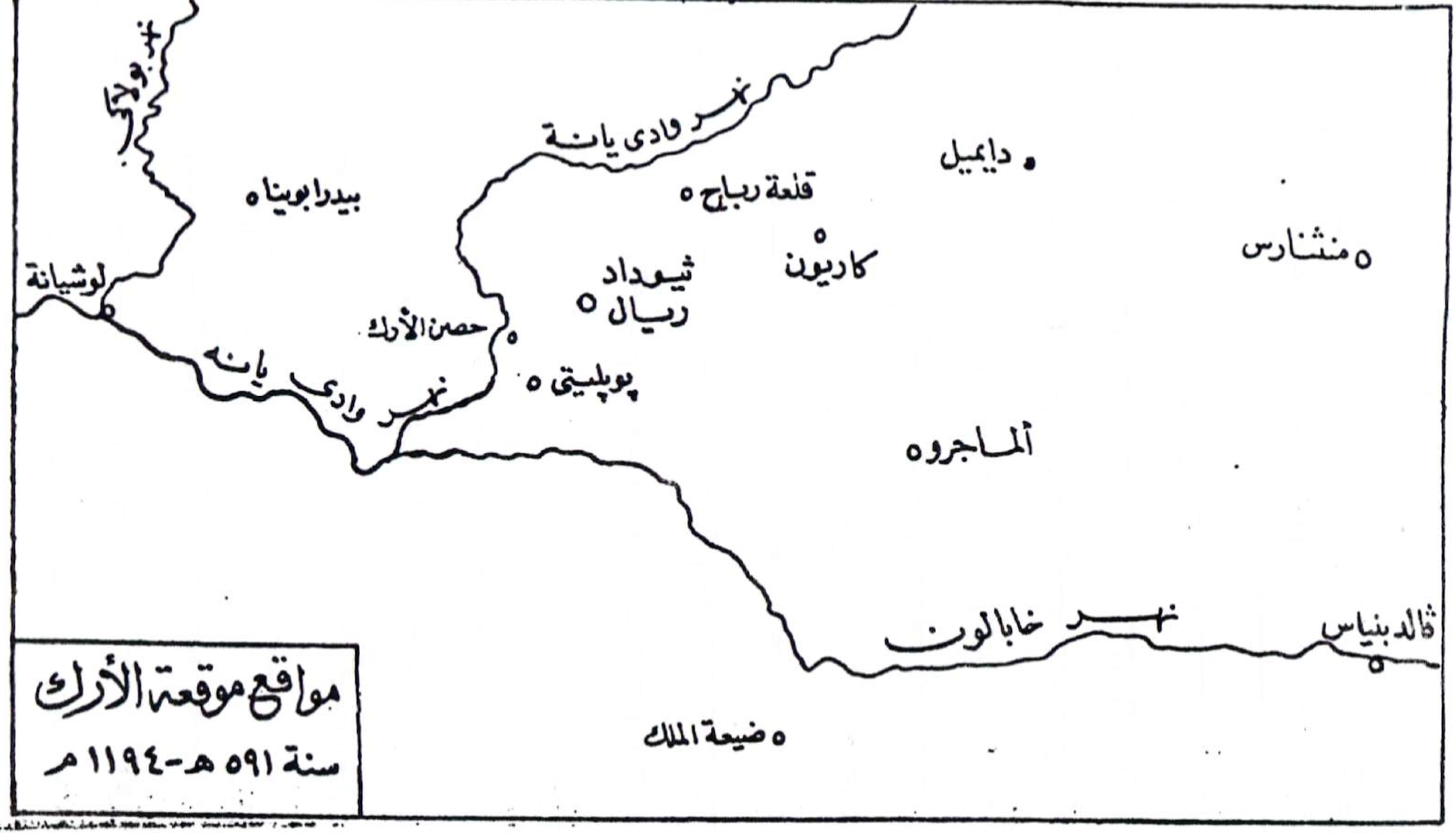

تاركين الجناح الشرقي من الجيش الإسلامي مكشوفًا؛ مما دفع النصارى إلى الانقضاض على المسلمين، وإلحاق هزيمة قاصمة بهم، استشهد من جرائها عشرات الألوف، معظم من مطوعي الأندلس[١].

وقد نتج عن هذه المعركة أنها قصمت ظهر مستقبل الأندلس، وتبعها سقوط المزيد من المدن، حتى غدا النصارى يشرفون على قرطبة، وإشبيلية ومرسية، وغيرها من عواصم خط الوادي الكبير. وبموت محمد الناصر، دب الخلاف بعده في صفوف الموحدين، وانعكس ذلك - بالطبع- على الأندلس، فبدأت تصفية ما بقي للمسلمين خلال بقية العصر الموحدي، حتى لم يبق في الميدان- أخيرًا- إلا مملكة غرناطة، كما سيأتي .

نظرة عامة على أوضاع الأندلس الحضارية في ظل الموحدين:

أ- قامت الدولة الموحدية على أسس دينية، متخذة من الإمامة مصدراً للسلطات الدينية والسياسية معًا، فحكومة الموحدين حكومة ثيوقراطية (دينية)، يعاون الإمام فيها صحبه العشرة الأوائل المسلمون بـ (الجماعة)، وكأنهم وزارة يستشيرها الإمام في جلائل الأمور، إلى جانب آخرين من ذوي النفوذ. وقد كان الموحدون حريصين على إقامة العدل وقمع الظلم، ومعاقبة العمال المعتدين[٢].

ب- بلغ الموحدون مكانة عالية في النواحي الحربية، فتفوقوا في فن الحصار، والتحصينات، واستخدموا آلات مدمرة قاذفة للحجارة والحديد، محدثة دويًا شديداً بحيث بدت كأنها مدافع بدائية[٣].

---

(١) البيان المغرب (قسم الموحدين) ص ٢٦٣، (وعصر الموحدين وانهيار الأندلس) لعنان ص ٣٠٦ وبعدها، والتاريخ الأندلسي للدكتور الحجي ص ٤٩٠ وبعدها، ومعالم ص ٣٧٩-٣٨٠ .

(٢) عصر الموحدين وانهيار الأندلس لعنان ص ٦١٥-٦١٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٤٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

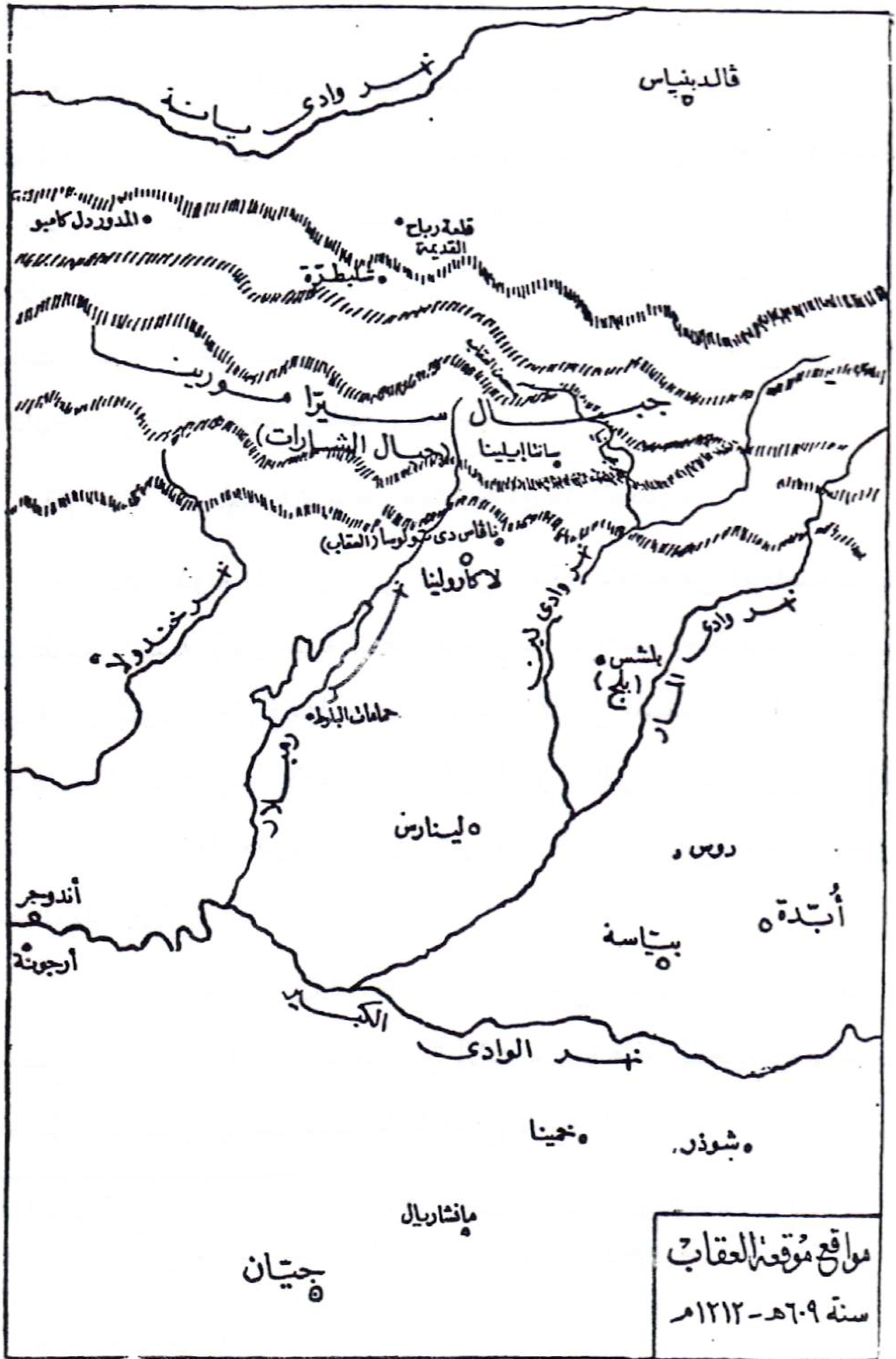

(انظر: دولة الإسلام في الأندلس – القسم الثاني عصر الموحدين) لمحمد عبد الله عنان ص ٢٩٩.

جـ- بلغت دولة الموحدين مكانة سياسية وحضارية طيبة في فترة ازدهارها وقوتها، وكانت بعض وفود إسبانيا النصرانية، وغيرها من أوربا تأتي إلى البلاط الموحدي لإظهار الصداقة، وعقد المعاهدات، حتى أُحدث منصب وزاري لاستقبال هؤلاء السفراء والاهتمام بأمورهم[1]. وقد حدث أن جاءت سفارة وزير ملك قشتالة إلى الموحدين سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م بعد هزيمة العقاب (٦٠٩هـ) بهدف عقد مهادنة وسلم[2]؛ نتيجة خشية القشتاليين من هجوم مفاجئ للموحدين عليهم؛ نتيجة الاضطرابات الموجودة في مملكتهم آنذاك، ووجود صراعات ونزاعات، ومجاعات[3].

د- اهتم الموحدون بالمشروعات العمرانية والزراعية، وقام الخليفة أبو يعقوب يوسف بتحصين وتجميل (إشبيلية)، وإقامة المنشآت الفخمة، وتهيئة المياه الجارية وتوفيرها لسقاية الناس، وأقام جامع إشبيلية الأعظم ومئذنته الكبيرة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م، وأتمها ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور بعده سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، وشارك في هذه الأعمال عدد من العرفاء (المهندسين)، والبنائين، والعمال المهرة[4].

هـ- سارت الحركة العلمية بالأندلس في طريق الازدهار في عدة ميادين في العصر الموحدي: فمن علماء هذا العصر محمد بن عبد الرحيم الأنصاري (٥٠١-٥٦٧هـ) عالم القراءات والفقه والحديث. وأبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (٥٠٢-٥٧٥هـ) صاحب (فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف). وظهر - أيضًا- في تلك الآونة

---

(١) البيان المغرب (قسم الموحدين- أحداث سنة ٦٠٧هـ) ص ٢٥٦-٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٦٦ .

(٣) عصر الموحدين وانهيار الأندلس، ص ٣٣٣- ٣٣٤ .

(٤) التاريخ الأندلسي للحجي ٥٠٠-٥٠١ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

محمد بن جُبير (ت٦١٤هـ) الرحالة البلنسي المشهور صاحب (رحلة ابن جبير). ومن مؤرخي ذلك العصر: عبد الواحد المراكشي (ت٦٢١هـ) صاحب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب)، وعلي بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ)، وابن عذارى (توفى بعد سنة ٧١٢هـ)، وهو صاحب (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب)، ومحمد ابن عبد الملك المراكشي (ت٧٠٣هـ) صاحب (الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة)، وأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (٦٢٧-٧٠٨هـ) صاحب (صلة الصلة). وإلى جانب هؤلاء ظهر علماء في مجالات الطب، والزراعة، مثل: أبي جعفر أحمد الغافقي (ت٥٦١هـ)، ويحيى بن العوام الإشبيلي صاحب كتاب (الفلاحة)، وغيرهما[1].

***

(١) عصر الموحدين وانهيار الأندلس لعنان ص ٦٤٧ وبعدها، والتاريخ الأندلسي للحجي ص ٥٠١-٥٠٦.

الفصل الرابع والأخير

في أعقاب الموحدين حتى سقوط غرناطة

(إمارة غرناطة في ميدان الثبات والنضال).

(٦٣٥-٨٩٧هـ / ١٢٣٨-١٤٩٢م)

ظروف تكوين إمارة غرناطة: بعد خروج الموحدين من الأندلس[١] بقيت جموع المسلمين دون حماية يُحسب لها حساب، وبرز في صفوف المسلمين نفر من الزعماء، كل منهم يحاول تزعم ما بقي من المقاتلين في الأندلس؛ كي يقيم لنفسه دولة في هذا الجزء المتبقي للمسلمين هناك، وكان قد اقتصر على نهر الوادي الكبير، وما يقع جنوبه .

من أبرز هؤلاء الرجال: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي (سيف الدولة)، وهو من أسرة بني هود أصحاب سرقسطة[٢]. كان يسكن مرسية، وبدأ نشاطه سنة ٦٢٥هـ؛ إذ حاول تجميع الفرسان جنوبي شبه الجزيرة؛ كي يصمد لضغط النصارى. وكان النصارى يعلمون أن الجزء المتبقي لقمة سائغة يتقاسمونها بينهم. وقد اتضحت تلك السياسة من اتفاق تم بمقتضاه إطلاق يد مملكة (أرجون) في بلاد المسلمين، بحيث لا تتعدى مملكة بلنسية شرقي الأندلس، بينما تتوسع مملكة (قشتالة وليون) في بقية الجانب الشرقي حتى بحر الزقاق. أما غربي الأندلس مما يلي لشبونة جنوبًا، فتُرك للبرتغاليين .

---

(١) يغلب على الظن أن عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م هو تاريخ اندثار ملك الموحدين في بلاد الأندلس؛ إذ إنه مرتبط بمغادرة السيد أبي زيد عامل الموحدين بلنسية بعد سلسلة من التنازلات للنصارى وتوجهه إلى بلادهم، وتنصره. (البيان المغرب ، قسم الموحدين) ص ٢٨٩ .

(٢) له ترجمة في: المغرب في حُلى المغرب لابن سعيد (قسم الأندلس) ٢ / ٢٥١-٢٥٢، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٢٧٧ وبعدها .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

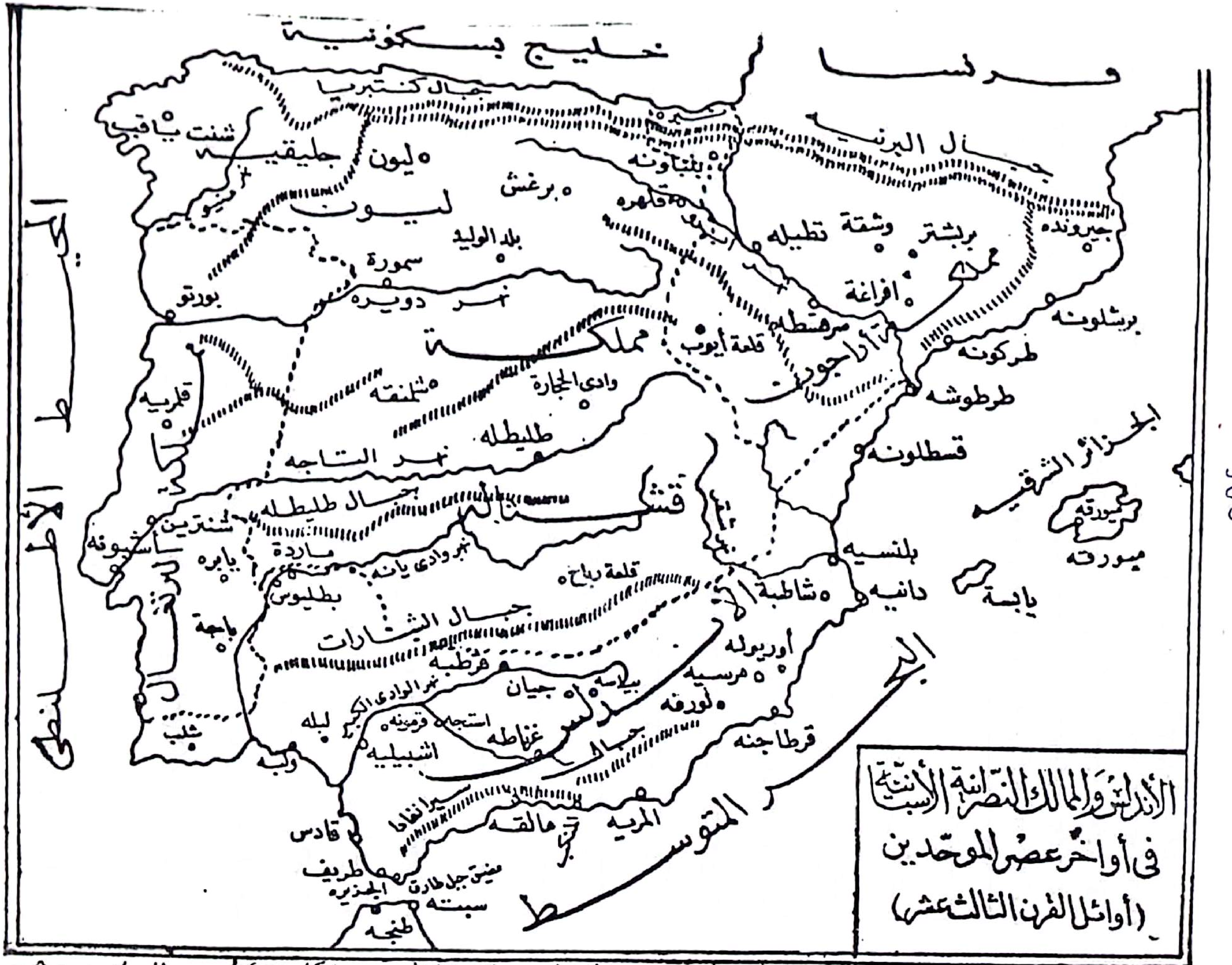

الأندلس والممالك النصرانية الأسبانية في أواخر عصر الموحدين (أوائل القرن الثالث عشر)

(نقلاً عن: دولة الإسلام في الأندلس – نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) لمحمد عبد الله عنان ص ٩)

كان سيف الدولة بن هود لا تنقصه الجرأة والشجاعة، لكنه كان طائشًا متسرعًا في تصرفاته، إذ كان يدخل المعركة دون تخطيط، فيتحول نصره إلى هزيمة (كما في دفعه البرتغاليين عن ماردة، وظن بقية جنده أنه انهزم لما اخترق صفوف الأعداء، ونفذ إلى خلفهم، ثم عاد). وقد خرج ابن هود إلى مرسية بجيش كبير تملك به إشبيلية سنة ٦٢٩هـ، لكنه وقف موقفًا متخاذلاً إزاء حصار قرطبة على يد (فرنندو الثالث ملك قشتالة وليون)، وتركها شهورًا لمصيرها المحتوم، حتى اضطر أهلها أمام الحصار القاسي للتسليم، فدخلها النصارى في الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٣٣هـ/ يونيه ١٢٣٦م[١].

ابن الأحمر وتأسيس إمارة غرناطة:

بعد وفاة ابن هود سنة ٦٣٥هـ، خلا الأمر لمنافسه أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بـ (ابن الأحمر) الملقب بـ (الشيخ)[٢]، الذي احتفظ ببعض المناطق جنوبي الأندلس، وأسس إمارة غرناطة أواخر رمضان سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م. وقد كانت الظروف حول هذا الرجل عصيبة بعد سقوط قرطبة، ثم بلنسية سنة ٦٣٦هـ، وإشبيلية سنة ٦٤٦هـ، إلى جانب عدد من الحصون والمدن الأخرى.

ضمت مملكة غرناطة أيام بني الأحمر الطرف الجنوبي من الأندلس جنوب نهر الوادي الكبير إلى البحر الأبيض، حيث الجزيرة الخضراء وجبل طارق. ومن لورقة في ولاية مرسية شرقًا إلى البحر الأبيض، ومن الشمال حتى قلعة يحصب في ولاية جيّان إلى شذونة في ولاية قادس غربًا. ومعنى ذلك أنها شملت ثلاث ولايات كبيرة: غرناطة في الوسط وعاصمتها غرناطة، وولاية المرية شرقًا، ومالقة جنوبًا وغربًا[٣]. فهي عند سفح جبل الثلج في موقع

---

(١) معالم ص ٣٨١-٣٨٣ .

(٢) له ترجمة في (الإحاطة) ٢ / ٩٢-١٠١ .

(٣) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لعنان ص ٥٥ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

نقلاً عن : الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان ص ٣٢٠ .

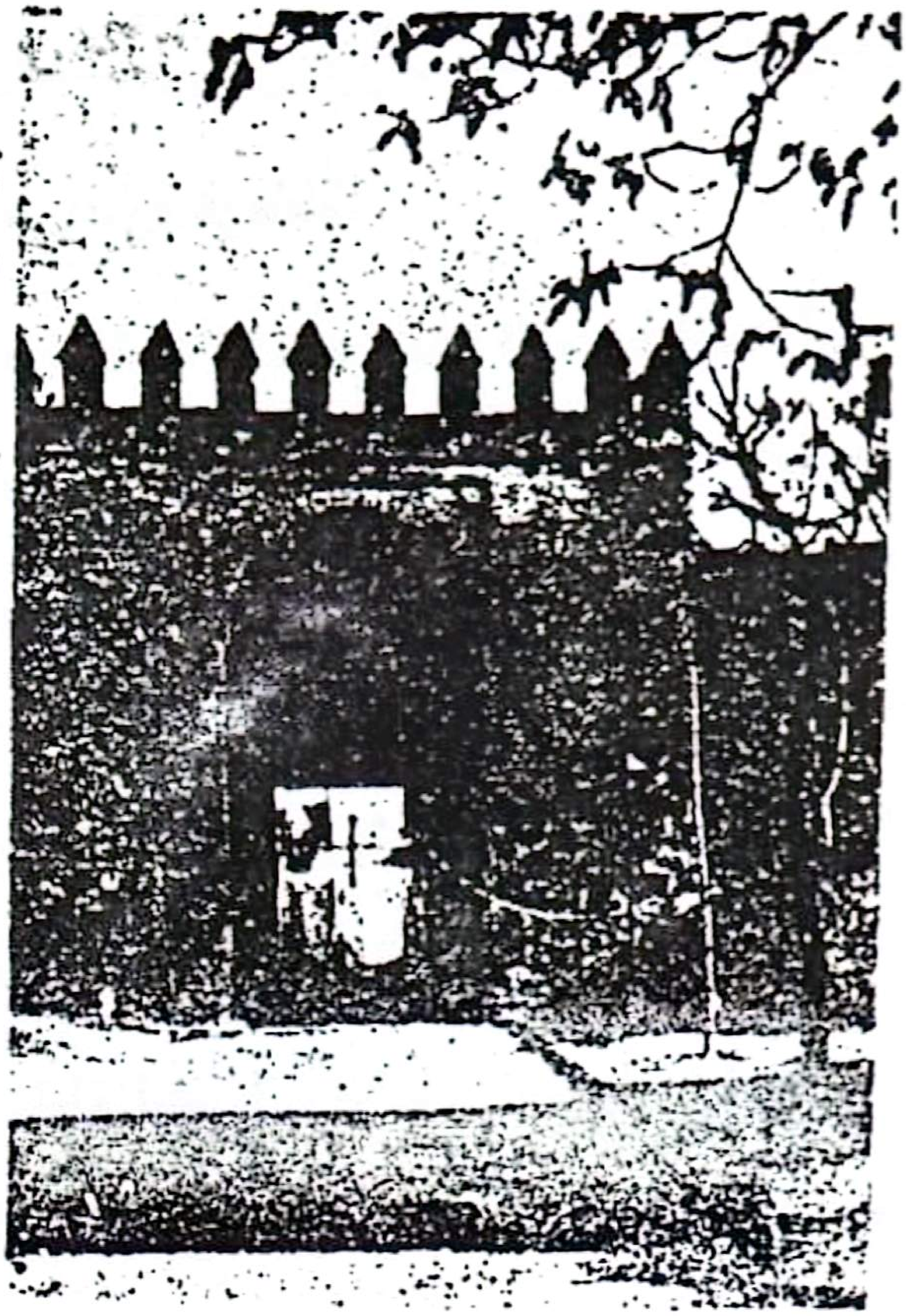

قرطبة : باب المدور وهو بابها الأندلسي الوحيد الباقي

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

حصين. وفي أعلى الجبل وجد حصن منيع دخله ابن الأحمر، ورمم أسواره، ووسّع سلطانه، فتقاطر الناس عليه من المدن الأندلسية الأخرى الساقطة في أيدي النصارى.

ازدهرت غرناطة أيام ابن الأحمر (٦٣٥-٦٧١هـ)، لكنه كان يضطر إلى مهادنة ومجاراة القشتاليين؛ لتسلم إمارته. ووصل به الأمر إلى تقديم بعض المساعدات العسكرية لهم عند سيطرتهم على إشبيلية مثلاً، وعوّضوه عن ذلك بالاستيلاء على طريق الجزيرة الخضراء وجبل طارق. ثم اضطر ثانية في عهد ألفونسو العاشر (ملك قشتالة وليون) إلى تأكيد عهد الولاء له، فتنازل له عن جبال رندة، وإلبيرة[١].

قبل وفاة محمد بن يوسف بن الأحمر (الغالب بالله) سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م حاول الفونسو العاشر (ملك ليون) الهجوم على أراضي المسلمين؛ طمعًا في الاستيلاء على المزيد منها، فأرسل سلطان غرناطة يستنجد بالسلطان المريني (أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق)، فأرسل السلطان المنصور (سلطان بني مرين) قوة من الزناتيين، وصلت إلى جزيرة طريف- بعد وفاة ابن الأحمر، وفي عهد ابنه محمد الفقيه- في ذي الحجة سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م، وبعدها قدم السلطان بنفسه، ودارت المعركة في ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م عند إستجة جنوبي قرطبة، ومزق المسلمون قوات النصارى، وتقدموا يحاصرون إشبيلية على أمل استعادتها، فسارع الفونسو يطلب الصلح، فأجيب إليه. وهذا يدل على أن المسلمين عندما تعود إليهم روح الجهاد، ويتم الثبات وتوحيد الصفوف، يحققون النصر[٢].

---

(١) معالم: ص ٣٨٣-٣٨٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٦ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

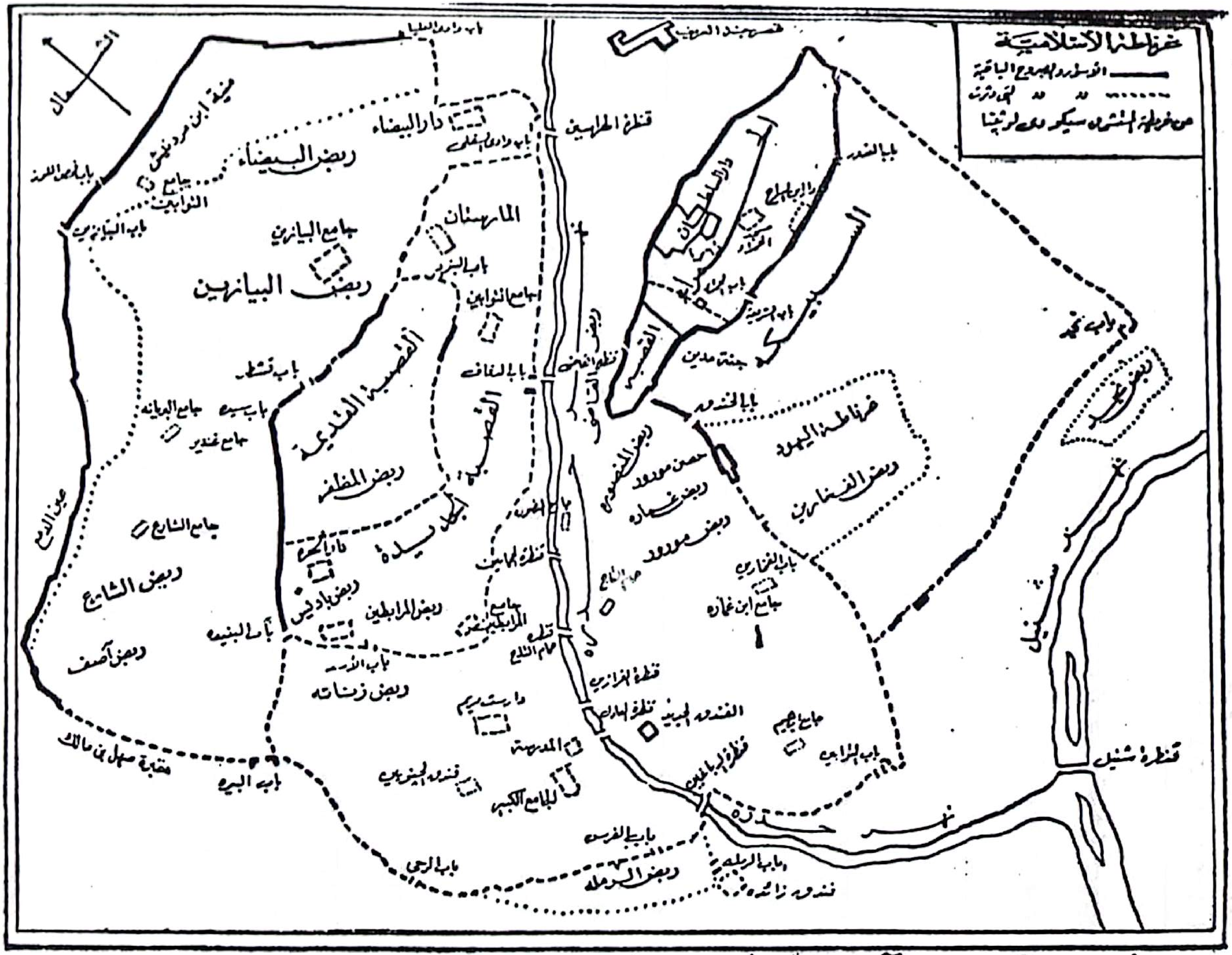

(نقلاً عن: الآثار الأندلسية الباقية) لمحمد عبد الله عنان ص ١٦٣.

مشيخة الغزاة ودورها في مملكة غرناطة:

أحس محمد الثاني الفقيه (٦٧١-٧٠١هـ/ ١٢٧٢-١٣٠٢م) أنه لا يستطيع الاعتماد على قدراته وحدها في مواجهة أعدائه؛ لأن الفونسو العاشر كان رجلاً شديد الحماس الديني، ويتطلع للقضاء على ما بقي للمسلمين في شبه الجزيرة. فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق السلطان المريني، فعبر إليه الرجل بقوة عسكرية، وأعانه على تثبيت حكمه، وتم الاتفاق على أن تقيم في مملكة غرناطة قوة من مقاتلي زناتة من بني مرين وغيرهم برئاسة قائد يعرف بـ (شيخ الغزاة)، تتولى المساعدة في الدفاع عن غرناطة أمام أعدائها[1].

بدأ الخلاف يدب بين بني الأحمر، وبني مرين؛ نتيجة لتوجس حكام غرناطة منهم، وكان محمد الفقيه ينضم إلى صفوف قشتالة- أحيانًا- ضد بني مرين؛ مما سيؤدي إلى الخلاف بين الجانبين، وسيكون وبالاً على الأندلس. ورغم ذلك فإن المغاربة قدموا لحكام غرناطة خدمة طيبة، وأسهموا في الدفاع عن مملكتهم، وتوالى ذلك في عهد أبي الوليد إسماعيل حاكم غرناطة (٧١٣-٧٢٥هـ/ ١٣١٤-١٣٢٥م)، الذي كان جادًا في الحفاظ على أراضيه، متخلصًا من التبعية لقشتالة، مستقلاً بنفسه، مستعينًا بإخوانه المغاربة من (بني مرين). وتم التعاون مع (مشيخة الغزاة) برئاسة عثمان بن أبي العلاء

---

(١) معالم: ص ٣٨٥ . وبالنسبة لبني مَرين، فإنهم يُنسبون إلى جدهم وكانوا ملوك فاس والمغرب الأقصى، ومثلوا الطبقة الثانية من جبل زناتة. وكان بنو مرين قبائل متنقلة في القفار والصحارى من زاب إفريقية إلى سجلماسة، ويعملون بالصيد، ويغيرون على أطراف البلاد. فلما ضعف الموحدون بعد هزيمة العقاب سنة ٦٠٩هـ، انتهزت تلك القبائل الفرصة، واقتطعت بلدان المغرب واحدة بعد الأخرى، حتى جاء عصر السلطان المريني المنصور بالله (يعقوب بن عبد الحق) الذي ولي سنة ٦٥٦هـ، وبه استعان بنو الأحمر حكام غرناطة؛ لوقف هجمات النصارى الإسبان. (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) للناصري جـ٣ / ٣-٣٧ وبعدها. وهذه الدولة هي التي أرسلت مقاتلين من زناتة، وولت عليهم من يعرف بـ (شيخ الغزاة)، وأقاموا في غرناطة؛ للدفاع عنها ضد النصارى. (التاريخ الأندلسي ص ٥٤٠ وبعدها، ومعالم ٣٨٩).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

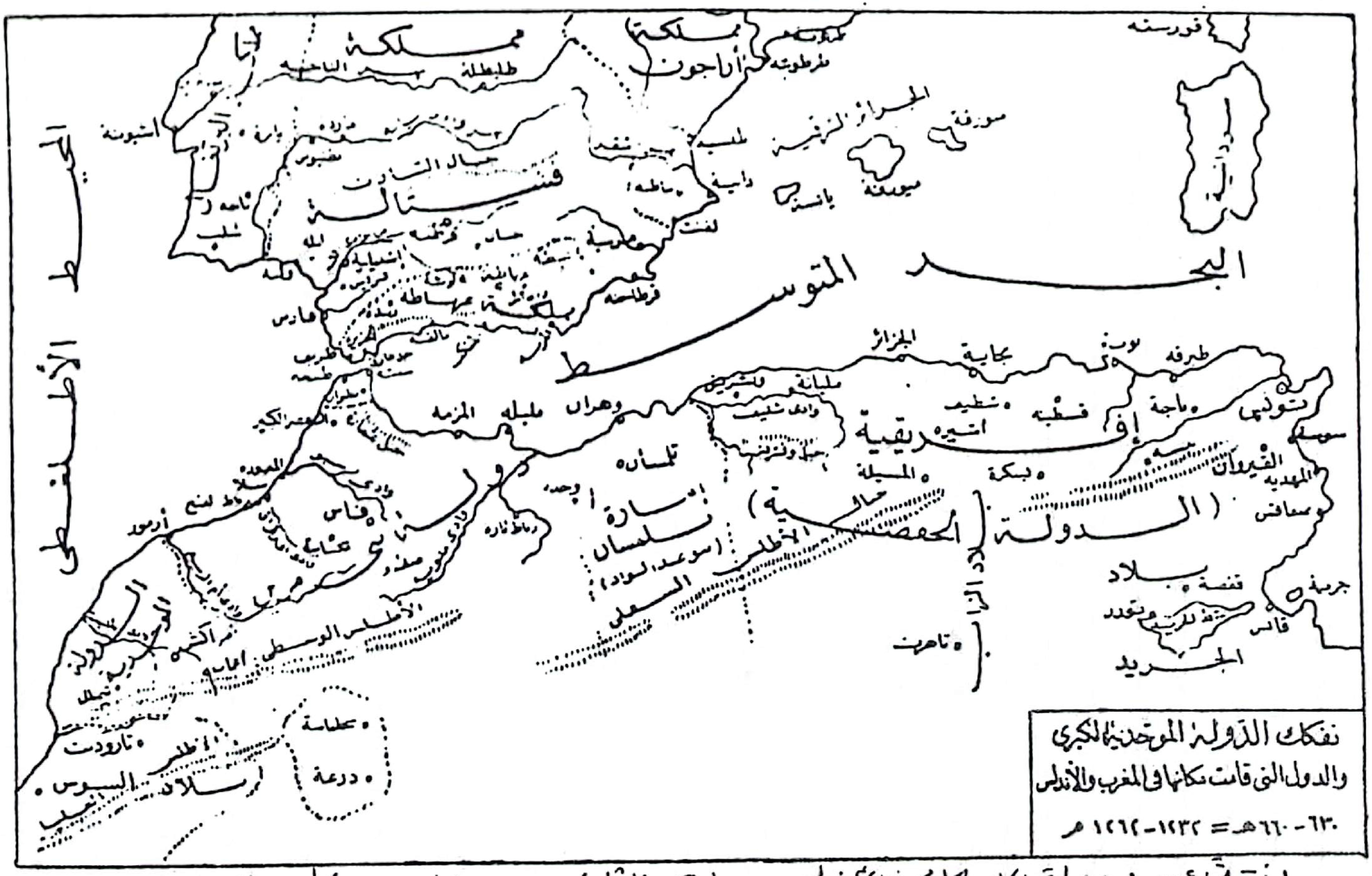

نفكك الدولة الموحدية الكبرى والدول التي قامت مكانها في المغرب والأندلس

٦٣٠-٦٦٠هـ = ١٢٣٢-١٢٦٢م

(نقلاً عن: دولة الإسلام في الأندلس - القسم الثاني - عصر المرابطين والموحدين) لمحمد عبد الله عنان ص ٥٦٦.

في لقاء قرب غرناطة سنة ٧١٨هـ/ ١٣٨١م أمام قوات (شانجه الرابع) التي تساندها قوات من الفرنجة وغيرهم، وكان النصر حليف المسلمين[1].

غرناطة في طريق الانهيار:

في لقاء حاسم مع النصارى أيام أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل (الغالب بالله ٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣-١٣٥٤م) وقعت معركة طريف في جمادى الأولى ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م أمام قوات النصارى من قشتالة وأرجون والبرتغال؛ للاستيلاء على مدينة طريف؛ لقطع الطريق بين المغرب والأندلس. ونجح النصارى في تحقيق هدفهم، وتمهد الطريق لسقوط جبل طارق؛ كي تقف غرناطة وحدها بعد تحقيق الفصل النهائي. وبعدها بقليل تم توجه قوات الفونسو الحادي عشر (ملك قشتالة) لحصار جبل طارق، وكاد يسيطر عليه لولا وفاته أثناء الحصار؛ مما حدا بالمسلمين إلى السماح بعودة القوات النصرانية المهاجمة، حاملين تابوت ملكهم المتوفى[2].

في سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م سقطت قلعة جبل طارق بأيدي القشتاليين، وغدت غرناطة محاصرة تمامًا بالقوات النصرانية، ولا سبيل لمد يد العون لها، وظهر جليًا أن مملكة غرناطة في طريقها إلى السقوط، خاصة بعد الصراعات والمنازعات الداخلية مع أسرة (بني سراج).

في سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م اتحد فرنندو الرابع ملك أرجون، والملكة إيزابيلا الثانية ملكة قشتالة، وكانا قد تزوجا قبل عشر سنوات. وهكذا صارت إسبانيا النصرانية كتلتين في مواجهة غرناطة: مملكة قشتالة وأرجون، ولهما النصيب الأكبر. ثم البرتغال التي استولت على غربي الأندلس،

---

(١) معالم: ٣٨٦-٣٨٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٠ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

(نقلا عن جغرافية الأندلس وتاريخ العرب المستنصرية) لمحمد عبد الله عنان ص ٨٩.

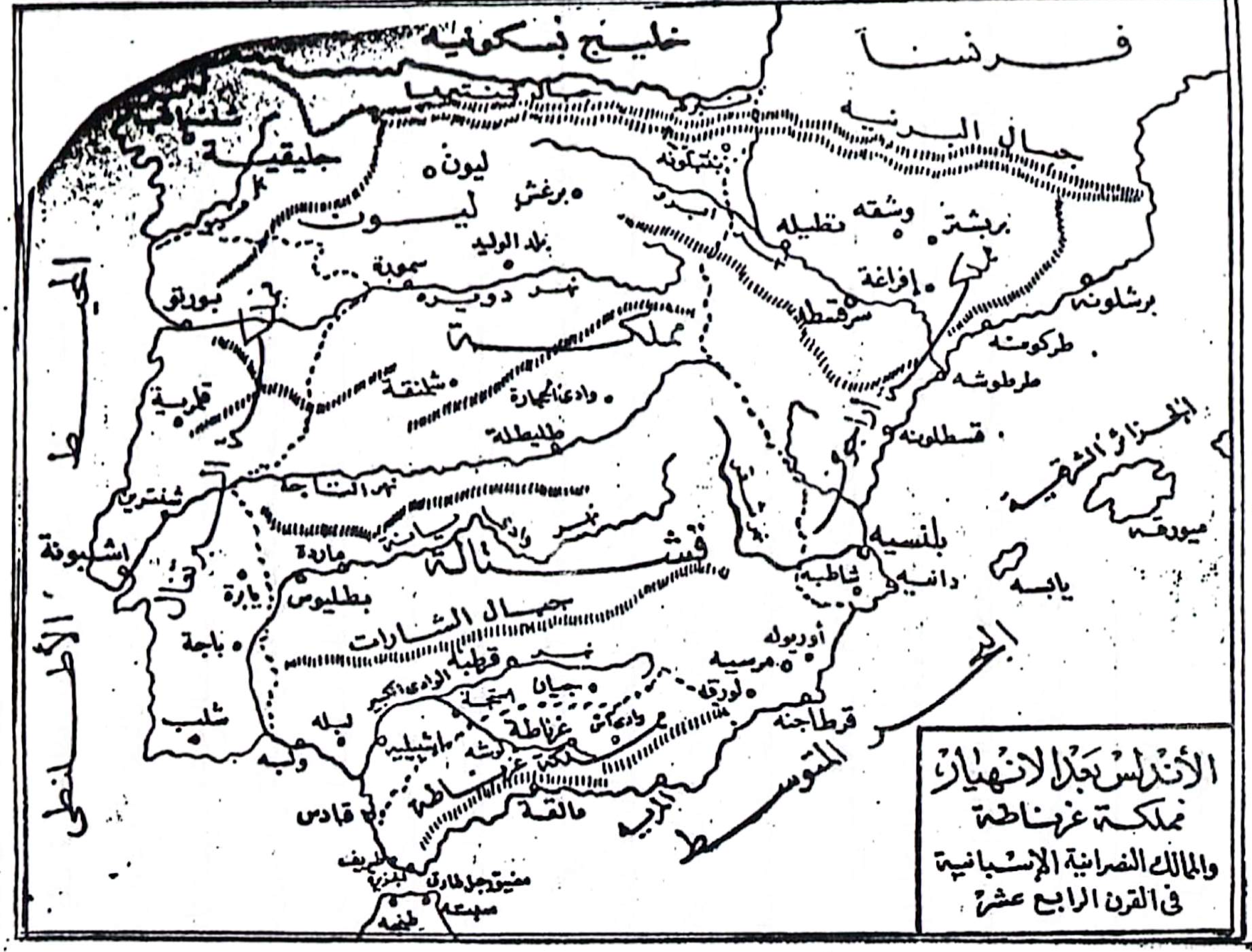

وبدأت تهاجم السواحل المغربية، وتنشئ بها مراكز عسكرية؛ لغزو المسلمين، ثم استولى البرتغاليون على (سبتة)، ثم تخلوا عنها لقشتالة، وظلت في أيدي الإسبان إلى اليوم[1].

في أواخر سنة ٨٨٧هـ ولي غرناطة (محمد بن أبي الحسن علي) المعروف بـ (أبي عبد الله) الأمير الصغير. وعاش وسط أجواء فاسدة من الصراع على العرش؛ إذ كان والده أبو الحسن تزوج نصرانية (ثريا، وهي أم أبي عبدالله) خلاف زوجته (عائشة)، فشاع في بلاط غرناطة صراع بين النساء على حيازة العرش لأبنائهن، إلى جانب تنافس أبي عبد الله مع عمه طويلاً، حتى اضطر أبو عبد الله للتوجه إلى (تلمسان) بالجزائر، ثم عاد سنة ٨٩٢هـ. ولم يقو الأمير الصغير على المواجهة أمام جحافل النصارى، فاستسلم سنة ٨٩٧هـ أمام فرنندو وإيزابيلا بعد حصار غرناطة، ووقّع معهما معاهدة التسليم في الحادي والعشرين من المحرم سنة ٨٩٧هـ/ نوفمبر١٤٩١م[2]. ودخلا غرناطة بالفعل في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ/ الثاني من يناير سنة ١٤٩٢م، وهو تاريخ انتهاء الوجود الفعلي للدولة الإسلامية بالأندلس. وتم احتفال أوربا كلها بذلك، وأمر البابوية بقرع الأجراس في الكنائس؛ ابتهاجًا بذلك.

وتحوي معاهدة التسليم عشرات النقاط، منها: أن يحتفظ المسلمون بحقوقهم في مساجدهم، وأن من أراد المقام منهم بالأندلس بعد وقوعها في أيدي النصارى، فليقم تحت العدل، ومن أراد الهجرة فليهاجر[3]. لكن

---

(١) معالم: ص ٣٩٠-٣٩١.

(٢) راجع تفاصيل ما دار من حوار بين أبي عبد الله، وفرنندو عند تسليم غرناطة في (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين) لعنان ص ٢٦٦.

(٣) راجع بنود وشروط التسليم في: النفح ٤ / ٥٢٥-٥٢٦، ونهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص ٥١٩-٥٢٢.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

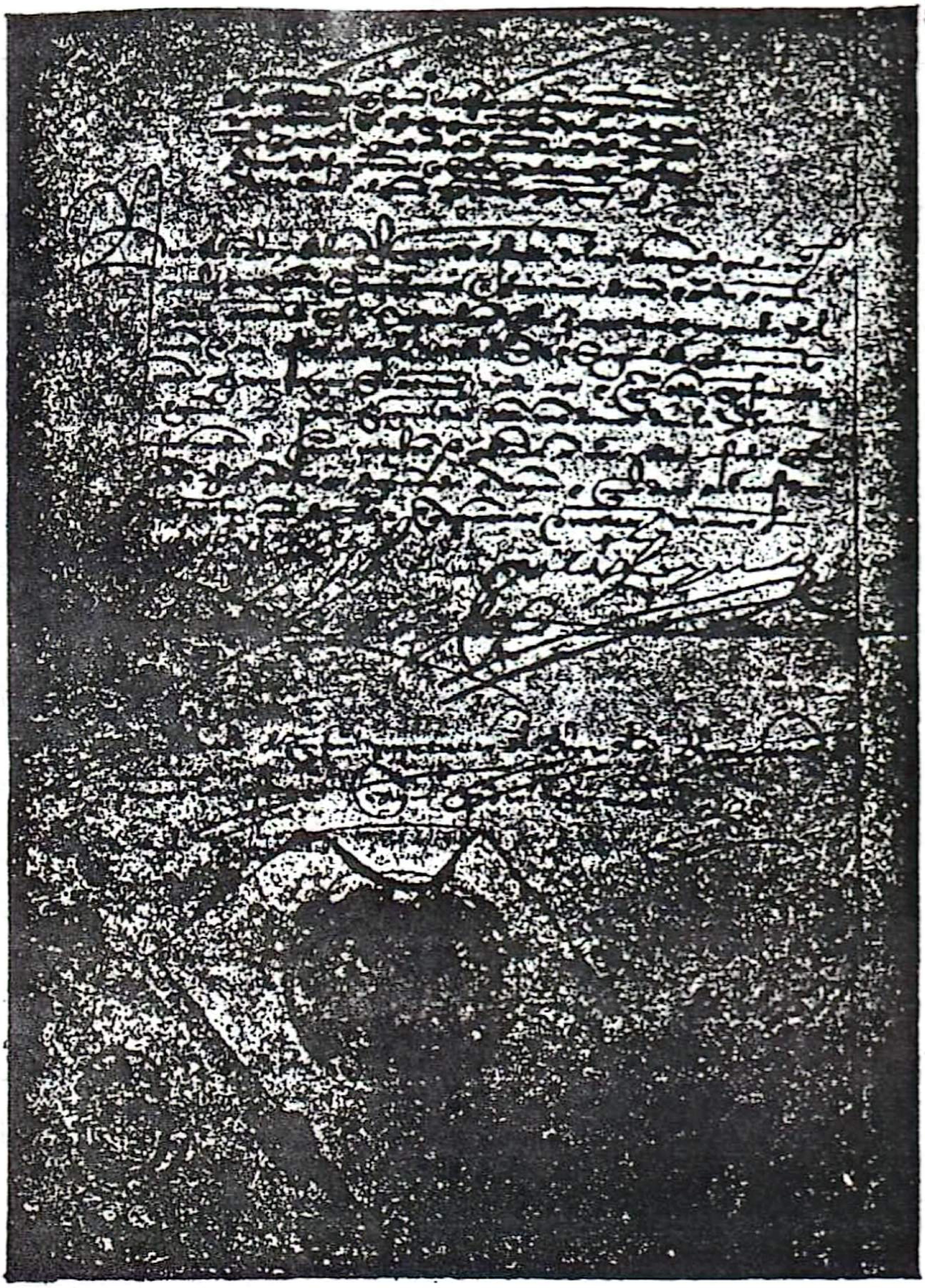

الصفحة الأخيرة من معاهدة التسليم التي أصدرها الملكيان الكاثوليكيان لأبي عبد الله وأهل غرناطة ، مؤرخة في ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم ٨٩٧ هـ) ، وعليها توقيعا فرناندو وإيسابيلا ، وتوقيع سكرتيرهما فرناندو دي ثافرا ، وختم مملكة قشتالة . والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة في سيمانقا ويحمل رقم P. R. 11-207

(نقلا عن : دولة الإسلام في الأندلس : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان ص ٢٥٣) .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

النصارى لم يلتزموا بما وقعوا عليه من ضمان أمن وحرية عقيدة المسلمين، والحفاظ على أموالهم ومساجدهم وممتلكاتهم. فحولوا المساجد إلى كنائس، واضطهدوا المسلمين أيما اضطهاد، وأخضعوهم للتعذيب الوحشي، وأقاموا لهم محاكم التفتيش، وعاملوهم معاملة الأسرى والعبيد، وأذاقوهم ألوان الذل والهوان. وكان المسلمون في ظل حكم نصارى الإسبان قسمين: أولهما- المدجنون Los Mudjares وهم المسلمون الذين بقوا في مواطنهم تحت حكم النصارى، وقبلوا حكمهم. والموريسكيون Los Moriscos المسلمون الذين تنصروا تحت ضغوط الإسبان، سواء كان التنصر ظاهريًا أم حقيقيًا. ولا شك أن المسلمين ثاروا ثورات عنيفة ضد حكم الإسبان الجائر، لكن الإسبان أخمدوها بقوة ووحشية إلى أن صدرت أوامر الملك فيليب الرابع سنة ١٦٠٩م بإخراج بقايا المسلمين من الأندلس، وطردهم نهائيًا منها[١].

نظرة على الدور الحضاري لمملكة غرناطة[*]:

أ- رغم صغر حجم غرناطة وانكماش رقعتها إلا أنها كانت تضم ثروات عظيمة من الموارد الطبيعية. فيها وديان خصيبة نضرة، وجنات خضر تجود بالحبوب والكروم والزيتون والفواكه، وبها ثروات معدنية كالذهب والفضة، والرصاص والحديد[٢]. وبها ثغور جنوبية (لاسيما مالقة، وألمرية)، وهي من أغنى الثغور الإسبانية بالحركة التجارية[٣]. كل ذلك شجع على إحداث النهضة الحضارية بها.

ب- قام الحكم بغرناطة على أساس استبدادي في خطه العام، وإن

---

(١) معالم: ص ٣٩١-٣٩٣، والأندلسيون المواركة لعادل سعيد بشتاوي ص ٨٧، وما بعدها .

(*) راجع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ص ٤٣٤ وما بعدها .

(٢) الإحاطة ١ / ٩٨ .

(٣) المصدر السابق ١ / ١٣٣-١٣٨ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

نقلاً عن: الآثار الأندلسية الباقية
لمحمد عبد الله عنان ص ٨٤

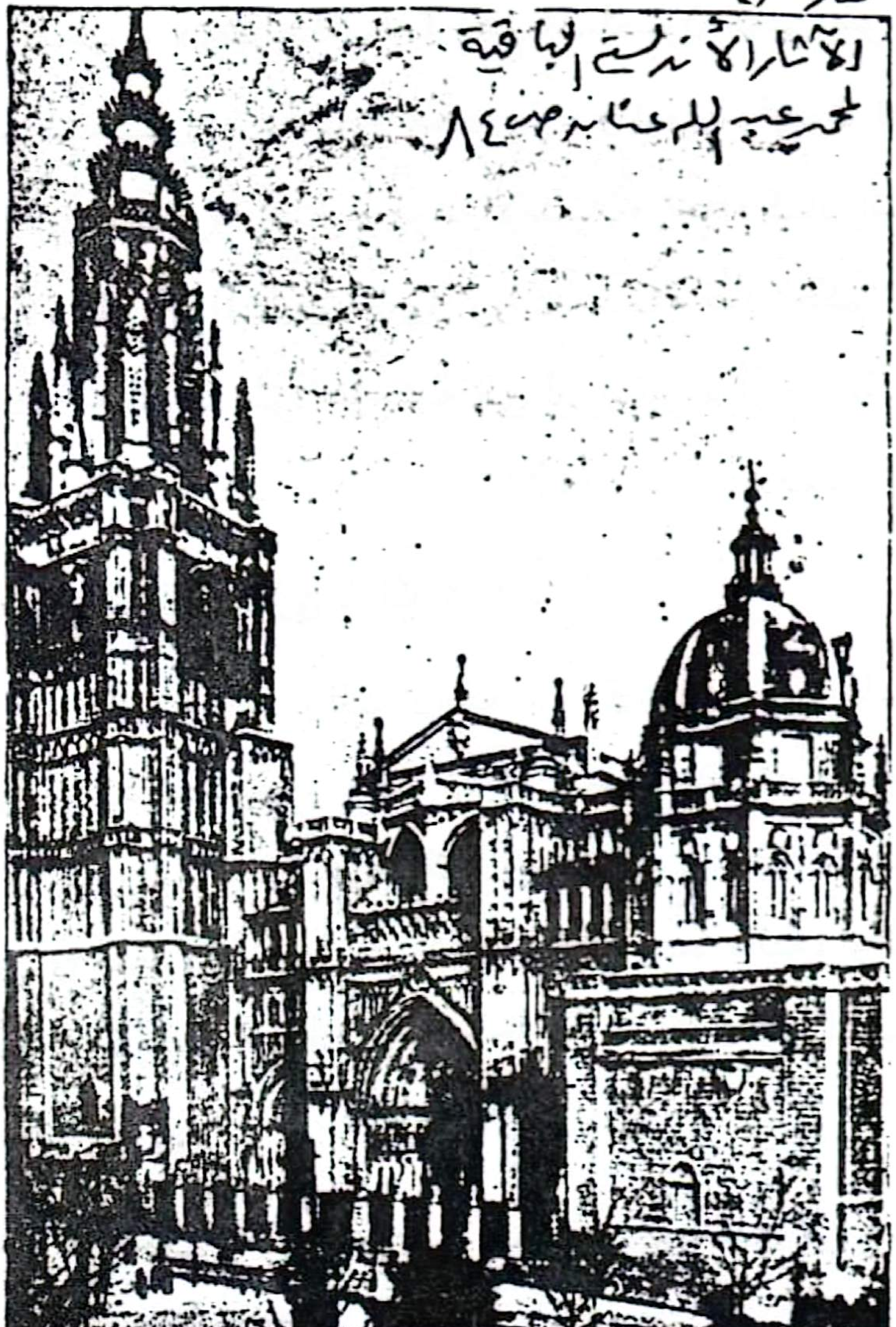

طليطلة . الكنيسة العظمى

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

استعان برأي القادة والزعماء من ذوي العصبية والتوجيه. وكان الشعب الغرناطي سريع التقلب والغضب، وكثيراً ما تتطاحن الأحزاب والطوائف المختلفة في البلاط والجيش في ظل حكام ضعاف. وقد كانت قيادة الجيش، والوزارة والقضاء أهم المناصب هناك.

جـ- لغرناطة إسهام وافر في مجال الصناعة، مثل: الصوف والحرير والأقمشة الملونة الممتازة، وصناعة الجلود الدقيقة، والأودية والعقاقير المستخرجة من الأزهار، وصناعة الأسلحة الجيدة التي تنتجها بوفرة، وتصدرها لأفريقيا وأوربا، وعن طريق ما صنعوا من أسلحة تشبه البنادق وذخائر، صمدوا ما يزيد على قرنين ونصف قرن.

د- نشطت الحركة الفكرية في غرناطة، فظهر عدد من أعلام الأدب من كُتاب وشعراء وخطباء. مثل: كاتب ديوان الإنشاء للسلطان محمد الفقيه، وهو المعروف بابن الحكيم (أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن اللخمي المقتول سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م)، وأبي الحسن علي بن الجياب (ت٧٤٩هـ) وزير وكاتب الحجاج يوسف، وكان لسان الدين بن الخطيب من معاونيه في الكتابة.

ومن رجال اللغة: محمد بن إدريس القضاعي (ت٧٠٧هـ) صاحب المؤلفات في علم العروض، وعلي بن يحيى المالقي (ت٧٥٠هـ) البارع في مجال اللغة.

ومن علماء الفقه والدين: القاسم بن عبد الله الإشبيلي (ت٧٢٥هـ) صاحب كتاب (البرنامج) عن قضاة الأندلس، ومحمد بن أحمد الكلبي صاحب الفقه والقراءات، وخطيب جامع غرناطة، ومؤلف كتاب: (القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ومن المؤرخين: محمد بن يحيى بن أبي بكر المالكي (ت٧٤١هـ): كان خطيبًا وقاضيًا، ومن كتبه: (التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان بن عفان)، وابن فرحون صاحب (الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب)، وهو في طبقات المالكية. توفي سنة ٧٩٩هـ، ولسان الدين بن الخطيب الكاتب المؤرخ الغرناطي المشهور (ت٧٧٦هـ) صاحب كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة). وأخيراً، فإن العلوم الطبيعية لم تزدهر في هذا العصر المضطرب ازدهارها فيما مضى. ومن أشهر علماء هذا العصر (يحيى ابن هذيل) حكيم غرناطة، وفيلسوفها، وعالم الطب، والرياضيات (ت٧٥٣هـ).

معابر الحضارة الأندلسية، وتأثيراتها في أوربا(*):

إن الحضارة- بمعناها العام- تراث ونتاج مشترك بين الأمم المختلفة، وكل منها يسهم بقدر. وقد أسهم المسلمون في الحضارة الإنسانية إسهامًا كبيراً، وكان دورهم عظيمًا خاصة في بلاد الأندلس، حيث أسهموا بقسط وافر في خدمة أوربا، وتطويرها، والنهوض بها. فقد كانت بلاد أوربا تعيش في جهل وظلام وعمى، فلا يعرف القراءة والكتابة إلا بعض القساوسة الكبار، وكانوا من أبسط قواعد النظافة على جهل عميق.

أما الأندلس، فنقلت حضارة المشرق الإسلامي وهضمتها واستوعبتها، ثم أضافت وأبدعت وابتكرت، ونقلت ذلك إلى أوربا. وتعد بلاد الأندلس إلى جانب صقلية، والحروب الصليبية، إلى جانب ما أقيم في جنوب فرنسا، وجنوب إيطاليا، ومدارس الترجمة شمال إسبانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وحركة

(*) راجع التفصيل في كتاب: (الحضارة الإسلامية في الأندلس) للدكتور الحجي، و(العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية) للدكتور رجب عبد الحليم ص ٤٠٥ وبعدها.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

التجارة، من أكبر معابر الحضارة الأندلسية إلى أوربا. وكذلك لعب اليهود دورًا مهمًا في نقل الحضارة الأندلسية إلى أوربا، على اعتبارهم تجارًا يجيدون العربية واللاتينية، إلى جانب عملهم في تجارة الرقيق، وتقلدهم مناصب المترجمين والسفراء والوزراء. وكذلك انتقلت المؤثرات الحضارية عن طريق المعاهَدين، والمدجنين من المسلمين، والزواج المختلط بين المسلمين والنصرانيات.

وقد تعددت مجالات التأثير المتبادلة بين الطرفين في مجالات عديدة كالموسيقى والآداب، والمآكل والمشارب، والملابس، والأعياد، واللغة. فمثلاً: المفردات العربية التي دخلت الإسبانية تمثل ربع محتويات القاموس الإسباني (مثل: الأرز، والسكر، والساقية، والدكان، والخزانة، والقاضي، وغيرها)، بينما دخلت البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية. وكذلك وقع التأثير في النواحي الزراعية، فأدخل المسلمون زراعات جديدة، مثل: الأرز والقطن وقصب السكر، والتوت والنخيل، والزهور والليمون، والتفاح، وغيرها. وفي مجال الصناعة عرفوا استخدام قوة سقوط الماء في إدارة الطواحين، واختراع أنابيب الرصاص لجلب الماء إلى المدن من أعالي الجبال، وصناعة السفن الحربية والتجارية، والنسيج، والصوف والحرير، إلى جانب صناعة الخزف والقيشاني.

***

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

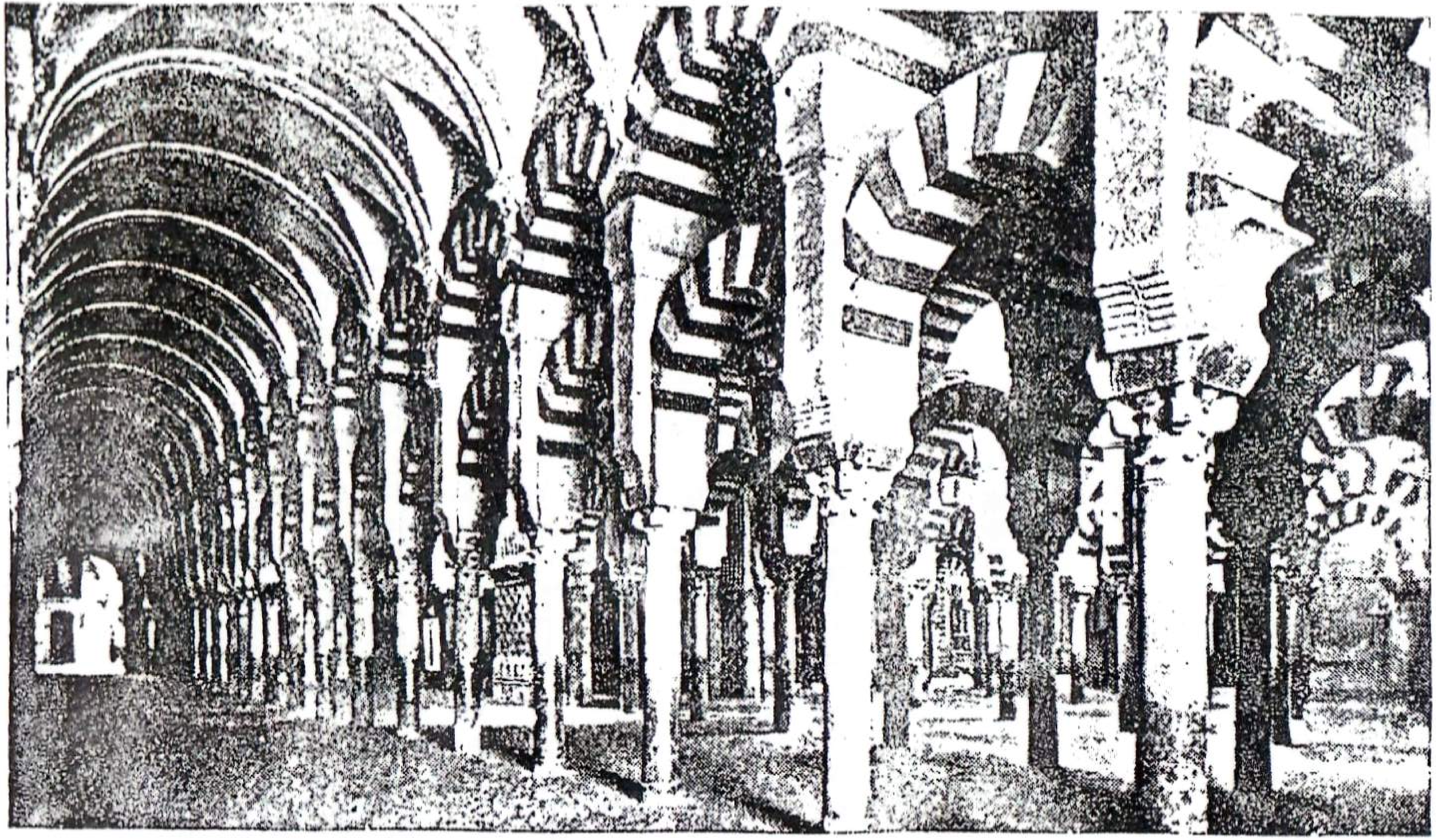

جامع قرطبة . الجناح الأيسر المسمى « جامع المنصور » ، وهو الذي أنشأه المنصور بن أبي عامر سنة ٣١١ – ٣٨٠ هـ (٩٠٧ – ٩٩٠ م) ومايزال قائماً على حاله حتى اليوم .

(نقلاً عن : الآثار الأندلسية الباقية) لمحمد عبد الله عنان ص ٢٧ .

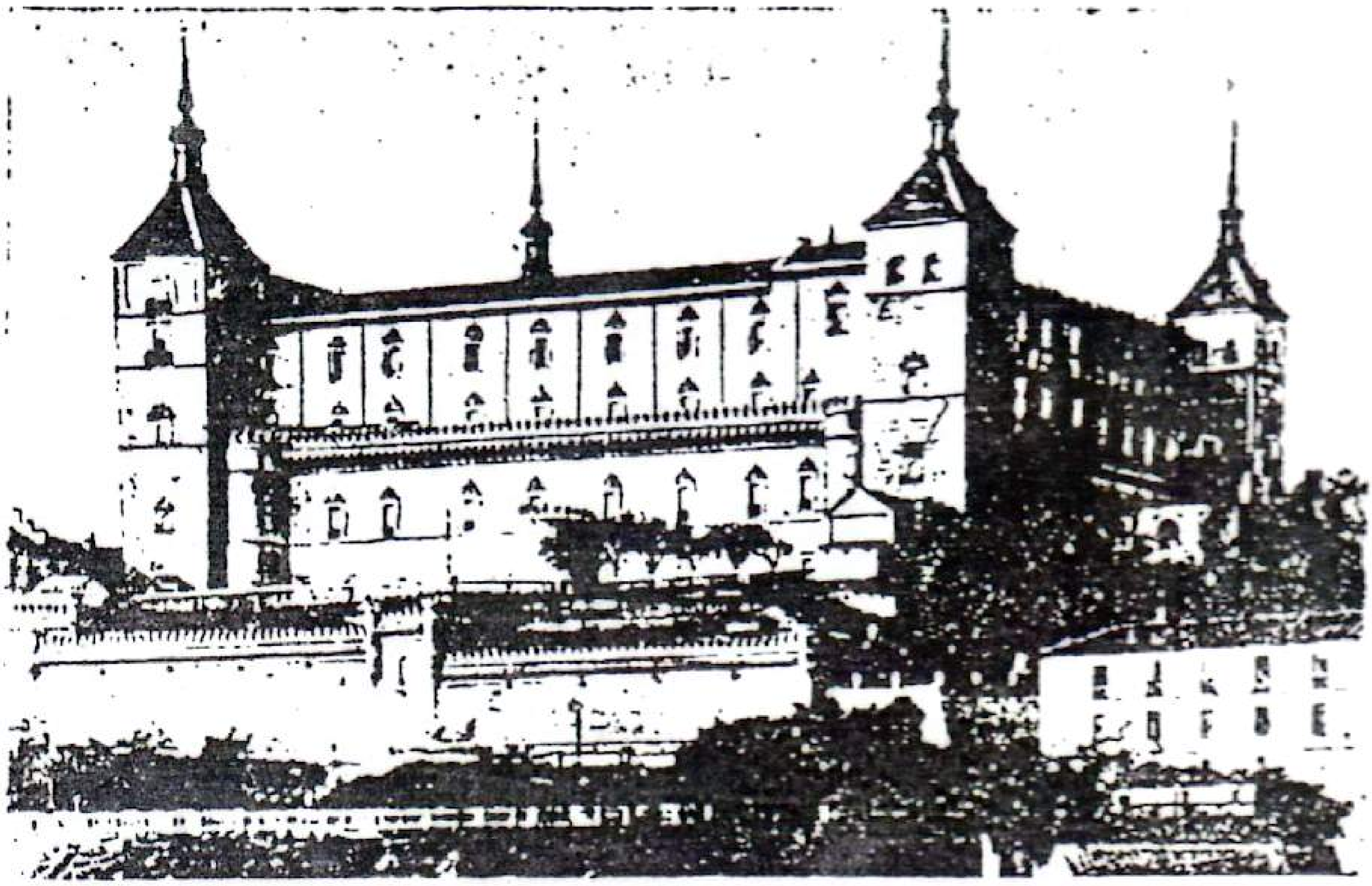

طليطلة . القصر Alcázar قبل تخريبه أثناء الحرب الأهلية

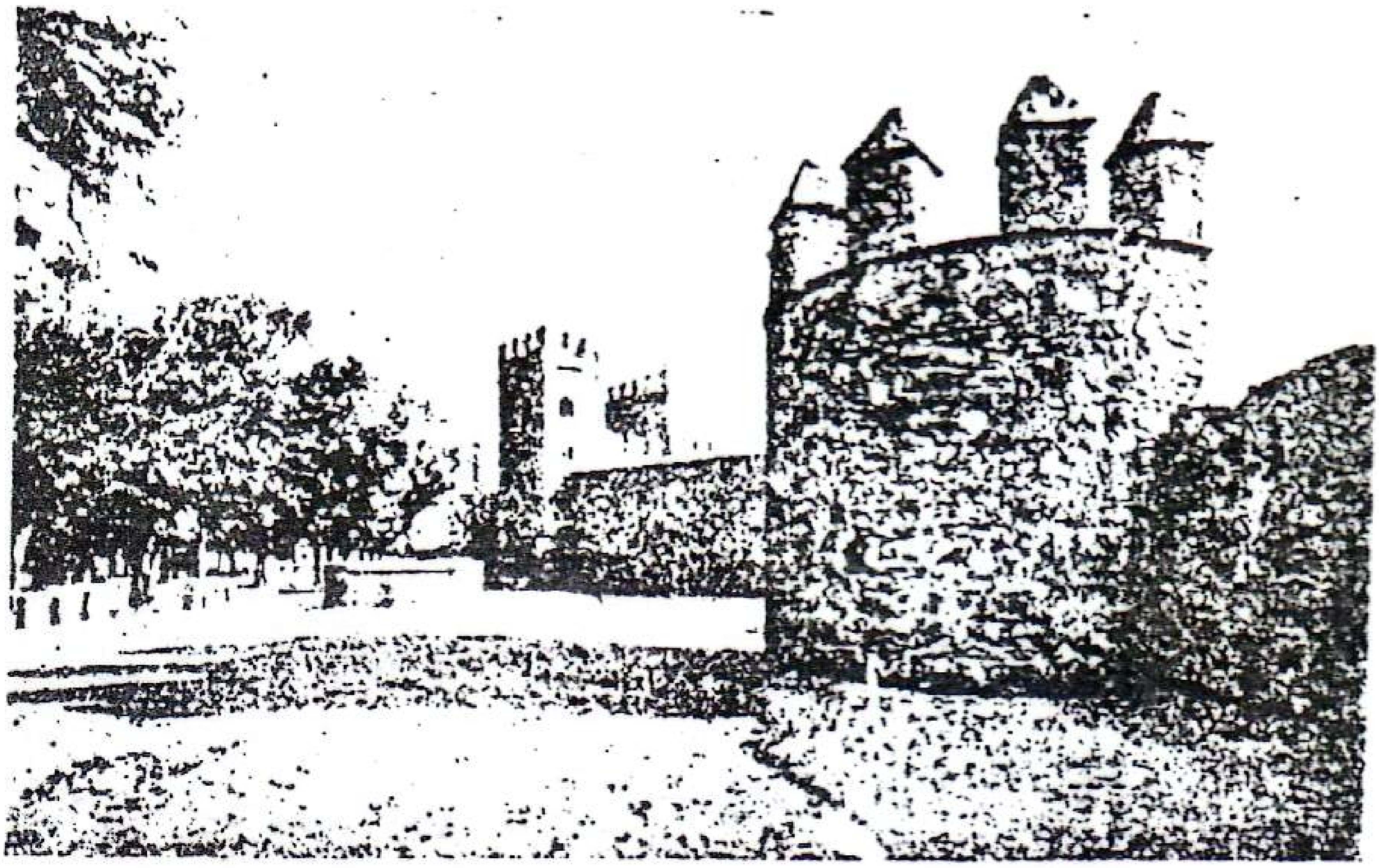

طليطلة . بقايا الأسوار الأندلسية

(نقلاً عن: الآثار الأندلسية الباقية) لمحمد عبد الله عنان ص٩١.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة (وآخر ملوك الأندلس) عن الصورة المحفوظة بمتحف Casa de los Tires (دار الرماية) بغرناطة . والمظنون أنها الصورة التي رسمت له أثناء إقامته أسيراً فى قرطبة يدل على ذلك السلسلة الرمزية التي طوق بها عنقه .

(نقلاً عن : دولة الإسلام في الأندلس - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين)
لمحمد عبد الله عنان ص ٢٠٧ .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

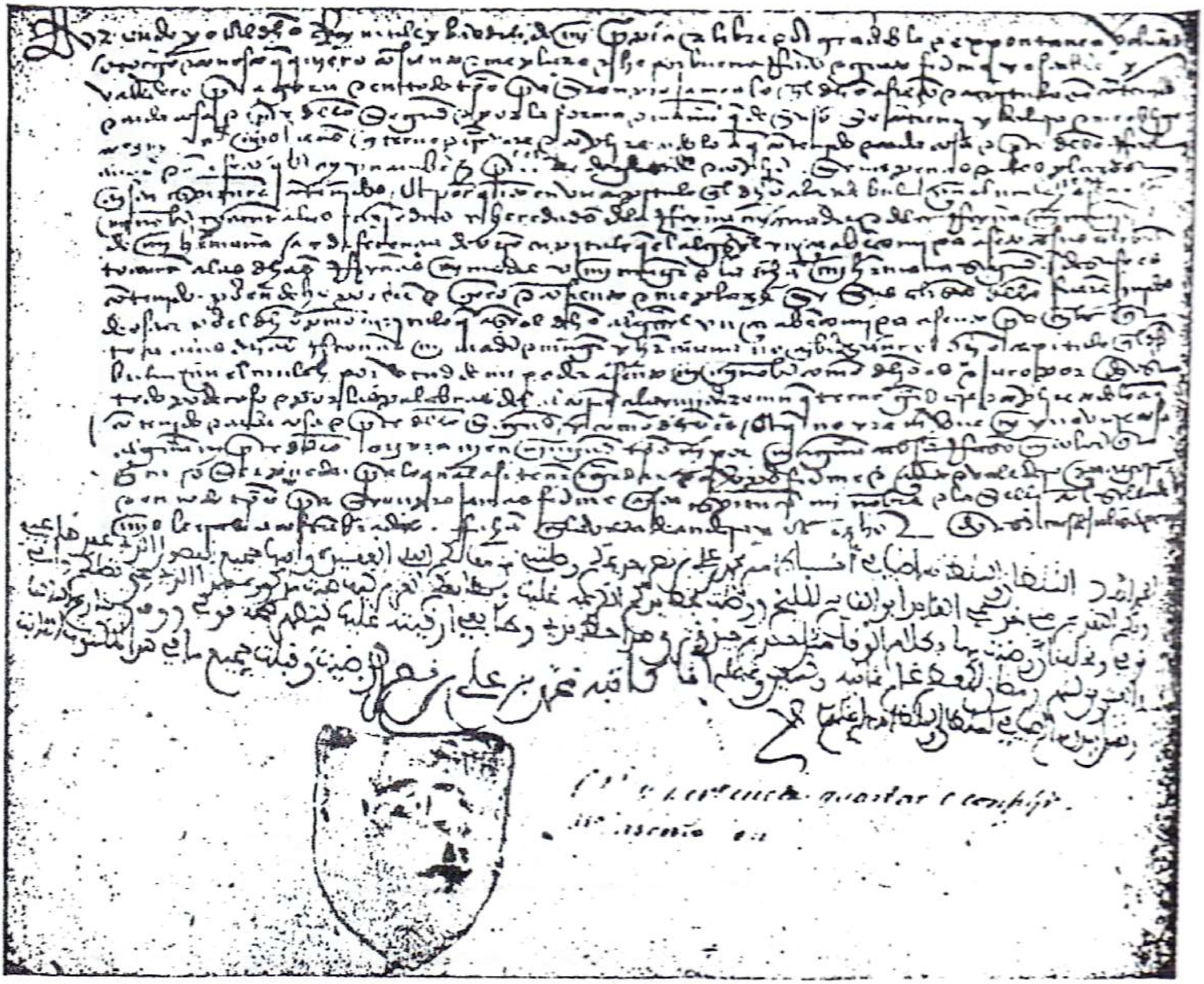

المعاهدة النهائية التي عقدت بين الملكين الكاثوليكيين وأبي عبد الله بتاريخ ١٥ ابريل سنة ١٤٩٣ وفيها يتعهد ببيع أملاكه ومغادرة اسبانيا نهائياً . وقد ذيل عليها أبوعبد الله بخطه بالقبول ، وبصمها بخاتمه وذلك بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ٨٩٨ هـ (٧ أغسطس سنة ١٤٩٣) . والأصل محفوظ بدار المحفوظات العامة فى سيمانقا برقم P.R. 11-3

(نقلاً عن : دولة الإسلام في الأندلس - نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان ص ٢٧٩).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

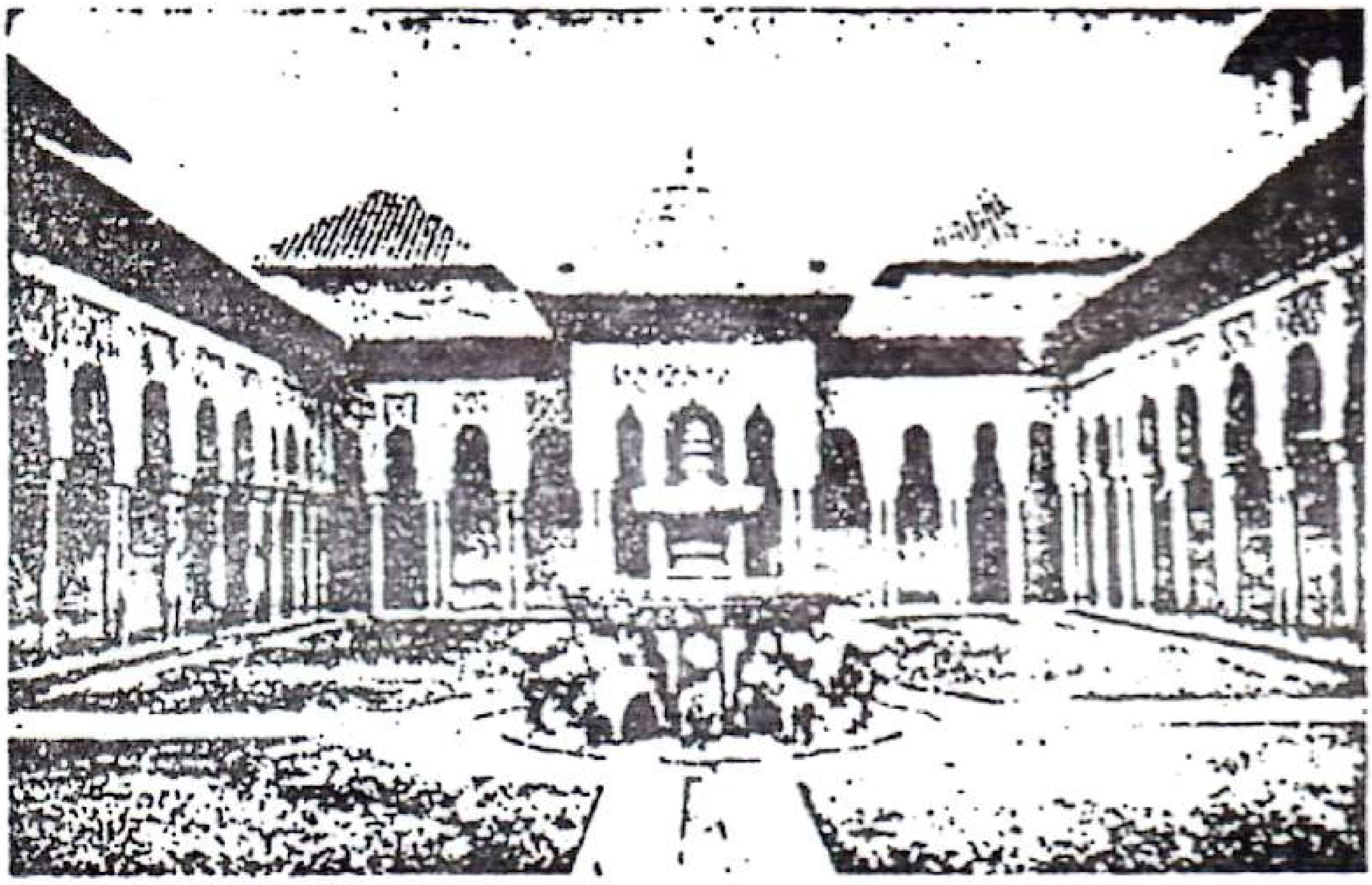

الحمراء . منظر عام لفناء الأسود ونافورته

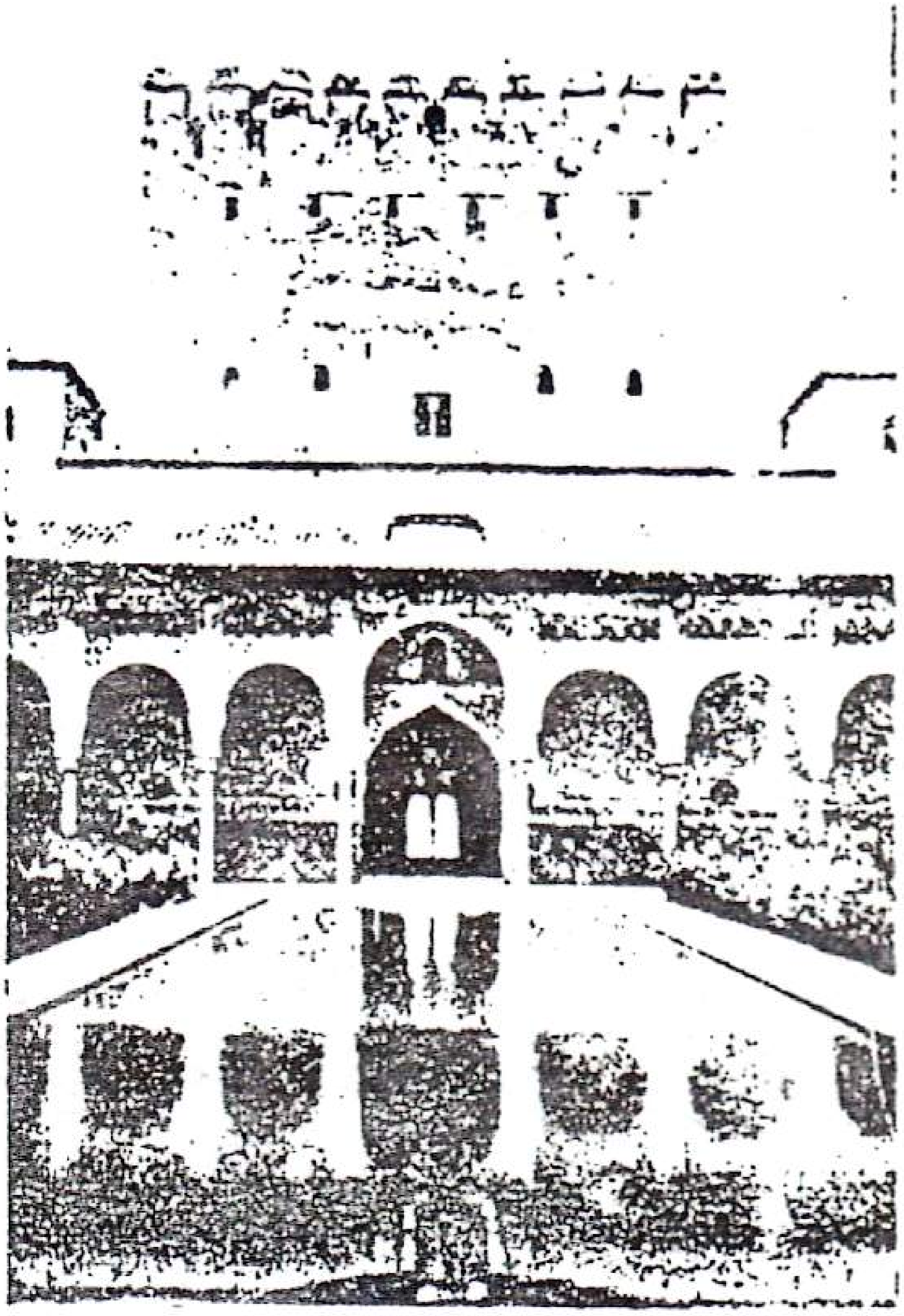

الحمراء . بهو الريحان (بهو البركة) وبرج قمارش

نقلاً عن : (الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال) لمحمد عبد الله عنان ص ٢١١.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

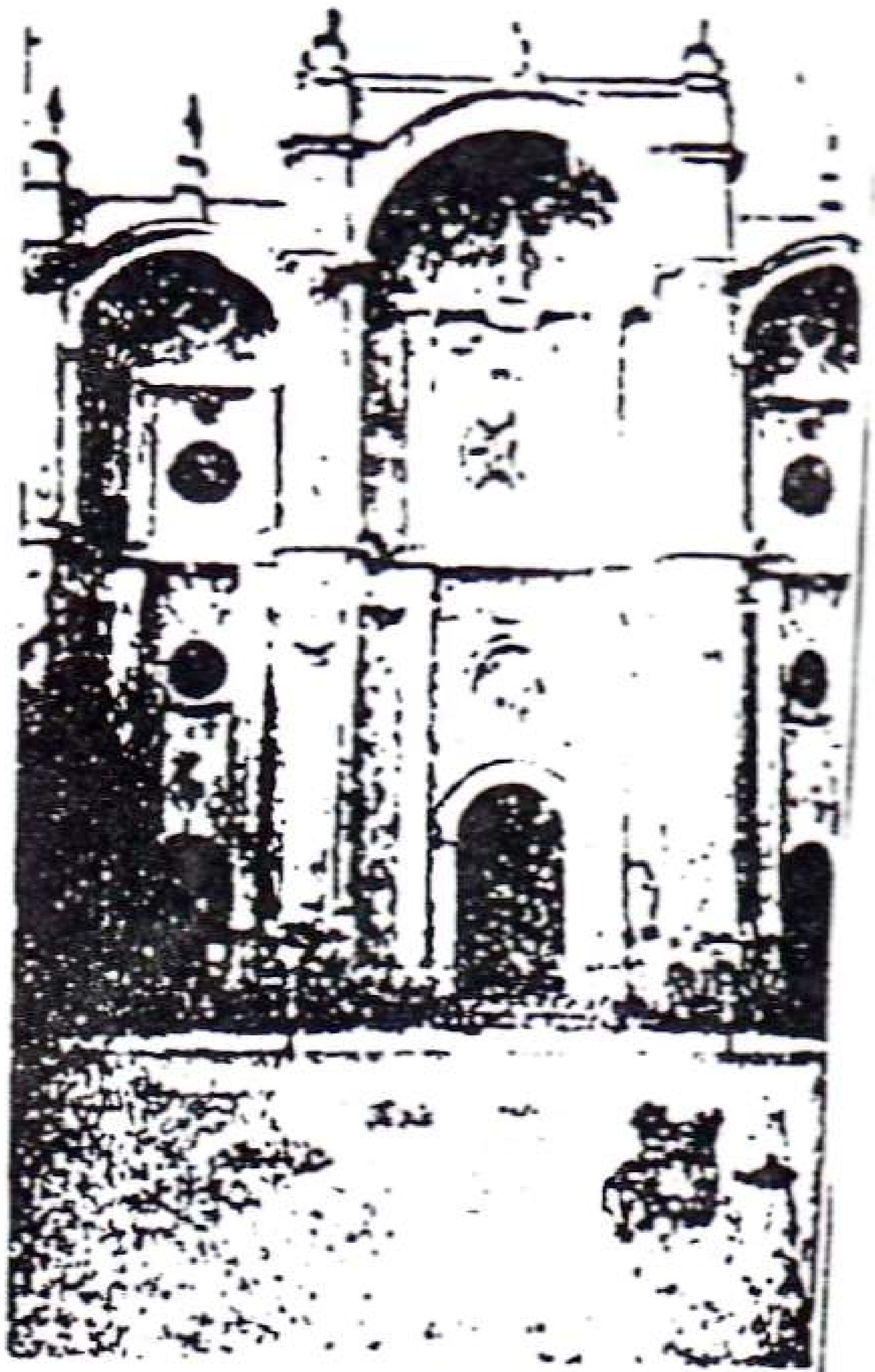

غرناطة : واجهة الكنيسة العظمى

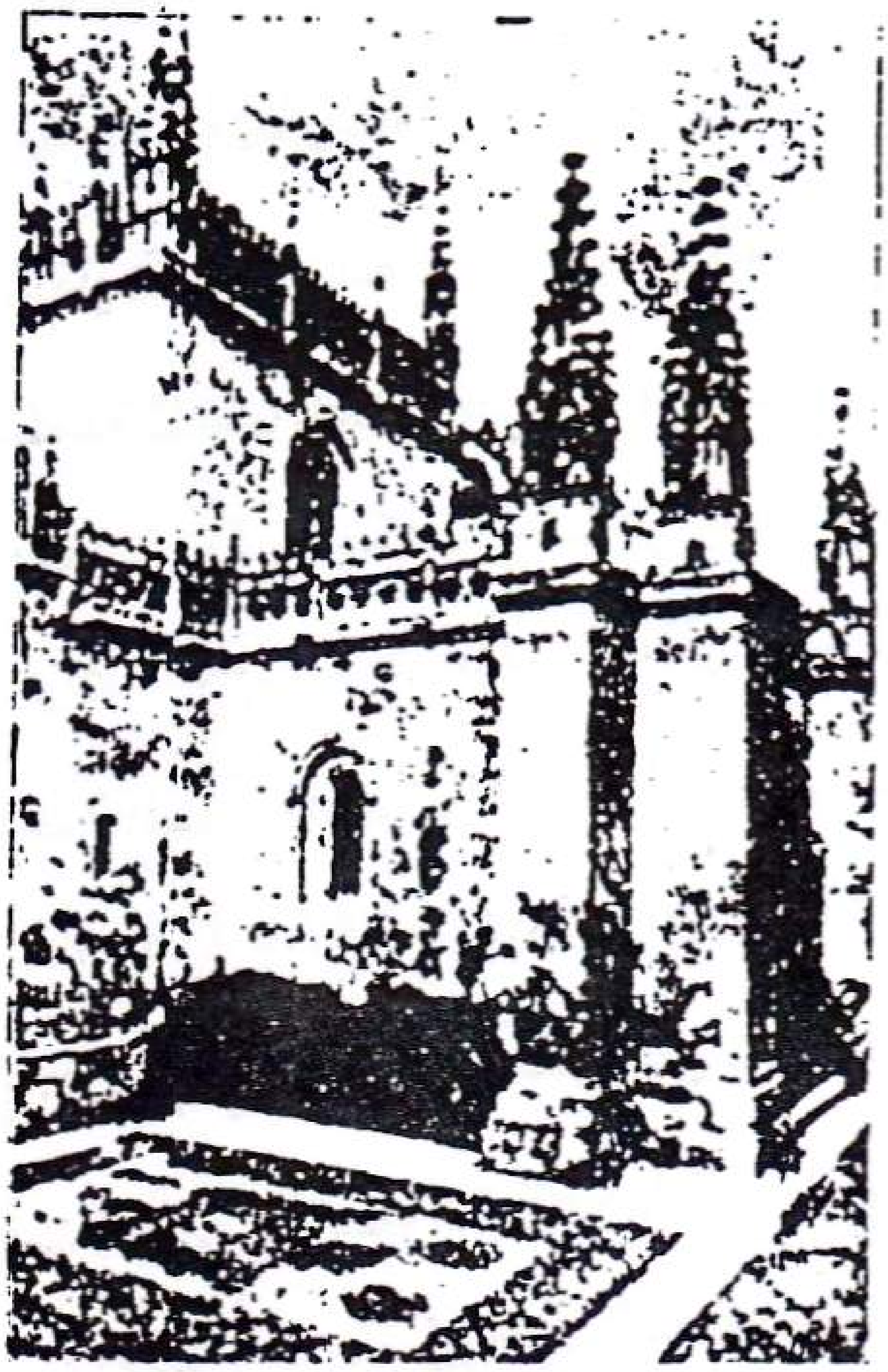

غرناطة : واجهة المصلى الملكي

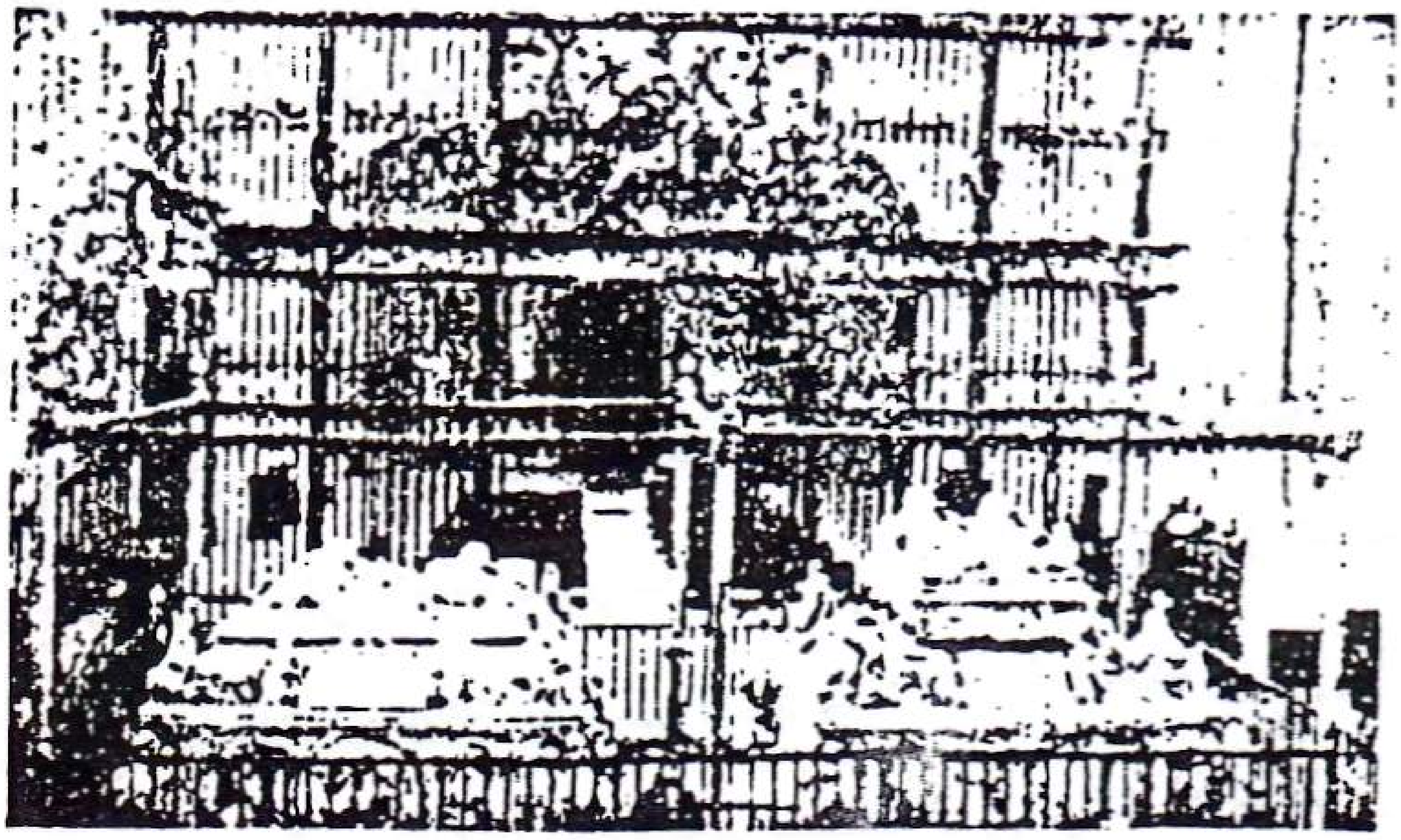

ضريح فرديناند وإيسابيلا داخل الكنيسة العظمى

(نقلاً عن : الآثار الأندلسية الباقية) لمحمد عبد الله عنان ص ١٧٣.

(قوائم المصادر والمراجع والرسائل والدوريات)

أولاً: المصادر المخطوطة:

١- **الكُتُبي (أبو عبد الله محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ): عيون التواريخ:** الجزء الثاني عشر (أحداث سنة ٣٧٣-٤٠٣هـ)، مخطوطة تحت رقم (٣٤٥ تاريخ) مصورة عن (المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ١٣٧٦ تاريخ).

ثانياً: المصادر المطبوعة:

- **ابن الأبّار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القُضاعي البَلَنْسيّ ت ٦٥٨هـ):**

٢- **التكملة لكتاب الصلة:** جزءان، من سلسلة (تراث الأندلس رقم ٥)، مطبعة السعادة بمصر. نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، والمثنى ببغداد ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م. نشر وتصحيح: السيد عزت العطار الحسيني .

٣- **الحُلَّة السِّيَراء:** سلسلة (ذخائر العرب رقم ٥٨). ط٢، طبع ونشر: دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥م. تحقيق وتعليق: أ.د حسين مؤنس.

- **ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزَري ت ٦٣٠هـ):**

٤- **أُسد الغابة في معرفة الصحابة:** مطبوعات دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٣م. تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور.

٥- **الكامل في التاريخ:** الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٨٧م. تحقيق ومراجعة: د. عبد الله القاضي، ود. محمد يوسف الدقاق .

٦- **الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحَسَني ت ٥٦٠هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق:** ط١ - عالم الكتب ببيروت ١٩٨٩م

٧- **ابن بَسّام (أبو الحسن علي بن بسام الشَّنْتَريني ت ٥٤٢هـ): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:** ط١- دار الثقافة ببيروت ١٩٧٩م. تحقيق: د. إحسان عباس.

٨- **ابن بَشْكُوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك ت ٥٧٨هـ): الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم:** سلسلة (من تراث الأندلس رقم ٤). مطبعة السعادة ١٩٥٥م. نشر وتصحيح: عزت العطار الحسيني .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٩- البَلاذُرِي (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ): فتوح البُلْدان: منشورات مؤسسة المعارف ببيروت ١٩٨٧م. تحقيق وشرح وفهرسة: عبد الله وعمر أنيس الطباع.

١٠- ابن جُبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي ت ٦١٤هـ): رحلة ابن جبير: دار صادر- بيروت ١٩٨٨م.

١١- ابن الجزَرِي (شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد ت ٨٣٣هـ): غاية النهاية في طبقات القراء: ط٣- دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٨٢م. عنى بنشره: ج. برجسترا.

١٢- ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة: ط١- دار الجيل (بيروت) ١٩٩٢م. تحقيق وفهرسة: علي محمد البجاوي.

- ابن حزْم (أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي ت ٤٥٦هـ):

١٣- جمهرة أنساب العرب: سلسلة ذخائر العرب (رقم٢)، دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٨م. تحقيق وتعليق: أ. ليفي بروفنسال.

١٤- نَقْط العروس في تواريخ الخلفاء. نُشر في مجلة (كلية الآداب- جامعة القاهرة)، المجلد الثالث عشر، الجزء الثاني - ديسمبر ١٩٥١م. تحقيق: ا.د. شوقي ضيف.

١٥- الحُميدي (أبو عبد الله محمد أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد الأندلسي ت ٤٨٨هـ): جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس: سلسلة (المكتبة الأندلسية رقم ٥). ط٢. م. نهضة مصر بالفجالة ١٩٨٣م. الناشر: دار الكتاب المصري اللبناني. تحقيق: إبراهيم الإبياري.

١٦- ابن حوْقل (أبو القاسم محمد بن علي الموصلي ت ٣٦٧هـ): صورة الأرض. منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت ١٩٧٩م.

١٧- ابن حيّان (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي ت ٤٦٩هـ): المقتبس من أنباء أهل الأندلس. جزء به أحداث (٢٣٢-٢٦٧هـ)، نشره دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٧٣م. تحقيق وتعليق وتقديم: ا.د محمود مكي. وجزء به أحداث (سنة ٢٧٥-٣٠٠هـ)، ط١- نشرته دار الآفاق الجديدة بالمغرب ١٩٩٠م. تحقيق: د. إسماعيل

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

العربي. وجزء به أحداث (٣٠٠-٣٣٠هـ)، صدر عن المعهد الإسباني العربي للثقافة (كلية الآداب بالرباط، ومدريد) ١٩٧٩م. نشر بعناية: بدرو شالميتا. وجزء به أحداث (٣٦٠-٣٦٤هـ). نشر: دار الثقافة- بيروت ١٩٨٣م. تحقيق: ا.د عبدالرحمن علي الحجي.

- الخُشَني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني الأندلسي ت ٣٦١هـ):

١٨- علماء إفريقية: سلسلة (من تراث الإسلام رقم ٢). ط٢- نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٩٥م في (مجلد واحد بعنوان: قضاة قرطبة وعلماء إفريقية). تصحيح ومراجعة: السيد عزت العطار الحسني .

١٩- قضاة قرطبة: ط١ - دار الكتاب المصري اللبناني ١٩٨٢م. تحقيق: إبراهيم الإبياري.

- ابن الخطيب (أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد الغَرْناطي ت ٧٧٦هـ):

٢٠- الإحاطة في أخبار غَرْناطة: نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٧٣-١٩٧٧م. تحقيق: محمد عبد الله عنان .

٢١- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام: القسم الثاني الخاص بالأندلس. نشر: دار المكشوف ببيروت ١٩٥٦م . تحقيق: بروفنسال.

- ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن خلدون الحضرمي ت ٨٠٨هـ):

٢٢- تاريخ ابن خلدون: ط٢، دار الفكر ببيروت ١٩٨٨م. ضبطه ووضع حواشيه: خليل شحاده .

- مقدمة تاريخ ابن خلدون (الجزء الأول منه): ط٣- نهضة مصر بالفجالة ١٩٨١م. تحقيق وشرح: ا.د. علي عبد الواحد وافي .

٢٣- ابن خِلِّكان (شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ت ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. دار صادر- بيروت ١٩٦٨م. تحقيق: ا.د. إحسان عباس.

٢٤- خليفة بن خياط (أبو عمرو خليفة بن خياط الليثي العُصْفُري ت ٢٤٠هـ): تاريخ خليفة بن خياط: ط٢- دار القلم، ومؤسسة الرسالة (بيروت) ١٩٧٧م. تحقيق: د. أكرم ضياء العُمَري .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٢٥- الداودي (شمس الدين محمد بن علي بن أحمد ت ٩٤٥هـ): **طبقات المفسرين**: ط١- م. الاستقلال الكبرى. نشر: مكتبة وهبة ١٩٧٢م. تحقيق: علي محمد عمر.

٢٦- الدبّاغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري ت ٦٩٦هـ): **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**: أكمله وعلّق عليه: أبو القاسم بن عيسى بن ناجٍ التنوخي (ت٨٣٩هـ). ط٢- مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٦٨م. تحقيق: ا.د. محمد الأحمدي أبي النور، وآخرين.

٢٧- ابن درّاج (أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي القَسْطَلّي ت ٤٢١هـ): **ديوان ابن دراج القسطلي**: ط٢- المكتب الإسلامي بدمشق ١٩٦٤م. تحقيق وتعليق: ا.د. محمود علي مكي.

٢٨- ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم القيرواني: كان حيًا سنة ١١١٠هـ): **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**: من سلسلة (تراثنا الإسلامي رقم ٣). ط٣- المكتبة العتيقة بتونس ١٩٦٧م. تحقيق وتعليق: محمد شمام.

- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ):

٢٩- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: ط٢- دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٩٣م. تحقيق: ا.د. عمر عبد السلام تَدْمُريّ.

٣٠- **تذكرة الحفاظ**: طبع ونشر: دار الفكر العربي- بيروت ١٩٧٣م. تصحيح: عبدالرحمن بن يحيى المعلّمي.

٣١- الرقيق القيرواني (أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم ت بعد ٤١٧هـ): **تاريخ إفريقية والمغرب** (قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الثاني الهجري): م. الوسط بتونس ١٩٦٧م. تحقيق وتقديم: المنجي الكعبي.

٣٢- الزُّبَيْدي (أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي ت ٣٧٩هـ): **طبقات النحويين واللغويين**: سلسلة (ذخائر العرب رقم ٥٠). ط٢، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٣م. تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٣٣- **ابن سعيد المغربي (علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ت ٦٨٥هـ): المُغرِب في حُلَى المَغرِب** : من سلسلة (ذخائر العرب رقم ١٠). ط٣- دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م. تحقيق وتعليق: ا.د. شوقي ضيف.

٣٤- **ابن الشَّباط (محمد بن علي بن محمد بن الشباط المصري التَّوْزَري ت ٦٨١هـ): وصف الأندلس أو جغرافيته**: م. معهد الدراسات الإسلامية- مدريد ١٩٧١م. تحقيق: ا.د. أحمد مختار العبادي.

٣٥- **الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عُميرة ت ٥٩٩هـ): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**: سلسلة (تراثنا: المكتبة الأندلسية رقم ٦). نشر: دار الكاتب العربي ١٩٦٧م.

٣٦- **الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ): تاريخ الطبري**: سلسلة ذخائر العرب (رقم ٣٠). ط٢- دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧م. تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.

٣٧- **ابن عبد البَر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي ت ٤٦٣هـ): الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: نشر: نهضة مصر بالفجالة. تحقيق: علي محمد البجاوي.

٣٨- **ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي ت ٢٥٧هـ): فتوح مصر وأخبارها**: طبع في ليدن ١٩٢٠م. تحقيق: شارلس توري.

٣٩- **ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسي ت ٣٢٨هـ): العِقْد الفريد**: ط١- نشر المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٤٠م. تحقيق: محمد سعيد العريان.

٤٠- **ابن العَديم (الصاحب كمال الدين بن عمر بن أحمد بن أبي جرادة ت ٦٦٠هـ): بُغية الطلب في تاريخ حلب**: دار البعث بدمشق ١٩٨٨م. تحقيق: ا.د. سهيل زكّار.

٤١- **ابن عِذاري (أبو عبد الله محمد المَرّاكشي ت بعد ٧١٢هـ): البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمَغْرِب**: من سلسلة (المكتبة الأندلسية رقم ٢٢). ط٣- دار الثقافة ببيروت ١٩٨٣م. تحقيق: كولان، وبروفنسال.

٤٢- **أبو العرب (محمد بن أحمد بن تميم القيرواني ت ٣٣٣هـ): طبقات علماء إفريقية وتونس**: ط٢- الدار التونسية، والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر ١٩٨٥م. تقديم وتحقيق: علي الشابي، ونعيم حسن اليافي.

٤٣- **عياض (القاضي أبو الفضل عياض بن موسى السَّبْتي (ت٥٤٤هـ): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**: منشورات: دار مكتبة الحياة- بيروت ١٩٦٥م. تحقيق: د. أحمد بكير محمود.

٤٤- **ابن غالب (محمد بن أيوب بن غالب الغرناطي، عاش في القرن السادس الهجري): فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس**: قطعة منه منشورة في مجلة (معهد المخطوطات)، المجلد الأول، الجزء الثاني- نوفمبر ١٩٥٥م. تحقيق: ا.د. لطفي عبدالبديع.

٤٥- **آبن فرحون (القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد المدني المالكي ت ٧٩٩هـ): الديباج المُذْهَب في معرفة أعيان علماء المَذْهب**: دار التراث للطبع والنشر. تحقيق وتعليق: ا.د. محمد الأحمدي أبي النور.

٤٦- **ابن الفَرَضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي ت ٤٠٣هـ): تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**: ط٢- مكتبة الخانجي بالقاهرة. نشر وتصحيح: السيد عزت العطار الحسيني.

٤٧- **القِفْطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ت ٦٤٦هـ): إنباه الرواه على أنباه النحاه**: ط١- م. دار الكتب المصرية ١٩٥٠ / ١٩٥٥م. تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم.

٤٨- **ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز القرطبي ت ٣٦٧هـ): تاريخ افتتاح الأندلس**: سلسلة (المكتبة الأندلسية رقم ٢). ط١- دار الكتاب المصري اللبناني ١٩٨٢م. تحقيق وتقديم: إبراهيم الإبياري.

٤٩- **ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي سنة ٧٧٤هـ): البداية والنهاية**: ط١- دار الريان للتراث بالقاهرة ١٩٨٨م. تحقيق: د. أحمد أبي مُلحِم، وآخرين.

٥٠- **ابن الكَرْدَبوس (أبو مروان عبد الملك بن الكردوبس التوزري التونسي - عاش أواخر القرن السادس الهجري): تاريخ الأندلس** (قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء): م. معهد الدراسات الإسلامية- مدريد ١٩٧١م. تحقيق: د. أحمد مختار العبادي.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٥١- **المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله محمد المالكي ت بعد ٤٦٠هـ): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونُسّاكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم.** دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٨٣م. تحقيق: بشير البكوش .

* وتوجد طبعة أخرى نشر: مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١م، الجزء الأول، تحقيق: ا.د. حسين مؤنس .

٥٢- **المراكشي (محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي ت بعد ٦٢١هـ): المعجب في تلخيص أخبار المغرب:** ط١ -المكتبة التجارية الكبرى ١٩٤٩م. تصحيح وتعليق: محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي.

٥٣- **المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري ت ٧٠٣هـ): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة:** دار الثقافة- بيروت ١٩٦٥م. تحقيق: ا.د. إحسان عباس، و ا.د. محمد بن شريفة .

٥٤- **المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر:** ط١- دار الكتاب اللبناني- بيروت ١٩٨٢م. تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد .

- **المقّرِي (شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد التِلمْساني (ت١٠٤١هـ):**

٥٥- **أزهار الرياض في أخبار عياض:** م. لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩- ١٩٤٢م. تحقيق وتعليق: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي.

٥٦- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:** دار صادر- بيروت ١٩٨٨م. تحقيق: ا.د. إحسان عباس .

٥٧- **مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة فيما بينهم:** ط١- دار الكتاب المصري اللبناني- بيروت ١٩٨١م. تحقيق: إبراهيم الإبياري.

٥٨- **مؤلف مجهول أندلسي من القرن الثامن الهجري: الحُلل المَوْشِيّة في ذكر الأخبار المراكشية:** ط١- دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩م. تحقيق: ا.د. سهيل زكار، وعبدالقادر زمانة .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٥٩- النُّباهي (أبو الحسن علي بن محمد المالقي الأندلسي توفي بعد ٧٩٣هـ): تاريخ قضاة الأندلس: منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروت ١٩٨٠م .

٦٠- النُّوَيْري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ): نهاية الأَرَب في فنون الأدب: جـ٢٤ ، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ / ١٩٨٥م. تحقيق: ا.د. حسين نصار.

ياقوت الحموي (ياقوت بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦هـ):

٦١- معجم الأدباء: دار الفكر - بيروت ١٩٨٠م .

٦٢- معجم البلدان: ط١ - دار الكتب العلمية ببيروت ١٩٩٠م. تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي.

٦٣- ابن يونس المصري (المؤرخ المحدث عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبدالأعلى ت ٣٤٧هـ): تاريخ المصريين. ط١ - دار الكتب العلمية- بيروت ٢٠٠٠م. تحقيق: ا.د. عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح.

ثالثًا: المراجع:

٦٤- آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي: مكتبة الثقافة الدينية. ترجمة: ا.د. حسين مؤنس ١٩٥٥م .

٦٥- ا:د: إبراهيم أحمد العدوي: موسى بن نصير (نشر ضمن سلسلة أعلام العرب بالقاهرة).

٦٦- أحمد أمين: ظُهْرُ الإسلام: نشر : مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٥-١٩٥٣م.

٦٧- أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: دار الكتاب بالدار البيضاء. تحقيق وتعليق: جعفر ومحمد الناصري ١٩٥٤م .

٦٨- ا:د: أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي: ط٧، ط٨ (جـ٤، جـ٥). نشر: مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٤-١٩٩٠م .

٦٩- ا:د: أحمد مختار العبادي، وا:د: السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط: الناشر: مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية ١٩٩٣م .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٧٠- ا.د: أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس: الناشر: مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية، د.ت .

٧١- ا.د: أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة. ط٨- دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٢م .

٧٢- ا.د: أكرم ضياء العمري: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي: سلسلة كتاب (الأمة) القطري، مارس- يونيه ١٩٩٤م .

٧٣- الدوميللي: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي: ط١ - دار القلم ١٩٦٢م. نقله عن الفرنسية إلى العربية: ا.د. عبد الحليم النجار، و ا.د. محمد يوسف موسى.

٧٤- د: بدر عبد الرحمن محمد: الأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب وعلاقتهم بالقوى السياسية المعاصرة لهم: نشر: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦م .

٧٥- د: التهامي الراجي الهاشمي: نظم وإدارة بني أمية بالأندلس من خلال (المقتبس) لابن حيان: الرباط- المغرب ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

ا.د: حسن علي حسن:

٧٦- أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير المالكي (القرن الثالث الهجري) - دراسة وعرض: مكتبة الشباب ١٩٨٤م .

٧٧- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (قسم المغرب): نشر: مكتبة الشباب ١٩٩٨م.

- ا.د: حسين مؤنس:

٧٨- تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس: ط٢ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٦م .

٧٩- تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر (من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلادي): ٣ أجزاء في مجلدين. ط١ - العصر الحديث للنشر والتوزيع ببيروت ١٩٩٢م .

٨٠- شيوخ العصر في الأندلس: سلسلة (المكتبة الثقافية رقم ١٤٦). مكتبة مصر بالفجالة ١٩٦٥م .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

٨١- **فتح العرب للمغرب**: نشر : مكتبة الآداب بالقاهرة ١٩٤٧م .

٨٢- **فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية)**: ط١ - الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٩م .

٨٣- **معالم تاريخ المغرب والأندلس**: دار ومطابع المستقبل بالقاهرة والإسكندرية ١٩٨٠م .

٨٤- خوليان ريبيرا: **التربية في الأندلس: أصولها المشرقية، وتأثيراتها الغربية**: دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١م. ترجمة: ا.د. الطاهر أحمد مكي.

٨٥- ا:د: رجب محمد عبد الحليم: **العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف**: ط١ - دار الكتاب المصري اللبناني ١٩٨٥م .

٨٦- رينهارت دوزي: **المسلمون في الأندلس**: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م. ترجمة وتعليق: ا.د. حسن حبشي .

٨٧- أ:د: سعاد ماهر: **النسيج الإسلامي**: مطابع دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٧م.

٨٨- ا:د: سعد زغلول عبد الحميد: **تاريخ المغرب العربي**: الجزء الأول، طبعة: دار المعارف بالقاهرة، د.ت .

٨٩- سيجريد هونكه: **شمس العرب تسطع على الغرب**: ط٦- دار الآفاق الجديدة- بيروت ١٩٨١م. ترجمة: فاروق بيضون، وكمال دسوقي .

٩٠- ا:د: السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ المغرب (العصر الإسلامي)**: مؤسسة شباب الجامعة، د.ت .

٩١- ا:د: الطاهر أحمد مكي: **دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة**: ط١ - دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م .

٩٢- ا:د: طاهر راغب حسين: **النقود الإسلامية الأولى** (الكتاب الثاني). ط١ - م. المدينة بدار السلام بالقاهرة ١٩٨٤م .

٩٣- د: طه عبد المقصود: **تاريخ المسلمين في المغرب والأندلس**: طيبة للإنتاج والتوزيع ٢٠٠٠ / ٢٠٠١م .

٩٤- عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة (دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة). مطابع إنترناشيونال برس ١٩٨٣م .

٩٥- ا:د: عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس: ط١ - م. الإسلامية الحديثة بالقاهرة ١٩٩٣م .

٩٦- ا:د: عبد الله محمد جمال الدين: التاريخ الأندلسي: تدوينه ومروياته حتى نهاية القرن الثالث الهجري : م. الصحابة ١٩٩٣م.

ا:د: عبد الحليم عويس:

٩٧- التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس: ط١ - دار الصحوة بالقاهرة ١٩٩٤م .

٩٨- ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري: ط٢- نشر: الزهراء للإعلام العربي بالقاهرة ١٩٨٨م .

٩٩- ا:د: عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة: ط١ - دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٨٣م .

١٠٠- ا:د: محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ إنشائها حتى استيلاء المرابطين عليها (٣٤٤-٤٨٤هـ): الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م .

١٠١- ا:د: محمد حلمي محمد أحمد: الخلافة والدولة في العصر العباسي: مكتبة الشباب ١٩٨٢م.

- محمد عبد الله عنان:

١٠٢- الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ٢٠٠١م.

١٠٣- دولة الإسلام في الأندلس: ط٣ ، نشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٨م.

١٠٤- ا:د: محمد عبد الوهاب خلاف: تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس الهجري: ط١ - م. العربية الحديثة بالقاهرة ١٩٩٢م .

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

١٠٥- **محمد علي دَبّوز: تاريخ المغرب الكبير**: الجزء الأول، ط١- عيسى الحلبي ١٩٦٤م .

ا:د: محمد محمد زيتون:

١٠٦- **القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية**: ط١- دار المنار ١٩٨٨م .

١٠٧- **المسلمون في المغرب والأندلس**. دار الوفاء للطباعة بالقاهرة ١٩٨٤م.

رابعًا: الرسائل الجامعية:

١٠٨- د: مصطفى محمد إبراهيم: **الحياة العلمية في قرطبة على عهد الناصر والمستنصر (٣٠٠-٣٦٦هـ)**: رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية اللغة العربية- جامعة الأزهر ١٩٨٠م . إشراف: ا.د. عبد الفتاح شحاته .

خامساً: الدوريات:

١٠٩- ا:د: أحمد مختار العبادي: **من التراث العربي الإسباني: نماذج لأهم المصادر العربية والحوليات الإسبانية التي تأثرت بها**: بحث بمجلة عالم الفكر الكويتية- المجلد الثامن، العدد الأول (أبريل - يونيه ١٩٧٧م).

١١٠- سهام الدبابي: **تهذيب المائدة في الأندلس**: بحث نشر في المجلة العربية للثقافة، العدد ٢٧ - السنة الرابعة عشرة (سبتمبر ١٩٩٤م).

١١١- د: عمر بنميرة: **جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس**: بحث نشر في ندوة عن الأندلس بالسعودية ١٩٩٣ م.

١١٢- د: محمد إبراهيم زغروت: **مكتبة الأمويين الإسلامية في قرطبة**: بحث نشر في مجلة (البحوث الإسلامية) بالرياض ١٤٠٦ / ١٤٠٧هـ.

١١٣- محمد عبد الله عنان: **جغرافية الأندلس**: نشر في مجلة الأبحاث المغربية- تطوان بالمغرب. العددان الثالث والرابع، ١٩٥٨-١٩٥٩م .

١١٤- ا:د: محمود علي مكي: **المنصور بن أبي عامر المستبد المنتصر**: مجلة العربي الكويتية، العدد ٢٢٤- يوليه ١٩٧٧م .

***

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

فهرست محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة
تقديم	١-٢
تعريف موجز ببعض مصادر ومراجع تاريخ المغرب والأندلس	٣-١٦
(الباب الأول)	
الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس	
ص ١٧ - ٧٧	
الفصل الأول - فتح بلاد المغرب	١٩-٥٧
الفصل الثاني - فتح بلاد الأندلس	٥٨-٧٧
(الباب الثاني)	
عصر الولاة بالمغرب والأندلس	
ص ٧٩-١١٥	
الفصل الأول- المغرب في ظل الحكم الأموي والعباسي	٨١-١٠٠
الفصل الثاني: عصر الولاة بالأندلس	١٠١-١١٥
(الباب الثالث)	
(عصور الاستقلال في المغرب والأندلس)	
ص ١١٧ - ٢٣٥	
الفصل الأول- الدول المستقلة في بلاد المغرب	١١٩-١٦٠
الفصل الثاني- وحدة الأندلس واستقلالها في ظل حكم الأمويين	١٦١-٢٣٥
(الباب الرابع والأخير)	
(عصور السيادة والهيمنة المغربية على الأندلس حتى سقوطها في يد الإسبان)	
ص ٢٣٧-٣٠٧	
الفصل الأول- عصر ملوك الطوائف بالأندلس	٢٣٩-٢٥٠
الفصل الثاني- المرابطون في المغرب والأندلس	٢٥١-٢٧٣
الفصل الثالث- الموحدون في المغرب والأندلس	٢٧٤-٢٩٠
الفصل الرابع- في أعقاب الموحدين حتى سقوط غرناطة	٢٩١-٣٠٧
ملاحق مهمة	٣٠٨-٣١٣
قوائم المصادر والمراجع	٣١٤-٣٢٥

رقم إيداع

٢١٦٨٩ / ٢٠٠٥

تم المسح الضوئي بـ CamScanner